سلسلة القصص القرآني

« ١ »

سورة يوسف

دراسة تحليلية

د. أحمد نوفل
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

دار الفرقان
عمان - الأردن

رفع
المساهم
غفر الله له ولوالديه

سلسلة القصص القرآني
« ١ »

سورة يوسف
دراسة تحليلية

د. أحمد نوفل
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية



سُورَةُ يُوسُفَ

دراسة تحليلية

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م



دار الفرقان للنشر والتوزيع
عمان ـ الأردن
ص. ب ٩٢١٥٢٦ ـ هاتف ٦٤٠٩٣٧ ـ ٦٤٥٩٣٧ ـ ٦٢٨٣٦٢
العبدلي : عمارة جوهرة القدس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أكرمنا بالقرآن أصدق الحديث، وخاتم الرسالات، وآخر كتب السماء إلى الأرض، وخصنا بأحسن القصص وحفظ لنا الكتاب فلم يدخل كتابنا ولا قصصه دسٌ ولا تحريف ولا شُوِّه هذا الجمال الرائع بشيء مما عرا الكتب السابقة.. ولا عكَّر سلسبيله العذب النمير معكّر، فلله الحمد على تمام المنّة: «اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً..».

والصلاة والسلام على رسول الله الرحمة المهداة والسراج المنير، خير من تلا كلام الله وبيّنه وجلاّه.. والذي أمره مولاه بقوله: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون».

أما بعد.

فهذه فاتحة سلسلة جديدة في القصص القرآني، بعد أن أنهينا سلسلة الحرب النفسية، وكان الأصل أن يكون هذا الكتاب هو الثاني في السلسلة وأن يسبقه كتاب: «القصص القرآني مدخل عام»، لكن قدّر الله أن يسبق هذا أخاه، وإن كان ذاك سبق في البدء به.

وكانت نواة الكتاب صفحات أعددتها في الطائرة في طريق رحلتي الى أمريكا لحضور مؤتمر كان من فقراته تأملات في قصة يوسف عليه السلام.. وذلك سنة ١٩٨٢. ثم كبرت النواة في الكويت إذ سجلت لإذاعة القرآن



الكريم حلقات في هذه السورة الكريمة ودروسها. . وذلك سنة ١٩٨٤.

ثم توالت القراءات والإضافات وتعددت الصفحات على مر الأيام والأعوام حتى وصل إلى وضعه الحالي ولو أمهلته لتضاعف ولكني تعجلت عليه حتى لا يغدو في زمن الاختزال غير مطاق ولا يدخل للمعقول والمقبول في نطاق.

وأما منهجي وخطتي في الكتاب فقد جعلته في قسمين: الأول: مدخل عام لدراسة السورة وقصتها والتعريف بها من نواحيها، والتعريف بالشخصيات، والقسم الثاني كان تفسيراً للسورة. وقد حرصت ـ بفضل الله ـ على الالتزام الشديد بحدود النص القرآني لا أعدوه، اذ لا خير في تجاوزه، وكل الخير في حيّزه. فخلا بحمد الله من الإسرائيليات التي نبهت غير مرة في ثنايا الكتاب إلى خطرها.

وكنت في تفسير الآيات أحاول الوصول إلى أحسن الفهم وأوفقه لروح النص وللسياق وللواقع وللعقل. . فنحن مأمورون بمحاولة التسديد والمقاربة «سددوا وقاربوا»، ومأمورون من الله بالاستماع ثم اتباع الأحسن: «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه».

ولقد قطفت من أزاهير التفاسير وعيون الأقوال ونكت البلاغة، واللفتات المتضمنة في كتب أئمة التأويل وطيبت بها كلماتي العاجزة وحلّيت بها جيد صفحاتي الضعيفة، ورصّعت بها سطوري المهزولة وجعلتها الدرر وسط بضاعتي المزجاة.

ولم يمنعني هذا الموقف من أهل الفضل والعلم الذين نقبس من بحر معارفهم، لم يمنعني من الرد على ما كنت أعتقد أنه بخلاف الصواب. فإن كنت قد جاوزت قدري أو أخطأت التوفيق في الأسلوب ومراعاة الأدب معهم فنستغفر الله، وإنما عذرنا أن الحق أحب إلينا ممن نحب.

ونسأله تعالى أن يسد ثغرات بنياننا وأن يكمل نقصنا ويزيدنا أدبا

وذوقاً. . ولست أزعم أن ما أراه لا يقبل التفنيد والنقد والنقص، معاذ الله. ولكني حاولت أن أقول ما أعتقده الأصوب، وأن أدفع عن كتاب الله ما أرى أنه لا ينسجم مع روح هذا الكتاب العزيز. .

وقد حاولت أن يكون الكتاب وسطاً بين الأسلوب الحديث والقديم حتى لا ننقطع عن ينابيع أصولنا الفكرية والثقافية، وحتى يبقى لطالب العلم الشرعي والمتخصص فيه نصيب كما أن للقارئ العادي والمثقف ثقافة عامة نصيب.

ولذلك قد يجد القارئ غير المعتاد على مثل هذه القضايا البلاغية والنحوية نفسه محتاجاً أن يقرأ النص بشيء من الأناة لكنه ميسر للجميع بإذن الله.

وانّ من القضايا التي تعامل معها الكتاب إبراز أحسنية القصة القرآنية هذه الأحسنية التي تتناقض مع الأخبار الإسرائيلية، فنفيت المرويات التي تتناقلها بعض الكتب حول الافتراءات التي لا تتناسب مع عصمة الأنبياء ولا مع عرض القرآن لقصصهم ليكونوا قدوة أهل الإيمان على مر الزمان، وان ما يروونه من نقولات وتقولات تتعارض مع معنى التأسي الذي ذكره القرآن الكريم: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده».

ومن المعاني التي سلطتُ عليها الضوء مع سرد قصة يوسف: إبراز سنة الله في عباده الصالحين المحسنين وأن الله يتولى نجاتهم من المآزق ومكافأتهم بالحسنى على إحسانهم ويمكن لهم في الأرض، لأن الأرض لا تخضر إلا بهم، ولا تورق الآمال إلا بهم، ولا تزدهي الحياة ولا الأحياء إلاّ بهم، ولا تتطور المجتمعات إلا بقيمهم.

والدعوة. . وهي المعنى الأهم في حياة الأنبياء جميعاً كان لها في قصة يوسف إبراز وكان لها في معالجتنا شيء من الإبراز. وان من شروط الدعوة والداعية هذا الرصيد الأخلاقي الضخم والسمعة التي لا يرقى إليها الشك ولا تكون محلاً للمز أو غمز أو إشاعات، ومن هنا كان حرص يوسف على تبرئة



ساحته قبل تسلم سلطاته وصلاحياته. وهذا سر حملات الإشاعات التي تحاول تشويش صورة الداعية في ذهن مدعويه لهدم معنى الرمز في هذه الشخصية.

وان الحكمة ورصيد اللطف في معاملة المدعوين والحرص والأمانة والكفاءة العلمية والإدارية والقيادية كل هذه مؤهلات مهمة لنجاح الداعية.

وهذا المعنى من أخلاقية ورسوخ إيمان وحكمة في الدعوة حرصت القصة الكريمة على أن توليه الإبراز والإظهار.

ومن اللفتات التي أستشفها في هذا الوقت وهذه المرحلة من القصة الكريمة.. هذا الربط المحكم والحكيم بين مصر وفلسطين. فكانت مصر ملجأ فلسطين في ضائقتها وأزمتها وكانت مرتبطة بها ارتباط الحياة بأسبابها.

ومصر التي يحكمها منهج الإيمان ويسيّر الحياة فيها وحي السماء هي التي كانت منجد فلسطين وظهير فلسطين.

وختاماً نقول: إن ما قلناه وما لم نقله في ظلال معاني قصة يوسف وما قاله الآخرون وسيقولونه لا يعدو قطرة من محيط آيات هذه السورة الكريمة والقصة العظيمة في كتاب الدهر المعجز الخالد. ولكن ما قلناه محاولة نسأل الله أن تكون وفقت فإن كانت كذلك نحمد الله ونمضي في الدرب حتى نستكمل ما أملناه من إخراج هذه السلسلة، وإن لم تكن فلله الحمد ونسأله المغفرة وسنلجم القلم من بعد أن يخوض في هذا البحر الزخار حتى يقضي الله أمراً..

والحمدلله أولاً وأخيراً، بدءاً وختاماً،

وصلى الله على عبده ونبيه محمد وآله وصحبه وسلم.



القسم الأول
سورة يوسف دراسة عامة
وفيه ثلاثة فصول

١ ـ تعريف عام بالسورة
٢ ـ التناسق في سورة يوسف.
٣ ـ تصوير الشخصيات في قصة يوسف وتطورها.

الفصل الأول

نظرات عامة
أو تعريف عام بالسورة

وفيه أربعة مباحث:

١ ـ لماذا بدأنا هذه السلسلة بسورة يوسف: تفرد سورة يوسف.

٢ ـ تعريف عام بسورة يوسف عليه السلام.

٣ ـ الإعجاز الفني في قصة يوسف.

٤ ـ صورة المجتمع المصري كما تبدو من خلال قصة يوسف.

المبحث الأول

لماذا البدء بسورة يوسف؟

١ ـ مما تفردت به سورة يوسف.
٢ ـ الحكمة من عدم تكرارها واجتماعها في سورة.
٣ ـ تعريف موجز ببعض الكتب التي تحدثت عن سورة يوسف.

لماذا اخترنا الحديث عن
سورة يوسف في مفتتح هذه السلسلة؟

بدأنا هذه السلسلة من كتب القصص القرآني بقصة يوسف، وكان ذلك طبيعياً، إذ ان هذه السورة تضمنت قصّة هي أكثر القصص تمثيلاً لمنهج القرآن الكريم في عرضه للقصة. وهي أكثر القصص القرآنية تنوع شخصيات ومشاعر، وتنوع بيئات، وتطور أحداث.

وإنه وإن يكن لكل سورة قرآنية شخصيتها وجوّها ومذاقها الخاص، ولكل قصة قرآنية أحداثها الخاصة، لكن سورة يوسف وقصته طريفة طرافة كاملة لا في خصوصية واحدة ولكن في جملة خصائص تجعلها نسيجاً خاصاً متفرداً.

فهي القصة الوحيدة التي استغرقت سورة طويلة من القرآن الكريم[1].

وهي القصة الطويلة الوحيدة التي جاءت في مكان واحد ولم تتكرر في مواضع أخرى[2]، ولو قارنتها مع قصة موسى أو إبراهيم أو غيرها لوجدت أن

---

(١) قال في الظلال: «والسورة ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة، فالقصص القرآني غير قصة يوسف يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها. وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً، أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة. وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً. هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداء كاملاً.. ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف وتنتهي بتأويلها. بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى. وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه، فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة والتعقيبات التي تلتها. ا. هـ. جـ٤ ص٦٦٣.

(٢) قال الفيروزابادي في البصائر ج٦ ص٤٧: «فرقت قصص الأنبياء في القرآن وجمع الله قصته



تلك القصص تحتمل التوزيع والتقطيع على مشاهد متعددة لأن كل مشهد يعتبر وحدة كاملة مثل ـ موسى والعبد الصالح، وموسى في مدين. . . الخ.

ولكن وحدة أحداث قصة يوسف لا تجعل من الممكن فنياً وموضوعياً أن تقطعها أو توزعها على مرات عرض متعددة، وفي هذا يتجلى وجه من وجوه الإعجاز القرآني، ودقة وحكمة هذا الكتاب الذي هو من لدن حكيم خبير.

وهي السورة الوحيدة التي سُبقت بوصف أحسن القصص ففي أولها قوله تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص. . .**﴾ وهي كذلك طريفة في المضمون والأحداث، من الرؤى إلى الإلقاء في البئر إلى البيع في مصر إلى المراودة إلى السجن ثم الملك وغيرها من الأحداث كلها مما تفردت به السورة الكريمة والقصة العظيمة.

وفي سبيل تأكيد هذه الشخصية المتفردة حشدت السورة من التعابير والصور البيانية ما لم يتكرر في سورة أخرى، وهذه بعض الاستعمالات البلاغية والتعبيرات الخاصة التي لم تتكرر في سورة أخرى:

أحد عشر، اطرحوه، غيابة الجب، يرتع، الذئب، قميصه، بضاعة، هيت، قدت، شغفها، سكيناً، حاش لله، السجن، أصْب، خبزاً، حصحص، رحالهم، نمير، بعير، صواع، وعاء، معاذ الله، العير، حرضاً، بَثّي، تثريب، البدو، تعبرون، جهزهم بجهازهم، تفتأ، دلسوه، دراهم، أعصر، عجاف، تفندون، غلّقت، روح الله، نسوة، الزاهدين، الملك بهذا المعنى، والعزيز بهذا المعنى.

وهناك غير ما ذكر مواد وردت في القرآن الكريم بتصاريف أخرى لكنها لم ترد بهذا التصريف إلا في سورة يوسف، ومن تلك:

= جميعها في سورة واحدة، ثم ذكر أن يوسف تسمّى في السورة بثلاثة وثلاثين اسماً، منها المجتبى، والمخلص، والمحسن، الخ. . .



* رأيتُ، لم ترد في القرآن بضمير المتحدث إلا في هذا الموضع، ولم ترد بهذا المعنى إلا في سورة يوسف. وكذلك رأيتهم، وكذا أراني.

* يخل لكم وجه أبيكم، هذه الصورة البيانية لم ترد إلا هنا، وفعل يخْل مضارعاً لم يستعمل إلا هنا.

* يلتقطه لم ترد بهذه الصورة إلاّ في هذه السورة، ومرة وردت ماضية في قصة موسى: فالتقطه آل فرعون.

* «بضع» «فلبث في السجن بضع سنين». لم ترد في القرآن إلا مرة أخرى في فاتحة سورة الروم: «وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين».

* «أضغاث أحلام» آية ٤٤ وردت مرة أخرى في سورة الأنبياء آية رقم ٤ «بل قالوا أضغاث أحلام..».

«ادكر» آية ٤٥ وردت في الصورة الاسمية في سورة القمر «فهل من مدكر».

«السيارة» آية ١٠، ١٩ وردت مرة أخرى فقط في سورة المائدة «متاعاً لكم وللسيارة».

«نسوة» آية ٣٠، آية ٥٠.

«زعيم» آية ٧٢ وردت مرة أخرى في سورة القلم.

«مصر» وردت في غير هذه السورة مرتين في سورة يونس، وفي سورة الزخرف.

«يوسف» لم يذكر إلا هنا ومرة واحدة في سورة الأنعام ومرة أخرى في سورة غافر.

وهناك استعمالات قليلة في القرآن لقصة يوسف حَظٌّ وافر منها من تلك:

* كلمة عصبة استعملت في القرآن أربع مرات ثنتان منها في حديث الإخوة عن أنفسهم: أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، لئن أكله الذئب ونحن عصبة، والثالثة في سورة النور: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم». والرابعة في سورة القصص: «لتنوء بالعصبة أولي القوة».



* وكلمة سوّلت استعملت أيضاً أربع مرات في القرآن الكريم ثنتان كذلك منها في سورة يوسف في حديث يعقوب لأبنائه ولومه إياهم بعد ذهابهم بيوسف: بل سولت لكم أنفسكم أمراً، وبعد ذهابهم بأخيه قال نفس الكلمة.

والمرة الثالثة في القرآن في الحديث عن المنافقين في سورة محمد: «الشيطان سول لهم وأملى لهم». والرابعة في سورة طه في حديث السامري عن نفسه: «وكذلك سولت لي نفسي».

يقول الأستاذ المبارك فيما نحن بصدده من تميز سورة يوسف وتفردها: «إن لسورة يوسف موقعاً خاصاً في النفوس فلطالما آشتاقت إلى سماعها مرة بعد مرة، ولطالما تفتحت القلوب لها، والآذان لنغماتها الحلوة، وإن لها نغماً علويا خاصاً بها، وإنك لتحس فيها بيد القدر الإلهي تحرك الحوادث، ولترى فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلهية غالبة تبلغ من هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد، وتصل بالأمور إلى عواقبها ونهاياتها المرسومة المقدرة.

طالما هزّت هذه السورة المشاعر والعواطف وحرّكت الضمائر، وهي تجول بنا في عالم الحياة الإنسانية بحوادثها ووقائعها ومشاعرها وعواطفها وأفكارها وعقائدها.

إن الله تعالى يقصّ فيها قصة حياة الإنسان أحسن القصص. إنها قطعة من الحياة بعروقها النابضة ومشاعرها المتأججة ونوازع الخير والشر فيها. إننا نرى فيها أنفسنا ولكن نرى مع ذلك يد القدر ونحس أثرها فينا وفي أعمالنا. إننا نراها تخط في الحوادث مصيرنا وتبلغ بنا الغايات المقدرة.

إنها تفتح أمامنا أفق القدر لنجعل إرادتنا من إرادة الله، منفذة لقضائه منسجمة مع غايات قدره التي هي الخير المحض، فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل. ذلك هو السبب الذي يجعل لسورة يوسف هوى خاصاً في نفوسنا. وهي تأخذ بعقولنا وقلوبنا نحو الله.

إن هـذه السورة تكشف لنـا النقاب عن سر الإرادة والقـدر وعن العنايـة الإلهية التي تخفى إلاّ على من آتاه الله حسّاً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون وأسبابها الظاهرة وعواطف الإنسان ومقرراته وتصميماته. وذلك ما أبصره يعقـوب وأحس به من أول القصـة فانكشفت لـه الحقيقـة الكـبرى فصـبر وآمن وترقب لطف الأقدار وصنيع العناية.

وإنّك إذ تقرأ هذه السورة أو تستمع إلى من يقرؤها لتحس بموسيقى عذبة علوية ترافق ما يتراءى لك فيها من صور الحياة الإنسـانية ومـا تقرؤه من ورائهـا من أحكام القضاء وسطوة القدر.

افتتحت السـورة بهذه الحـروف المقطعـة الثلاثـة (الر) التي تـريـك من الكلمات موادها الظاهرة وتخفي عنك سر ظهورها قرآناً بألفاظ عربية.

أما قصة يوسف التي هي موضـوع السورة وقـوامها فقـد استغرقتهـا كلها وهي تـزيد عـلى مائـة آية، عـدا نحو عشر آيـات في آخـرهـا تضمنت عـبرتهـا ومرماها.»(1).

«سـورة يوسف إحـدى السور المكيـة التي تناولت قصص الأنبيـاء، وقـد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسـف بن يعقـوب» وما لاقـاه عليه السـلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخـوته ومن الآخـرين، في بيت عـزيـز مصر، وفي السجن، وفي تـآمـر النسـوة، حتى نجـاه الله من ذلـك الضيق، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة. وما لاقاه من أذى القريب والبعيد.

والسـورة الكريمـة أسلوب فذ فـريد في ألفـاظها، وتعبـيرها وأدائهـا، وفي قصصهـا الممتع اللطيف، تسري مـع النفس سريان الـدم في العروق، وتجـري برقتها وسلاستها في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور

---

(1) محمد المبارك: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ص٧٩-ص ٨٢.



المكية، التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، في أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الانس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة» وقال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها».

وفي السورة دروس وعبر وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة»[١].

أمّا عن الحكمة من عدم تكرار قصة يوسف، أو الحكمة في كونها مجتمعة غير موزعة فنقول:

إن الدارس للقصص القرآني يلحظ ظاهرة واضحة هي أن القصص الطويل يتوزع على مشاهد عديدة، وتتوزع المشاهد هذه على سور عديدة في القرآن، فقصة موسى عليه السلام وزعت في حولي ثلاثين سورة.

هذه القاعدة تشكل سورة يوسف استثناء منها. «وجرت عادة القرآن الكريم بتكرار القصة في مواطن عديدة، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة ولم تكرر في مكان آخر»[٢]

قال العلامة القرطبي: «ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل»[٣].

فقصة يوسف «أنموذج الرواية التامة الحلقات المتسلسلة السرد، المصورة

---

(١) صفوة التفاسير ج٢ ص ٣٩- ص٤٠.

(٢) صفوة التفاسير ج٢ ص٣٩.

(٣) تفسير القرطبي ج١٠ ص١١٨ وفتح القدير للشوكاني ج٣ ص٤.



للحوادث والأشخاص. وكأن الله عزّ وجلّ قد صاغ قصة هـذا النبي الكريم في سورة مستقلة ليعلم هؤلاء الذين يشترطون ما يشترطون في الإبداع القصصي أن القرآن لو شـاء أن يفرد كـل نبي بقصة خـاصة في سـورة خاصـة لفعل، ولكنه يكرر قصص الأنبياء في مختلف السور لحكمة عليـا تقتضيها الـدعوة الإلهيـة التي نهض برسالتها القرآن.

تقـدم لنا سـورة يـوسف شخصيـات وأحـداثـاً مختلفـة، ولكن بـطل القصـة الحقيقي يوسف وحده وكـل من حولـه من الأشخاص ومـا حولـه من الأحداث يتجه إليه مؤثراً أو متأثراً، وقد أحكمت حبكتها الفنية على نحو واقعي لا يـرقى إليه خيال متفنن، بحيث يتبـع العقدة حلهـا الطبيعي، وإذا كـان لنا أن نجعـل من رؤيا العزيـز ملاطـاً يمسك اللبنـات في دور القصة الأول، فـإن صواع الملك واتهام الأخ بسرقته هو الملاط الآخر في الدور الثاني، إذ دارت حولهـا الأحداث في تتابع منطقي منظم متتابع، السرد من خلفها في هدوء يبتعد عن الصخب في أكثر مواقعه إلا ما شذ من احتدام العاطفة لدى امرأة العزيز»[1].

وقال صاحب الظلال:

«بدأت القصة وانتهت في سـورة واحدة، لأن طبيعتهـا تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيـا تتحقق رويداً رويـداً، ويـومـاً بعـد يـوم، ومـرحلة بعـد مرحلة. فلا تتم العبرة بها، كما لا يتم التنسيق الفني فيها، إلاّ بأن يتابـع السياق خطوات القصة ومـراحلها حتى نهايتهـا، وإفراد حلقـة واحدة منهـا في موضع لا يحقق شيئـاً من هـذا كله كـما يحققـه إفـراد بعض الحلقـات في قصص الـرسـل الآخرين، كحلقة قصة سليمان مع ملكة اليمن، أو حلقة قصة مـولد مـريم، أو حلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نـوح والطوفـان.. الخ. فهـذه الحلقات تفي بالغرض منها كامـلاً في مواضعهـا. أما قصـة يوسف فتقتضي أن تتـلى كلها

---

(١) البيان القرآني لمحمد رجب بيومي ص٢٢٢.



متوالية حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها. وصدق الله العظيم: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين».(1)

ونظراً لما لهذه القصة وسورتها من مكانة ومنزلة خاصة فقد حظيت بالعديد من الكتب، واستقطبت الأنظار والألباب والأقلام للكتابة حولها، فكانت أبحاث ودراسات على أنحاء واتجاهات مختلفة بحسب خلفيات وثقافات واهتمامات الدارسين، منها ما أبرز الجانب القصصي والفني، ومنها ما أبرز الجانب البلاغي والبياني، ومنها ما ركز على الجانب النفسي، وآخر اهتم بجانب التربية والعبرة.. وهكذا.

وهذا وجه آخر من أوجه تفرد قصة يوسف. فقد كتب فيها أكثر مما كتب في غيرها من القصص والسور. وسأعرّف بعدد من الكتب التي تعرضت لسورة يوسف بالدراسة، تعريفاً موجزاً يعطي القارىء انطباعي عن الكتاب ورأيي الشخصي فيه، والذي أحاول أن يكون قدر الإمكان موضوعياً صائباً في حكمه.

تعريف موجز
ببعض الكتب التي تحدثت
عن قصّة يوسف

١ ـ مؤتمر تفسير سورة يوسف للعلامة الشيخ المرحوم: عبدالله العلمي الغزي الدمشقي والكتاب يقع في نيف وأربعمائة وألف صفحة، في مجلدين، طبع مرتين. وهو سفر نفيس فيه العديد من الفوائد في اللغة والبيان والفكر والتاريخ والأدب والنفس والدين... وفيه الكثير من الاستطراد.

وسماه صاحبه المؤتمر لأنه تصور مؤتمراً يعقد في القدس يتذاكر معاني قصة يوسف، وكان قصد الكاتب من هذا الرمزَ إلى أهمية وحدة المسلمين، وأهمية

(1) الظلال ج٥ ص٦٠.



بيت المقدس، والأخطار التي تحيق بها، وقد كتب الكتاب في الثلاثينيات.. لكنه كأنما يكتب الآن في ظروف الصراع الحاضرة مع اليهود.

٢ ـ الوحدة الموضوعية في سورة يوسف للدكتور حسن محمد باجودة، والكتاب يقع في خمسمائة صفحة، يعتمد على التحليل اللغوي للنص، والانتباه للدقائق الكوامن في كل حرف وكلمة في النص القرآني الدقيق الزاخر بالمعاني. والكتاب سفر طيب، مستقيم المنهج، جديد في الطرح والتناول، أضاف جديداً ومفيداً، خال من الإسرائيليات، أجاد في تحليل الشخصيات. محوره يدور حول إثبات الوحدة الموضوعية في السورة كما هو عنوانه، هذه الوحدة التي تتجلى في النسيج القصصي المحكم الآخذ بعضه ببعض من أول القصة إلى منتهاها ثم هذه الوحدة بين الجزء القصصي من السورة والجزء التعقيبي.

والكتاب طبع مرتين في مدة عشر سنوات أولاهما في مصر والثانية في السعودية.

٣ ـ ومن الكتب التي كتبت حول قصة يوسف كتاب: يوسف الصديق.

وقد حول الكاتب محمد طلبة رزق قصة يوسف إلى مسرحية أسقط فيها ما يشاء من قيم عصره، ومن خطرات نفسه، بل إنه في بعض مشاهدها قد حولها إلى قصة لا تمت إلى القصة الحقيقية بصلة. وذلك حين جعل يوسف يتعلق بإحدى بنات مصر، وهي تتعلق به كذلك، ثم تزوج بها. وتبدأ قصتهما من طفولة يوسف في حدائق قصر العزيز حيث يقول لها: أبوك كاهن وأبي نبي فلسنا غريبين.[1]

وفي مواقف كثيرة كان يتحدث بلغة لا تليق بالأنبياء عليهم السلام كأن يقول مثلاً: قال يعقوب بجنون (ص ٢٤): أغفر لكم. ومرة يقول بهلع شديد (ص ٢٥).

(١) محمد طلبة رزق: يوسف الصديق، سلسلة إقرأ: ٢٧٨، دار المعارف بمصر ١٩٦٢.

وهو ينسب ليوسف قوله لامرأة العزيز: دعيني بحق الآلهة، ص٥٢.

وأحياناً يخالف النص القرآني مباشرة كأن يقول على لسان الوارد الذي أدلى دلوه: ويلي: ماذا أرى. بدل ما سجله القرآن: قال يا بشرى.

ولا ينسى أن يتكلم عن مصر ككاتب «مصري» لا ككاتب مسلم وحسب، فيقول على لسان يوسف: وهذه البلاد الجميلة العظيمة أنتسب إليها وأستقي من نيلها الخالد، وأغتذي من خيراتها الجزيلة.

أو حين يقول: إنني فخور بانتسابي إلى أبوتك وحياتي في رحاب نعمتك.

٤ ـ كتاب حياة يوسف لمحمود شلبي. والكتاب في حدود المائتي صفحة، كتب على خلفية كاتبه الصوفية، وكثير من عباراته تهويمات غير محددة مبهمة. ونادرة مواطن الاجادة. بالإضافة إلى مبالغاته في مسألة الحب التي سماها: العاطفة الخالدة.

٥ ـ كتاب التذوق الجمالي لسورة يوسف. للكاتب الأستاذ محمد علي أبو حمدة، والكتاب رسالة صغيرة لكنها تحوي العديد من الأغلاط التي أشرنا إلى قسم منها وناقشناها ولا يخلو طبعاً من فائدة.. ومن لفتات في البلاغة والتحليل اللغوي والنفسي، ولوددنا لو خلص من شوْبه ومحض عن دخنه لكان رائقاً نافعاً.

٦ ـ كتاب قصتا آدم ويوسف للأستاذ عبد الكريم الخطيب. وهو كتاب مستخرج من كتاب الكاتب ذاته: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه يحلل النص أدبياً إنشائياً. لا يخلو من لفتات ولا يخلو من هفوات وسقطات.

٧ ـ كتاب يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير للأستاذ عبد الحميد كحيل، والكتاب جيد وفيه عمق وهو رسالة صغيرة لكنها بلغة قوية وتحليل جيد. وأغلاط يسيرة.. ومعنى الدعوة فيه بارز وواضح.

٨ ـ يوسف في القرآن لأحمد ماهر البقري كتاب عادي جداً جديده قليل



جداً. يفسر النص تفسيراً معتاداً مختصراً.

٩ ـ القول المنصف في تفسير سورة يوسف للباليساني، ولا جديد في الكتاب يذكر فهو يفسر الآيات تفسيراً لا طرافة فيه ولا جدة.. وقد نبهنا إلى بعض أغلاطه.

وبعد التعريف بالكتب التي كتبت حول سورة يوسف هذا تعريف سريع موجز بسورة يوسف: الاسم، وعدد الآيات، واهم مقاصدها ومكان النزول، وزمن النزول، وظروف النزول، وفواصل السورة وترتيبها في المصحف والنزول، وسبب نزولها، ثم الاداء الفني في قصة يوسف، ثم نذكر بعض أنواع المشاعر في سورة يوسف أو ما يمكن أن نسميه بالجانب النفسي، ثم استخراج صورة الوضع الذي كان عليه المجتمع المصري من خلال القصة وإشاراتها ودلالاتها وذلك من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والأخلاقية.

فإلى التعريف بالسورة الكريمة:

المبحث الثاني

تعريف عام بسورة يوسف عليه السلام

١ ـ اسمها.

٢ ـ فواصل سورة يوسف.

٣ ـ ترتيب السورة في المصحف.

٤ ـ سبب نزول السورة.

٥ ـ مكية السورة: زمان وظروف نزول السورة.

٦ ـ من مقاصد السورة وأهم أغراضها.

سُورَةُ يُوسُفْ:

١ ـ اسمها

«الاسم الوحيد لهذه السورة اسم سورة يوسف، فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحٰق أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبي ﷺ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها، ولم تذكر قصته في غيرها، ولم يذكر إسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر.

وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره.

نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور. ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف عليه السلام هذه السورة من الأطناب. وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار». [١]

٢ ـ فواصل سورة يوسف

الفاصلة هي الحرف الأخير في الكلمة الأخيرة من الآية. كالقافية في الشعر..

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٧ - ص١٩٨. تونس: الدار التونسية للنشر ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

وفواصل آيات سورة يوسف تنحصر في أربعة أحرف فقط هي: ن، م، ر، ل.

اللام في آية واحدة فقط هي الآية ٦٦.

والراء في آيتين هما: ٣٩، ٦٥.

والميم في خمس عشرة آية، هي: ٦؛ ٢٥؛ ٢٨؛ ٣١؛ ٣٤؛ ٥٠؛ ٥٣؛ ٥٥؛ ٧٢؛ ٧٦؛ ٨٣؛ ٨٤؛ ٩٥؛ ٩٨؛ ١٠٠.

والنون في باقي الآيات أي في ثلاث وتسعين (٩٣) آية.

وغني عن القول أن حرف النون هو أكثر الحروف دوراناً في فواصل الآيات في القرآن وهو بلا شك أغنى الحروف العربية بالإيقاع والموسيقى، ولو تأملت أحكام التجويد لوجدت لحرف النون في علم التجويد نصيباً بارزاً، وحظّاً ظاهراً وقسطاً وافراً.

ويلي حرفُ الميم حرفَ النون من حيث الغنى بالموسيقى ومن حيث موقعه في علم التجويد، وكذلك من حيث موقعه من فواصل سورة يوسف.

وأما الكلمات التي جاءت فاصلتها بحرف الميم فهي:

الحكيم، حكيم في ثلاث مرات ٦، ٨٣، ١٠٠.

العليم، عليم في اربع مرات ٣٤، ٥٠، ٥٥، ٧٦.

الرحيم، رحيم في مرتين ٥٣، ٩٨.

والباقي لم يتكرر: أليم، عظيم، كريم، زعيم، كظيم، القديم.

٣ ـ ترتيب السورة في المصحف

سورة يوسف عليه السلام هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، وتقع في الجزء الثاني عشر أيضاً[1]، وآياتها إحدى عشرة ومائة آية، ولا يماثلها

(١) ولعلها نزلت في السنة الثانية عشرة من البعثة.



في عدد آياتها إلا سورة الإسراء.

وتأمل الموافقات أن رقم السورة والجزء الذي هي فيه يناظر عدد أبناء يعقوب، وعدد الآيات يلمح إلى ذلك فهي إحدى عشرة آية بعدد إخوة يوسف ومائة آية.. والقصة الكريمة تستغرق من السورة مائة آية وآية واحدة. ويستغرق التعليق عليها بقية الآيات، وهي عشرة كاملة.

ونتجاوز هٰذه القضية لننتقل إلى فاتحة السورة، ونجد أنها مفتتحة بالحروف المقطعة وبالذات بحروف: «الر»، ولو تأملت هذه الحروف أيضاً لوجدتها تمثل نصف حروف كلمة الرؤيا التي هي من المعالم البارزة في قصة يوسف.

٤ ـ سبب نزول السورة:

يروي المفسرون في تفاسيرهم أسباباً لنزول هذه السورة الكريمة، ولعل مما يساعدهم في تبني وجهة نظر أن هٰذه السورة نزلت لسبب معين كون السورة الكريمة ذكرت في سياقها أن هناك سائلين عن قصة يوسف تجيبهم هٰذه السورة: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين».

وإن كان ورود هذه الآية لا يعيّن أن السورة نزلت لسبب نزول معين، إذ قد نفسرها أن في سورة يوسف عبراً للسائلين عن العبر في حكايات من غبر وللباحثين عن الحكمة والسنة في أخبار الماضين، ولمن يتطلعون في الكون والأنفس والخلق يبحثون عن حكمة الله وعلمه وتقديره من خلال تفكرهم ونظرهم وسؤالهم.

وإن كان رواة أسباب النزول يميلون إلى كون السائلين في الآية سائلين عن قصة يوسف، ومن هنا فإنهم يروون عدة أخبار وروايات عن بني إسرائيل أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، ففي الكشاف: أن اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لم آنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة

يوسف»[1] فنزلت السورة تروي هذه القصة. وفي رواية أخرى أنهم سألوه عن رجل كان بالشام فارقه ولده فبكى عليه حتى عمي... ما خبره ومن يكون؟

وفي روايات أخرى أن بني إسرائيل سألوا النبي عن أسماء الكواكب التي وردت في سورة يوسف.[2]

وفي روايات أخرى أن الصحابة كانوا هم السائلين لرسول الله ﷺ أن يقص الله عليهم من أخبار من مضى ما يسليهم ويسري عنهم ما يجدون من ثقلة ما تواجههم به قريش من أذى وتكذيب وتعذيب.[3]

وهذه الروايات أغلبها لا يصح. والمعول عليه ما في النص القرآني من عموم أن في سورة يوسف آيات لكل السائلين عن الحكمة والعبرة والفهم والصراط السوي والهدى.

٥ ـ مكية السورة: زمان وظروف نزول السورة

قال القرطبي: وهي مكية كلها. وقال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها[4].

قال السيوطي في الإتقان: «استثني منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واهٍ جداً لا يلتفت إليه..»[5]

قال في الظلال:[6]

---

(١) الكشاف ج١ ص٤٥٥ وسيكولوجية القصة ص٥٠٨.

(٢) إرجع إلى: الدر المنثور للسيوطي ج٤ ص٤ بيروت: دار المعرفة.

(٣) إرجع إلى الدر المنثور للسيوطي ج٤ ص٣ وفتح القدير للشوكاني ج٣ ص٤ بيروت: دار المعرفة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج٩ ص١١٨ دار الكتب المصرية ١٩٦٢.

(٥) الإتقان ج١ ص١٥ والوحدة الموضوعية ص٦١.

(٦) في ظلال القرآن سيد قطب ج٤ ص١٩٤٩ طبعة دار الشروق سنة ١٩٧٤م.

والسورة مكية بجملتها على خلاف ما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١، ٢، ٣، ٧) منها مدنية، ذلك أن هذه الآيات هي مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء في قصة يوسف عليه السلام. . . ثم تمضي القصة بعد ذلك في طريقها إلى النهاية، فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى: «نحن نقص عليك. . .» يبدو هو التقديم الطبيعي المصاحب لنزول القصة، وكذلك هذه الأحرف المقطعة. وتقرير أنها آيات الكتاب المبين، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً. . هو كذلك من جو القرآن المكي. ومواجهة المشركين في مكة بعربية القرآن الذي كانوا يدعون أن أعجمياً يعلمه لرسول الله ﷺ، وتقرير أنه وحي من الله كان النبي ﷺ من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته. ثم ان هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة في نهايتها، وهو قول الله تعالى: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها، ظاهر منها نزول التقدمة مع القصة والتعقيب. .»[١]

قال في المنار في تأكيد نفس الحقيقة:

«هي مكية، وما قيل من أن الثلاث آيات الأولى منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه، وهو يخل بنظم الكلام، وقد راجعت الإتقان فإذا هو ينقله ويقول: وهو واهٍ جداً فلا يلتفت إليه، ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء في المصحف المصري، ويزاد عليه الآية السابعة».[٢]

ويسأل الأستاذ علي نصوح الطاهر القائلين بأن الآيات الثلاثة الأولى مدنية فيقول:

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص٦٥٩ - ص٦٦٠

(٢) تفسير المنار ص ٢ ج١٢.



إذا آعتبرنا الآيات المشار إليها مدنية فكيف كانت تقرأ السورة إذاً في العهد المكي قبل نزول هذه الآيات؟ سنجد أن السورة كانت تبدأ: بسم الله الرحمن الرحيم. إذ قال يوسف لأبيه يا أبت. . .» وليست هذه بداية لسورة وليس في القرآن كله سورة بدئت بإذ أبداً. .»(١)

قال في الظلال في مقدمة تفسيره للسورة الكريمة:

«نزلت السورة الكريمة بعد سورة هود في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول ﷺ حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد زوجه وعمه. نزلت بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى». (٢)

«فكانت هذه السورة تسلية وتسرية، وتخفيفاً لآلام المسلمين، وتحمل البشْر والأنس والراحة»(٣).

٦ ـ من مقاصد هذه السورة وأهم أغراضها

«أهم أغراض هذه السورة: بيان قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وما لقيه في حياته وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

وفيها إثبات أن بعض الرؤى قد يكون إنباء بأمر مغيب.

وأن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

وتحاسد القرابة. ولطف الله بمن يصطفيه من عباده. والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.

وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.

---

(١) علي نصوح الطاهر: أوائل السور في القرآن الكريم، دراسة علمية ص٢٥ - ص٢٦ القاهرة: مطبعة ومكتبة التحرير ط١ /١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ج٤ ص٦٥٩
(٣) الصفوة ج٢ ص٤٠.



وتسلية النبي ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى، وصبر يعقوب ويوسف على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.

وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها، وعقوباتها وتجارتها. . ونظام الرق، وأحوال المساجين. . . ومراقبة المكاييل»[1]

وقال الأستاذ المبارك رحمه الله: «هذه أطول قصة من كتاب الله تضمنت مشاهد كثيرة متوالية:

١ ـ أولها يمثل طفولة يوسف إذ يقص رؤياه على أبيه يعقوب (الآيات ٤ - ٧)

٢ ـ تآمر إخوة يوسف عليه لقتله أو إبعاده وما آتفقوا عليه بعد المذاكرة وإقناع أبيهم بإرسال يوسف معهم (الآيات ٨ - ١٤).

٣ ـ تنفيذ المؤامرة بيوسف وتغطيتها وتلبيس الأمر على يعقوب (الآيات ١٥ - ١٨).

٤ ـ التقاط يوسف وخروجه من البئر (الآيات ١٩ - ٢٠)

٥ ـ يوسف في مصر في بيت العزيز وتبدأ في حياة يوسف مأساة جديدة دوافعها الإغراء والإغواء وسببها العفة والإباء (الآيات ٢١ - ٣٤).

٦ - يوسف في السجن، ويبدو لنا هنا وجه جديد ليوسف ذلك هو الداعية إلى الله والموهوب الذي كشف الله عن بصيرته فاستشف المستقبل المغيب من خلال الرؤى والأحلام (٣٥ - ٥٣).

٧ ـ يوسف في بلاط الملك بعد خروجه من السجن وتوليه خزائن مصر (٥٤ - ٥٧).

٨ ـ ويتلو ذلك مشاهد متعددة فيها كثير من الحوادث والأزمات تنتهي بلقائه لأخوته وتعارفهم وانتقالهم جميعاً مع أبيهم إلى مصر حيث تصل الحوادث إلى نهايتها وتفتح أبواب الفرج على مصراعيها، وينتهي ذلك بتعبير يوسف عن شكره لله على نعمه كلها (٥٨ - ١٠١).

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ١٢ ص ١٩٨ ـ ص١٩٩.



لقد آحتوت القصة أزمات وعقداً كثيرة، وكـان الله دوماً هـو الذي يفـرج الكرب ويحل العُقْدة ويخرج يوسف بعنايته من الأزمة.

وقـد احتـوت القصـة ضروبـاً شتى من عنـاصر الحيـاة البشريـة وأنـواع العواطف الطيّبة والخبيثة، من تحـاسد الأخـوة ونية الإجـرام، إلى عاطفـة الأب الشفوق وحذره، ومن الصـبر على المصـائب والوقـوع تحت تأثـير إغراء الغـريزة والشهوة، إلى الانتصار في الصراع بين قوة الغـريزة وردع الضمـير والثبات عـلى الإيمان والشكر على النعم.

كل ذلك تضمنته القصة في حوادثها ومشاهدها.

أما فلسفة القصة العميقة فتتجلى في الإيمان العميق بالله الذي ينصر الحق عـلى الباطـل ولو طـال الأمد، والثقـة بهذا الانتصـار، ومواجهـة أزمات الحيـاة المختلفة بصبر وثبات وإيمان، والتفـاؤل حتى في الشدة وتـرقب الفرج من الله في الأزمـات، والإيمان أن نيـة الخير والعـزم عليه لا يـولد في النهـايـة إلا خيـراً. . والإيمان صبر وجهاد وثقة وتفاؤل.

وتتمثل هذه الفلسفة المؤمنة المتفائلة في أكثر من مـوقف وكثير من الآيـات ومناسبات القصة ومنها على لسان يعقوب: «فصبر جميـل» «ولا تيأسـوا من روح الله. .»

وقول يوسف: «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»[1]

(١) المبارك: دراسة أدبية ص٨٣ – ص٨٦.



المبحث الثالث

الإعجاز الفني في قصَّة يوسف

١ ـ قصة يوسف: النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة.

٢ ـ العقدة ومنعطفات حلها.

٣ ـ الشخصيات.

٤ ـ سير الأحداث وربطها بتدابير القدر.

٥ ـ الحوار.

٦ ـ الجانب النفسي.

٧ ـ المكان والزمان.

٨ ـ توزيع العناصر.

٩ ـ مقارنة بين قصة يوسف في القرآن الكريم والعهد القديم.

١ ـ النموذج الكامل للأداء الفني في قصّة يوسف.

«القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية.

والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة وللنعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصلها، والأمثال التي يضربها... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات.

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها، وفي طريقة عرضها، وإدارة حوادثها، لمقتضى الأغراض الدينية: وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات وخصائص معينة. ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها.

والتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني، فيما يعرضه من الصور والمشاهد. بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية. والفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس. وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال.»[1]

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص١١٧ - ص١١٨.



بعد هذه المقدمة العامة عن القصة القرآنية نقول ان قصة يوسف أوفت على الغاية في الغرضين معاً، وجاءت مفصلة لما في هذه التفصيلات من الغرض الديني، يقول في التصوير أيضاً:

«ومنذ أن تبدأ قصة يوسف تسير مُفصلة حتى تنتهي.. كلها تفصل تفصيلاً دقيقاً، لأن التفصيل مقصود، أولاً: لإثبات الوحي والرسالة، وثانياً: لأن لهذه التفصيلات قيمتها الدينية في القصة»[1]

ولو أردنا أن نقف على جلية هذا الأمر وحقيقته في السورة الكريمة والقصة العظيمة لاقتضانا هذا الوقوف عند كل آية بل عند كل كلمة لإبراز دورها الديني وقيمتها الفنية، ولكنا سنرجىء الحديث عن التفسير والتفصيل إلى القسم الثاني التفسيري للسورة الكريمة.

قال صاحب الظلال:

«إنّ قصّة يوسف تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأدله النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً... ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وأدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء.

ومع استيفاء القصة لكل ملامح «الواقعية» السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة، فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة، المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، وفي الوقت ذاته لا ينشىء مستنقعاً من الوحل يسميه الواقعية كالمستنقع الذي أنشأته الواقعية الغربية الجاهلية.

---

(٢) المرجع السابق ص١٣٤ - ١٣٥.

وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري، ودون أن تزوّر أي تزوير في تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة في هذه المواقف، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف.

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل من تنوع الشخصيات وتنوع المواقف. وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال. . . وتتعامل مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في نماذج متنوعة، نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول، ونموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمناورة والمؤامرة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها، واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة. . . ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية. والأضواء التي تلقيها على البيئة، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً. وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة.

ونموذج العزيز وعليه ظلال طبقته وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه.

ونموذج الملك في خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق.

وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من



الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد وهذا الحشد من الحركات والمشاعر»[1]

وقد وقف الدكتور التهامي في كتابه سيكولوجية القصة وقفة فيما نحن بصدده عند الآيتين ٢٣ - ٢٤، وراودته التي. . .» فقال:

«ويحسن أن نقف قليلاً عند هذا المشهد الذي صوره القرآن لنرى كيف تلتقي روعة الدين بجمال الفن. لقد كان عرضاً يضرب مثلاً حياً في الدعوة إلى الاستقامة، والتدرع بالإيمان في غياهب الضلال التي تزيغ فيها القلوب، والاهتداء بنور اليقين في متاهات الفتنة التي تتهاوى فيها الإرادة، حتى تنتصر الفضيلة على الرذيلة، والوفاء على الخيانة، والتماسك على الانحلال.

ولكنها دعوة ضمنية تنساب إلى المشاعر في يسر، وقد كانت فيها الكلمات تصور المشاهد، وتعبر عن الأحاسيس. كما كانت اللمحات والإشارات فيها أبلغ تأثيراً من الخطب الوعظية الطويلة.

فعبارة «هيت لك» وإن لم تكن متداولة في الاستعمال، لكن السياق القرآني أبان عما تدل عليه من دعوة مشينة، إنها كناية، تربي على إفصاح، وتلميح أفصح دلالة من تصريح، مع تنزه عما يستهجن ذكره. وتقابلها من ناحية رد الفعل عبارة «معاذ الله» فهي هنا تفيد معارضة الاستجابة لداعية الهوى والغواية كأشد ما تكون المعارضة إباء، لأنها ثمرة الإيمان.

إن القرآن لم يخف من المشهد استبداد الهوى برشد امرأة تنعم بين أحضان الترف والعز والسلطان، وناهيك افتتاناً بجمال فتاها. انها خرجت عن طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها. ولكنه يعتز عليها بالديانة والأمانة، والترفع عن الخيانة.

ثم إن يوسف قد سجن ظلماً لإخلاصه وأمانته، فلم ييأس حتى يكفر

---

(١) الظلال ج٤ ص٦٦٣، ص٦٦٤، ص٦٦٥.



بـالقيم التي يؤمن بها فـيرتمي بين أحضـان الرذيلة والإثم اتقـاء لغضب سيـدتـه عليه، بل آثر السجن وعذابه على حياة الترف والإثم.

وهكـذا فإن الآيتـين وهما في منتهى الإيجـاز تلقنـان في حـرارة من خـلال عرضهما لهذه الحادثة أسمى المبادىء الأخلاقية. وما ذاك إلا لأن المعاني سبكت فيها ونفذت بطريقة فنية تترك الخواطر تنساب حرة في إطار الخطوط العـامة التي رسمتها.

والتداعي الحر هو من أثر الفن الـذي يملك من القوة مـا يخضع إليـه كل فكرة، كما أن الإحساس الفني يحدث في النفوس انفعالات، ويـأسر العواطف، ويشدها إليه. . »[1]

٢ ـ العقدة ومنعطفات الحل

يظهر الإعجاز أول ما يـظهر في البـداية الكـريمة «الـر»، في تلك الحروف المتقطعة التي دأب القرآن في كثير من سوره على البـداية بهـا، فمنها ومن أمثـالها تتكون ألفاظه وعباراته وسوره، وهي قائمة تتحدى، يدل على ذلك تعقيبـه على تلك الحروف بقوله: «تلك آيات الكتاب المبين. . .» ثم يظهر الإعجاز بدعـوى القرآن التي طرحها للتحدي بما تحمل من أبعاد فنية لم تكن قد تبلورت بعد على مستوى الآداب العالمية، دعوى أحسن القصص، مستخدماً أفعل التفضيل على عمومه تأكيداً للتحدي.

وبعـد التحدي بـالحروف المقـطعـة، وبـأنـه أحسن القصص: «يخلص ـ النص ـ بسرعة إلى عرض قصة يوسف بأبعادها الفنية الـرائعة الـرائدة وأعـماقها الإنسـانية، وأهـدافها النفسيـة والاجتماعيـة، غير مغفـل سبل العـظة والاعتبـار وعوامل التبصر، وبخاصة أن النبي كان يمر بعام الحزن.

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص٥٣٢ - ص٥٣٤.



ويبدأ على الفور بتوضيح العقدة الرئيسة في القصة متمثلة في حقد الشبان من الأبناء على أخيهم الأصغر.

وبداية القصة ببداية العقدة لون من التعبير الفني الممتاز، فهو يضع القارىء وبسرعة أمام المشكلة الرئيسة، ويستحوذ على انتباهه وكل أحاسيسه.

وعرض العقدة هنا لا يسير في اتجاه بسيط أو خط مفرد، وإنما يأخذ طابع الفن المركب الذي تتداخل فيه وسائل الحلم والرمز والتنبؤ، والأماني الطيبة من جانب يوسف، وعومل الخوف والتوجس من جانب الأب، وبداية المؤامرة من جانب الأخوة.

وهكذا تتعقد الأحداث من بداية القصة..

وانطلاقاً من تعقد الأحداث تأخذ القصة في التسلسل في اتجاه واحد معتمدة على الشخصية الأولى: شخصية يوسف، ومرتكزة على منعطفات مصيرية أربع لهذه الشخصية، كان لها أثرها في تطور الأحداث لتستقيم بعد ذلك في خط مستقيم صاعد.

المنعطف الأول: إلقاء يوسف في الجب وهو قمة المؤامرة، وهو في الوقت نفسه بداية تحول حاسم في حياة يوسف بالانتقال من حنان الأب إلى حياة الرق.

المنعطف الثاني: بيع يوسف لعزيز مصر، وتعرضه لمحنة الفتنة والإغراء، وتفضيله السجن على الخطيئة، وفي السجن تتكشف مواهب يوسف في تفسير الرؤيا.

المنعطف الثالث: قدرته على تفسير أحداث الرؤيا، للسجينين أولاً ثم للملك ثانياً.

المنعطف الرابع: قيامه بما عهد إليه من أمر التبليغ والرسالة، ولقد بدأ ذلك وهو في السجن.



وعلى اثر خروج يوسف من السجن ينتقل إلى خزائن الأرض، فيقوم بأمرها ويشرف على تصريف شؤون المال والتموين في مصر.

ويأتي أخوته.. ثم يفاوضهم على استقدام أخيه..

وبنهاية القصة يتكشف رمز الحلم، فلقد أصبح يوسف متحكماً في خزائن مصر ولقاء الأب بالابن، ولم شمل الأسرة.. وكلا البداية والنهاية تسير في خطوط متوازية مما يدل على بناء محكم، وتصميم متقن، وفن رائع سبق زمنه وما يزال، تنزيل من حكيم حميد»[1]

٣ ـ الشخصيات وتنوعها وتطورها

الشخصية أهم عناصر القصة، وتصوير الشخصية بعالمها النفسي والشعوري مهم جداً، وقد صورت القصة القرآنية شخصياتها أروع تصوير أبرزت فيه كل سماتها ومشخصاتها ومكوناتها في بعدها النفسي وهو البغد الأهم في الشخصية الإنسانية.

وقد تنوعت الشخصيات في هذه القصة فشملت شرائح مختلفة من رجال ونساء وأنبياء وأشقياء وأسوياء وغير أسوياء، وعلية وفقراء ومساجين وطلقاء..

ومما أبرزته هذه القصة واهتمت به تطور الشخصيات وانتقالها من حال إلى حال.

ولهذا مزيد تفصيل في موضع آخر يلي بعد قليل إن شاء الله فنتركه لحينه.

«وسورة يوسف تهتم بعرض نماذج بشرية، وتتلطف إلى تصوير المشاعر في تدفقها الطبيعي على حسب المواقف، وطبيعة المتغيرات النفسية بأسلوب معجز في بساطته وعمقه، وصدق نبرته.

(١) د. محمد خاطر: الإعجاز الفني في سورة يوسف. مجلة الوعي الإسلامي عدد ٢٧٦، ذو الحجة ١٤٠٧هـ.



ويتراءى نموذج الأب العاطفي الحنون بمشاعره الأبوية الجياشة فنحس بأنه النموذج الصادق الخالد على مر العصور، فها هو ذا يوسف يقص على أبيه رؤياه فإذا بمشاعر متضاربة تفيض على لسان الأب، فيها العطف، وفيها الخوف، وفيها التوجس والحب.

وتتراءى نماذج الأخوة بمشاعرهم الحادة وقد أحسوا بعواطف الأب تجاه الصغير يوسف فأرادوا أن يتخلصوا منه.

ونموذج الأخ العاقل المغلوب على أمره وهو لا يستطيع أن يخرج على إجماع الأخوة فيلجأ إلى التحايل لإنقاذ يوسف.

ثم شعور الجميع وقد أحسوا بتأنيب الضمير، بل وبالخزي والهوان حينما احتجز يوسف أخاه في مصر بعد أن أعطوا لأبيهم العهد والميثاق على أن يحافظوا عليه.

وأخيراً يتراءى نموذج امرأة العزيز وهي سيدة تتربع فوق أرقى قمم المجتمع ترى فتاها اليافع يتحول أمامها إلى شاب تتخايل في ملامحه علامات الرجولة، فتفتتن به، وتراوده عن نفسه، فيتأبّى ويمتنع. ويستبد بها الغضب فتوحي لزوجها بعقابه... ثم تظهر براءته... ويتحدث النسوة. ثم تعلن على النسوة صدق الشائعة بعد أن خدرت أحاسيسهن برؤية يوسف.

فامرأة العزيز سيدة تمثل طبقتها، وهي نموذج صادق لتلك الطبقة»[1].

٤ ـ الأحداث وسيرها في قصة يوسف

الأحداث هي العنصر الثاني في القصة بعد الشخصيات. وتتسم القصة القرآنية بأن الأحداث فيها تقع على مسرح أوسع بكثير جداً مما تعود البشر، وهي لا تقع في فراغ، بل يترتب عليها الجزاء العدل من الذي وضع الموازين القسط للحياة.

---

(١) د. محمد خاطر: الإعجاز الفني في سورة يوسف.



والأحـداث منها مـا يتصل بصنيـع البشر، ومنها مـا هو من تـرتيب القدر ويأتي مترتباً على ما صنعت أيدي الناس إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والأحداث في سورة يوسف تتسم بالسمة التي أسلفنا، فما صنع الإخوة لم يذهب سدى، وما صنع يـوسف لم يهدر عبثاً، فقد آثـره الله عليهم بإحسـانه، وأصابهم من البلاء ما أصابهم بإساءتهم..

والقصة متلاحقة المشاهد متداركة الأحداث على طريقة القرآن في الإيجاز المعجز، ولذلك فإنك واجد في كل سطر تقريباً حدثاً جديداً ومسرحاً للأحداث جديداً.

وأعد قراءة القصة على ضوء هذا المعنى تجد متعة جديدة في تجـدد المشاهـد ومسارح وميادين الأحداث.

ثم أمر آخر ينبغي التنبه له هو هذا التعانق الشديـد والارتباط الـوثيق بين الأحداث، فكل حدث يسلمك إلى الذي يليه في تلاحق حتى نهاية القصة.

«الأحداث في هذه القصة أحداث عادية تقـع لكل شخص وفي كـل زمان ومكـان. وليس يبعد أن تقـع كل هـذه الأحداث لشخص فيكـون موقفـه منهـا موقف يوسف حتى حادث المراودة، ولا نستغـرب إلاّ حالـة إلقاء القميص عـلى وجه أبيه وارتداده بصيراً، فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء.

وأمكنة الأحداث هنا متميزة، فهي حيناً أرض فلسطين التي كـان يسكنها يعقوب، وهي حيناً أرض مصر: بيت العزيز، أو السجن، أو بيت المال.

والآراء والأفكار عادية، وكذا ما كان يمضي بـين الشخصيات من حـوار، والانفعـالات القويـة، والغرائـز المؤثرة في مجـرى الحوادث من الأمـور التي تؤثـر أثرها في كل لحظة من لحظاتنا في الحياة، فالحقد والحسد والحب أقـوى العواطف والغرائز في القصة، وهي الأمور التي تلمس في كل مجتمع منذ خلق الله الأرض



والسماء.»[1]

«إذا نحن تأملنا في أحداث هذه القصة رأيناها تسير سيراً طبيعياً وفق سنن الحياة. فقد آتفق اخوة يوسف على بغضه لأنه كان في اعتقادهم أحب إلى أبيهم منهم. ودبروا له مكيدة كي يخلو لهم وجه أبيهم. وأنجزوا خطتهم للتخلص منه لأنهم أحكموا تنفيذها.

وراودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه لأنها افتتنت بحسنه، فأحبته، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانته، لأنها تملك قياده. وكادت ليوسف لما رفض أن يستجيب لأن لها من نفاذ الكلمة ما مكنها من الانتقام..»[2].

وكذلك تعفف يوسف الذي آنتهى به إلى السجن، ثم تزامن دخول يوسف السجن مع دخول السجينين المصريين والرؤيا التي رأياها، كل ذلك أيضاً من الأحداث العادية، لكن الإعجاز في التقدير الإلهي أن يصنع من هذه الخيوط الرفيعة البسيطة في رأي العين أن يصنع منها نسيجاً متيناً محكماً بديعاً.

وكان أن آنتهى الأمر بالساقي في بلاط الملك، وكان ما كان من رؤيا الملك التي انتهت بدخول يوسف إلى قلب الملك وبالتالي إلى قصره ومركز السلطة والمسؤولية في حكومته.

كل ذلك يبدو أحداثاً يومية عادية، جارية على السنن المألوف المعتاد، لكن من يستطيع أن يستخرج من وسط هذه الأحداث الاعتيادية نفس النهاية والنتيجة التي قدرها رب العالمين وهيأ لها أسبابها؟!

ولعل هذا اللطف في تقدير الأمور هو الذي أنطق يوسف بهذه الكلمة: «إن ربي لطيف لما يشاء». ثم مكيدة يوسف في احتجاز شقيقه عنده بعد

---

(١) الفن القصصي لمحمد خلف الله ص٣٢٠ - ص٣٢١.

(٢) سيكولوجية القصة ص٥١٢.



استحضاره من عند أبيه، ومجيء الإخوة للطعام إلى مصر أيضاً كل ذلك من الحوادث العادية الجارية على السنن الطبيعي.

«وهكذا كان تعليل هذه النتائج للأحداث تعليلاً يقبله العقل، لارتباط الأسباب فيها بمسبباتها ارتباطاً طبيعياً»[1]

هكذا نرى ارتباط كل حدث بالذي سبقه كالبناء تعتمد فيه اللبنة على اللبنة، فأخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله وجعله على خزائن الأرض ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر... وهكذا تسير القصة يسلم موقف منها إلى موقف وحدث لحدث حتى النهاية.

على أن في القصة ـ شأنها في هذا شأن سائر قصص القرآن ـ بعد الذي ذكر من أحداث تقع ضمن دائرة ونطاق السنن الجارية، أحداثاً تقع ضمن دائرة السنن الخارقة، من ذلك مثلاً رجوع البصر إلى يعقوب بإلقاء القميص على وجهه، وشم يعقوب ريح يوسف بمجرد أن فصلت العير من حدود مصر (لعلها حين وصلت العريش): «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون..»

هذه الأحداث قد تبدو غريبة ـ لمن حبس نفسه في دائرة الأسباب والمسببات، «ولكن الإيمان يدفع هذا الاستغراب، ويزرع في القلب اليقين والثقة بالله والاطمئنان إلى عدله وحكمته، والاعتقاد بأن القدر ليس إلا مشيئة

---

(١) سيكولوجية القصة ص٥١٣.



الله التي لا تخالف سننه. وتلك السنن هي التي تجري الأحداث بمقتضاها، وتفضي إلى نتائجها»[1]

(١) سيكولوجية القصة ص٥١٣، وقد عد الدكتور التهامي في كتابه المذكور خروج يوسف من الجب معافى، وكأن يداً خفية تلقفته وهو يهوي فيه، عد ذلك من الأمور التي قد تثير الاستغراب ولا تفسرها الأسباب العادية ولا الصدفة، وإنما تفسرها العناية الإلهية، وان الذي يقوله لحق من أن العناية الإلهية وراء كل حدث صغر أم كبر، ولكن تصور إلقاء يوسف في الجب بهذا الشكل يتناقض مع تصميم إخوته على ألا يقتلوه، فقوله: وهو يهوي فيه، يظهر منه أنهم رموه أو قذفوه فيه قذفاً، وليس كذلك بل هم أدلوه إدلاء وألقوه إلقاءً تفادياً لقتله..

من معالم المنهج القرآني في عرض قصصه كما تبدت من قصة يوسف:

ربط الأحداث بتدابير القدر
أو مزج التوجيهات الدينية بالأحداث

من قرأ القصة القرآنية عموماً، أو قصة يوسف، وجد ربطاً محكماً بين القصة بأحداثها وأشخاصها وبين تدبير القدر. فالقصة القرآنية قصة إيمان، للإيمان جاءت وبالإيمان جاءت، ولتربية العقيدة في القلب الإنساني قصت من الأحداث ما قصت. فهي ترتبط من أول مشهد لآخر مشهد بيد التدبير والتقدير ولا تخرج عن هذا في صغير أو كبير.

ومن هنا لا يغيب عنك في آية واحدة أن تجد نسبة تسيير الأحداث والأشخاص إلى الله. فكما أن الله عزّ وجلّ هو الذي يقص هذه القصة بأحداثها، فهو سبحانه الذي كان المقدر لكل موقف فيها.

واقرأ:

إنا أنزلناه قرآناً عربياً... نحن نقص عليك... بما أوحينا إليك.. وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.. وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون. فصبر جميل والله المستعان.. وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون.. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين.. إنه ربي أحسن مثواي.. وهمّ بها

لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين. . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم. . الخ.

فالأحداث كما ترى مربوطة بالقدير العليم سبحانه، وما بين الأحداث انبثت التوجيهات الإلهية تربي العباد، وتزكي نفوسهم، وتنمي بذرة الإيمان فيهم: لعلكم تعقلون. . إن الشيطان للإنسان عدو مبين. . إن ربك عليم حكيم. . وكذلك نجزي المحسنين. . إنه لا يفلح الظالمون. . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. . إن الحكم إلا لله أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. . الخ. القصة القرآنية إذاً لا تعرض إلا للتربية والتزكية، ولا تعرض تاريخاً وسرد أخبار فقط. .

ومن هنا فإن القصة القرآنية تركز في عرضها على معارض العبرة ومجالي الإيمان وموقظات الفطرة ومنقذات النفس الإنسانية من المهاوي. وليست تسترسل وراء تفصيلات وتتبع أموراً هامشية، وإنما تقتصر على مكامن الفائدة. . . ومعاقد التربية.

٥ ـ الحوار في قصة يوسف

والحوار عنصر مهم آخر من عناصر القصة، وقد كانت القصة القرآنية تراوح بين السرد والحوار، السرد يغطي مساحة زمنية، ويسهم في تصوير الجو، والحوار يكمل الدور والمشوار في تصوير الشخصيات وتطوير الصراع ودفع الأحداث. والحوار يسهم في إحياء القصة وبعث الحياة وبث الروح في الوقائع التي مرت بها دهور وتطاولت بها الأزمنة.

والحوار في قصة يوسف يكشف عما يعتلج في الضمائر من مخبوء المشاعر



فالناس صناديق مقفلة تعرف دواخلها إذا تحدثت. . فكيف بك إذا كان الذي ينقل لك مكنون الصدور ومخزون الشعور هو القرآن الكريم وهذه القصة البديعة العظيمة.

ومن مواقف الحوار في بدء القصة حوار يوسف مع أبيه الذي ينبىء بأدب جم من يوسف وذكاء موفور وينبىء عن حكمة بالغة في الوالد يعقوب.

ثم حوار إخوة يوسف ينبىء عما تختزن صدورهم من مشاعر سوداء وعقول مظلمة ألغتها عواطف مهتاجة وحقد مدمر رهيب. . .

ثم حوار يوسف مع امرأة العزيز ويكشف عن نفسية هابطة متهالكة هي نفسية المرأة ونفسية سامقة رابطة الجأش عامرة الصدر بالإيمان هي شخصية يوسف ثم يدفع هذا الحوار العاصف بالأحداث نحو حقد امرأة العزيز ووشايتها به وتحريض زوجها عليه الذي آنتهى بسجنه.

ثم الحوار بين النسوة وإسفاره عن أستار ربات القصور. . وأخلاق هابطة تافهة لأصحاب المنازل الفارهة.

ثم الحوار الذي دار في السجن. . وما حمل من حكمة بالغة في الدعوة إلى الله، وهكذا تستمر مواقف الحوار إلى نهاية القصة. .

قال في كتاب الحوار في القرآن:

«. . ونجحت تجربة النبي في الانتصار على الآخرين وعلى نفسه. . قبل أن يبدأ بدعوة الآخرين إلى ممارسة هذا الانتصار على أنفسهم وعلى الآخرين. . لتجتمع للرسول الداعية في حياته قوة التجربة الناجحة، وقوة الحجة البالغة. ليواجه الناس بتجربته العملية، كما يواجههم بحجته الفكرية. . فيثبت لهم بذلك أن الدعوة إلى التماسك أمام الإغراء، ليست شيئاً بعيداً عن الواقع، بل هي تعبير عن واقع حي في حياة الرسول وتجربته الناجحة، التي يمكن لهم أن يمارسوها كما مارسها، وينجحوا فيها كما نجح، على أساس الإيمان بالله.



إن القيمـة كل القيمـة في هذا الحـوار كله، هي في تجسيـد صـورة المؤمن عندما يتعرض لتجربة الانحراف عن الخط المستقيم، فيقف مع إيمانه مهما كانت التضحيات والآلام.

وربما كانت كلمات الحوار بين يوسف وامرأة العزيز قصيرة جداً، ولكنه في الوقت الذي يلخص الموقف كله في الدعوة الصارخـة، والرفض الحـازم يشرف بنا من خلال المواقف المختلفة في تفاصيل القصة، على الشعور بأن هنـاك حواراً صـامتاً من جهـة. . وحواراً متنوعـاً طويـلاً تدل عليـه التجارب الفـاشلة التي حاولتها هذه المرأة، بما في ذلك المؤتمر النسائي الذي عقدتـه في بيتها، ممـا يجعلنا نحس بأن هناك كـلاماً كثيـراً، قيل ليـوسف من قبل أولئـك النسوة، لا قنـاعه بـالاستسلام لإغـرائها وإغـرائهن، كما يـوحي به دعـاء يوسف الـذي طلب فيه التخلص من كيدهن جميعاً. . .

وهكذا نجد في هذه الآيات النموذج الحي للموقف الإيمـاني الصلب أمام حالات الإغراء، كما في قصة يوسف. . الذي بقيت كلماته واحدة، بـالرغم من محاولات الإغراء بمختلف الكلمات والأساليب. .»[1].

٦ ـ الجانب النفسي في القصّة

«قصة يوسف في القـرآن هي قصة الشخصيـة والأحـداث معـاً. فهي لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود. إنها تنتصر للإيمان، للصبر، للعفاف، للأمانة، للإخلاص. .

وقد أبرزت صراع النفس أملاً في الحظوة، أو إشباعاً لـظمأ الحب. وقـام بالأدوار فيها شخصيات متباينـة في السن، وفي المكانـة الاجتماعيـة، ولكل منهـا

(١) محمد حسين فضل الله: الحوار في القـرآن ص٣١٥ - ٣١٦ بيروت: الـدار الإسلاميـة ط١ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.



طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها: كالبراءة والحسد والعلم والحكمة.

وهكذا فإن الدارس لهذه القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها.

فنحن نلحظ كلمة الصبر مثلاً، كانت دائماً على لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الأيمان على لسان إخوته. كما نلحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها: كالتبرير والإسقاط والكذب، والغيرة، والقلق، والإحساس بالذنب.[1] ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس آليات عقلية، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشيء عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته.

فإخوة يوسف مثلاً ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف، حتى يخلو لهم حب أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها، بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك في حسن نواياهم عندما دعوا يوسف معهم، فقال لهم: «إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون..»

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه، فاتفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم، وآدعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم.. ولكن التلفيق كان واضحاً، مما جعل يعقوب لا يصدقهم، ولهذا كان يدعوهم دائماً إلى أن يتقصوا آثار أخيهم! ولو أنه صدقهم في دعواهم لما أصر على أن يقتفوا آثاره.

(١) يوسف في القرآن لأحمد ماهر البقري ص ١٢٣ ـ ص ١٢٤ ونقله عنه التهامي نقرة في سيكولوجية القصة ص ٥١٤.



وقد وقعوا في حالة التبرير كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة، حين قالوا: إنا ذهبنا نستبق..»[1]

وإذا كان الإسقاط حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين.. ويهمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظن أنه ينافسه مباشرة. إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس، فإن القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف، حينما دس يوسف صاع الملك في متاع أخيه وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه، دون أن يكشف لهم عن شخصيته». إذ تقول الآية: «ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل»[2]

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص٥١٥ ـ ص٥١٧.
(٢) عبد المنعم الجداوي: القرآن نظرية عصرية جديدة ص٢٢١ ونقله عنه سيكولوجية القصة ص٥١٧ ولسنا نعلق على عنوان الكتاب المأخوذ منه هذا الكلام والتعليق واضح من غير تعليق.



بعض أنواع المشاعر والأحاسيس في القصَّة

«مواقف نفسية»

الحب الأبوي الشديد: تمثل في موقف يعقوب من يوسف، ومن أخيه.

الحسد: تجلَّى في أوضح صوره في موقف الأخوة من يوسف.

الحب الجارف من المرأة نحو الرجل: في موقف امرأة العزيز من يوسف.

الكيد: موقف امرأة العزيز في الوصول إلى بغيتها من يوسف، ثم في الانتقام من يوسف لكبريائها الزائف وغرورها.

«إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن» «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم»

المكر: موقف نسوة مصر من امرأة العزيز: «فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن» وموقف امرأة العزيز المضاد من النسوة وقد كان مكرها أشد من مكرهن وسجلن لها الاعتراف بسبقها في ذلك، ولما انتصرت عليهن أعلنت عن مكنون نفسها في حب يوسف واشتهائه وعزمها على أن تنال منه بغيتها وطلبتها ووطرها.

ويبدو أن الكيد آستعمل في التدبير من جانب النسوة تجاه الرجل.

وأما المكر فهو سلوكهن نحو بعضهن. وكذلك فإن الكيد استعمل في الختل في المواجهة والمكر استعمل في التدبير في الغيبة. ومنه مكر إخوة يوسف به «وما كنت لديهم إذ يمكرون».

الإعجاب: إعجاب السجينين بيوسف: إنا نراك من المحسنين، وقد تطور هذا بعد رؤيا الملك: يوسف أيها الصديق. وإعجاب الملك بيوسف، فقد قال أول ما سمع التأويل: وقال الملك آئتوني به، فلما بدا عزيزاً واثقاً كالطود الأشم زاد إعجاب الملك به فقال: «آئتوني به أستخلصه لنفسي».

جاء في الظلال: «وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية. غنية كذلك بالعنصر الإنساني. حافلة بالانفعال والحركة. وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً.

ففي القصة يتجلى عنصر الحب الأبوي في صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال في حب يعقوب ليوسف وحبه لبقية أبنائه. وفي استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبويّ.

وعنصر التفاوت في الاستجابات للغيرة والحسد في نفوس الإخوة، فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف في الجب تلتقطه بعض السيارة نفوراً من الجريمة.

وعنصر المكر والخداع في صور شتى. من مكر اخوة يوسف به إلى مكر إمرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة.

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالاحجام. وبالإعجاب والتمني والاعتصام والتأبي.

وعنصر الندم في بعض ألوانه، والعفو في أوانه، والفرح بتجمع المتفارقين»(١)

---

(١) الظلال ج٤ ص٦٨١.

وأسلوب القصة في سورة يوسف يلتزم ضمير الغائب في التعبير وضمير الغائب أقدر على التغلغل في أعماق الشخصيات المتعددة وتقديم كل شخصية على حدة على عكس ضمير المتكلم الذي لا يتعدى التعبير عن الشخصية الرئيسة وحدها، ثم يعجز عن التغلغل في أعماق الشخصيات الأخرى، ولذا رأينا ضمير الغائب هنا يقدم لنا شخصيات طبيعية يتعمق في أغوارها النفسية، ويكشفها من خلال تعرضه للقصة.

وليس معنى ذلك الاقتصار على مجرد السرد القصصي، وحكاية ما جرى ليوسف وأخوته، وإنما يتعدى هذا إلى لون من التعبير الدرامي القادر على نقل المشهد الواقعي بنبضه الحي، وحيويته الدافقة.

كما يتعدى ضمير الغائب مجرد السرد إلى لون بارع من الحوار تناثر في جوانب السورة، وساعد على التعبير الرّائع المعجز في مواقف كان من الممكن أن تكون أكثر هدوءاً وأقل جاذبية.

استمع إلى حوار الأخوة وهم يتآمرون على يوسف، وحوارهم مع أبيهم وهم يطلبون منه أن يصطحبوا معهم يوسف قبل تنفيذ المؤامرة.

هذا بالإضافة إلى اجتياز الأسلوب لكثير من التفاصيل والسرد وقفزه عبر الفجوات اعتماداً على خيال القارىء، وثقة في قدرته على ملئها.

ولنتأمل على سبيل المثال تصويره لجناية الأخوة، وقد أزمعوا أن يجعلوا أخاهم في غيابة الجب، وكيف قفز التعبير القرآني عن الحدث تكثيفاً له، وتهويلاً لفظاعته فلم يذكر حالة يوسف في الجب اعتماداً على خيال القارىء وتنشيطاً له.

وهكذا نرى التعبير القرآني وهو يلتزم أسس الفن القصصي في زمن لم تكن هذه الأسس فيه معروفة، ثم وهو يتغلغل في أعماق النفس في زمن لم يكن



التغلغل في أعماق النفس البشرية وبهذه القدرة قد عرف، ثم وهو يعبر عن ذلك بأروع أسلوب تحدى به البشر»[1].

٧ ـ المكان والزمان

مصر في قصة يوسف [المكان]

قال التهامي نقرة في سيكولوجية القصة في القرآن:

«أما المكان والزمان ـ وإن كانا عنصرين هامين في القصة الكلاسيكية بإلباسها صورة من الواقع، وتشخيصها للأحداث في جو البيئة التي جرت فيها، وكل ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثيرها في أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم ـ فإن القصة القرآنية لا يعنيها من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث الهامة مسرحاً لها: كمصر في قصة يوسف مع امرأة العزيز، ومع الملك، وفي غياهب السجن، وعلى عرش الحكم:

وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه..»[2]

فمصر إذاً هي المسرح الرئيس لقصة يوسف وفيها تجزي أغلب الأحداث بل هي المكان الوحيد في القصة الذي سمي باسمه تحديداً، وأما فلسطين مسرح طفولة يوسف فلم تذكر بالنص الصريح.

ومصر هي أكثر مكان ذكراً في القرآن، ولعل في هذا إلماحاً إلى ما ادخر الله لها من دور إذ هي كنانة الله.. ولا تكون مصر بهذه المثابة وبهذه المكانة القيادية إلا بالإسلام، ولذا حرص أعداء هذه الأمة على إبعاد مصر عن إسلامها وفك ارتباطها بدينها وعزلتها عن جسم أمتها...

---

(١) د. محمد خاطر: الإعجاز الفني في سورة يوسف.

(٢) سيكولوجية القصة ص٩٧ نشر الشركة التونسية للتوزيع.



وفي رحلات أخوة يوسف تردد متعدد بين المكانين إلى أن كان الاستقرار واجتماع الشمل بمصر.

الزمان:

«وأما الحدث فكثيراً ما يعرض مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما، لكن قد يكون لهما أو لأحدهما مجال في سير الحادثة، فيتعلق الغرض بذكره، كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف: «وجاءوا أباهم عشاء يبكون» فقد حرص القرآن على ذكر الزمن الذي دبرت فيه الجريمة وهو العشاء، هذا الجزء من الليل الذي تستر إخوة يوسف بظلامه لحبك مؤامرتهم وإنجاز مكيدتهم»[1]

والفجوات التي كان يتركها السياق القرآني ملحوظ فيها عامل الزمان مثل قوله تعالى عن يوسف: «ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً» فهنا قفزة زمنية طويلة انتقل فيها يوسف من كونه فتى أو غلاماً إلى شاب مكتمل الرجولة بلغ الأشد.

ثم في السجن يطوي النص عدة سنين بكلمات قليلة: «فلبث في السجن بضع سنين» ثم تطوى برشاقة ولطف سبع سنوات الرفاه وبدء الشدة بقوله تعالى: «وجاء إخوة يوسف»

٨ ـ توزيع العناصر في القصة

«... هذه القصة هي أطول قصص القرآن، إذ تتعدد فيها الشخصيات، وتتلون الأحداث، ويجري فيها الحوار ليناً رقيقاً، وتتوزع فيها عناصر القصة توزيعاً يتطلبه الفن القصصي، فهي موزعة بمقدار، تظهر وتختفي ـ أي عناصر القصة ـ حسب الظروف الطبيعية، وحسبما يحيط بالأشخاص من أحداث»[2].

---

(١) المرجع السابق ص٣٤٨ - ٣٤٩.

(٢) الفن القصصي في القرآن لمحمد أحمد خلف الله ص٣١٤ ونقله عنه التهامي نقرة في سيكولوجية القصة في القرآن ص٥٠٩.

«وقد بنيت بناء محكماً من حيث وحدة الموضوع وإحكام التصميم وتساوق المعاني. اشترك فيها الفن والإحساس، فجاءت ثرية بالألوان والسمات، لأنها جمعت من عناصر القصة ما تفرق في غيرها من قصص القرآن. وجاء ترتيبها للأحداث في تناسق وتسلسل.

فالمشاهد تنتقل بك ـ وهي تعرض ـ من صورة إلى صورة ومن حركة إلى حركة، حتى تأتي عليها جميعاً، وقد ارتسمت في مخيلتك حقيقة حية بفضل ما فيها من قيم أخلاقية، عرضت بأسلوب فني مؤثر.

وخيط الأحداث فيها ـ على ما بينها من اختلاف في الدوافع والمقاصد، وتباعد في الزمان والمكان ـ تمسك به العناية الإلهية من البداية إلى النهاية، فقد بدأت القصة برؤيا يوسف في عالم الغيب، وختمت بتحقق رؤياه في عالم الشهادة.

بيد أن تلك الأحداث التي كان فيها للتربية وللعواطف والغرائز دور فعّال، وانعكاسات نفسية أثرت على مواقف الأشخاص وسلوكهم هي ليست كالأحداث المبالغ فيها أو المفتعلة، التي كثيراً ما نجدها في القصص التاريخي الذي يقصه الإنسان، ويصبغه بألوان من خياله، قد تخرجه عن واقعه التاريخي، بل وعن طبائع الأشياء، ويملي على الأشخاص مواقف تفضي بهم إلى النهاية التي رسم خطتها من قبل ـ ولكن الأحداث في هذه القصة القرآنية تمثل صراعاً بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وصوت الحق ومغريات الهوى في اختيار حر، وإرادة متحررة يفسح فيها المجال للإنسان فيما يأتي ويدع من أعمال يصحبها شعور بيقظة العقل وإحساس الميل، ومراقبة الضمير، وما ينتج عن ذلك من مسؤولية شرّف الله بها الإنسان وبنى عليها تكاليفه وابتلاءه وجزاءه، مما لا يتأتى مع استعباد الإرادة..»[1]

(١) سيكولوجية القصة ص٥١٠ وقوله «الميل» لعله «الخير»

«وقصة يوسف قصة إنسانية، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الأول، فتؤثر في سير الأشخاص وتوجههم نحو الخير أو نحو الشر في حياتهم، ثم هي قصة رحبة واسعة.

ثم هي - من حيث البناء القصصي - أجود قصة في القرآن، ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص.»[1]

أما قول الدكتور خلف الله إنها أجود قصة فتعبير غير موفق شأن كثير من تعبيرات الدكتور - فكل قصص القرآن في الجودة سواء، وكل قصة تؤدي العبرة المرادة منها على أحسن وجه وأكمله وأروع بيان وأجمله، وأعمق تأثير في النفس وأفضله. لكن قصة يوسف، أطول قصة في القرآن مجتمعة في سورة واحدة لحكمة قدّرها الحكيم سبحانه.

«تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف، وتبدأ القصة بعد هذا التمهيد في شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به، يدفع إليها الحسد والغيرة، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التي يريدون سلوكها، ونراهم وهم يرددون الأمر بين جانبين: جانب القتل، وجانب الإلقاء في الجب، ونفهم أنه قد رجح الأمر الأخير. ثم نلحظ الجريمة، وقد بدأت تأخذ شكلها العملي، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب، وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون، وكيف يقع وهم عصبة، وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون. إنهم إذا لخاسرون.

ونلحظ هنا نوعاً من السذاجة يلائم العقل العربي أو العقل البدوي، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب، وكان حيلتهم للتعمية، أو التضليل إخبار أبيهم أنه قد أكله الذئب، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة في البناء القصصي، تلائم طبيعة البداوة فيما أعتقد.»[2] ا. هـ.

---

(١) الفن القصصي ص٣١٤.

(٢) الفن القصصي ص٣١٥ - ص٣١٦.



السذاجة، يقول الدكتور، ليست في تفكير إخوة يوسف الذين آعتذروا بأن الذئب قد أكل يوسف، وإنما السذاجة في البناء القصصي، فيما يعتقد! ولا أدري ما الذي حدا بالدكتور إلى مثل هذا القول؟ ولا أدري إن كان يدري ما يقول أو لا يدري؟ فإذا كانت أجود قصة قرآنية - بشهادة الدكتور - تتسم بالسذاجة فكيف بسائر قصص القرآن؟

وهل من العظمة ان يسفّ كلام البليغ أو المفكر حتى يناسب إسفاف الناس؟ فكيف بكلام الله عز وجل وهو الحكيم العليم الخبير؟

هل يعرف الدكتور قدر الله عزّ وجلّ وقدر كلامه وهو يقول ما يقول؟

ولا يقولن أحد انكم تضيقون ذرعاً بحرية الفكر والرأي وترفضون الحوار. فهذه ليست من حرية الفكر ولا مما يمكن التحاور فيه. كأن نبدأ الحوار من نقطة أن العالم غير موجود.. ونقول إن هذا القول رأي محترم ينبغي اعتباره واعتبار صاحبه مفكراً واسع الآفاق عميق الأغوار. على أن الكاتب نفسه يعود بعد قليل ليقول:

«فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكماً من حيث فن البناء القصصي. ففيها وحدة الموضوع، وإحكام التصميم وفيها جودة الحبكة. وفيها الانتفاع بالحوادث الاستطرادية.

ثم يقول: وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفني المحكم البناء، وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التي توزعتها القصص المختلفة في القرآن»[٢].

---

(٢) الفن القصصي لمحمد خلف الله ص٣١٩، ص٣٢١

٩ ـ مقارنة بين قصة يوسف في القرآن الكريم وقصة يوسف في العهد القديم

القصة القرآنية وافتراءات أهل الكتاب:

يقول ناثان أوزيل في كتابه «تاريخ الشعب اليهودي المصور» ص٩٣ المنشور في نيويورك سنة ١٩٥٣: «إن الدين الإسلامي، الذي جاء به محمد في القرن السابع الميلادي، كان كالنصرانية من نتاج الديانة اليهودية، ومحمد كالمسيح لم ينوِ إيجاد دين جديد، فقد أعلن عن نفسه كنبي يهودي. وسواء من قبيل الاقتناع أو مقتضيات الحال، وبدافع غريب عنه قطعاً، فإن محمداً في بداية حياته كنبي، كان يخاطب في مواعظه الدينية يهود الجزيرة العربية خاصة.

ولقد اقتبس الكثير من القصص والشرائع التي في القرآن من التلمود والمدراش ولكن بطريقة محرفة مدهشة. فاستعمل في تأليف سوره الشاعرية القصص الشهيرة من العهد القديم اليهودي، لآدم، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وطالوت، وداود، وسليمان، والياس، وأيوب، ويونس....»[١]، [٢]

---

(١) الإسلام في النظرية والتطبيق للمهدية مريم جميلة، وكانت يهودية أمريكية أسلمت، وترجم كتابها الأستاذ سليمان حمد ونشر في الكويت سنة ١٩٧٨ في طبعته الأولى، ص ١٩-ص ٢٠.

(٢) وتأمل القصة التالية لتعلم الموقف المنهجي والمبدئي الحازم للسلف في رفض الرواية عن بني إسرائيل: أخرج عبد الرزاق في المصنف عن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة رجل يطلب كتب أهل الكتاب فجاء فيه كتاب من عمر بن الخطاب أن يدفع إليه فلما قدم على عمر رضي الله عنه علاه بالدرة ثم جعل يقرأ عليه: «الر تلك آيات الكتاب المبين نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» قال فعرفت ما يريد فقلت يا أمير المؤمنين دعني والله لا أدع عندي شيئاً من تلك الكتب إلا حرقته» وقريب من هذه الرواية رواية عن عمر نفسه أنه استنسخ شيئاً من كتب أهل الكتاب فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً. الخ الخبر المعروف. راجع الدر المنثور ج٤ ص٣ هذا الموقف المبدئي الذي يعزز ما في القرآن ويبينه: «ولا تستفت فيهم منهم أحداً» أقول: هذا الموقف لا يدع مجالاً للشك أن المسلم لا يمكن له بحال من الأحوال أن يلجأ إلى أهل الكتاب. هذا صريح القرآن وصريح السنة وموقف سلف هذه الأمة كل ذلك يأبى أن نترك القمة السامقة من الحقيقة إلى القاع المنحط من التلفيقات الشركية والأكاذيب الموجودة عند أهل الكتاب.



وفي الصفحات التالية سنرى بالدليل القاطع تفنيد هذه المقولة المفترية الظالمة من خلال عقد مقارنة بين قصة يوسف في القرآن الكريم وقصة يوسف في العهد القديم.

يقول المرحوم الشيخ عبدالله العلمي في سفره الضخم عن قصة يوسف: «مما لا شك فيه أن قصص القرآن هو أحسن القصص وأكثره فوائد وعبرة وذكرى وعظة، وأصدقه وأشده موافقة للعقل والشرف والدين بخلاف التوراة التي بين أيدي اليهود، فإن فيها من القصص ما لا يوافق العقل ولا النقل، وليس فيها شيء من الفائدة التي تعود على القارىء بتطهير الروح وامتلاء القلب من مخافة الله...»[1]

«وإنما قال أحسن القصص إشارة إلى أنه يوجد في قصص يوسف وإخوته في التوراة - المحرفة - ما هو ليس بالحسن. والمراد بأحسنه: أثبته وأحقه...»[2]

وعند المقارنة يتضح الفرق بين القرآن والعهد العتيق، سواء في المدخل إلى هذه القصة، أو في أسلوب عرض الأحداث أو في الأحداث نفسها.

فالقرآن يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله القصة.

أما الأحداث فيها، فهي مرتبة ترتيباً منطقياً في تناسق وتسلسل، ونتائجها مبْنيّة على مقدمات يتقبلها العقل ويطمئن إليها. إنه يحرك المشاهد ويدير الحوار في صدق وحرارة، فيبرز سمات النبوة في يعقوب بقدر ما يبرز صفات الأبوّة فيه، ويعرّف بيوسف كنبي اجتباه الله، وآتاه العلم والحكمة، ليعمل جاهداً على تخليص النفوس من آفات الباطل وأوشاب الشرك، وحمايتها من غائلة المجاعة.

ويمثل بامرأة العزيز التي يغلبها الهوى، فيسد عليها منافذ الحكمة، ثم

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ج١ ص١٣١ - ص١٣٢.
(٢) المرجع السابق ج١ ص١١٦.

يستيقظ فيها الضمير بوخز الندم، فتقر بخطيئتها، وتقلع عن ذنبها، وتثوب إلى رشدها.

أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير كالقرآن إلى ما وراء الأحداث من عظات بالغة، فيجعل منها صوراً حية للإنسان حين يطغى عليه الحسد فيكيد لأخيه، وينصب له شراك الشر، وينكل به، وحين يأخذه الهوى، فيدفع به إلى مهاوي السوء، ولكنه في النهاية يتعثر، فيفتضح أمره، وتنكشف حقيقته.

ثم تصور هذه الأحداث الجانب المقابل، فتبرز شرف الإنسان وسمو نفسه حين يستنير بنور الله، ويتسلح بالإيمان، فيكون طيب السريرة، نبيل المقاصد، صبوراً في الملمات، لا ييأس من رحمة الله، ولا تغير طباعه الإحن والشدائد، لإيمانه بأن الحق قوة لا تقهرها نزوات الأهواء، ولا صولة البغي، وأن الله لن يتخلى عن نصرة من يلتجىء إليه مخلصاً مهما طال الأمد.

وإذا تعرّض العهد العتيق إلى بعض الغيبيات، فإنه ليثير الدهشة والاستغراب أكثر مما يذكي الإيمان، ويحيي ما بالنفوس من نوازع الخير، وذلك لما أتى به من تشابيه مادية غامضة تصدم الوجدان، وتدع العقل في حيرة، ومن ذلك مثلاً ما جاء في سفر التكوين عن رؤيا يعقوب عليه السلام:

«ورأى حلماً، واذا سلّم منصوبة على الأرض، ورأسها يمس السماء. وملائكة الله صاعدة نازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك واله اسحق»[1]

وهذه بعض نقاط الالتقاء والافتراق بين القصة في التوراة والقرآن:

١ - يذكر القرآن الكريم أن إخوة يوسف تضايقوا من حب والدهم له ولأخيه، ولم تشر التوراة إلى الأخ بذكر، وما في القرآن أليق بخاتمة القصة المشتركة

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص٥٢١ - ص٥٢٣.



بـين الكتابـين، من أن يوسف طلب إحضـار أخيهم، فعلى القص القـرآني كان ذهننا قد تهيأ لمثـل هذا السؤال من يـوسف عن أخيهم الذي بقي عنـد أبيهم.

٢ ـ رؤيا يوسف التي قصّهـا على أبيـه كما في النص القـرآني تتلخص في أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجـدين والذي في التـوراة أن يوسف رأى قبلها رؤيا، فقد رأى أنه وإياهم يحزمون حزماً في الحقل في الصحراء، فإذا حزمته قامت وأحاطت بحزم إخوته فسجـدت لحزمتـه حزمهم فقـال له إخوته: ألعلك تملك علينا ملكـاً؟ أم تتسلط علينا تسلطاً؟ وازدادوا بغضـا له من أجل أحلامِه ومن أجل كلامه.

وأما الرؤيا الثانية على رواية التوراة فهي كما في القرآن من حيث المضمون ولكن يوسف قصها على أبيه وإخوته، ولم يعلق الإخوة ولكن الأب انتهره وقـال لـه ما هـذا الحلم الذي حلمت هـل نأتي أنـا وأمك وإخـوتك لنسجـد لـك إلى الأرض.

وهذا غريب جداً لأن الأب يحتد ويستاء من رؤيا ابنـه، فإن كـانت وحياً فكيف يتضايق منها، وإن كانت رؤيا صبي لا مصداق لها فـما وجه الإنكـار على شيء لا كسب للولد فيه؟

وشتّان بين ما في التوراة وما في القرآن؟!

٣ ـ لم تذكر التـوراة أن الإخوة تفـاوضوا عـلى قتل يـوسـف أو أنهم راودوا أباهم لإخراجه معهم ولكن الأب يرسل يوسف لينظر سلامتهم وسلامـة الغنم ثم يرد لأبيه الخبر فذهب إليهم، وعندما رأوه تفاوضوا في شأنه.

وتـأمل، فـإن الإخوة إن كـانوا بعيـداً عن يعقوب فكيف يـرسل يعقـوب يوسف وحده في البرية بعيـداً، وإن كانـوا قريبـاً من أبيهم فما الحـاجة لأن يـأتيه بخبر سلامتهم وهم حواليه. ثم نية الشر تتولد حين رأوا الغـلام! أهذا أليق أم

تبييت النية وعقد العزم هو الأوفق؟

٤ ـ تآمر إخوة يوسف عليه إما قتلاً أو طرحاً أو إلقاء في الجب هكذا في القرآن، والذي في التوراة أن أحد الإخوة راؤبين استبعد فكرة القتل وأشار بالطرح في البئر التي في البرية، لا لتلتقطه السيارة، ولكن ليغافلهم ويستخرجه من البئر ليعيده إلى أبيهم، وان الإخوة بعد ما طرحوا يوسف في البئر جلسوا عليها يأكلون فجاءت سيارة فباعوا يوسف لها، فلما حضر راؤبين كانوا قد باعوا يوسف وكانت القافلة قد سارت فمزق راؤبين ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا إلى أين أذهب؟

ولو دققت قليلاً لرأيت الفارق الشاسع بين الكتابين، ولرأيت التهافت في السبك والحبك في التوراة، فإلى أين ذهب راؤبين في هذه اللحظات الحرجة حتى باعوا يوسف ثم جاء، ولماذا هو الوحيد الذي يغيب، علماً بأنه الحريص على إنقاذ يوسف، هذا كان يستدعي ألا يغادر المكان إطلاقاً، ولاحظ أيضاً التفاصيل الصغيرة من جلوسهم للأكل ومن كون الإخوة هم الذين باعوا يوسف.

٥ ـ في القرآن ان إخوة يوسف جاءوا على قميص أخيهم بدم كذب وجاءوا أباهم وقت العشاء يبكون أخاهم فأجابهم بما نعلم، والذي في التوراة أنهم لم يجيئوا إلى أبيهم بل أرسلوا القميص الملون المغموس بالدم وأحضروه لأبيهم بواسطة الرسول الذي أرسلوه، وآنظر هل يعقل أن يرسلوا قميص أخيهم مع رسول؟! هل هو خبر ينقل بواسطة رسول؟

٦ ـ في القرآن أن يعقوب تجلد للمصاب الجلل وما زاد على أن قال كلمات نورانية سامقة: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون». ومثل هذا الموقف الرجولي الإيماني الرفيع هو اللائق بالنبي الكريم.

وأما التوراة فتقول: «فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على



ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى، وقال إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية، وبكى عليه أبوه» وهو موقف لا يليق برجل فكيف بنبي كريم. ثم إن ما عندنا هو الأليق بمكانة نبي يوحى إليه فعلم أن ابنه سينجيه الله ويحفظه ويتم عليه آلاءه ونعمه.

٧ ـ في التوراة استطراد عن زنى أحد الأسباط بكنته!! ولعن الله من حرّف كتاب الله، ولا علاقة قطعاً بين الخبر المحشور في السياق وسياق القصة، ومن أين دلف هذا الخبر إلى السياق؟ لست أدري.

٨ ـ ليس في التوراة ما عندنا من قول العزيز لامرأته أكرمي مثواه، بل تقفز مباشرة إلى قول المرأة ليوسف عندما دخل بيتها الخاص ورفعت عينيها إليه وقالت اضطجع معي. وليس في التوراة ذكر تعرض المرأة له بالمراودة غير ما ذكر ولا تغليق الأبواب ولا قد الثوب ولا استباق الباب، ولكن فيها أن المرأة أمسكت بثوب يوسف فتركه عندها وخرج، وهي «.. قعدت ووضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته في هذا الموضوع فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك، أن غضبه حمي..» ودع عنك ركاكة النص، وتصور برودة الموقف أنها تمسك بثوبه فيتركه بيدها ويذهب فتقعد وتضع الثوب بجانبها. أين هذا من الموقف في القصة القرآنية؟!

٩ ـ ليس في التوراة قصة الشاهد على روعة مغزاها، وليس فيها خبر النسوة على إبداع دورها في النسيج القصصي، ولكن الذي في التوراة بعد أن حمي غضب العزيز أنه أخذ يوسف «ووضعه في بيت السجن وحدث بعد هذه الأمور أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر، فسخط فرعون على خصييه، فوضعهما في حبس رئيس الشرطة في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه..»

١٠ ـ في القرآن أن الفتيين هما اللذان سألا يوسف تعبير الرؤيا فدعاهما إلى الله

وعبرها لهما، وهذا اللائق والمناسب، وفي التوراة أنه دخل عليهما في الصباح ونظرهما فإذا هما مغتمان فسأل: لماذا وجهاكما مكمدان اليوم؟ فقالا له: حلمنا حلماً وليس من يعبره. فقال لهما يوسف: أليست التعابير لله؟ قصا عليّ» ونسأل: إذا كانت التعابير لله، فما وجه قصهما عليه، وهو لم يبين وجه العلاقة؟

١١ ـ في التوراة أن رؤيا الملك حصلت بعد سنتين من خروج الساقي، وأن الملك أخرج يوسف من السجن فقص عليه حلمه وهو بين يديه فعبره له، فقال فرعون لعبيده: هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله. ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا، ليس بصير وحكيم مثلك أنت تكون على بيتي، وعلى فمك يقبل جميع شعبي، إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك. . » ثم إن فرعون زوج أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون وأنجبت له ابنين دعا الأول منسى والثاني افرايم. . الخ.

وإنما نقلت الأسماء لنرى الحشو والبحث عن التفاصيل وكيف تتبدد الفائدة وراء تفريعات لا ضرورة لها.

١٢ ـ وبالنسبة لمجيء إخوة يوسف إلى مصر فإن التوراة تذكر أن يوسف حبسهم وسلك معهم مسلك اعنات حتى يأتوه بأخيهم وقال لهم: جواسيس أنتم. لتروا عورة الأرض جئتم. بهذا تمتحنون وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير. . .

١٣ ـ ونتجاوز بعض التفصيلات في سفرات الأخوة إلى مصر واختلاف ما في التوراة إلى ختام القصة حيث تقول التوراة بعد أن ذكرت موت يعقوب ودفنه: وأتى إخوته أيضاً ووقعوا أمامه، فالظاهر أن هذا السجود بعد موت يعقوب وأن الساجدين هم الإخوة فقط. وقال يوسف لإخوته في التوراة: أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض إلى الأرض التي حلف لإبراهيم وإسحق ويعقوب، واستحلف يوسف بني إسرائيل



قائلاً: الله سيفتقدكم فتصعدون عظامي من هنا، ثم مات يوسف، وهو ابن مئةٍ وعشر سنين وحنطوه ووضع في تابوت في مصر».

هكذا تنتهي القصة في التوراة بخاتمة ميتة فنياً، ولكن تأمل النهاية والخاتمة الفنية الرائعة في القرآن الكريم وقصصه الذي هو أحسن القصص:

«وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً. . .

رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين».

هذه الخاتمة المفتوحة الأفق الممتدة بلا انتهاء والمتجددة العطاء والتي لا تزال ترن أصداؤها في جنبات النفس وأعماق الوجدان، بكلمات النبي الخالدة الباقية الحية أبداً:

«توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. . .»

المبحث الرابع

صورة المجتمع المصري
كما تبدو من إشارات قصّة يوسف

١ ـ الوضع الديني.
٢ ـ الجانب السياسي.
٣ ـ الوضع الاجتماعي والأخلاقي.
٤ ـ الوضع الاقتصادي.

صورة المجتمع المصري
من خلال قصة يوسف

لم يحدثنا القرآن الكريم في قصة يوسف حديثاً مباشراً مستقلاً عن هذا الموضوع، ولكنه في ثنايا عرضه للقصة قد بث من الإشارات والملح إلى ما يمكن أن نضمه إلى بعضه البعض فيتشكل منه صورة جلية واضحة للمجتمع الذي حدثت في ظله وعلى أرضه أحداث هذه القصة.

ولسهولة إدراك صورة المجتمع قسمته إلى جوانب حاولت تحليل وضع المجتمع فيها جانباً جانباً... بدءاً من الجانب الديني:

١ - الوضع الديني:

وجدنا في حياة المصريين كلمات دينية تتسرب عبر كلماتهم العادية، ورأينا لهم ارتباطاً بالغيب من خلال طلب تفسير الرؤى للساقيين وللملك.

ووجدنا رائحة الدين في عدالة الملك.

ولكن يبدو أن الوضع لم يكن على دين بالمفهوم المتبادر، بل هم قوم مشركون كما ورد صريحاً في حديث يوسف عنهم مستنكراً مصوباً في قوله: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

ومن المواقف التي تنم عن بقايا دينية قول الشاهد أو العزيز:



«.. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين.» فقد ورد في كلامه الاستغفار، وذكر الذنب، والخطيئة، وهذه قيم متأثرة قطعاً بقيم السماء، وكذلك قول النسوة حين رأين يوسف:

«حاش لله، ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم». فهن ينزهن الله عز وجلّ، ثم يشبهن هذا الشخص الكامل في شخصيته بالملك ويصفن الملك بأنه كريم. فمعرفة الملائكة، وجودها وصفاتها مما يدل على تأثر بالدين، وعلى وجود هذه البقايا من التعاليم متداولة في المجتمع، ولو ذكراً باللسان ومعرفة نظرية مجردة.

ثم قول النسوة أمام الملك: «قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم».

ولكن كل هذه القيم النظرية، والكلمات التي سمعناها تتردد في مواقع مختلفة، لم تكن تمت إلى الدين العملي السلوكي الصحيح بأدنى صلة، فالقوم مشركون كما شهد يوسف، وهم سيئو السلوك كما في فعلة امرأة العزيز والنسوة بعد أن قلن عنه إنه ملَكٌ طفقن يراودنه على الفاحشة، ومن هنا قال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، ثم هم يسجنون المظلوم يوسف بعد أن تأكدوا من براءته: ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين.

ولعل أوضح ما يصمهم بالتردي في الأوضاع الدينية ما تبيناه من دعوة يوسف للسجينين وجهلهما بالتوحيد، وقوله لهما معلّماً داعياً:

«إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون..»

«يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان



إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

وتأمل تعريف يوسف للدين والعبادة، وهو ما يجهله المصريون ـ في ذلك الوقت ـ فجعل الحاكمية لله هي صورة العبادة العملية الاجتماعية، وهذا هو الدين القويم الصحيح وهذا هو التدين الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الصورة من الدين والتدين وإنما الذي عندهم خليط من الجاهلية والشرك وبقايا قيم سماوية وهنت آثارها في النفوس وبهت دورها في المجتمع، وصار السلوك العملي في واد والمعرفة النظرية ـ إن وجدت ـ في واد آخر.

وما أشبه وضعهم بأحوال مجتمع الجاهلية الذي واجهه النبي محمد ﷺ فقد كانت فيه كلمات الدين تسمع فهم يحلفون بالله، ويتسمون بأسماء تنتسب له مثل عبدالله، ويعظمون بيته ويحجونه ويعرفون ـ نظرياً ـ الحلال والحرام.. الخ.

وحال الجاهلية هو هذا في كل عصورها ومجتمعاتها، تظن أنها بهذه الذبالة المتهالكة من الكلمات التي لا رصيد لها قد حازت الدين كله واستحقت رضوان الله وجنته، ومن هنا ترفض دعوة الأنبياء لأنها في نظرها تريد تغيير الدين الحق الذي استمرت عليه أجيال وأجداد.

٢ ـ الوضع السياسي:

وردت في القصة إشارات عديدة يمكن من خلالها استشفاف صورة الوضع السياسي في مصر، فبينما لا نجد في قصة موسى وصف الحاكم إلا باسم فرعون.. يلفت نظرنا هنا وصف الملك دون لقب فرعون، وقد استوقف هذا صاحب الظلال واستنتج منه ومن غيره من الإشارات أن الحكم في هذه الحقبة كان للرعاة الهكسوس ولم يكن للأسر الفرعونية. كما استنتج نفس النتيجة من



وجود بعض قيم الدين ومفاهيم الدين في كلام شخصيات القصة، «إن هذا إلا ملك كريم» «قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء. . »الخ.

وبدا من خلال القصة أن الملك كان يعاونه في الحكم رئيس وزراء أو كبير وزراء يسمى العزيز، وأن الملك كان محاطاً بالكهنة وأن لهم في الدولة وضعاً ومركزاً ومكانة عند الملك يفزع إليهم في المهمات والملمات، ويستشيرهم فيما يطرأ عليه أو على الدولة من أمور، ويبدو أن الملك كان يعزو كثيراً من الأمور إلى التفسيرات الغيبية الغامضة.

ولا ندري إن كنا نستطيع أن نستنتج من كثرة تردد مشهد السجن أن البلد كان يعيش حالة من التشديد والتضييق وربما الأحكام العرفية. . وأن أكثر من طرف يستطيع أن يسجن وأن يتصرف في حرية الناس، بدليل «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه» والملك لم يكن على علم بالقصة.

ولا ندري فيم كان الفتيان يقضيان عقوبة في السجن وما الذي جعل أحدهما ينال حكم الإعدام مع التنكيل في تنفيذ العقوبة إذ ترك مصلوباً لتأكل الطير من رأسه، فهل كان مشتركاً في مؤامرة ثبتت عليه التهمة فيها، وتبرأ منها الساقي فخرج من قرارة السجن إلى منصب ساقي الملك. والغريب بعد هذا موقف الملك العادل في التحقيق في قضية يوسف ولا ندري أهي العدالة أم الحاجة؟

يقول الدكتور أحمد يوسف في كتابه مصر في القرآن:

«كان دخول يوسف مصر على المشهور أيام احتلال الهكسوس مصر ـ وقد كانوا قوماً آسيويين ساميين أو تغلب فيهم العناصر السامية من سوريا وفلسطين. . ثم لم تلبث حياة الاستقرار أن هذبت الهكسوس فأخلدوا إلى ما وجدوا من المدنية والحضارة المترفة التي أتاحتها الحياة المصرية إذ ذاك. فاتخذ ملوكهم ألقاب الملوك المصريين، وآلهتهم، وأطرافاً من حضارتهم، وتسموا ببعض أسمائهم.

ومهما يكن من شيء فقد اتخذ الهكسوس عاصمة ملكهم في شرق الدلتا حيث فتحوا أبواب مصر الشرقية لهجرة العناصر السامية والكنعانية من بني جلدتهم، فدخلوها أفواجاً لا يصدون عنها، وكان منهم من غير شك الرعاة الذين أقبلوا على مصر يطلبون الحياة السهلة والإقامة الناعمة والمرعى الغزير.

وفي هذا الزمان الذي أظل مصر، أقبل يوسف عليها. وكان ملوك الهكسوس من غير شك قد أدخلوا بعض المصريين من أهل الدلتا المحتلة في خدمتهم وانتحلوا بعض عادات المصريين وبعض أسمائهم.[1]

وفي الحديث عن الوضع السياسي يقول الدكتور عبد العزيز كامل: «يأتي الإنذار الإلهي في صورة رؤيا يراها الملك.. إني رأيت.. يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي..»

ونستطيع أن نرى مظاهر متعددة للسلبية في هذا الموقف، ثم رد من حوله «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»

ويعود القصر إلى ما فيه من حياة يومية عابثة.

وتتكامل بهذا صورة ما في قصر الملك مع ما في قصر العزيز، وإذا كان الملك قد أغمض عينه عن حقائق الحياة في مصر، أو ألقى الذين من حوله بينه وبين الحقيقة حجاباً، فإن هذه الحقائق قد لاحقته في منامه وصورت له المصير الرهيب الذي ينتظر البلاد إذا لم يدبر أمرها.

ولم تكن المجاعات غريبة عن مصر من حيث ارتباطها ـ أساساً ـ بارتفاع النيل وانخفاضه، وما يتعلق بذلك من فقر وأعباء جديدة تضاف إلى ما يحمله الشعب من أعباء تنوء بها الجبال... ولكن من حول الملك كانوا على شاكلته لا يريدون عملاً جاداً. وهم ـ حتى في المجاعة ـ يستطيعون أن يدبروا أمر أنفسهم فما لهم ولهذه الجموع الشعبية؟ وما لهم والجهد التنظيمي الكبير؟»[2]

---

(١) أحمد يوسف: مصر في القرآن والسنة ص٤٠ - ص٤١ سلسلة اقرأ رقم ٣٧٣ سنة ١٩٧٣.
(٢) عبد العزيز كامل: مواقف إسلامية ص٨٢ - ص٨٣ سلسلة اقرأ ٣٢٧.



٣ ـ الوضع الاجتماعي والأخلاقي في مصر كما تصوره سورة يوسف:

ظهر لنا الوضع الاجتماعي في أكثر من موقف، بمنها تجارة الرقيق، ومنها كذلك وضع المرأة في المجتمع، ويبدو أن لها دوراً بارزاً في المجتمع، ويبدو مستوى الحكام مترفاً من خلال الإشارة إلى بيت العزيز في قوله تعالى: وغلقت الأبواب، وقوله: واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً» فقد رسمت هذه الإشارة على قصرها صورة معبرة لمستوى ونمط الحياة في مصر وقصور مصر.. فهو مجتمع عابث ماجن متهتك مستهتر إلى حد المجاهرة والمعالنة بالمعصية بلا مواربة ولا حياء.

وبرغم كل هذا نجد بعض القيم الدينية خافتة الصوت خفيفة النبرة، مبهمة غامضة تتردد على الألسنة ولا مكان لها في ميدان الحياة العملية والسلوكية،

يقول الدكتور عبد العزيز كامل في وصف الوضع الاجتماعي في مصر إنه من خلال قصة يوسف، «ومن قصر العزيز نرى نموذجاً من التحلل الاجتماعي والانهيار الأخلاقي في قصور الطغاة وقتئذ..

شاب في ريعان صباه في معزل عن أهله، بعيد عن توجيههم، جاء إلى القصر بعد تجربة قاسية من سوء معاملة الإخوة.. ولكن بتراث روحي تلقّاه من أبيه... بهذا التراث الروحي جاء يوسف مصر وعاش في بيت العزيز، فإذا بالشر يأتيه من البيت الذي يعيش فيه.. فمع الترف الذي كان فيه البيت وأهله انحلال خلقي يبدو بأكثر من صورة:

١ ـ صورة مراودة امرأة العزيز فتاها عن نفسه... وكان منها بمنزلة الابن.

٢ ـ صورة تخاذل رب البيت في حسم الأمر، بعد أن عرف بانحراف زوجه وبراءة يوسف. وكان كل همه أن يكتم آلامه فلا تصل أخبار الحادث إلى المدينة، واكتفى بأن أمر زوجه بالاستغفار لذنبها، وأمر يوسف بالصمت



والإعراض عن هذا الذي حدث.

٣ ـ صورة استكبار امرأة العزيز مرة أخرى، وسعيها لجمع نساء المدينة اللاتي سمعن بالقصة وإخراج يوسف عليهن في محاولة لتبرير ما فعلت، ثم إنذار يوسف بالسجن إذا لم يفعل ما تأمره به.

٤ ـ صورة السلطة الباغية التي كانت في يد امرأة العزيز والتي استطاعت بها أن تلقي بيوسف في السجن، وكان كل ذنبه صيانته لنفسه وأهل البيت الذين يعيش معهم، ولم يذكر القرآن السبب الذي من أجله دخل معه السجن الفتيان.

وكذلك يعطينا القرآن صورة من صور هذا التجبر الذي يبدو مع سيطرة الترف وفساد الجهاز الحاكم وقتئذ إذا علمنا أن القرآن لم يحدد المدة التي قضاها يوسف في سجنه.

ومن الممكن متابعة التحليل الاجتماعي للقصة.. وإنما الذي يعنينا الآن انعكاس هذا على الأوضاع الاقتصادية في المجتمع، وغفلة الحاكمين عن النظر إلى مصالح الناس، وقصر النظر الذي عاشوا به، حتى صرفهم عن التدبير لأمر المستقبل.. كان مجتمعاً يعيش ليومه: المترفون والحكام في شهواتهم، والشعب مضيع، ومن حول الحكام «طبقة» يعطينا القرآن صورة من صور أحاديثها عندما اهتمت بقصة امرأة العزيز مع فتاها هذا والمجاعة على الأبواب..»[1]

مكانة المرأة في المجتمع:

«يدل تهديد امرأة العزيز ليوسف على ثقتها بسلطانها على زوجها رغم علمه بأمرها، وآستعظامه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين عن

---

(١) د. عبد العزيز كامل: مواقف إسلامية ص٧٩ - ص٨١، القاهرة: دار المعارف سلسلة اقرأ رقم ٣٢٧/١٩٧٠.



صد زوجاتهم، وإن لنساء الأكابر في الأمصار التي أفسدتها الحضارة كيداً وخداعاً. . »[1]

«كما أن هذه المشاهد تلقي الأضواء على نفسية المرأة المترفة ذات المنصب الرفيع، وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها، حتى لتملك منه القياد في المواطن التي تتأجج في مثلها قلوب الرجال غيرة وحمية، فقد كان جواب العزيز بعد أن تبين له حسب شهادة شاهد من أهلها، أنها هي التي راودته. . »[2].

يعلق الأستاذ محمد علي أبو حمدة على قول الشاهد: «وآستغفري لذنبك. . » فيقول:

«إذاً فقد كان لهذه المرأة أهل من ذوي التعقل والتبصر والحكمة والفطنة. وهذا الفضل لا يكون في المجتمعات الجاهلية إلا إذا كان أهله على درجة عالية من مكارم الأخلاق والانتصار للحق مهما كانت مؤونة الحق ثقيلة. وإذاً فالمرأة واقعها الاجتماعي قد كان ينأى بها من أن تكون فريسة للشهوات في مثل هذا الموقف الطارىء. وإنه من خلال هذه القرينة الواضحة دلالاتها نلغي بكل ثقة وطمأنينة ما توسمه الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف من أن مجتمع الحكام في مصر في تلك الفترة كان واغلاً في الفساد والانحلال حيث يقول:

«صورة دقيقة لمجتمع فاسد آثم، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس من فساد وانحلال، ولو لم يكن لدينا عن مصر في ذلك الزمان سوى تلك القصة لاتخذناها وحدها دليلاً على مجتمع يسوده الأجانب والغرباء، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها إلى ذلك المجتمع الأجنبي مطمئنين، لأنها إنما تخالف عن طبيعة الأشياء في مصر، وتخرج عن سليقة المصري بما ركب فيه من الانفة والحمية والكرامة والكبرياء»[3]

---

(١) تفسير المنار ج١٢ ص٩٩ ونقله عنه التهامي نقرة في سيكولوجية القصة ص٤٠٥.

(٢) سيكولوجية القصة ص٤٠٥.

(٣) مصر في القرآن والسنة ص٤٥ سلسلة اقرأ عدد ٣٧٣، دار المعارف بمصر ١٩٧٣ ومما لم ينقله



ويرد الأستاذ أبو حمدة على الدكتور أحمد عبد الحميد فيقول:

«أما ما يدافع به الدكتور أحمد عن مجتمعات مصر قبل الإسلام فما أظنه في حاجة إلى مثل هذا الدفاع، لأن مقاييس المجتمعات لم تكن إسلامية، وبالتالي فلا يصح الاعتزاز بغير الإسلام سواء أكان المصريون القدماء هم أجداد الدكتور أحمد عبد الحميد على الحقيقة أو لم يكونوا أجداده يقيناً.

ثم يعقب الأستاذ أبو حمدة على الآية الكريمة: «وما أبرىء نفسي» فيقول:

«وحتما ما كانت امرأة العزيز لتقول مثل هذه الاعترافات الخالصة لو لم تكن من معدن إنساني رفيع المستوى. فالأصل أنها ذات استقامة ونفس عالية، ولكن هذا التصرف الغريب إنما كان طارئاً سوّلت به النفس»[1]

ولنا مع الأستاذين وقفة، أما الدكتور أحمد يوسف فواضح فداحة الخطأ الذي وقع فيه، والذي أملاه العصبية والبعد عن الموضوعية. ومع أن موضوع كتابه مصر في القرآن والسنة، إلّا أن الالتزام بقيم القرآن والسنة لا يبدو واضحاً. فالقرآن وصف مصر في العهد الفرعوني بما يلي:

﴿وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب.﴾

﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾

﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.﴾ يونس ٧٥.

= الأستاذ أبو حمدة عن الكتاب المذكور قوله كذلك ص٤٦: هذا مجتمع وذاك مجتمع، هذا مجتمع مصر الصريح وذاك مجتمع الدخلاء القبيح. ويقول: لقد كان المجتمع المصري القديم مجتمع التقوى ومكارم الأخلاق، وكان حكمه على مثل تلك الجرائم قاسياً، فلم يكن المصري ليقبل في الخيانة والخنا هوادة ولا ليناً.. الخ ص٤٦. وللكاتب شطحات تحتاج إلى رد لو كان المجال يتسع إذ نسب إلى أنبياء بني اسرائيل ما قالت التوراة المزعومة.

(١) في التذوق الجمالي ص٣٥ - ص٣٦.



﴿وإذ نادى ربك موسى أن آئت القوم الظالمين، قوم فرعون ألا يتقون﴾ الشعراء ١٠ - ١١.

والايات في هذا كثيرة، وهي قطعاً ليست تتحدث عن مصر في عهد الهكسوس وإنما تتحدث عن مصر في عهد الأسر الفرعونية وفي ظل حكم رمسيس وغيره.

أفلم يقرأ الدكتور الكريم القرآن الكريم وهو يتحدث عن مصر في القرآن والسنة؟! أم ان التعصب أغمض العين عن مثل هذه النصوص الواضحة، أو جعل الكاتب يلوي أعناق اللغة والمعاني لتلائم مقولته، كما قال كاتب آخر، مستنتجاً من قول فرعون: «ذروني أقتل موسى..»:

إن مصر كانت تحكم بطريقة ديموقراطية، وأن قولة فرعون هذه تشهد بأن الشعب له الكلمة والقرار، وعبارته بالنص:

«قد يتساءل البعض: وهل كان الشعب المصري هناك؟ والجواب أنه كان هناك، وكان له شأن ووزن فيما كان يحدث إذ ذاك، ولعل هذا الشأن هو الذي حال دون إسراع فرعون بقتل موسى وأخيه، فما كان لهما من قوة تحميهما في نظر فرعون إلا الخوف من صياح الرأي العام بعد أن سمع ما سمع ورأى ما رأى»[1] ثم يقول في موضع آخر عن الشعب: «كان منهم المعارضة لفرعون في قتل موسى» ص٤٨.

ثم يقول: «كان زوال هذا النظام إذاً أملاً يتطلع إليه الشعب عامة... وقد ظهر موقف مصر صريحاً من موسى وفرعون ولم يظهر لبني إسرائيل كثير أو قليل» ص٥١.

وتحت عنوان: فرعون في الميزان يقول إنه ضمه مجلس مع بعض كبار

(١) عبد الرحيم فودة: قصّة بني إسرائيل من معاني القرآن ص٤٧.



العلماء والمثقفين. . . فكانت المفاجأة الغريبة أن يسمع الجميع من شيخ كبير أن فرعون كان عظيماً وكريماً في موقفه مع بني إسرائيل»[1].

أما الأستاذ أبو حمدة فقد كان رأيه النقيض للرأي السالف، ولسنا نوافقه فيما ذهب إليه من قوله: «وهذاالفضل لا يكون في المجتمعات الجاهلية إلا اذا كان أهله على درجة عالية من مكارم الأخلاق والانتصار للحق. . .»

أين مكارم الأخلاق في إجماع النسوة على مراودة يوسف؟ والمراودة واضحة من قول يوسف: وإلا تصرف عني كيدهن، وفي قول الملك: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه.

وأين مكارم الأخلاق يا ترى في إبقاء الفتى مع سيدته على الرغم مما جرى؟

وأين مكارم الأخلاق في تبجح المرأة أمام زميلاتها بأنها فعلاً راودته وأنها ماضية في غيها سادرة في ضلالها حتى يرضخ لها، وإلا فالسجن هو المصير. ؟

وأين الانتصار للحق في وضع يوسف في السجن من بعد ما تجلت آيات براءته، وبراهين طهارته وعفته: «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين. »؟

لقد وضع في السجن ونُسي ليمكث بضع سنين. . فهل هذا المجتمع الذي يجرّم فيه البريء على يد أعلى مستويات المسؤولية مجتمع ينتصر للحق؟

ما أجمل التعامل مع النصوص دون أحكام مسبقة! لندع النص يتكلم ولا نتكلم نحن والنص ناطق صريح بمراده.

إن الجاهلية هي الجاهلية هكسوسية كانت أو فرعونية. . وما بنا من حاجة لتعصب لمجتمعات عفا عليها الزمن. . وأكرمنا الله بانتماء إلى دينه وأمة هذا الدين بدل الانتماء إليها.

---

(١) قصة بني إسرائيل ص٦٢ - ص٦٣.



٤ ـ الوضع الاقتصادي في مصر

هناك إشارات ولمحات نستطيع من خلالها أن نستشف معالم إطارٍ للوضع الاقتصادي في مصر، أول هذه الإشارات ظهرت في قول إخوة يوسف:

«يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين». وكان ما توقعوه: «وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام..»

فإخوة يوسف لم يتوقعوا هذا الذي توقعوا إلا لأن مبررات هذا التوقع موجودة في الواقع، فالقوافل التجارية بين مصر وفلسطين كانت لا تنقطع، ولا ندري إن كانت تنتهي إلى فلسطين أو تمتد بعدها إلى سائر الشام وهذا المرجح، لأن فلسطين لم تكن على شيء من التحضر يغري قوافل مصر بالقدوم إليها، فالغالب أنها كانت تتعداها إلى ما بعدها..

ثم إن تجارة الرقيق كانت قائمة موجودة، فالوارد تهلل مذ رأى الغلام، لأنه رأى فيه مغنماً وسلعة يبيعها ويستفيد من ثمنها.

وهل شراء يوسف بثمن بخس دراهم معدودة من قبل العزيز، مع كون يوسف على ما هو عليه من الوسامة ومخايل الذكاء، هل هذا يوحي بشيء من الضيق الاقتصادي؟ نقول انه لا يوحي ولكن، من المحتمل أن الذي باعه باعه بهذا الثمن البخس لأنه لم يبذل فيه شيئاً، أو لأنه يعلم أنه حر، أوْ لأنه جامل بهذا السعر البخس عزيز مصر لما يتوقع منه من تسهيلات مع أنه كان يمكن أن يبيعه بسعر أعلى، كل ذلك محتمل.

والأشارة الأخرى إلى الوضع الاقتصادي نستشفها من صورة بيت العزيز:

«وغلقت الأبواب» فهو بيت له جملة أبواب مما يدل على السعة والفخامة، وقد يقال أن هذا هو وضع علية القوم، ونقول نعم، ولكنه يلمح ولو من طرف خفي إلى الوضع العام في البلد.



ودعوة امرأة العزيز للنسوة: «واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً. .» يدل أيضاً على مستوى معين من الرفاهية الاقتصادية.

قال في الظلال: «لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها. وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية. فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور. وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر. ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان. فأعدت لهن هذا المتكأ، وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها في الطعام ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً، وأن الترف في القصور كان عظيماً. فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية. . .»[1]

وهناك إشارة أخرى إلى الوضع الاقتصادي في مصر من خلال رؤيا الملك وتفسير يوسف لها، فمن ذلك تبرز لنا إمكانات مصر الزراعية وأنها تستطيع أن تنتج في عام ما يكفيها وكثيراً من جيرانها لمدة عامين، مما يدل على وفرة العطاء وخصب الأرض.

«قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الأ قليلاً مما تحصنون.»

وتصور أن مصر كانت موئل الممتارين من البلاد المجاورة، تعطي كل قادم إليها حمل بعير كما فهمنا من إشارة إخوان يوسف على أبيه أن يرسل معهم أخاهم:

«فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون. .

«ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي

---

(١) الظلال ج٤ ص٧١٦.



هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، ذلك كيل يسير..»

والإشارة الأخرى في هذا النص من تأويل رؤيا الملك جاءت على لسان يوسف:

«ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون».

وتأمل وقارن بين النصين الكريمين: «تزرعون سبع سنين دأباً» «عام فيه يغاث الناس.» وكأن الخيرات لوفرتها وغزارة الإنتاج كأنه فيض دافق عليهم من السماء دون جهد منهم وليس عليهم هم إلا الجمع والعصر «وفيه يعصرون.»

ثم إن مصر موئل الجماعات الأقل تحضراً، كما هو شأن المدينة دائماً مع البادية، ظهر هذا في خاتمة القصة حين وجه يوسف الكلام لأبيه ذاكراً نعم الله عليه وعليهم أجمعين إذ أتى بهم إلى حيث الرغد.. إلى مصر.
«وجاء بكم من البدو»
فالنقلة من حالتهم التي كانوا عليها إلى مجتمع مصر نقلة كبيرة تستحق من يوسف ذكرها وتسجيل امتنان الله عز وجل على عباده حين أكرمهم بها.

هذه باختصار بعض ملامح مصر الاقتصادية كما تجلت خلال أحداث من قصة يوسف.

بعد عرض جوانب الحياة المختلفة ومقدار الفساد الذي ينخر فيها وكم الانحراف الذي تراكم في جنباتها، كان من رحمة الله أن تدارك هذا المجتمع بينبوع الحياة ومعين القيم الصافية الرقراقة تتردد على لسان الداعية المخلص العظيم والرسول الكريم.. يوسف. وكان من ثمرات وبركات هذه الدعوة أن تغيرت صورة المجتمع المصري - ولو إلى حين من الدهر - من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى النقيض. ذلك لنعلم أن أولي البقية من الرجال والدعاة هم أمل الإنقاذ في المجتمعات البشرية، وهم الأساة والأسوة والأطباء والصيادلة



المداوون لأدواء وعلل المجتمع التي كان يمكن أن تأتي عليه من القواعد كما قـال الله تعالى:

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولـو بقية ينهـون عن الفساد في الأرض﴾

﴿. . . ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتـاهم من نذيـر من قبلك لعلهم يتذكرون. ولولا أن تصيبهم مصيبة بمـا قدمت ايـديهم فيقولـوا ربنا لـولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾.

الفصل الثاني

التناسق في سورة يوسف

وفيه ثمانية مباحث:

١ ـ التناسق والتناسب بين سورة يوسف وما قبلها وما بعدها.
٢ ـ التناسق بين فاتحة سورة يوسف وخاتمتها.
٣ ـ الوحدة الموضوعية في سورة يوسف.
٤ ـ التناسق بين القصة والواقع الذي تنزلت فيه.
٥ ـ التناسق في وحدة الجو الذي يشيع في السورة.
٦ ـ التناسق في الإيقاع الموسيقي.
٧ ـ التناسق في رسم الشخصيات.
٨ ـ لتناسق بين القصة والتعقيبات

التناسق في سورة يوسف

من أوجه الإعجاز في هذا الكتاب المعجز العظيم أنه متناسق كما قال الله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه آختلافاً كثيراً﴾

ونريد أن نتأمل هذه السورة العظيمة بحثاً عن بعض أوجه التناسق والذي نذكره في هذه العجالة وفي هذا المقام شيء يسير من شيء كثير من أوجه التناسق.. في هذه السورة.

ومن ألوان التناسق فيها:

١ ـ التناسق بين سورة يوسف وما قبلها وما بعدها.

٢ ـ التناسق في الوحدة الموضوعية في تساوق أحداثها.

٣ ـ التناسق مع الجو الذي نزلت فيه ومع ظروف الحركة الإسلامية.

٤ ـ التناسق في الجو الذي يشيع فيها، وألوان من التعبير الخاص فيها.

٥ ـ التناسق بين القصة والتعقيبات التي ختمت بها السورة.

٦ ـ التناسق في رسم الشخصيات الرئيسية والثانوية.

٧ ـ التناسق في الإيقاع الموسيقي.

٨ ـ التناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها.

***

١ ـ التناسق والمناسبة بين سورة يوسف وما قبلها وما بعدها

بين السورتين الكريمتين المكيتين القصصيتين المتواليتين ترتيباً ونزولاً والقريبتين في عدد الآيات (سورة هود تزيد ١٢ آية) بينهما العديد من أوجه الشبه، منها:



* أن سورة هود ذكرت قصة إبراهيم وسورة يوسف ذكرت قصة أحفاده وورد فيها اسم إبراهيم أكثر من مرة - بل إن إبراهيم في سورة هود بُشّر بيعقوب، الذي تدور قصة يوسف حوله وحول ابنه الكريم يوسف.

* وفي سورة هود قصة نوح مع ابنه وفي سورة يوسف قصة يعقوب مع ابنه، لكن شتان ما بينهما، ابن نوح قال إنه سيأوي إلى قمة جبل - ظالماً -، ويوسف ألقي في قعر جب - مظلوماً - والذي طلب النجاة هلك، والذي طلب له الهلاك نجا.

* في سورة هود ورد على لسان نوح في دعوة قومه: ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله.» وعلى لسان هود: «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني» وفي سورة يوسف خطاب لمحمد ﷺ: «وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين».

* في سورة هود ويوسف نفس هذه السنّة: ﴿**واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ هود ﴿**إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ يوسف.

* في سورة يوسف ورد هذا الناموس: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾.

وما أجمله وأصدقه وأجمعه قانوناً يلخص كل قصص سورة هود، فكأن القصتين لحمة واحدة جاء التعقيب قريباً من أن يكون تلخيصاً لقصص السورة تلك أكثر من كونه تلخيصاً لهذه، وتأمل من قصة نوح كيف يتطابق مع هذا الناموس: «وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون... حتى إذ جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها..»

وكذلك هود وصالح «فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة



منا» ولوط الذي بلغ به الكرب أن يقول لقومه يائساً منهم حانقاً عليهم: «لو ان لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد - قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك...» «ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين».

* وكثير من قصص سورة هود يجري بين فلسطين ومصر، وكذلك قصة يوسف.

* في خاتمة سورة هود وصف لقصص السورة بأنه: «الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» وفي ختام سورة يوسف وصف للقصص القرآني الذي تضمنته بأنه «ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

* وفي آخر كل من سورة هود ويوسف ذكر الآخرة.

* وفي ختامهما ذكر السموات والأرض.

* وفي سورة هود ذكر المكيال مرات وكذلك في سورة يوسف ورد الكيل مرات.

* وفي خواتيم سورة هود: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾** وفي سورة يوسف مشهد من هذا الاختلاف وقع بين الإخوة الذين يفترض أن يكونوا مؤتلفين، ويكونوا أبعد الناس من الخلاف.

* ورد على لسان الرسل في سورة هود أن كل نبي منهم على بينة من ربه: نوح: **﴿أرأيتم ان كنت على بينة من ربي﴾**. **﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾** وصالح يقول ذات الكلمة التي قالها أخوه نوح. وكذلك شعيب. أقول ما أشبه هذه بقوله تعالى في سورة يوسف موجهاً الخطاب لخاتم المرسلين: **﴿أدعو إلى الله على بصيرة﴾**.

* وما أشبه قصة شعيب مع قومه في سورة هود حين قالوا له: **﴿وإنا**



لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾. وكانوا الأذلة وهو العزيز. ما أشبهها بقصة يوسف مع إخوته: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً..» ثم كان هو «العزيز»... بعد أن كان المستضعف المكيد.

قال في المنار مبيناً وجه الشبه بين سورة يوسف وهود عليهما السلام:

«والمناسبة بين سورة هود وسورة يوسف أن سورة يوسف متممة لما فيها من قصص الرسل، والاستدلال في كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالاً على رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ، بآيتين متشابهتين، ففي آخر قصة نوح من سورة هود: **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾** وفي آخر سورة يوسف: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾**.

وإشارة التأنيث «تلك» في الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة، وقيل للسورة، وإشارة التذكير في الثانية «ذلك» لقوله تعالى في أول السورة: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾**.

والفرق بين قصتها وقصص الرسل في التي قبلها وفي سورة الأعراف وغيرها أن تلك قصص للرسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم، لإنذار مشركي مكة ومتبعيهم من العرب، وقد كررت بالأساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الإعجاز.

وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده ؤاكتهل فنبىء وأرسل ودعا إلى دينه، وكان مملوكاً ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الإدارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار حياته وطوارئها وطوارقها، وأعظمها شأنُهُ مع أبيه وإخوته، آل بيت النبوة، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة.

وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ثم كانت إلى تمام المئة في تاريخ يوسف، وختمت بإحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل.[1]

وفي التناسق بين خاتمة سورة هود وفاتحة سورة يوسف قال في الفتوحات الإلهية ومحاسن التأويل عن الشهاب:

«لما ختمت سورة هود بقوله تعالى: ﴿**وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل..**﴾ ذكرت هذه السورة بعدها لأنها من أنباء الرسل، وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء من قومهم وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ليعلم ما قاسوه من أذى الأجانب والأقارب فبينهما أتم المناسبة، والمقصود تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى الأقارب والأباعد».[2]

ب ـ المناسبة بين فاتحة سورة يوسف ويونس

«فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا وبالحكيم هنالك، وهما في أعلى ذروة من البيان، وأقصى مدى من الحكمة والاحكام، آختير في كل من السورتين ما يناسبها، فسورة يوسف موضوعها أصل الدين وهو توحيد الألوهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة بإعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة.

وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها، فالبيان بها أخص[3].

---

(١) تفسير المنار، ج١٢ ص٢٥٠ طبعة دار المعرفة الطبعة الثانية.

(٢) الفتوحات الإلهية، حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص٤٣١ - ص٤٣٢ وهو ينقله عن حاشية الشهاب على البيضاوي.

وارجع إلى محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٣٥٠١.

(٣) تفسير المنار ص٣ ج١٢.



جـ - التناسق بين سورة يوسف وسورة الرعد

سورة الرعد هي السورة التالية لسورة يوسف، وهي مفتتحة بالحروف المقطعة ولكن تتميز بزيادة حرف الميم على ما في حروف سورة يوسف، فهي مفتتحة بـ «آلمر».

على أنّ سورة الرعد أطلقت الكتاب عن الوصف، بينما وصفته سورة يوسف بالمبين، فجاء في أول الرعد: ﴿**آلمر تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربّك الحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ «١».

ثم ابتدأت سورة الرعد بعد آية الافتتاح في عرض مشاهد كونية من الطبيعة من الأرض والسموات.

﴿**الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾ «٢»

﴿**وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ «٣».

وختمت الآية التي بعدها بقوله: ﴿**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ «٤»

هذه الفاتحة من سورة الرعد، والتي جاءت مفصلة، منسجمة متناسبة مع ما أوجزته خاتمة سورة يوسف، من إشارة كونية في قوله تعالى: ﴿**وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**﴾ ١٠٥

وجاء في ختام سورة يوسف تقرير أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، وفي سورة الرعد تفصيل في الحديث عن شرك الناس المشركين، في



مثل قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾

«قل من رب السموات والأرض، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، قل هل يستوي الأعمى والبصير، أم هل تستوي الظلمات والنور، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار».

«أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، وجعلوا لله شركاء قل سموهم، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد. . .»

* وجاء في خواتيم سورة يوسف قوله تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى. . ﴾** ١٠٩

وجاء في خواتيم سورة الرعد: **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية. . ﴾** ٣٨.

* وقوله تعالى في نهاية سورة يوسف: **﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾** ١١٠ شبيه بالتهديد الذي في أواخر سورة الرعد: **﴿والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم، فلله المكر جميعاً﴾** ٤٢

* والإشارة إلى العاقبة مشتركة بين السورتين في ختام كل منهما:

ففي سورة يوسف: «ولدار الآخرة خير للذين آتقوا. .»

وفي سورة الرعد: «وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. .»

* في ختام سورة يوسف حديث عن إحسان الله تعالى إلى يوسف لكون يوسف من المحسنين وقصة يوسف تريك كيف صبر، وكيف دفع إساءة إخوته بالحسنى. **﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**



وفي سورة الرعد: ﴿**والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار**﴾

* وجاء في سورة الرعد الإشارة إلى تغيير الناس ما بأنفسهم في قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

ومحور سورة يوسف، ومحور شخصياتها يدور حول تغيير نفسي طرأ على كل الشخصيات في القصة.

٢ ـ التناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها

قال الدكتور البهي: «تعيد السورة في ختامها ما ابتدأت به في أولها، فقد بدأت بالقرآن، مؤكدة أنه تنزيل من الله وأنه جلي واضح فيما يذكره: «تلك آيات الكتاب المبين إنّا أنزلناه قرآنا عربيّاً لعلكم تعقلون» ١

وختمت بالقرآن نفسه، مؤكدة صدقه ووحيه من عند الله، وتوافقه مع الرسالة الإلهية القائمة عند نزوله، وتفصيله لكل شيء جاء به، وبالأخص ما جاء في وحدة الألوهية وعبادة الله وحده: ﴿**ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء**﴾ ١١١.

ثم زادت في الختام تكفله بالهداية والرحمة لمن آمن: ﴿**وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ آية ١١١.[١]

قال في الظلال: وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعبارتها كذلك، فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحقق السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع».[٢]

---

(١) الدكتور محمد البهي: تفسير سورة يوسف ص٥٩ - ص٦٠.

(٢) الظلال ج٥ ص٦٠



وقال في التصوير: «.. **أما قصة يوسف فكان فيها توافق في الختام من نوع خاص يتفق مع القصة في الابتداء، فقد بدأت القصة برؤيا يوسف فختمت بتحقق هذه الرؤيا، وسجود إخوته له وأبويه، ولم يخْط خطوة وراء هذا كما فعلت التوراة، لأن الغرض الديني قد تحقق، وتحقق معه للقصة أجمل ختام.**

وهو ختام واقعي، وختام ديني، وختام فني في آن»[1].

ومن مقام عطف البدء على الختام وربطهما معاً باحكام قوله تعالى في آخر القصة مخاطباً نبينا ﷺ مشيراً إلى أول أحداث القصة، وإلى إجماع إخوة يوسف على إبعاده الذي هو حجر الزاوية في القصة:

﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ آية ١٠٢.

إشارة إلى قوله تعالى: **﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾** آية ١٥.

ولا ننسى التوافق أيضاً بين قوله: وما كنتَ، وقوله في أول السورة: وإن كنت من قبله لمن الغافلين»[2].

كذلك قوله تعالى: **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾** آية ٨٩. تحقيق وعَوْد إلى قوله تعالى: **﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾** ١٥.

وكذلك قوله تعالى في أول القصة: **﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾** ٧. يتناسق مع آخر آية في السورة **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب..﴾** آية ١١١.

---

(١) التصوير الفني ص١٤٤.

(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ص٦٠.



وفي تناسق الختام مع فاتحة السورة قال الرازي رحمه الله في تفسيره الكبير:

«ذكر في أول السورة: «نحن نقص عليك أحسن القصص» ثم ذكر في آخرها: «لقد كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة..

والمراد من قصصهم قصة يوسف وإخوته وأبيه، ومن الناس من قال: المراد قصص الرسل لأنه تقدم في القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام»[1].

وقال في تفسير التحرير والتنوير في تفسيره للآية الكريمة: «لقد كان في قصصهم عبرة» وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة: نحن نقص عليك أحسن القصص، فكما سمّاه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية»[2]

«ونلمس الترابط بين «لعلكم تعقلون» في الآية الثانية وبين «لأولي الألباب» في الآية الأخيرة، وبين أحسن القصص في الآية الثالثة وبين «في قصصهم عبرة».

ونرى أن الترابط بين الآيات الأولى الممهدة للقصة والآية الأخيرة في السورة يستهدف أن يعود القارىء بفكره إلى نقطة البدء ويعيش أحداث القصة من بعد.. يتأملها حتى ترسخ في نفسه مبادىء لا تتزعزع»[3]

وتأمّل الآية التي في البدء: لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين فهي علامات ودلالات للمتطلعين إلى الحقيقة والبينة.

أما الآية الأخيرة فتقول: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» ألا

---

(١) التفسير الكبير ج١٨ ص٢٢٨

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج١٣ ص٧٢.

(٣) يوسف في القرآن ص٩٢.



مـا أعظم القـرآن وما أمـلأه بجلائـل المعاني ودقـائق اللفتات البـلاغيـة. . ومـا أحوجنا إلى تدبره.

تأمل. . بينما كانت القصة دلالة في البداية صارت بعد سردهـا وما جنينـا فيها من دروس عبرة توظف في حياتنا، وترشُد بها عقولنا، وبعـد قولـه تعالى في أول القصـة: «لعلكم تعقلون» قال في آخـرها: «لأولي الألبـاب» فكـأن الـذي يتأمل هذه القصة ويتمـلى من معانيهـا ويعقل مـا حَوَتْ من الـدلالات والبينات يصبح من أولي الألباب، وتكـون أحداث القصـة له معيناً وعبرة تنتقـل معه في مواقف الحياة المختلفة. . وتصل بـه في فهم الحياة والأحـداث والناس والمشـاعر والإيمان وقضايا الإنسان. . تصل به إلى اللباب. . إذ غدا من أولي الألباب.

٣ ـ الوحْدة الموضوعية في سورة يوسف

قال الدكتور باجودة في كتابه القيم: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف:

«المـراد بالـوحدة المـوضوعيـة أن يكون العمـل الفني متـماسكـاً إلى أبعـد درجات التماسك بحيث ان كل جـزئية تفضي إلى التي تليهـا، ولا يمكن حـذف جزئية واحدة لأن العمل الفني يستغني عنها أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها.

وينبغي أن نقرر ابتداء أن القـرآن الكريم يجمـع أحسن ما يكـون الجمع بين الناحيتـين الفنية والـدينية، وأن النـاحية الفنيـة وسيلة دائماً للنـاحية الـدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى»[1].

وقال الدكتور زاهر بن عواض الألمعي في كتابه: التفسير الموضوعي:

«وقصة يوسف عليه السلام وحدة موضوعية متـماسكة، وهي أطـول قصة في القرآن الكريم تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، تلخص فيها الخصائص

(١) الـوحدة المـوضوعيـة في سورة يـوسف، الدكتـور حسن محمد بـاجـودة. ص٢٥ ط١ دار الكتب الحديثة.



الفنية البحتة للقصة، خصائص الموضوع وخصائص العرض والأداء، وتتوجها تلك الدعوة الصريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف.

والسورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسي وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيم..»(1)

٤ ـ المناسبة بين القصة والواقع الذي نزلت فيه

من أوجه المناسبة البديعة، والبعيدة في دلالاتها، أن تتناسب القصة القرآنية مع واقع المسلمين الذي نزلت فيه القصة.

ومعلوم أن للدعوة الإسلامية فترتين ومرحلتين: مرحلة الدعوة، ومرحلة الدولة والدعوة، أو الفترة المكية والفترة المدنية. ولكل مرحلة طبيعة ومعاناة ومواجهات وظروف والقصة القرآنية التي نزلت في كل فترة تناسب ظرفها وواقع المسلمين، وما يواجههم بحيث لو جئنا نطابق الملامح على الملامح لوجدنا التشابه بين الغابر والحاضر كالتشابه بين التوائم مع اختلاف الأسماء فقط.

والفترة المكية في داخلها مراحل، فمرحلة بدء الدعوة، وتتسم بتصلب الكافرين وتعنتهم وتحميلهم الدعاة رهقاً ومواجهتهم بسائر صنوف الاستهزاء والصدود والإعراض والتكذيب، ثم بدأ الناس يدخلون في دين الله ويزدادون شيئاً فشيئاً لتتصعد الحملة مع نمو المسلمين.

حتى إذا قاربنا نهاية المرحلة المكية رأينا احتدام الصراع، وآشتداد المواجهة إلى حد تدبير قتل النبي ﷺ أو إخراجه أو سجنه.

ولو بحثنا في كتب تاريخ القرآن وعلوم القرآن لوجدنا أن سورة يوسف

---

(1) د. زاهر عواض الألمعي: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص١٤٢ ـ ص١٤٥، ط١ سنة ١٤٠٥هـ الرياض: مطابع الفرزدق التجارية.



من السور التي تنزلت في أواخر العهد المكي وفيها الإلماح إلى المشابهة بين واقع النبيين، وفيها الإرهاص بفرج بعد هجرة.

وقد لفت الشبه بين ملامح قصة يوسف وأخيه النبي محمد ﷺ نظر كثير من الكتاب والمؤلفين، وقد عقد أكثر من واحد أوجهاً للشبه بين القصتين، وهذا الأستاذ الندوي في كتابه: النبوة والأنبياء يقول:

«إن آخر الرسل ﷺ ومن آمن به من قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة، ومثل هذه المشكلات، قلة عدد، وضعف شأن، وفقد أسباب، وخذلاناً من العشيرة، ومحاربة شديدة من القوم، وتآمراً على قتل الرسول، . .

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملاً ولا يرى فيها وميض من النور قص الله على رسوله قصة يوسف، وسيرته من أشبه السير به، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته، حسد ومحاربة في البداية واعتراف وإجلال وندم في النهاية. وإبعاد وإقصاء ونكران وجفاء في الأول، وخضوع والْتجاء واستعطاف واستجداء في الآخر، وغيابة الجب في محنة يوسف، وغار ثور في رحلة محمد ﷺ، وسجن في قصة ابن يعقوب، وشعب أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب، وتقرير وإعلان من أعداء كل واحد منهما: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: «نحن نقص عليك أحسن القصص.» وختمها بقوله: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل المظلم لتبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر، فكأن قصة يوسف قصته. .»[1]

(١) النبوة والأنبياء للندوي ص١٢٢ ـ ص١٢٤ ط٤ سنة ١٩٧٤ دار القلم بيروت.



وقال أبو السعود: «إنما قص الله تعالى على النبي ﷺ خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليأتسي به»[1].

وقال ابن إسحق فيما يرويه عنه الطوسي: «إنما قص الله تعالى قصة يوسف على محمد ﷺ ليعلمه أنه بغى عليه إخوته وحسدوه، فيسليه بذلك من بغي قومه عليه وحسدهم إياه»[2]

وقال في الظلال:

«السورة كلها لحمة واحدة، عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها.. بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة.. ففي الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يعاني من الوحشة والغربة والانقطاع في جاهلية قريش، منذ عام الحزن، وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة، كان الله سبحانه يقص على نبيه الكريم قصة أخ له كريم، وهو يعاني صنوفاً من المحن والابتلاءات.. محنة كيد الإخوة، محنة الجب، محنة الرق، محنة كيد امرأة العزيز وهو كيد متعدد، ومحنة السجن، ثم محنة الرخاء والسلطان.. هذه المحن والابتلاءات التي صبر عليها يوسف عليه السلام، وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها، وخرج منها كلها متجرداً خالصاً..

فلا عجب أن تكون هذه السورة، بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك، مما يتنزل على رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة معه في مكة، في هذه الفترة بالذات، تسلية وتسرية، وتطميناً كذلك وتثبيتاً للمطاردين المغتربين.

لا بل إن الخاطر ليذهب بي إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين، مهما بدا أن الإخراج كان

(١) تفسير أبي السعود ج٤ ص٢٥٥.
(٢) تفسير التبيان ج٦ ص٩٩.



إكراهاً تحت التهديد كما أخرج يوسف من حضن أبيه، ليواجه هـذه الابتلاءات كلها، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين.

إنه الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل، كما استيأس يوسف في محنته الطويلة، والتلميح بالمخرج المكروه الـذي يليه الفـرج المرغـوب. . الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما القلوب المؤمنة، وهي في مثـل هذه الفـترة تعيش، وفي جوها تتنفس، فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح من بعيد. . !»[1]

قـال في التحريـر والتنويـر: «وفيها العـبرة بهجرة قـوم النبي ﷺ إلى البلد الذي حل بـه كما فعـل يعقوب عليـه السلام وآلـه، وذلك إيمـاء إلى أن قريشـاً ينتقلون إلى المدينة تبعاً لهجرة النبي ﷺ[2] ».

يقـول أبـو جعفـر الـطبري عنـد تفسـيره لقـولـه تعـالى: «والله عليم بمـا يعملون».

«وهـذا، وإن كان خَبَـراً من الله تعالى ذكـره عن يوسف نبيـه ﷺ، فإنـه تذكير من الله نبيه محمداً ﷺ، وتسلية منه له، عما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول: فاصـبر يا محمـد، على مـا نالـك من الله، فإني قادر على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كـما كنت قادراً عـلى تغيير مـا لقي يوسف من إخوتـه في حال مـا كانـوا يفعلون به مـا فعلوا، ولم يكن تركي ذلـك لهوان يوسف علي، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته. فكذلـك تركي تغيـير ما ينـالك بـه هؤلاء المشركون، لغـير هوان بـك عـلي، ولكن لسـابق علمي فيـك وفيهم، ثم يصير أمرك وأمرهم إلى علوّك عليهم، وإذعانهم لـك، كما صـار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسؤدد عليهم، وعلو يوسف عليهم»

ويقـول أبـو جعفـر أيضـاً في التعليق عـلى الآيـة ٢٢ : وكـذلـك نجـزي

(١) الظلال ج٤ ص٦٦٠ - ص٦٦٣.

(٢) التحرير والتنوير ج١٢ ص١٩٩.



المحسنين: «وهذا وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن، فإن المراد به محمد ﷺ، يقول له عز وجل: كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من إخوته ما لقي، وقاسى من البلاء ما قاسى، فمكنته في الأرض، ووطأت له في البلاد، فكذلك أفعل بك فانجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأمكن لك في الأرض، وأوتيك الحكمة والعلم، لأن ذلك جزائي أهل الإحسان في أمري ونهيي..»(١)

قال الشيخ الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: «فيها تسلية النبي ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى. وقد لقي النبي ﷺ من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنضر ابن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهنّد(٢)

وقد عقد العلامة العلمي في كتابه الضخم مؤتمر تفسير سورة يوسف فصلاً مطولاً وافياً في المشابهة بين القصتين وكان مما قال:

«علم الله أن قريشاً ستكيد للنبي ﷺ وتناوؤه، وتعملُ معه عمل رؤساء الأسباط مع أخيهم يوسف، فأنزل عليه وهو بمكة هذه السورة كاملة مرة واحدة ليحيط علمه بما سيقع له من قريش وليقيس أحوال قريش على أحوال هؤلاء ويقيس شخصه على شخص يوسف، إذ هو اليوم يوسف قريش».

ثم عقد الشيخ العلمي مقارنة بين «يوسف يهود فلسطين» و«يوسف «محمد» قبائل قريش» ـ كما أطلق الشيخ ـ وعدد أربعاً وعشرين نقطة من أوجه التشابه ولكني ذاكر عنه بعض هذه النقاط:

---

(١) أنظر تفسير الطبري ج١٦ ص٧، ص٢٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ج١٢ ص١٩٨ ـ ١٩٩.



فبعد أن يذكر عدة وجوه من الشبه بين كونهما خياراً من خيار وتتشابه أسماء الآباء وأحوال الأمهات ورعي كل من النبيين للغنم يقول:

إن أول ما بدىء به النبيان الرؤيا الصالحة، وإن كلا النبيين كان محسوداً أما يوسف فمن إخوته وأما النبي فمن قريش، وكلاهما تآمر أقرباؤه على قتله، وكلاهما هجر وطنه وكان عاقبة أمره الانتصار الباهر والعز والتمكين، وفي النهاية اعترف من أساء إلى كل منهما بالخطأ وكان العفو من النبيين الكريمين، وكلاهما مات حيث هاجر، صلى الله عليهما وسلم. . »(١)

ويقول الدكتور التهامي نقرة في سيكولوجية القصة مؤكداً نفس القضية، ولكن في إطارها العام:

«. . . فلا غرو أن نجد في هذا القصص ما يعكس نفسية الرسول ﷺ، ونفسية المجتمع الذي يحيط به، ويظهر هذا التجاور في أجلى صوره فيما يختار الله من قصص تلائم بيئته، وتشبه ظروفه. ولولا الوقائع الخاصة التي يعرضها في قصص الأنبياء مع أقوامهم لكانت هي بنفسها قصة الرسول مع قومه لتشابه المواقف، وإتفاق التعلات والمبررات، وحتى الاتهامات. . »(٢)

«في أفياء هذه الواحة الظليلة، وعلى خطوات هذه الرحلة الطويلة مع قصة يوسف وأحداثها، يستعرض النبي ما كان يجري بينه وبين قومه من أحداث وما يكيدون له من كيد، وما يرمونه به من ضر، لا لشيء إلا لأن الله تعالى قد آصطفاه للرسالة، ووضع في يده الخير الذي يدعوهم إليه، فيرى النبي الكريم أن أخاً له من أنبياء الله قد كيد له هذا الكيد من إخوانه، وطرح مطارح الهلاك بيد أبناء أبيه، لا لذنب جناه، ولا لعدوان كان منه، ولكنه الحسد منهم لما آتاه الله من فضله، وما ألبسه من حلل الحسن والكمال خُلْقاً وخَلْقاً، فلطف الله به

(١) بتصرف واختصار عن مؤتمر تفسير سورة يوسف ج١ ص٣٢ - ص٣٦.
(٢) سيكولوجية القصة ص٣٣٦.



ونجـاه من تلك الكروب، ثم مكن لـه في الأرض، وبسط يـده وسلطانـه عـلى هؤلاء الذين مكروا به، وكادوا له وتلك هي عاقبة الصابرين المتقين.

إن الـرسول صلوات الله عليـه إذ يرى في مجـريـات أحـداث القصـة وفي خاتمتها أنه سيملك من أمر قومه مـا ملك يوسف من إخـوته، وسينتهي أمـرهم إلى ما انتهى إليه إخوة يوسف من اعترافهم بضلالهم، وآنضوائهم تحت سلطان أخيهم. .

وكان يوم فتح مكة خاتمة القصة المحمدية، كما كان آستيـلاء يوسف عـلى إخوته وضمهم إليه خاتمة قصته. .

وكانت كلمات قريش للنبي الكريم يوم فتح مكة، وطلب صفحـه عنهم، وقد ملك أمرهم، أشبه بكلمات إخوة يوسف ليوسف، إذ قالوا: تالله لقد آثـرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. .

وإذ تقول قريش للنبي الكريم يوم الفتح: أخ كريم وابن أخ كـريم، أي أننا ننتظر منك في هذا اليوم ما ينتظر الإخوة من أخيهم الكريم. .

وكما كان من يوسف الصفح والمغفرة كان من النبي الكريـم. .»[1]

٥ ـ التناسق في وحدة الجو الذي يشيع فيها

آ ـ الرؤى

من تأمل في قصة يوسف والجو الذي يخيم عليها ويظللهـا وجد أن هنـاك وحدة في الجو لا يخطئها بصر الناظر المتأمل.

ومن عناصر هذا الجو المتناسق جو الرؤى من أول القصة إلى آخرها.

ففي أول القصة «يا أبت إني رأيت أحـد عشر كـوكبـاً والشمس والقمـر

(١) قصتا آدم ويوسف ص١٤١ ـ ص١٤٣.



رأيتهم لي ساجدين». وفي آخرها: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل».

وهناك رؤيا الفتيين، ورؤيا الملك.

وكل هذه الرؤى قد أخذت دورها في تطوير أحداث القصة.

والطريف أن الرؤيا الأولى رآها يوسف ولم يُفسرها لنفسه بل فهمها أبوه ولم يبدها له صراحة. أما باقي الرؤى فرآها غيره وهو أولها.

وكذلك في رؤيا السجينين لم يذكر السائلان يوسف بالاسم، لأنه لم يكن أكثر من سجين طيب في نظرهما، وقد جاء النص هكذا:

«قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله..» أما في طلب تأويل رؤيا الملك فقد قال له نفس الشخص:

«يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان..» وهذا يقفنا على أكثر من معنى، من هذه المعاني أن ما يقوم به الإنسان من عمل وما عنده من علم هو الذي يجعل له في المجتمع مكانة ومنزلة واعتباراً،

ثم من ناحية أخرى فإن صدق يوسف في تعبير رؤيا السجينين ووقوع الأمر على وفق ما قال جعل لكلامه احتراماً ومهابة، ولو جامل بحجة الحرص على معنويات السجينين لخسر هذا الاعتبار، فالصدق لا يأتي إلا بخير، ولا يكون من نتائجه إلا الخير، وإن بدا مراً في أول الأمر.

ومن الموافقات أن الرؤى كلها تحققت.

ومن الطريف ان نقول ان هذه السورة التي تكثر فيها الرؤى تفتتح بحروف مقطعة هي أبرز وأول بل ونصف حروف كلمة الرؤيا.



ب ـ العلم

قال في الظلال: «من نماذج لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة أنه في هذه السورة ـ كما في السور القرآنية الأخرى ـ تتكرر تعبيرات معينة تؤلف جزءاً من جو السورة وشخصيتها الخاصة، وهنا يرد ذكر **العلم** كثيراً، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى[1]:

«وكذلك يجتبيك ربك **ويعلمك** من تأويل الأحاديث.. إن ربك **عليم** حكيم»

«وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، **ولنعلمه** من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا **يعلمون**»

«ولما بلغ أشده آتيناه حكماً **وعلماً**..

«فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، إنه هو السميع **العليم**».

«... ذلكما مما **علمني** ربي..»

«إن الحكم إلا لله... ولكن أكثر الناس لا **يعلمون**»

«.. وما نحن بتأويل الأحلام **بعالمين**»

«... لعلي أرجع إلى الناس لعلهم **يعلمون**»

«... إن ربي بكيدهن **عليم**»

«وإنه لذو **علم** لما **علمناه** ولكن أكثر الناس لا **يعلمون**»

«.. لقد **علمتم** ما جئنا لنفسد في الأرض..»

«.. والله **أعلم** بما تصفون»

«... ألم **تعلموا** أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله...»

«إني حفيظ **عليم**»

جـ ـ الكيْد والمكر

السورة الكريمة تضمنت عدة مواقف من الكيد من أولها إلى آخرها. من

(١) الظلال حـ ٤ المقدمة التعريفية بسورة يوسف.

ذلك كيد إخوة يوسف «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم»، وكيدهم بعد ذلك أباهم حين حاولوا انتزاع يوسف منه فكلموه بهذا الأسلوب الهجومي الذي كلموه به: «مالك لا تأمنا على يوسف. .» حتى يضطروه لإرسال يوسف معهم.

ثم كيد السيارة وإخفاؤهم يوسف وإسراره بضاعة معهم.

ثم كيد امرأة العزيز بيوسف ومحاولتها الإيقاع به، ثم شهادة الشاهد وحكمه بعدما تبين له الحق وبراءة يوسف: «قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم»

ثم مكر النسوة بامرأة العزيز ونشر الإشاعات عن مراودتها:

«وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه. .» ثم مكر امرأة العزيز بالنسوة مكراً فاق مكرهن وتغلب عليه: «فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ. .»

ثم كيد النسوة مجتمعات بيوسف عليه السلام واجتماعهن عليه، وموافقتهن امرأة العزيز في مراودتها ليوسف، ومن هنا قال يوسف عليه السلام: «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين.»

ثم كيد الملأ يوسف ووضعه في السجن بعدما تبين لهم براءته الكاملة المطلقة: «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين»

ثم تدبير يوسف الحكيم بعدم الخروج حتى يفتح ملف قضيته، وهو كيد محكم بمعنى أنه تدبير مرتب من شأنه أن يحقق النتائج المرجوة منه.

ثم كيد يوسف بإخوته حين آستخرج منهم أن لهم أخاً ما زال عند أبيهم. وكيده بوضع البضاعة في رحال إخوته: «وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون».



ولقد آتى كيد يوسف ما توخاه يوسف بالضبط، فإن الإخوة طلبوا أخاهم من أبيهم، فلما مانع تركوه وانطلقوا إلى رحالهم يفتحونها، فلما وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، ردّت إليهم معنـوياتهم، وانـطلقت الكلمات من أفـواههم بعـدما جمَّـدها وعقـد ألسنتهم عنها رد أبيهم: «هـل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم عـلى أخيه من قبل، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين. ولما فتحـوا متاعهم وجـدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا: «يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير. .»

ثم تدبير يعقوب عليه السلام بأمره بنيه بدخول مصر من أبواب متفرقـة، ومـا فيه من حكمـة وتخطيط أشـار إليهما القـرآن بقولـه: **﴿إلا حاجـة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**.

ثم كيد يوسف بإخوته مرة ثالثة إذ جعل السقاية في رحل أخيـه ثم تركهم يغـادرون ثم المنـاداة عليهم بـأنهم سـارقـون، ثم البـدء بتفتيش أوعيـة الإخـوة واستخـراج السقايـة أخيراً من وعـاء الأخ، وقد علق القـرآن على هـذا الصنيع بقوله: **﴿كذلك كدنا ليوسف، ما كـان ليأخـذ أخاه في دين الملك، إلا أن يشاء الله، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾**.

هذا التدبير الحكيم والكيد المتين هو الذي كان له الدور الأسـاس في جمع الشمل. . بفضل الله.

وقد جاءت الآيات التعقيبية في ختام السورة مشيرة إلى ما كـان في جوّهـا من كيد، فقالت:

﴿ذلـك من أنباء الغيب نـوحيه إليـك، وما كنت لـديهم إذ أجمعـوا أمرهم وهم يمكرون﴾.

د ـ لطف التَّدْبير الإلٰهي كما ظهر في قصة يوسف

ومن ألـوان التناسق في جـو القصة هـذا اللطف الإلهي في التدبـير للعبـد



الصالح يوسف واستخراجه من كل محنة بل وتحويلها إلى منحة. وقد ورد في ختام القصة على لسان يوسف عليه السلام معلقاً على ما شاهد فيها وما أتم الله له من النعم والفضل، ولم الشعث وجمع الشمل، ملخصاً القصة من مبتدئها إلى منتهى أخبارها: **﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾** آية ١٠٠.

ومن معاني اللطيف: «العليم بدقائق الأمور، والرفيق بالعباد»[١].

ولو جئنا نتتبع لطف التدبير الإلهي في قصة يوسف من أولها إلى منتهاها لوجدناه ظاهراً لا يحتاج في مشاهدته إلى عناء وبذل مجهود.

فهذه الرؤيا التي يراها يوسف كانت له ولأبيه برداً وسلاماً، وتطميناً ليعقوب أن لابنه شأناً سيتم، وأمراً سيظهر، وإن هلال اليوم، بدر كامل غداً، وإن ما ذر قرنه من الشعاع في الأفق سيصبح شمس الضحى عما قريب، وإن طفل اليوم حامل رسالة الله غداً.

فهذا أول لطف.

ثم لو تأملت كيف أن الله عز وجل أرسى مراكب كيد الإخوة عند أهون المصائب وأخف التدابير، عند حد الإلقاء في الجب، والإخفاء إلى حين مرور سيارة، دون التدبيرين الآخرين وهما القتل والطرح البعيد في الصحراء المهلكة، والفلاة المهمه...

وتأمل كيف كان لطف الله أن هذا الفتى ما غادر حجر النبي الكريم يعقوب إلى بلاد الشرك إلا بعد أن تشرب عقيدة التوحيد، وهذا بحد ذاته أعظم اللطف، إذ لو كان إلقاؤه في الجب في سن مبكرة، وهجرته إلى بيئة

---

(١) إرجع إلى المفردات ص٤٥٠.



الجاهلية قبل تفتح التمييز والإدراك لكان محتاجاً إلى المربي، وأين يجده؟!

وهكذا سرْ مع القصة وكيف شاء الله لعبده أن يكون في بيت العزيز دون سائر بيوت مصر، وفي موضع صنع القرار، وقريباً من نبع إدارة الأمور، وملتقى نخبة المجتمع، ولو كان ربي في بيت ريفي مهمل في بيئة مهملة، لاحتاج إلى من يأخذ بيده وينتشله ليرى كثيراً من الأمور، وليرى ما عنده من قدرات.

وكم من ذكي موهوب مغمور لم يلقَ من الأضواء والاعتناء ما يوصله إلى مسرح الأحداث والتأثير في تيار الحياة.

ويشاء الله لعبده أن ينشأ في بؤرة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية قريباً بمواهبه من أصحاب السلطة، ومرشحاً بكفاءاته تلقائياً لدور خطير كبير، ومتاحاً له الفرصة لتنمية قدراته، وترقية ذاته، وزيادة حصيلته من خلال معايشته ومشاهداته اليومية.

ثم لطف آخر في سلسلة أحداث إنما تحركها يد اللطيف الخبير، يتجلى في إتيان الشاهد مع الزوج ونطقه بما نطق، من تقعيد قانوني للحكم في المسألة، ويشاء الله أن يقدّ الثوب ليكون شاهداً حسياً، ودليلاً ملموساً حاسماً على براءة يوسف.

ثم هذا اللطف العظيم بأن تكون محنة السجن عن توقع من يوسف بل عن اختيار من يوسف كحلّ بديل عما يعرض عليه من فتن وعروض ومساومات.. ولذلك جاء السجن خفيف الوقع لأنه البديل الأخف.

وسجن فتيين معه في السجن في مثل سنه يؤنسه ويعزيه.. ويشاء الله أن يكون أحدهما مضطلعاً في المستقبل بدور عظيم في إنقاذ يوسف لكونه هو أيضاً في موقع صنع القرار، في بلاط الملك وحاشيته وساقيه.



إن الإنسان لو جاء يخطط لنفسه ويدبر ويقدر، لما استطاع بحدوده وعجزه ومحدودية علمه وبصره، أن ينفذ من كل هذه التشابكات. . .

ولكن الله تعالى حين يدبر لعبده، فهو التدبير الحكيم واللطيف الرفيق، فيا نعم ما يقدر الله لعبده المؤمن ويدبر.

اللهم تبرأنا من حولنا وطولنا وقوتنا وعلمنا إلى حولك وقوتك وعلمك وتقديرك ولطفك. وسر مع القصة في فصولها وأحداثها ومشاهدها وقف عند رؤيا السجينين كيف كانت درجة في سلم الفرج، وحلقة في سلسلة إنجاء يوسف.

وتأمل كيف كان القحط في فلسطين جالباً لإخوانه إلى مصر طلباً للميرة ليكون ما كان من جمع شمل والتئام آصرة.

وهذا اللطف في التدبير للعبد الصالح، والمتمثل في وضع الصواع في رحل أخيه، والذي كان تدبيراً من الله لأمر علمه وقدره ولذلك نسبه إليه في قوله: «كذلك كدنا ليوسف»

وهكذا تمضي الأحداث في سلاسة وتلقائية تدفعها يد اللطيف سبحانه، ويحفها اللطف حتى تصل بالعبد الكريم يوسف عليه الصلاة والتسليم إلى أبعد كثيراً جداً مما يتأمله أي إنسان لنفسه، ومما يرتجيه لمستقبله.

ولو جئت تقول لسجين إني سأجعلك عزيزاً في ذاك القطر العظيم الذي أنت فيه غريب متهم لوجد ذلك عين المحال. . ولكن لا عزيز على تدبير الخبير اللطيف العزيز.

وهكذا جاءت هذه الكلمة على لسان يوسف عليه السلام تكشف عن لطف التدبير الإلهي الذي اكتنف أحداث قصة يوسف. فهذا التدبير هو إلى اللطف أقرب وباللطف أنسب.



وتبارك اللطيف. . سبحانه.

وصدق القائل في كتابه المحكم: «الله لطيف بعباده».

هـ ـ تكرار بعض الكلمات في مواضع مختلفة من السورة

وقد ذكرنا من ذلك القبيل مادة «العلم» في هذه السورة كيف تكررت من أول السورة إلى آخرها بتصريفات مختلفة.

* ومن الكلمات الأخرى التي تكررت «تأويل الأحاديث» فقد وردت ثلاث مرات بالصيغة السابقة، وخمس مرات غير مضافة إلى الأحاديث:

١ ـ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث.

٢ ـ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث.

٣ ـ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث.

٤ ـ نبئنا بتأويله/ ٣٥

٥ ـ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله / ٣٦

٦ ـ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين / ٤٣

٧ ـ أنا أنبئكم بتأويله / ٤٤

٨ ـ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل / ٩٩

* لفظ «الضلال» ورد في السورة الكريمة مقترناً بالحب مفيداً معناه والمبالغة فيه، مع لازمه من فقد التوازن العقلي ـ في نظر من يدعيه لغيره ـ وقد جاء في السورة مرتين في حق يعقوب من قبل أبنائه ينعتونه به لحبه يوسف: «إن أبانا لفي ضلال مبين»٧ « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم» ٩٤. ومرة ثالثة وصفت بهذا الوصف امرأة العزيز على لسان النسوة: «قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين. .» ٢٩.

* عبارة «وإنا له لحافظون» بهذه الصورة وردت مرتين في مراودة أبناء يعقوب لأبيهم ليرسل معهم في المرة الأولى يوسف وفي المرة الثانية شقيق

يـوسف، والمفارقـة العجيبة أنهم أضـاعوا أخـويهم في المرتـين مع تـأكيـداتهم في المرتين على حفظ من يرسل معهم.

ومن المفارقات أنهم في المرة الأولى كانوا كاذبـين، وفي الثانيـة كانـوا طيبي النيـة من جهة أخيهم، ولكن عبـارتهم بهذه الكلمات أثـارت الجـرح القـديم في نفس يعقوب.

* «. . . الإشارة إلى الذئب الذي نسب إليه الفتـك بيوسف قـد جاءت مرتين، فعندما يدعي الإخوة مستقبلاً أن الذئب أكـل يوسف، فلن تكـون هذه الدعوى غريبة عـلى أنفسنا ولا مفـاجئة لمـا استقر في الأنفس من مـلازمة الغـدر بالذئب، خاصة مع الضعاف. إن النفس مهيأة لتلقي مثل هذا الاتهام.

* والشيء نفسه يقال عن السيارة الذين أخذوا يوسف من الجب وباعوه. فقد مرت لفظة السيارة والإشارة إلى عملية الالتقاط من قبل.

وبيع يوسف أيضاً في ذلك العصر الذي يتعامـل فيه مـع المماليـك، ليس مفاجئاً لنا، فإن خوفهم أن يسألـوا عن مصدر ذلـك الغلام طبيعي، لهـذا آثروا التخلص منه وبيعه بثمن بخس»(١)

* وفي بداية القصة يحذر يعقوب ابنه من أن يقص الرؤيا على إخوته حتى لا يكيدوا له، لأن الشيطان عدو الإنسان، وفي آخر القصـة يصفح يـوسف عن إخوته وينسب ما وقع بينـه وبين إخـوته إلى كيـد الشيطان كـما قال أبـوه في أول الأمر.

* «إن الحكم إلا الله . .» وردت على لسان يوسف في دعوة السجينين إلى التوحيد.

ووردت كذلك على لسان يعقوب في وصيته لأولاده في رحلتهم الثانية إلى مصر.

---

(١) الدكتور حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ص٢٧.



* والاستباق ورد على لسان الإخوة: إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف، ثم ورد الاستباق بين يوسف والمرأة في قوله تعالى: «واستبقا الباب. .»

* كثير من التوقعات في قصة يوسف حدثت كما توقعها أصحابها، وكثير من المواقف تكررت لتنسجم مع تهيئة سابقة مهدت لها.

فمن ذلك أن تخوف يعقوب على يوسف وحزنه على ذهابهم به تحقق، فقد ذهبوا به فعلاً.

وأما قوله وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون فقد أعادوا في تلك العشية المؤلمة نفس التوقع الذي طرق أسماعنا من قبل في العشية السابقة فقالوا: فأكله الذئب، وأما الموقف مع الأخ الثاني فقال يعقوب حين راودوه عنه: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل، وفعلاً فقده كما توقع.

* لفظ «راود» ورد سبع مرات، ست مرات منها في حق امرأة العزيز والنسوة، والمرة السابعة من جانب الإخوة لأبيهم ليأخذوا منه أخاهم:

١ ـ «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه. . .» ٢٢

٢ ـ «قال هي راودتني عن نفسي» ٢٥

٣ ـ «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه.» ٢٩

٤ ـ «. . ولقد راودته عن نفسه» ٣١

٥ ـ «ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه» ٥٠.

٦ ـ «قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه» ٥٠

٧ ـ «قالوا سنراود عنه أباه» ٦٠.

* «معاذ الله» وردت في السورة مرتين على لسان يوسف، في موضع الاستهجان والاستغراب مرة أمام امرأة العزيز، ومرة لإخوانه:

١ ـ «قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي» ٢٢

٢ ـ «قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده» ٧٨

* «حاش لله» وردت مرتين على لسان النسوة:

١ ـ «وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» ٣٠

٢ ـ «قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء» ٥٠

* «وهو أرحم الراحمين» وردت أيضاً مرتين، مرة على لسان يعقوب ومرة على لسان يوسف:

١ ـ «فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» ٦٣.

٢ ـ «قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» ٩١

* «واعلم من الله ما لا تعلمون» وردت مرتين على لسان يعقوب مرة آية ٨٥، وآية ٩٥

* الكيد ورد بصور مختلفة ثماني مرات،

١، ٢ «إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم» ٢٧.

٣ ـ «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن» ٣٣

٤ ـ «إن ربي بكيدهن عليم» ٤٩

٥ ـ وعلى لسان امرأة العزيز: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» ٥١

٦، ٧ ـ وعلى لسان يعقوب يحذر يوسف: «لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً..» ٥

٨ ـ والله عز وجل يقول عن نفسه: «كذلك كدنا ليوسف» ٧٥

* «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل» وردت بهذه الصورة تماماً مرتين، في إثر فقد يوسف والثانية على اثر فقد أخيه، وثبات الكلمة يدل على أمور منها استمزار نظرة يعقوب لأبنائه من ناحية، واستمرار تملكه لزمام نفسه وكونه على صبر جميل من ناحية ثانية.

* وصف الإحسان وصف به يوسف أو جاء في معرض الحديث عنه خمس مرات في السورة.

١ ـ «ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين» ٢٠

٢ ـ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» ٢٥.

٣ ـ «نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين» ٥٥

٤ ـ «قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين» ٧٧

٥ ـ «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» ٨٩.

* قميص يوسف جاء الحديث عنه في السورة ست مرات، ومن عجيب التقدير أنه في كل مرة كان يؤدي دوراً مختلفاً مهماً.

ففي أول الأحداث حين ألقاه الإخوة في الجب، جاءوا بالقميص. «وجاءوا على قميصه بدم كذب..» ١٧

ثم في مراودة المرأة كان للقميص دور الشاهد على براءته: «وقدت قميصه من دبر..»

«إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم»

وفي آخر الأحداث كان القميص بشير الخير بعد أن كان في أول القصة رمزاً للفاجعة[1]: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً..» ٩٢.

---

(١) لعل لهذا تفسيراً نفسياً لسنا بصدده الآن، ولكن من له إلمام بالدراسات النفسية يدرك شيئاً من معاني هذا التشابه.



ومن هذا القبيل أيضاً قول الإخوة لأبيهم: «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» وما كانوا صادقين.

وفي آخر السورة قالوا لأبيهم: «وإنا لصادقون» وكانوا صادقين.

* اعتراف امرأة العزيز بمراودة يوسف، وقع مرتين: مرة أمام النسوة، في قولها: «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم..»

ومرة أمام الملك: «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» أما الموقف الأول فكانت فيه امرأة العزيز على الباطل لا تزال، وأما الموقف الثاني فكانت شخصيتها قد تغيرت، وصارت إلى الحق أقرب.

ثم فرق آخر بين الاعترافين أنها في الأول لم تكن تقصد تبرئة يوسف وإنما كانت تقصد إلهاب نفوس النسوة، ولذلك لم يستفد يوسف من الاعتراف، أما في الموقف الثاني فقد آستفاد من اعترافها تبرئته.

كذلك كان اعترافها في الموقف الأول في نطاق ضيق هو دائرة النسوة أما الآن فأمام الملك والحاشية وحضور النسوة.

قميص يوسف في أول القصة كان دليلاً على اتهام إخوة يوسف.

وكان في وسط القصة دليلاً على تبرئة يوسف.

وكان في خاتمة القصة دليلاً على حياة يوسف.

وكان في أول القصة مقترناً بالحزن والغم ليعقوب، ثم في خاتمة القصة اقترن بالبشرى والسعادة ليعقوب.

حين طلب الإخوة من يعقوب أن يرسل معهم أخاهم للمرة الثانية استعملوا نفس الكلمات في طلب إرسال يوسف فقالوا: «فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون» ولقد هيّج في نفس يعقوب هذا الموقف حزنه القديم فقال: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل...»



٦ ـ التناسق في الإيقاع الموسيقي

من بديع التنزيل، هذا الإيقاع الرائع والجرس الآسر الأخاذ الذي يتساوق مع الموضوع وينسجم معه.

ولو تأملت هذا الإيقاع الندي ورأيت كيف ينسجم مع موضوعه من تطييب الخاطر والمواساة:

«طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» «ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً» «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى»

وتأمل هذا الجرس العنيف المنسجم مع لي الأعناق ودقها وإخضاعها: «طسم تلك آيات الكتاب المبين، لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين» «وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين».

يقول المرحوم العلامة نادرة العصر محمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم:

أول ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

ثم يرشد المرحوم دراز إلى طريق استجلاء هذه الحقيقة فيقول:

«دع القارىء المجود يقرأ القرآن يُرتله حق ترتيله، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردت تجريداً فستجد نفسك بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرد هذا التجريد، وجوّد هذا التجويد.

ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر،

على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. .

ستجد أنك من القرآن في لحن متنوع متجدد على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء. فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تتطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة، والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، وزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى.

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس. وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جراً. فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك. .(١)

فإذا انتقلنا من هذه المقدمة العامة إلى الحديث الخاص عن سورة يوسف وقصته العظيمة نجد مصداق وتطبيق هذه القاعدة.

فالآيات الثلاث الأولى موضوع أو مقدمة للسورة حتى إذا جئت إلى

---

(١) د. محمد دراز: النبأ العظيم ص ١٠١ـص١٠٤ باختصار، الكويت: دار القلم ط٣ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.



آخرها شعرت ببطء الإيقاع مما يوحي بانتهاء المقدمة: وتأمل: وإن كنت من قبله لمن الغافلين.

ثم الآيات الثلاث التالية موضوع آخر هو موجز قصة يوسف وجاءت كذلك خاتمة الآية الأخيرة فيه بطيئة الإيقاع تشعر بانتهاء الدفعة الثانية من الآيات: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم. وحتى حرف الفاصلة جاء مختلفاً فكان ميمياً وكل ما سبقه نوني.

ثم جاءت الآية السابعة قصيرة كأنها إشارة بدء خاطفة لعرض قصة يوسف: لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين.

ثم في الآية الثامنة يبرز حرف النون بجرسه الواضح وهي الآية المتحدثة عن تنفج الإخوة وتضخم الأنا فيهم.

ثم الآيتان التاليتان جرسهما شديد ويبرز فيهما حرف القاف بشكل واضح ليجسد جريمة القتل التي تدبر.. ويبرز كذلك من الحروف ذات الجرس القوي حرف الطاء: «اطرحوه، يلتقطه..»

فإذا انتقلنا إلى الآيتين اللتين تنقلان لنا حوارهم مع أبيهم ورجاءهم له أن يرسل معهم أخاهم وجدنا لينا في الجرس.

يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون... وعودة إلى ظهور حرف النون لإبراز الأنا في موقع النصح.

كذلك جواب الأب جاء بجرس رقيق: إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. وفيه من المدود ما يوحي بالاسترخاء ويشعر بالأمن حتى لا يتوجس الإخوة من جهته التوجسات.

ثم عودة في الآية التالية إلى بروز النون بجرسها الظاهر: «لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون» وليس فيها إخفاء واحد بل يظهر فيها



الإظهار بشكل واضح، ليحسموا الأمر بهذه النبرة القوية وهذا الظهور الشديد لذواتهم.

فإذا آنتقلنا إلى الآية السادسة عشرة وهي سرد تقريري غير حواري شأنها شأن الآية السابعة ولذلك جاءت قصيرة مثلها، وهي كأختها أيضاً فاصل بين مرحلتين من القصة.

فإذا انتقلنا إلى الآية الثلاثين وجدنا تردد ضمير الغائب: الـ ها، وكأنه يوحي بنغمة السخرية التي تنطلق من أفواه النسوة. وأما الآيتان التاليتان فيبرز فيهما النون المشددة وما تحمله من غنة قوية يقف القارىء عندها..

ثم نرى نبرة التشفي والانتصار في قول امرأة العزيز: فذلكن الذي لمتنني فيه..

فإذا جئنا إلى حديث يوسف مع السجينين رأينا الإيقاع الرخي الممدود الموحي بالهدوء والثقة والسكينة ورباطة الجأش.

فإذا سرنا مع القصة إلى نهاية مرحلة المعاناة وجدنا آية قصيرة تختم بفاصلة ميمية أيضاً: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم.

فإذا جئنا إلى الآية ٥٨ المتحدثة عن مجيء إخوة يوسف وجدناها تبتدىء بحرف المدّ «وجاء» الذي كأنه يشير إلى طول مدة الافتراق والاغتراب، فإذا تكلم عن معرفة يوسف لهم عبر بكلمة واحدة سريعة: فعرفهم، حتى إذا تلونا الآية ٧٧ المتحدثة عن اتهام إخوة يوسف ليوسف بالسرقة وجدنا حرف القاف واضحاً والسين كذلك فكأنهم يهمسون بالكلام همساً لكن يبرز من بين الهمس السيني حرف القاف القوي وهو الحرف البارز في «السرقة».

أما الآية الرابعة والثمانون فتقطر حزناً من كل حرف منها وكل ألف مد فيها تأوه وآلام: وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. وهذه الآية والتي قبلها هما الوحيدتان في السورة المتواليتان



اللتان فاصلتهما ميمية.

والآية ٨٥ كلها تعنيف للوالد فكثر فيها حرف التاء وظهر في أغلب كلماتها: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين.

فإذا آنتقلنا من الآيات القصصية إلى الآيات التعقيبية لفتنا أن الموسيقى والإيقاع جاء منسجماً مع التعقيب كما كانت إيقاعات الآيات القصصية منسجمة مع السرد القصصي.

قال في الوحدة الموضوعية في المقدمة:

«. . . وإذا كان القسم الأول حقق غرضه في نغم موسيقي مؤثر في الوجدان محرك للعقل، فإن الطريق الثاني، الذي يعتبر تطوراً طبيعياً للأول، والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً، حقق غرضه في نغم موسيقي آخر متمشياً مع هذا التطور، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته»[1]

٧ ـ التناسق بين القصة والتعقيبات، ولعلنا نبينه في القسم الثاني التفسيري

٨ ـ التناسق في رسم الشخصيات

أو الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية

الشخصيات الرئيسية التي تدور حولها القصة ذكرت من أول القصة، وهناك إشارة إلى الصراع المنتظر حينما نصح يعقوب ابنه ألا يقص رؤياه على إخوته. والشخصيات في قصة يوسف متنوعة وتختلف مدة ظهورها حسب الأدوار التي تقوم بها. فهناك الشخصيات التي تستمر أدوارها من بداية القصة حتى نهايتها، كيوسف عليه السلام، محور القصة، ويعقوب والإخوة وإن غاب يعقوب والإخوة في كثير من المشاهد.

وهناك بعض الشخصيات ذات الأدوار الفعالة في القصة والتي تلي مباشرة

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف: المقدمة، ص٧١.



في الأهمية الشخصيات الرئيسية وتختلف مدة ظهور هذه الشخصيات ومرّاته، كالوارد، والسيارة، والعزيز وامرأته، والشاهد ونسوة المدينة، والفتيين، والملك.

وهناك بعض الشخصيات التي لها أدوار خاطفة، أو التي آكتفي بمجرد الإشارة إليها. كالذين بدا لهم سجن يوسف «ثم بدا لهم. . .» والملأ: «يا أيها الملأ أفتوني. .» والرسول «فلما جاءه الرسول» والفتيان: «وقال لفتيانه اجعلوا. .» والمؤذن «فأذن مؤذن. .» والمسافرون «واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها» وأهل يعقوب الذين قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم» والدة يوسف: «ورفع أبويه. .»[1]

قال الدكتور خلف الله: «شخصية يوسف هي الشخصية الرئيسية التي تدور حولها الأحداث، أما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفي كلما دعت الحوادث، فيظهر الإخوة في أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ويختفون حيث رحل، وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو إلى الحضر، ويمضون إلى غير رجعة حين باعوه للعزيز، ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ونسوة المدينة كل يؤدي دوره المنوط به حين يكون مسرح الحوادث بيت العزيز. ثم يختفون حين ينقل يوسف إلى السجن. وهنا يظهر صاحباه ويتركه أحدهما إلى غير رجعة حين يصلب. ويعود إليه الثاني مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه، ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين تسمع رؤياه ويبقى حتى يسلم خزائن الأرض ليوسف بعد أن يبرئه، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى. ويختفي الملك والنسوة ويظهر إخوة يوسف مرة ثانية ويبقون على المسرح حتى ينقلوا إلى مصر ومعهم أبوهم ومن شاء»[2]

---

(١) يراجع كتاب الوحدة الموضوعية في سورة يوسف لحسن محمد باجودة ص٢٦، ص٧٥.

(٢) الفن القصصي ص٣١٩ - ص٣٢٠.



تطور الشخصيات في القصّة

الملاحظ أن كل شخصيات القصة تتطور نحو الأفضل وتسير نحو النهاية الحسنة والطيبة. . وأما الشخصيات الفاضلة والكاملة فتتطور نحو الأكمل.

فشخصية إخوة يوسف تطورت من قولهم: اقتلوا يوسف، واتجهت مع سير الأحداث نحو النهاية، اتجهت إلى الخير والفضيلة، وإنما دفعها إلى ذلك مجموعة أحداث مريرة مرت بهم، منها غضب الوالد، والفقر، والهوان في الغربة والاتهام بالسرقة. . الخ.

وحتى شخصية امرأة العزيز والنسوة، انتقلت من المراودة من قبل امرأة العزيز وتشجيع النسوة لها، انتقلت إلى الاعتراف الجماعي بفضل يوسف، والتسابق إلى تبرئته وإعلان نقاء ثوبه، ولا ندري ما الظروف الاجتماعية التي أسهمت في تطوير شخصياتهن ولعل التحقيق واحد من أبرز العوامل.

أما شخصية يوسف عليه السلام فقد تطورت من أفق قوله: اذكرني عند ربك، إلى أفق أعلى وأسمى هو الذي مثلته الآية الكريمة: «إرجع إلى ربك» وهو تطور من كمال إلى أكمل.

وفي الفصل القادم بإذن الله نفصل القول بعض تفصيل في موضوع الشخصيات. . فإلى الحديث عن الشخصيات في قصة يوسف.

الفصل الثَّالث

تصوير الشخصيّات في قصة يوسف وتطورها

ويتضمن خمسة مباحث:

١ ـ شخصية يوسف عليه السلام.

٢ ـ شخصية يعقوب عليه السلام.

٣ ـ شخصية إخوة يوسف.

٤ ـ شخصية امرأة العزيز.

٥ ـ شخصيات أخرى: الملك، العزيز، النسوة..

رسم الشخصيات
في قصة يوسف

عني القرآن الكريم وقصصه العظيمة بتصوير الشخصيات ورسمها، سواء بالطريقة التقريرية المباشرة أو من خلال الأحداث ومواجهة الشخصية لهذه الأحداث.

وقد آهتمت القصة كثيراً بالبعد النفسي الداخلي للشخصية، لأن هذا البعد هو حقيقة الإنسان وجوهره وسره المكنون ومكمن طاقاته وقدراته ومنطلق سلوكه وخوضه لغمار الحياة ومعترك الأحداث.

وقصة يوسف قصة غنيّة بوفرة شخصياتها وتنوع هذه الشخصيات، وقد جلّى القرآن من خلال هذه القصة الرائعة كل شخصيات القصة في ذهننا تجلية تامة كاملة.. شأنه في كل قصصه في هذا الكتاب العزيز.

وقد ردّد بعض الكاتبين في القصة القرآنية مقولات لا تثبت للنظر الصحيح والتمحيص، من تلك المقولات مقولة عن تصوير الشخصيات مؤداها «أن تصوير الشخصيات في القصص القرآني ـ وخاصة في عهده الأول، لم يكن بالأمر الذي يعنى به القرآن ـ كما يقولون ـ في هذا اللون يمثل المذهب الفني في رسم الأشخاص عند قصاص العربية إذ كانوا يهتمون بالحادثة أكثر من اهتمامهم بالبطل، ويهتمون بالفكرة والرأي أكثر من اهتمامهم بالأشخاص»[1]

---

(١) راجع الفن القصصي في القرآن لمحمد أحمد خلف الله فصل: توزيع العناصر في القصة القرآنية. وقد نقل قوله هذا الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه البيان القرآني، ولم يصرح باسم خلف الله ولا بكتابه، ورد عليه، ونقض نظرته ونظريته، فراجع الكتاب المذكور ص٢٠٤ ـ ص٢٠٦.



والكلام ـ على قصره ـ منطوٍ على عدة مغالطات تنم عن جهل أو غيره، من ذلك مثلاً قوله: وخاصة في العهد الأول، فما الذي يعنيه به، إن كان يعني بذلك العهد المكي، فعلى العكس، إذ ان كل القصص القرآني المسهب جاء في العهد المكي، وإن كان يعني أوائل العهد المكي فغير صحيح أيضاً لأن سمة القصص القرآني واحدة.

والمغالطة الثانية في قوله إن القرآن يمثل المذهب الفني المتبع عن قصص العربية، فالقرآن نسيج وحده في قصصه، ليس يتبع قيم أهل الكتاب، ولا قيم العرب الكتّاب، ولا قيم بشر على الإطلاق.. في قصصه الفذ الذي يقص.

ثم ثالثاً: إن العرب كانوا مولعين بتصوير الشخصيات لا كما زعم من اهتمامهم بالحادثة أكثر من اهتمامهم بالبطل.

يقول الدكتور بيومي في الرد على هذا القول: «التصوير سمة عامة للبيان القرآني في كل مجالاته التعبيرية وهو في القصة القرآنية على أتم ما يعهد فأنت تعرف الشخصيات القرآنية معرفة متميزة حتى لتفرق بوضوح بين سمات يوسف وموسى وإبراهيم وسليمان. وبلقيس وامرأة العزيز، لا أقول السمات الظاهرية وحدها بل السمات الخافية التي تمور في مسارب الدم واللحم، وإذا لم يكن ذلك لبراعة التصوير الأدبي للشخصية القرآنية فلأي شيء يكون؟»[1]

(١) البيان القرآني لبيومي ص٢٠٤.

المبحث الأول

شخصية يوسف :

- البعد الخارجي
- قوة شخصيته
- صدقه.
- حصافته..
- الإداري الموفق: الحفيظ العليم المخطط..
- إحسانه
- عفته وعصمته
- وفاؤه
- الداعية الحكيم
- ضبطه لمشاعره
- عزة المؤمن.

شخصية يوسف

«ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه، ووصفه بالعفة والنزاهة. كما أثنى عليه رسول الهدى ﷺ بقوله: «إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم» رواه البخاري.

ذكره في القرآن:

ذكر اسم يوسف في القرآن في ٢٦ آية، منها ٢٤ آية في سورة يوسف وآية في الأنعام، وآية في سورة المؤمن، ويوصف يوسف بالصديق، وهو من أشهر أنبياء بني إسرائيل، وله سورة ذكرت فيها قصته بالتفصيل، وهي من طوال سور القرآن»(١)

الآيات التي ذكرت اسم يوسف(٢)

«إذ قال يوسف» ٤، «لقد كان في يوسف وإخوته آيات» ٧، «ليوسف وأخوه أحب» ٨، «اقتلوا يوسف» ٩، «لا تقتلوا يوسف» ١٠، «مالك لا تأمنا على يوسف» ١١، «وتركنا يوسف» ١٧، «مكنا ليوسف» ٢١، «يوسف أعرض» ٢٩، «يوسف أيها الصديق» ٤٦، «راودتن يوسف» ٥١، «مكنا ليوسف» ٥٦،

(١) النبوة والأنبياء ص٢٤٩ ـ ص٢٥٠ للصابوني.

(٢) قال في البصائر ج٦ ص٤٨: ذكره تعالى باسمه في خمسة وعشرين موضعاً من التنزيل، قلت: والصواب في ستة وعشرين، وقد نسي الفيروزابادي الآية رقم ٢١: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض.



«وجاء إخوة يوسف» ٥٨، «دخلوا على يوسف» ٦٩، «كدنا ليوسف» ٧٦، «فأسرها يوسف» ٧٧، «فرطتم في يوسف» ٨٠، «يا أسفا على يوسف» ٨٤، «تالله تفتأ تذكر يوسف» ٨٥، «فتحسسوا من يوسف» ٨٧، «هل علمتم ما فعلتم بيوسف» ٨٩، «أئنك لأنت يوسف» ٩٠، «قال أنا يوسف» ٩٠، «ريح يوسف» ٩٤.

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ غافر ٣٤،

﴿كُلاًّ هدينا ونوحاً . . . ويوسف﴾ الأنعام ٨٤.

تمثل شخصية يوسف عليه السلام شخصية النبي المؤيد بتوفيق الله والمواهب اللدنية الكبيرة المتفوقة. تجلت عظمة هذه الشخصية في كل مواقف القصة التي ما غاب يوسف عن مسرح أحداثها في مشهد واحد، إذ هو الشخصية الرئيسة، والأحداث كلها من أول القصة إلى آخرها تدور من حوله، وهو إما أن يقوم بالأحداث بنفسه مباشرة، وإما أن يكون المحرك للشخصيات حتى تقوم بما تقوم به من أعمال وأحداث.

فشخصيته الموهوبة هي التي أثارت حسد الإخوة حتى دبروا له ما دبروا. وشخصيته هي أساس إعجاب أبيه وتعلقه به، ثم حزنه عليه حين فارقه، وشخصيته هي التي جذبت إليه قلب العزيز وتأمل فيه خيراً وهو يقول لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وهو الذي تعلق به فؤاد امرأة العزيز حتى درجة فقد التوازن، ثم النسوة من بعد ـ وهو الذي شد إليه انتباه وإعجاب السجينين. . ثم إعجاب الملك.

وبهذه الشخصية القوية صمد في السجن، وجلّى في إدارة دفة الحكم في قطر عظيم كمصر. . وضبط الأمور في يسر وسلاسة بلا عنت على الناس ولا رهق ولا بطش ولا عسف، وزاد الإنتاجية. . كل ذلك من اقتناع الناس بقوة الشخصية التي تواجههم وتمتعه ﷺ بالكفاءات والمواهب العظيمة. .

شخصية يوسف في مواقف القصة المختلفة

يجمل الدكتور بيومي الحديث عن شخصية يوسف كما تتجلى بفضائلها ومواهبها في مشاهد القصة من أولها إلى ختامها فيقول:

«فإذا اتجهنا إلى البطل نجده يأخذ دوره الطبيعي في خطوات حياته، نراه لأول وهلة فتى صغير السن يجلس إلى أبيه ليقول له في بساطة: «إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين». ثم نراه في موقف آخر يرمى في غيابة الجب لتلتقطه السيارة فيباع بثمن بخس دراهم معدودة، ثم ينزل أكرم منزل في بيت العزيز فيبلغ أشده ويؤتى الحكمة والعلم، ومعهما العفة والأمانة، إذ يعرف لصاحب البيت نعمته فيصد امرأته، ويرى المؤامرات تحاك حوله فيلجأ إلى المناجاة ويصيح من أعماقه: «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، والا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين»

ثم يتعرض لامتحان آخر فيدخل السجن صابراً محتسباً ويرى السجناء من مسلكه الطاهر ما يجذبهم إليه فيطلبون إليه تفسير رؤاهم، وينتهز هذه الثقة فيقوم بدعوته الدينية شارحاً عقيدة الأنبياء جميعاً في وحدانية الخالق وهاتفاً بمستمعيه: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار..» ثم يقول لمن ظهر أنه ناج من رفقائه: «اذكرني عند ربك» وتحين ساعة الذكرى بعد إبطاء حين يرى الملك رؤيا غريبة لا يقدر على تفسيرها أحد، فيتذكر السجين براءة يوسف ثم ينهض إلى استفتائه فينطق بالتأويل الصريح، وحين يعجب الملك بذكائه يصيح: «ائتوني به» ولو كان السجين غير يوسف لطار لساعته دون انتظار إذ حانت ساعة الفرج بعد لأي، ولكن النبي الهادىء الصبور يريد أن يثبت براءته قبل كل شيء فيقول للرسول في تؤدة: «ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» وتظهر براءته فيرجع إلى حريته ليكون أميناً على خزائن الأرض».

ثم تمضي الأمور على نحوها المعروف حتى يلتقي بأبيه وإخوته فيرفع أبويه على العرش ويخر الإخوة ساجدين» فلا يزيد عن أن يقول لأبيه: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً»

ثم يتجه إلى صاحب الفضل الأول عليه فيناجيه متوسلاً: «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين»[1]

مصدر قوة شخصية يوسف عليه السلام

تبرز قصة يوسف «آيات العناية الإلهية مطيفة بيوسف عليه السلام، حافظة له منذ وعى على نفسه، وبلغ السعي مع أبيه وإخوته، وأنوار العصمة الربانية مشرقة في تلك النفس الزكية، ولقد طهرت سيرته، وعفت سريرته، وصفت روحه حتى صارت مرآة لذلك العالم العلوي الذي علق به قلبه، وشغفه حبه، فرأى الكواكب والشمس والقمر له سجداً، وكأنه وهو بشر قد صار روحاً مجرداً، أو ملكاً كريماً، فأنى لامرأة العزيز ونسوة المدينة أن يوقعنه في شباكهن، أو يصدن قلبه الشريف بحبائلهن وشراكهن، فهو روح علوي، وفتى سماوي، قد نشأ على عبادة ربه، وأترعت جوانب قلبه بحبه، ونطقت جوارحه ولهج لسانه بذكره وشكره، عشقت نفسه الزكية العلوية صفات الكمال، ودلت ملامحه وأقواله وأعماله على أنه سيكون له شأن عظيم، فحبب إليه الصبر والحلم، والعفة والأمانة، والعلم والحكم، والعدل، والعفو والإحسان، حسده إخوته فألقوه في غيابة الجب، وأخرجته السيارة فباعوه بيع العبيد، وكادت له امرأة العزيز فزج في ضيق السجن، فصبر على أذى الإخوة، وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة. علم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى. واختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فكانت العاقبة أن نجاه الله تعالى منهم، ورفعه فوق إخوته، وأذل له

(١) البيان القرآني، بيومي، ص٢٢٤ ـ ص٢٢٦ بتصرف يسير.



العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، ومكن له تعالى في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، والملك والحكم، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

﴿ونريد أن نمن على الذين آستضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ ٢٨ : ٥ ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ ١٢ : ٥٦ - ٥٧.

لقد كان عليه السلام المثل الإنساني الكامل في العفّة والأمانة». [١]

شخصية يوسف عليه السلام:

مثال الرجل الواعي الحصيف

«إن القصة تعرض شخصية يوسف عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات. وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.

ابتلاءات الشدة وآبتلاءات الرخاء، وآبتلاءات الفتنة بالشهوة والفتنة بالسلطان، وآبتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات. . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع[٢].

---

(١) تفسير سورة يوسف لمحمد رشيد رضا، من مقدمة محمد بهجة البيطار للتفسير ص٢ - ص٣ - ص٤.

(٢) الظلال ج٤ ص٦٦٣ - ص٦٦٤.



وقال في التصوير الفني تحت عنوان رسم الشخصيات في القصة: «يوسف. إنه نموذج الرجل الواعي الحصيف، فها هو ذا يلقى العنت من مراودة امرأة العزيز له فيأبى.

وتقع المفاجأة برؤية سيدها «وغير يوسف كانت تناله «اللخمة» ولكن يوسف الواعي يجيب صادقاً: «هي راودتني عن نفسي» ويستشهد بقميصه المقدود من الخلف. ويجد من يؤيده في استشهاده من أهل المرأة ذاتها.

وفي السجن يفسر الرؤيا للسجينين، فإذا عرف أن أحدهما سينجو وأنه سيعود إلى خدمة سيده، لم ينسَ يوسف الواعي أن يطلب إليه ذكره عند ربه.

ولكن الساقي ينسى. «فلبث في السجن بضع سنين» حتى يرى الملك رؤياه، ويعجز عن تفسيرها المفسرون، فيذكر الساقي يوسف، ويأتي إليه ليفسر الرؤيا، فيجد لها تفسيراً، فيطلبه الملك ليراه.

وهنا يظهر الرجل الحصيف. لقد دخل السجن ظلماً، وان حوله للغطاً، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يرد إلى السجن كما دخل إليه أول مرة، فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة: قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم» ويسألهن الملك، فيجبن بالحقيقة..

وإذ رأى أنس الملك به وآرتياحه لتأويله، وسمع منه قوله: «إنك اليوم لدينا مكين أمين» لم يدع الفرصة تذهب بل قال: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» فيجاب إلى طلبه في أنسب الظروف.

ويدل تصرف يوسف في سني الخصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والاقتصاد، فقد أشرف على المالية والتموين أربع عشرة سنة، لا على تموين مصر وحدها، بل على تموين البلاد القريبة المجاورة، التي أجدبت كذلك، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين.

ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون، جعل حصوله منهم على أخيه ثمناً لحصولهم على القوت. فإذا جاءوه بأخيه وأراد احتجازه «جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون» فإذا أنكروا السرقة وطلبوا تفتيشهم، وأخْذَ من تظهر الكأس في أمتعته ثمناً للكأس، تبدت الحصافة «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم آستخرجها من وعاء أخيه» وتركهم يعودون بدونه، ثم يرتدون إليه مرة أخرى فيكشف لهم هذه المرة عن نفسه، بعد أن يلقي عليهم هذا الدرس، وبعد أن يحملهم تلك المشقة.

وهذه كلها تصرفات الرجل الواعي الحصيف[1].

وقال الأستاذ المبارك يصور جوانب أخرى من شخصيته:

«هو المضطهد المظلوم المتآمر عليه في مرحلة طويلة من حياته في سلسلة من المصائب والمآزق ولكنه مؤمن بالله صابر على بلائه في الضراء، منتظر لرحمته دائماً شاكر لنعمته في السراء، إيمانه بربه غالب على هوى نفسه وشهواتها، عصمه الله من جموح الغريزة، وهو محسن لا يضمر للناس إلا الخير وداعية إلى الإيمان بالله حتى وهو في السجن، وصف بأنه من المحسنين والمخلصين وبصفة الصديق»[2].

ومن أجلّ أخلاقه التي تجلت في مواقفه، وفاؤه عليه السلام، وآعترافه بالفضل وشكرانه الجميل وإنعام المنعم، ومن وفائه أنه لم يذكر العزيز حين طلب من الملك فتح ملف القضية بل قال: «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن».

(١) التصوير الفني في القرآن. سيد قطب ط٤ شروق سنة ١٩٧٨ ص١٦٦ ـ ص١٦٩
(٢) دراسة أدبية ص٨٧.



الإداري الموفق: الحفيظ العليم

الإداري الموفق:

إن فضل الله على نبيه يوسف عظيم وكبير، ولا شك، فقد جمع له إلى التأويل والتعبير، مواهب وقدرات شتى متنوعة وصل فيها كلّها حد الكمال، ومن تلك المواهب: الشخصية القيادية الإدارية الفعّالة. وقد يكون الإنسان داعية موفقاً، أو على قدم راسخة في العلم، لكن هذا لا يعني القدرات الإدارية والنجاح في المهام القيادية. لكن نبي الله يوسف، وهو من آصطفاه الله وكمله كان على حد التمام في أموره كلها. وحين رشحه الملك لمنصب يتسنمه تخير أحرج موقع ليثبت فيه قدراته وكفاياته، والمناصب ليست أوسمة ولكنها تحديات وآختبارات للمسؤولين: أينجحون، أيبدعون؟ أيقودون السفينة بأسرع وأسلم وأفضل وأهدأ ما يمكن؟

وقد قدم يوسف مؤهلاته لِمَا تصدى له: الحفظ والعلم.

«قال آجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم».

ولقد أثبتت التجربة أن يوسف عليه السلام كان يعرف نفسه، وأنه كان كما قال، فلقد استطاع أن يضاعف الإنتاج الزراعي لمصر وبالتالي الميزان التجاري كله، حتى غدت مصر مستودع حبوب المنطقة كلها بفضل الله ثم بكفاءة القيادة التي تصدت لهذه المرحلة التاريخية الحساسة الخطرة، ومن يقرأ تاريخ مصر يعلم أن هذه النقطة حرجة فعلاً، إن مصر أم الخير، لكنه كانت تأتي عليها أحيان يثور فيها الجائعون على أمرائهم ويفتكون بهم، فمن تصدى لقيادة مصر في مرحلة المجاعة عرض نفسه لسهام النقد والتجريح بل لما هو أكثر: لثورة الجائعين التي لا عقل لها[1]

---

(١) اقرأ لابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١٨٩. واقرأ تاريخ الجبرتي ج٥ ص٥٠٩ - ص٥١٩ ط الشعب سنة ٥٩. وفي التاريخ الحديث حدثت حوادث كذلك.



ومن أول علامات توفيقه في إدارته تلك الخطة الخمس عشرية التي وضعها لإنقاذ مصر من ضائقة خانقة، كان يمكن أن تذهب بشعبٍ شعاره: «اصرف ما في الجيب» «احيني في يومي وأمتني في غدي» ولكنها أزمة اقتصادية وكان يوسف لها[1].

وتأمل كلمات خطته كلمة كلمة فإن لكل ما تفوه به لأبعاداً وآماداً: «قال تزرعون سبع سنين دأباً»

ولاحظ أنه بدأ تعبير الرؤيا بالإشارة إلى العمل الذي لا بد أن يضاعفوه حتى يتضاعف الإنتاج فلم يكن تعبير رؤيا بقدر ما كان خطة حركية عملية إنتاجية. ولاحظ أنه اقتصر على الزراعة لأن إنتاج مصر في ذلك الوقت - وإلى هذا الوقت - يكاد يكون مقتصراً على الزراعة. ثم لاحظ تعبيره بالمضارع الذي يفيد تجدد الفعل وتكرره، دون فعل الأمر الذي لا يفيد تصوير العمل بل طلب القيام به.

ثم بين لهم المدة التي يطبقون فيها الأمر وهي سبع سنين. وبين الكيفية: دأباً وهي كلمة معبرة مشحونة بالمعاني، فالمطلوب ليس عملاً اعتيادياً.. إن الأمة التي تريد أن تجتاز أزماتها لا بد لها أن تشمر عن ساعد الجد وتصل كلال الليل بكلال النهار عملاً، ويتحول المجتمع إلى خلية نحل دائبة.

وأن نخطط.. أمر ممكن، لكن أن يكون عندنا المقدرة على التنفيذ، والتنفيذ الفعال الدقيق فهذا أمر آخر ولقد نجح يوسف في الأمرين كليهما كل النجاح، خطط تخطيطاً بديعاً شغّل فيه الأمة كلها: «تزرعون» ونفّذ في الواقع خطة وقام عليها بنفسه وباشر كل أمر بمتابعة دقيقة حازمة.

(١) لا نريد أن نقارن بأزمة أسعار البترول التي ثارت في هذا الوقت منذ أول الثمانينات حتى ٨٧ وترنح منها اقتصاد كثير من الدول التي كانت أمس لؤلؤة الاستيراد والبذخ، لكن إن لم يقم الاقتصاد على دعائم ثابتة سهل تهديم بنيان الأمة في أقل أزمة.



ومما أعان يوسف على النجاح تفاعل الشعب معه وتجاوبهم، ولا تنجح خطة لا تستجيش كوامن الشعب للإنتاج والعمل، وهذا سر فشل كثير من التخطيط الاقتصادي في بلادنا العربية والإسلامية أنا نعتمد بنوداً مثالية جيدة ونسقط عنصر الإنسان ودوافعه للعمل.

ومما أعان يوسف على كسب إحترام الشعب أنه تقدم ـ لأول مرة ـ ببرنامج عمل محدد واضح، وأنه حذرهم من أخطار المستقبل إن لم يتداركوا أنفسهم. وأعانه كذلك سمعة طيبة نقية بلغت القاصي والداني.

كل ذلك كفل ليوسف نجاحاً باهراً وجعل منه الإداري الذي لا يبارى.

بعد التخطيط للإنتاج، هناك التخطيط الذي لا يقل أهمية: التخطيط للتخزين وللاستهلاك، «فما حصدتم فذروه في سنبله إلّا قليلاً مما تأكلون».

فائدتان نأخذهما من النص أولاهما التخزين في السنابل وهذا يحفظ القمح من التسوس والفساد، ثم فائدة أخرى في تقنين الاستهلاك، أو ما يعبر عنه بلغة العصر: التموين بالبطاقات.

ثم قدم يوسف المبررات التي تكفل اقتناع الشعب بخطته وتجاوبهم معه، ولو واجهوا خطته بالسلبية لفشل كل شيء، فالإداري ينجح بمن معه أيضاً، وبمقدار ما يستطيع تشغيلهم قال: «ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون»

وتأمل كيف أنه رسم كل هذا الذي رسم في سطرين فقط.

ثم فتح لهم نافذة الأمل بعد طلب العمل: «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون».

الحفيظ العليم:

قال الأستاذ جودت سعيد: «قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام:



﴿اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ عليم﴾ وبما أنه عرض نفسه للقيام بخدمة، فقد قرن هذا العرض - وهو أن يجعل على خزائن الأرض - بمؤهلات من يناط به أمر الخدمة، وهما الحفظ والعلم.

فالحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص، والعلم فيه جانب الصواب والكفاءة والاقتدار؛ وقد كان عليه السلام كذلك عند التطبيق العملي»[1]

صدقه عليه السلام

اشتهر العديد من الأنبياء بأوصاف ميزت كلًّا منهم، فإبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وأيوب الصبور ويوسف الصديق.

وقد وصف يوسف بالصدق في أكثر من مكان وعلى أكثر من لسان. ففي شهادة الشاهد استنتج صدقه بالدلائل والقرائن حين قال:

«وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين - فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن..»

وشهدت امرأة العزيز له بالصدق من خلال خبرتها وتجربتها ومعرفتها لخطأ نفسها:

«قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وفي خطاب الساقي له حين جاءه يطلب تعبير رؤيا الملك: «يوسف أيها الصديق أفتنا..»

ومن مواقف صدقه عليه السلام تعبيره لرؤيا السجينين، وقد يخطر بالبال في مثل هذا الموطن أن يجامل يوسف الرجل المحكوم بالصَّلب فلا يفجعه بما سيواجهه بعد ولكن يورّي له أو لا يفسّر له بالمرة، حتى لا يموت مرات.

(١) العمل قدرة وإرادة لجودت سعيد ص٣٣، ط١ دار الثقافة للجميع دمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.



وبالنظر الأبعد قليلاً من النظرة السابقة يتجلى أن كلمات يوسف الصادقة في تعبير رؤياه وإن كان فيها بعض فجيعته بنفسه، لكن فيها أيضاً النصحَ والإخلاص فلعله إن علم بقرب نهايته يكون هذا حافزاً له على الإيمان وتغيير نفسه وما فيها، بينما طول الأمل يصده عن سبيل الله.

وتأمل لو أن يوسف ـ حاشاه ـ لم يقل الحقيقة في تعبير رؤيا هذا السجين ما الذي كان يمكن حدوثه، كان الساقي لم يشر بيوسف على الملك ليعبر له رؤياه، وكانت خسرت مصر كلها كثيراً جداً، وسبب ذلك أن نجامل شخصاً على حساب الحقيقة فيخسر ويخسر الكثيرون. والحق أحق أن يقال، والصدق أليق بالرجال.

ومن صدقه عليه السلام تعبيره رؤيا الملك، فلم يجعله ظلم المصريين له ينتقم لنفسه فيخالف الحقيقة حين فسر الرؤيا، لقد محضهم النصح كاملاً وبصدق بالغ، ﷺ، وإن كانوا محضوه الافتراء عليه، والظلم الفادح البالغ.

ضبط يوسف لمشاعره

نعجب ونحن نقف في مواجهة هذه الشخصية العظيمة من تمكنه العالي من ضبط مشاعره وأحاسيسه وأول ما تجلى هذا المعنى في مواجهة امرأة العزيز، ثم قوته في مواجهة المرأة وسيدها حين قال: هي راودتني عن نفسي، فلم تربكه المفاجأة ولم تفقده شجاعته.

ثم في مواجهة النسوة ـ ثم رفضه الخروج حين جاءه رسول الملك حتى يحقق في أمره في موقف هو أحوج ما يكون فيه إلى الخروج، ولو اندفع وراء حب خروجه من السجن لفاته معنى مهم جداً، ولكنها الشخصية القوية الموفقة المسددة.

ثم حين واجه إخوته أول مرة لم يند عنه انفعال أو تتأثر نبرته وكأنه لا



يعرفهم وبعد ذلك حين افترى الإخوة كذباً ضد يوسف هذه الفرية: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم.»

«وأما قول يوسف عليه السلام: **﴿رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾** ٣٣.

«فلا يدل على أنه عليه السلام فاقد للإرادة والعزم على مجاهدة نفسه فيما يدهمها من خطر غواية المرأة وفتنتها، ولكنها مقامات الأنبياء في آلتجائهم إلى الله في كل آن؛ لأنهم أعرف الناس به، وهو الذي تولى رعايتهم وتربيتهم، وفي خوفهم من خطرات قلوبهم، وميل نفوسهم، وكيف لا يخاف الفتنة والصبوة، ونظرات هذه العاشقة التي يؤويه بيتها تلتمس مواطن الإثارة لتجد مكاناً خالياً من قلبه؟ إن من أقوى التأثير شعور الرجل بحب المرأة إياه، كما قالت علية بنت المهدي: تحبب فإن الحب داعية الحب»[1].

البعد الخارجي: أوتي شطر الحسن

في الحديث عن نبينا ﷺ أن يوسف أوتي شطر الحسن[2]

ولو أن قاصاً عادياً أراد أن يعرض لقصة يوسف ويصورها لوقف عند شكله وجماله موقفاً مطولاً جداً، ولبدأ بذلك من أول القصة.

ولكن تأمل الصنيع القرآني كيف لم يتعرض لوصف جماله مباشرة، وإنما ترك للأحداث أن تبين لنا هذا، وقد قدرنا شيئاً من هذا الجمال في فتنة امرأة

---

(١) المنار ج٢ ص٢٩٦ ونقله عنه سيكولوجية القصة ص٥١٢.

(٢) في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ذكر حديث يرفع إلى النبي ﷺ نصه: «رأيت يوسف ليلة أسري بي في السماء الرابعة، فقيل كيف رأيته يا رسول الله فقال كالقمر ليلة البدر» وقال: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن» وقال المحقق الطحاوي في تخريجه: أخرجه الحاكم في مستدركه عن أنس، ثم نسب هذا إلى الفتح الكبير. إرجع إلى البصائر ج٦ ص٤٧ القاهرة سنة ١٣٩٣هـ - سنة ١٩٧٣م المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط١.



العزيز، وعدم استماعها لا لصوت عقلها وسنها ومركزها، ولا لوعظ يوسف، ولا للوم الشاهد ونصائحه، ولا لخشية الفضيحة في المجتمع، قدرنا من كل ذلك أن جمال يوسف شيء خارق للعادة.

والإشارة الأخرى المفهمة تظهر في إدخال امرأة العزيز ليوسف على النسوة وثقتها بأن مجرد رؤيته كفيلة بإدارة رؤوسهن وتغيير ما فيها من لوم وعتاب وتحويله إلى موافقة مع رأي امرأة العزيز... ومن هنا كان أن:

«.. أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني فيه..»

وتأمل كلمات النص الكريم: اخرج عليهن، وكأنه الشمس تطلع، لا تدخل، وتشرق على الناس من عليائها.. عليهن.

وقوله: فلما.. أي بمجرد رؤيته كان الذي كان. وقوله أكبرنه أي أعظمنه ورأينه شيئاً غير معهود، وشخصاً لا كالبشر.

وقطعن أيديهن: والمبالغة بالتشديد في قطّعن، والمبالغة في أيديهن بدل الأنامل، كل ذلك ليدلك على مقدار الذهول الذي أصاب جميع النسوة.

وقلن حاش لله: كلمة تعجب كما تقول حين ترى المنظر البديع سبحان الله. أي تنزَّه الله وجل خالق هذا الحسن، وتعالى الله أن يكون خلقه هذا بشراً فيه شيء من عيوب البشر، أو تمتد إليه أطماع البشر، إنما هذا ملك كريم.

فالانطباع الأول الذي تكون لديهن عنه أنه لا يمكن أن تمتد إلى هذا الحسن خواطر السوء أو أماني الهوى، حتى كان من امرأة العزيز أن لفتتهن إلى أن هذا هو الذي أطمعها فيه. فتحولن من الإكبار والتعظيم إلى المراودة، ودعوتهن إياه لما دعته إليه امرأة العزيز، ومن هنا قال: «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن..»



شخصية يوسف كما يراها خلف الله في فنه القصصي:

«إن شخصية يوسف تمثل كثيرين غيره من الإسرائيليين الذين يتركون أوطانهم إلى غيرها حيث ينبه شأنهم، وينهضون نهضة اقتصادية تمكن لهم، وتجعلهم كما يطلق عليهم «ملوك المال»»(١)

ولا ندري مقصد الكاتب مما يقول: أهو يغمز من مقام يوسف أم يعلي من شأن اليهود بتشبيه يوسف بهم وتشبيههم بيوسف.

وشتّان بين شأن وشأن.. ونجاح ونجاح. فنجاح يوسف كان بمبدأيته وأخلاقيته وكفايته وصدقه وعفته.. ونجاح بني إسرائيل أو بعضهم في أماكن كثيرة من العالم الذي انتثروا فيه مردّه إلى أساليبهم الخسيسة ولا أخلاقيتهم واستغلالهم حاجات الناس، واحتكاراتهم..

عجيبة تشبيهات الدكتور وتداعيات خواطره وترابطياته الفكرية...

حكمة يوسف

تجلّت حكمته عليه السلام في مواقف كثيرة منها تدبيره لاستقدام أخيه الشقيق، وتأمل كيف أنه لم يظهر نفسه لإخوته وأخفى انفعاله وتحكم في أحاسيسه أن يبديها، وكيف آستطاع أن يستخرج منهم في أثناء حديثه معهم أن لهم أخاً من أبيهم بقي وراءهم، وبالطبع لا يتصور أن يكون يوسف هو الذي بدأهم بالحديث عن أخيهم ورتب عليه طلب إحضاره معهم، وإنما المتوقع منه أن يكون استدرجهم في الحديث حتى آنطلق منهم هذا الأمر أو تفلت، وهنا

(١) الفن القصصي في القرآن لمحمد أحمد خلف الله ص٣١٤، وقد رد عليه الأستاذ السعودي: أحمد محمد جمال في كتابه الجيد: على مائدة القرآن ص٤١٢ وقال في الرد: إن يوسف عليه السلام لم يذهب متاجراً إلى مصر كما يفعل اليهود ولم يصل إلى ما وصل إليه من الملك والسلطان في مصر نتيجة نهضة اقتصادية يهودية، وإنما كان يوسف ضحية إخوانه.. ودخل مصر مملوكاً وظل فيها سجيناً بضع سنين، ثم عندما انكشفت براءته ونزاهته وأمانته صار عزيز مصر..



يطلب يوسف منهم إحضار هذا الأخ.

أما كيف آستدرجهم، فيمكن أن يكون عن طريق سؤالهم: أهم جميعاً إخوة أشقاء وهل وراء هذا العدد من أحد؟ المهم أن هذه المعلومة استخرجها منهم بتبسطه معهم في الحديث وجرهم إلى النطق بما يريد.

ثم تأمل من تدبيره الحكيم منعه الكيل منهم في المرة المقبلة حتى يحضروا أخاهم معهم، ثم تشجيعهم على المجيء وترغيبهم فيه بعد الترهيب، بأن وضع بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا آنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون.

ورجع الإخوة إلى أبيهم، وكان أول ما تفوهوا به منع عزيز مصر الكيل لهم مستقبلاً مبينين السبب في ذلك وهو عدم وجود أخيهم معهم، وأنه إذا ذهب معهم سينالون هم وإياه ما نالوا من قبل، وانهم يحفظونه وكان جواب يعقوب: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل..»

وكاد الأمر يقف عند هذا الحد، فلا يريد يعقوب أن ينكأ جراحه القديمة بإطالة الحديث عن يوسف، ولا يجرؤ الإخوة الذين يلازمهم شبح جريمة إلقاء يوسف في الجب أن يثيروا الحديث في الميرة لأنها مرتبطة بأخيهم من أبيهم الذي يتسلى به يعقوب عن يوسف، وهنا يلعب وضع يوسف البضاعة في رحالهم دوره فيخرج الإخوة من صمتهم والأب من تمسكه بشقيق يوسف وتأخذ أحداث القصة في التقدم إلى الأمام.

«ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير، ذلك كيل يسير».

وهكذا كان وجود ثمن البضاعة في رحالهم الذي لم يتوقعوه مطلقاً قادراً على جعل الإخوة يعودون إلى الحديث في الموضوع نفسه ليس في عجالة كما حدث من قبل بل في شيء من الطول.

ونلاحظ بعد هذا أن روحهم المعنوية ارتفعت بعد وجودهم ثمن بضاعتهم، فبعد أن آهتموا بمنع الكيل فقدموه في حديثهم من قبل إذا بهم الآن يهتمون بالحديث عن الطعام الذي يمكن جلبه وحفظهم لأخيهم، وقد افترضوا سماح يعقوب لهم بأخذه معهم، وزيادة الكيل بعير هو نصيب هذا الأخ ـ كما آهتموا بالإشارة إلى كرم عزيز مصر بأن كيل البعير هذا هين يسير. وقد غير يعقوب من موقفه: قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله. .»[1]

إحسانه:

تردد وصف يوسف بالإحسان كثيراً في السورة الكريمة، فقد وصفه ربه بهذا الوصف في أكثر من مرة: **﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾** آية ٢٠. والطريف أن هذه الآية سبقت الآية المتحدثة عن المراودة مباشرة حتى يتهيأ الذهن إلى أنه لن يكون من يوسف إلا ما يتفق مع هذه الأوصاف التي وصف بها: العلم، والحكمة، والإحسان. وإن العلم والحكمة التي أفاضها الله عز وجل على يوسف إنما هي جزاء إحسانه عليه السلام، وإن سنة الله في الخلق أن يجزي المحسنين بهذا الجزاء: العلم والحكمة، كما قال تعالى: **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾**.

والمرة الثانية التي وصفه بها ربه تعالى في قوله تعالى: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾** ٥٥

إن من ثمرات الإحسان في الدنيا التمكين للمحسنين في الأرض مع ادخار أجرهم كاملاً يوم القيامة.

وفي مرة ثالثة وصف يوسف بالإحسان على لسان السجينين: **﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾** ٣٦. ولقد أنبأ السجينين عن إحسان يوسف

(١) الوحدة الموضوعية ص٣٨ـ ص٣٩.



مسلكه في السجن وخلقه الرفيع في المعاملة وتهذيبه العالي، واعتقد السجينان - صواباً وحقاً - أن الإحسان من مؤهلات تعبير الرؤى، التي هي من عالم الروح، فلا بد لمعبرها من أن يكون ذا روحانية عالية وإحسان.

ومرة وصف بالإحسان، ولكن على لسان إخوته، وهم لا يشعرون من يمدحون، حين رجوه قائلين: **﴿يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾** ٧٨.

ومرة يأتي الحديث عن الإحسان على لسان يوسف نفسه، في حديثه عن سنة الله التي أكرم يوسف بمقتضاها، يقول: ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ٩٠

والإحسان في هذه الآية هو التقوى والصبر، وقد أكدت هذه الآية ما جاء في سابقتها من حفظ أجور المحسنين وثوابهم.

عصمة يوسف عليه السلام:

قال في النبوة والأنبياء:

وفي قصة يوسف الصديق عليه السلام صور مشرقة عن نزاهة هذا النبي الكريم وبراءته وعصمته، مع ما أعطاه الله عز وجل من الجمال، وما كساه من البهاء والجلال، حتى افتتنت به امرأة العزيز، فصنعت ما صنعت بقصد إغوائه وإغرائه، ولكنه عليه السلام كان أصلب من الحديد، وأقوى من الجبال، فلم تؤثر فيه تلك العواصف الهوجاء، والمكائد المدبرة، التي آصطنعها النسوة مع امرأة العزيز، والتي قصّ القرآن علينا طرفاً منها»

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض البسطاء السذج ممن ليس لهم قدم راسخ في العلم، قد اغتروا ببعض روايات إسرائيلية باطلة مكذوبة، لا يصح أن تروى أو تذكر في كتب التفسير، وقد نبه عليها العلماء الاثبات، والحفاظ

الثقات، لأنها تصادم النصوص القرآنية الكريمة، وتتنافى مع عصمة الأنبياء الأطهار.

من هذه الروايات الباطلة المفتراة على الصديق يوسف عليه السلام أنه حين راودته امرأة العزيز عن نفسها استجاب لها واستكان، وحاول أن يرتكب الفاحشة وهم. . ، ولكنه سمع صوتاً يناديه، وصوّر له والده يعقوب، فاستحيا وأقلع . .

والذي جعل هؤلاء يخبطون خبط عشواء، في قبول أمثال هذه الأباطيل والأكاذيب، المنقولة عن الإسرائيليات، فهمهم الخاطىء للنص القرآني الكريم الذي جاء في أثناء عرض قصة يوسف عليه السلام: ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾. ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين.

وكما قال النسفي عن زعمهم انه باطل، ويدل على بطلانه قوله: هي راودتني عن نفسي، ولو كان ذلك منه لما برأ نفسه من ذلك، وقوله: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه، وقوله «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» - واضح أن الشيخ يرجع الكلام إلى يوسف ولقد رجحنا أن هذا القول لامرأة العزيز، فعلى ترجيح الشيخ - ولو كان ذلك الهم لخانه بالغيب.

ثم قال الشيخ الصابوني: «إن الآية الكريمة لها مفهوم دقيق ينبغي ألا يغفل عنه واسع العلم، دقيق البصر، ذلك أن الهم الذي وقع من امرأة العزيز كان هم سوء، أما الهم الذي كان من يوسف فدفع العدوان عن نفسه، فالهم منه غير الهم منها، همت به طلباً، وهم بها دفعاً، كما يقول بعض المفسرين.

أو نقول: إن الهم منها وقع فعلاً، وأما هم يوسف فكان بالطبع، أي أنه عليه السلام مال إليها بطبيعته الفطرية مع الامتناع عن مقارفة السوء، والإنسان غير مؤاخذ على ما تشتهيه نفسه أو يميل إليه طبعه ما لم يعزم على فعل الشيء،



وهذا ما فسره به النسفي رحمه الله حيث قال: همت به هم عزم، وهم بها هم الطباع مع الامتناع.(١)

ويرى بعض المفسرين أن في الآية تقديماً وتأخيراً ويصبح المعنى: لولا أن رأى برهان الله أي عصمته لهم بها، ولكن عصمة الله حالت دون ذلك(٢).

قال الشيخ عبد الوهاب النجار بعد أن ذكر قريباً من الأقوال السابقة:

«وأعرق هذه الأوجه في البعد قول من يعتذر عن هم يوسف بأن ذلك كان قبل النبوة، وصاحب هذا القول غافل عن قوله تعالى: «الله أعلم حيث يجعل رسالته» فإن الرسالة إنما يختار لها أصحاب الأعمال المرضية ولا يختار الله رسله من أهل الفسق. وهو تعالى يرشحهم لما يضطلعون به من رسالة فهو يعصمهم عن الخسائس وسائر ما يعيّر به الناس، وأي عار أكبر من أن يذهب الشخص إلى المعصية ثم لا يرجع إلا بعد الزجر والنهي [يشير الشيخ إلى أقوال المفسرين الذين فسروا البرهان بأنه زجر من الله أو من جبريل أو من يعقوب].

ويقول آخرون: إنه هم، هم الطبيعة وهو أمر لا اختيار للمرء فيه. وهؤلاء أخف قولاً مما تقدم.

ويقول آخرون: إنه هم، هم ترك ، ولست أطمئن إلى هذا القول وأنه وجد منه هم على حال. وتكلف آخرون فقالوا: إنه هم ليضربها.

والقول الذي لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) ومع قوله في الآية نفسها (إنه من عبادنا المخلصين): إن همه عليه السلام امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه

---

(١) والحقيقة أن هذا القول ردده كثير من المفسرين ومنهم من زعم أن في هذا دليلاً على كمال فضله وسلامة طبعه، وممن ردد هذا القول على سبيل المثال: الزمخشري في كشافه، ج٢ ص٣١٢ طبعة دار المعرفة بيروت. والظلال: ج٤ ص١٩٨١ طبعة دار الشروق. وليس الأمر كما زعموا بل الراجح الامتناع لوجود البرهان.

(٢) النبوة والأنبياء للصابوني ص٧١ ـ ص٧٤ بتصرف واختصار.



بآداب آبائه وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، وأن قوله (وهم بها) لا يصلح جواباً لأن (لولا) لها الصدارة. لأنا لا نقول إن هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب: ونظير ذلك قوله تعالى: «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً . . إن كانت لتبدي به لولا أن ربطنا . .»[1]

وذكر الشيخ الصابوني بعد الحديث عن عصمة يوسف عشرة وجوه أو أدلة تدل على عصمة يوسف، فقال:

وهناك وجوه عشرة على عصمة يوسف وبراءته عليه السلام من تلك التهمة الشنيعة التي نسبها إليه من لا يعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة، ولا صفات الأنبياء، ونحن نوجزها فيما يلي:

١ ـ امتناعه عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم.

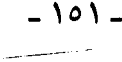
٢ ـ فراره عليه السلام من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق، وأرادته على نفسها بالغصب والإكراه، ولو كان يوسف قد هم بالفاحشة لما فر منها، لأن الذي يريد عمل الفاحشة يقدم ولا يفر.

٣ ـ شهادة بعض أقرباء امرأة العزيز ببراءة يوسف بفحص ثوبه لأنه إذا كان هو الطالبَ لها وهي الممتنعة فإن ثوبه سيشق من أمام وإن كانت هي الطالبة له وهو الممتنع الهارب منها فإن ثوبه سيشق من خلف.

٤ ـ تفضيله السجن على الفاحشة، وهذا من أعظم البراهين على براءته عليه السلام، إذ كيف يعقل أن يفضل شخص السجن على شيء يرغبه ويتمناه، ولو أنه استجاب لدعوتها، وطاوعها على نفسها لما لبث في السجن بضع سنين بسبب تلك التهمة التي ألحقتها به.

٥ ـ ثناء الله عز وجل عليه في مواطن عديدة من السورة، فقد أخبر الله

(١) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٢٤.



عنه بأنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين، الذين اختارهم الله لنبوته، وأخلصهم لطاعته وعبادته، وهل يكون ثناء الله تعالى إلّا على من صفت نفسه وطهرت سريرته من كل نية سيئة وكل عمل قبيح.

٦ ـ اعتراف امرأة العزيز نفسها بعصمته أمام جمع من نسوة المدينة، ولفظ «فاستعصم» يدل على الامتناع البليغ، والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة من الأمر وهو يجتهد في الاستزادة منها.

٧ ـ ظهور أمارات البراءة على يوسف بالدلائل الواضحة والبراهين الساطعة، ولكنهم مع هذا أقدموا على سجنه دفعاً للتهمة عن أنفسهم: «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه..»

٨ ـ استجابة الله عز وجل لدعوة يوسف حين طلب من ربه أن يصرف عنه كيدهن ومكرهن الخبيث به، ولو كان له رغبة في مطاوعة زوجة العزيز لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن.

٩ ـ عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام جميع الناس، وذلك يدل على منتهى شهامته، وعفته ونزاهته.

١٠ ـ وأخيراً الاعتراف الواضح الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز التي اتهمته بنفسها، وذلك لا يدع ذرة من شك في براءة يوسف.

قال الرازي: إن يوسف قد شهد ببراءته الله تعالى، وشهد ببراءته الشاهد، والنسوة، وامرأة العزيز.[١]

يوسف الداعية الحكيم

قصص الأنبياء في القرآن الكريم مدارها على محور الدعوة إلى الله تعالى،

(١) النبوة والأنبياء للصابوني باختصار من ص٧٤ ـ ص٧٨.



والمعنى البارز في حياة كل نبي هو الدعوة إلى الله، بل إن كثيراً من الأنبياء لم نعرف من حياتهم إلا حلقة الدعوة ونجهل تماماً ما وراءها، مثل نوح وهود وصالح وشعيب ولوط، والياس، ويونس.

وفريق آخر من الأنبياء عرفنا عنهم إلى جانب معنى الدعوة بعض الكرامات الشخصية التي آمتن الله عليهم بها، كدليل على إكرام الله لهم، أو عظيم قدرة الله تعالى من خلال خرق السنن الطبيعية المألوفة في مواقف ومشاهد من حياتهم، من أولئكم الفريق الطيب: إبراهيم ويعقوب وزكريا وداود وسليمان وموسى وأيوب وإسماعيل.

فلكل نبي لونٌ خصوصية في تجربته الدعوية؛ أما يوسف عليه السلام فله تجربته الطريفة في الدعوة، فالجانب الغالب على سيرة حياته هو ولاية الله له وتعهده إياه وإنقاذه من كل كيد كان يكاد له، وفي حياته الغنية بالمشاهد المتنوعة وتجربته الفريدة الطريفة حلقة الدعوة بارزة واضحة مميزة.

فأما معيشته في بيت العزيز فإنا لم نقف منها على حلقات عرضت مشاهد له في الدعوة لأنه لم يعرض من كل تلك السنين الطويلة له سوى مشهدين أو ثلاثة ركز الأول على تهيئة هذا البيت له ليعيش فيه حين قدم مصر صغيراً غريباً رقيقاً، ثم تجربته مع النسوة، التي انتهت بخروجه من هذا البيت إلى السجن.

أقول إن هذه السنين التي عاشها يوسف في بيت العزيز نستطيع أن نستشف منها استنتاجاً مواقف دعوية ليوسف،

فمن ذلك أن يوسف كان تلقى من تربية أبيه يعقوب على الإيمان والتوحيد ما يكفي لصياغة الشخصية، وكان من بديع صنع الله لعبده يوسف أن أخرج من حجر أبيه وقد بلغ سن التمييز أو بعده بمعنى أنه تحصل له العقل الكافي الذي يستوعب دعوة الإيمان، ولما بلغ أشده في بيت العزيز كبرت معه المعاني التي كان تلقاها. كبر وعيه لها وإدراكه وتفاعله معها، فلا يتصور من مثله



إلا أن يكون دعا إلى ربه في المواقف التي تستدعي، ولا نتصور إلا أن سلوكه جعل من حوله من العزيز وامرأته ومن يزورهم يسألون يوسف عن منطلقاته في الحياة التي تجعله متميزاً عنهم في المسلك والمشارب والنزعات والتطلعات، ولا يتصور منه إلا أن يكون دعاهم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن امرأة العزيز في آخر القصة وقفت موقفاً يدل على تصور عالٍ للقضية الإيمانية لا يعقل أن يكون تكون لديها في لحظة المحاكمة أمام الملك وسؤاله عن المراودة، ولكنه نضج لثمرة أو لبذرة كان ألقاها يوسف في نفس كل من بالبيت العزيزي، تفاعلت هذه البذرة مع السنين فأنتجت ما أنتجت من كلام امرأة العزيز في آخر القصة.

وإنما لم تتأثر امرأة العزيز وقت دعوتها من قبل يوسف لوقوعها تحت تأثير شخصيته البشرية لا الشخصية النبوية، فلما زال الأثر البشري بفعل السنين الطوال التي ابتعد خلالها يوسف لم يضع أثر كلماته وعقيدته ومبادئه التي كان بثها من حوله فكان من بركاتها وثمراتها ما كان من امرأة العزيز.(١)

وموقف دعوي واضح صريح ـ مضموناً وأسلوباً ـ ليوسف في السجن، وفترة السجن الطويلة التي قضاها طواها المنهج القرآني العظيم للقصة في مشهدين لم يستغرقا سوى بضعة أسطر. وتأمل لو كان قصاص هو الذي يكتب القصة عن نفسه أو عن بطله ماذا كان يكتب عن ـ بضع سنين ـ من الصفحات؟

على أي حال فإن سؤال السجينين هو الذي أتاح ليوسف موقف دعوة، تكون فيه ظروف الاستجابة مواتية، ونفوس المدعوين مهيأة، فهم أصحاب الحاجة وكلهم لهفة على السماع لما يلقى إليهم من تأويل رؤياهم، وما كان

---

(١) قال في صفوة التفاسير في هذا المعنى: ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه. ا. هـ ج٢ ص٦٠.



كذلك لا يستوي هو ومن بدأته أنت بـالكلام وهـو لا يشعر بحـاجته إليـك ولا بأهميتك عنده، وما كان ليوسف الحصيف أن يضيع هذه الفرصة.

فتأمل كيف دعاهما إلى الله وبأي أسلوب.

بدأهما بداية تتناسب ونفسية المساجين، وهي الحقيقة، وفيها إخبارهما عن مكانته ومنزلته العلميـة حتى يزيـد اهتمامهـما بما يقـول، لا ليفخر عليهـما، معاذ الله، قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.

وأنظر البدء بالتبشير الذي هو من حكمة الدعـاة إلى الله: بشروا، ومعلوم كم يكـون السجين في حـالة حـرمان تجعله متلهفـاً لما يـأتيـه من طعـام، ثم إن الطعام يعني هدية من أقرباء وزيارة وصلة من أرحام، بهذه البدايـة بدأ يـوسف الكلام.

لم لم يعبر يوسف الرؤيا مباشرة؟

إن السجينين يعتبران تعبير الرؤيا غاية ويوسف يعتبرها وسيلة للدعـوة إلى الله. ولاحظ لم بدأ بالحديث عن الطعام.

ولم عبر عنه بالرزق؟ ليشير لهما ابتداء إلى الرزاق سبحانه.

وعبّر بقوله: نبأتكما بتأويله، بنفس ألفاظهما ليطمئنهما.

وإذا كان تأويل الرؤيا يعتمد على عناصر مـوضوع الـرؤيا، فعـلام يعتمد تـأويله بالـطعام؟ وهـل موقف يـوسف هذا من بـاب الفخر بنفسـه أو من باب التهيئة لسماع كلامه. لاحظ الاهتمام بالشخصـين «يأتيكـما» «ترزقـانه» «نبـأتكما» «ذلكما» «يا صاحبي السجن» ولاحظ اللطف في قوله «ملة قوم».

وتأمل بعـد أن شعر أنـه هيّأ النفـوس ليهدم آلهتهـا الباطلة دون أن تثـور عليه فعل وضرب ضربته وصارح بما يريد بعد أن أوصل العقول إلى التهيئة التي تجعـل سماع مثـل هذا الكـلام الذي فيـه عيب الآلهة والآبـاء، يجعله مقبـولاً لا يقابل بالثورة والانتقام الشخصي.



ثم يقرر في نفس الكلمة السابقة أن ما يقوله لهم هو الدين القيم بمعنى أن ما هم عليه هو الدين الأعوج الفاسد. ويقول لهم أيضاً إن إفراد الله عزّ وجلّ بالحاكمية في شؤون الحياة كلها هو المعنى الصحيح للعبادة لا الطقوس المحدودة الشكلية الجامدة التي تمارسونها أنتم وآباؤكم وكل جاهلية في الأرض على مر التاريخ.

وبعد أن أدّى الأمانة التي عليه وبلغهما ما لديه، وأفرغ وسعه وطاقته في النصح والتبليغ والتبيين، عبّر لهما الرؤيا وأولها فقال:

«يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان».

هذا هو جواب السؤال إذن جاء أخيراً، ولكنه في محله ومكانه بالضبط، إذ ليست القضية صواب رؤيا يأتي مطابقاً لنفوس ليست متطابقة مع المنهج الإلهي، فمطابقة النفوس للمنهج أولى من مطابقة الرؤيا للواقع بتفسيرها.

ولا يفوتنا أن نعيد الحديث عن اللطف مرة أخرى والحكمة في قوله أحدكما دون قوله أما أنت، لأن الكلام لأحدهما مفجع فليس من الملائم أن يدعّه بالكلام دعاً في وجهه مع أنه لم يخالف الحقيقة بحرف واحد.

وتأمل الصدق في تعبير الرؤيا، والحكمة من وراء هذا الصدق، فلو كان هناك ثمة مجاملة ولو قال يوسف في نفسه ما الداعي لقول الحقيقة المرة بصلب الرجل الآخر، لو فعلها يوسف لما جاءه الغلام بعد وقت لاهثاً يقول: يوسف أيها الصديق أفتنا...

وأيضاً فإن الصدق في الإشارة إلى قرب انتهاء الأجل قد يحمل على التوبة الصادقة والتخلص من الشرك.

كل هذا وغيره من حكمة الداعية النبي يوسف الصديق عليه السلام في موقفه مع السجينين ومن رؤييهما.



وفي آخر القصة يظهر لون جديد من صور الدعوة في حياة يوسف، ذلكم هو الدعوة من خلال الموقع الجديد الذي أصبح فيه، الشخصية الأولى ـ عملياً ـ في مصر، والشخصية الثانية ـ رتبة ـ فيها. ولا بد أن آفاقاً جديدة واسعة للدعوة قد تفتحت أمام يوسف في إدارته لمصر، وتنظيم شؤونها والاتصال بالعالم الخارجي، ولا بد أنه وظف كل هذه الإمكانات في سبيل رسالته ودعوته يبلغ الدين للناس وهم يثقون بكلمته ويرون نجاحه، والإشارة القرآنية الموجزة: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض تومىء إلى التمكين بصوره، التمكين في النفوس والقلوب إيماناً وتأثراً بمبادئه، والمركز الذي شغل.

ومن الآفاق العليا في شخصية الداعية يوسف عليه السلام أن الملك ما زاده إلا تواضعاً لله وتفانياً في الرسالة التي هيأه الله لها وحمله إياها: «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين».

ومما تسلح به يوسف في دعوته إلى الله، إلى جانب إيمانه العظيم، خلقه العظيم. هذا الذي تجلى في كل مواقفه عليه السلام.. في موقف المراودة وفي موقف كيد النسوة وفي السجن تجلى إحسانه، والسجن هو المكان الذي تنقلب فيه الشخصيات غير المتينة وغير العميقة التكوين..

وهذا درس آخر للدعاة إلى الله أن يتسلحوا بخلق رفيع قويم في دعوتهم إلى الله وحوارهم مع من يدعونهم إلى ربهم، وتحليهم بالحلم واللطف والصبر والأناة والحصافة والكياسة واللباقة واللياقة.

ثم ثنّى يوسف الداعية الحكيم الموفق عليه الصلاة والتسليم، بتعريفهما بمصدر هذا العلم الذي به يقول ما يقول: «ذلكما مما علمني ربي» ذلكما العلم والإقدار على التأويل والإنباء من تعليم ربي لي فهو صاحب الفضل سبحانه، وهو الذي يربيني ويعلمني.

ثم عقّب بالسنّة والسبب الذي يهيء الإنسان لتلقي فضل الله تعالى



وتعليمه: «إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون».

وتأمل هذا التلطف في تنكير القوم الذين ترك يوسف ملتهم، إنه لم يواجههم حتى الآن بحديث مباشر ولكنه يقترب بلطف من مراده ومن المصارحة التامة، ثم يزيد تفصيل الدين الذي هو عليه والتعريف بشخصيته وهويته في آن واحد:

«واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون»

وتأمل كيف نهى عن الشرك في صورة من يتحدث عن نفسه وما لا ينبغي لها: ما كان لنا وكيف عرَّض بموقفهم في لطف شديد: ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

ثم تأمل هذا التلطف في الخطاب، والبدء بالاقتراب من المواجهة الصريحة بالكلام: «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار».

وتأمل رقة هذا النداء بحرف النداء «يا» ثم القرب النفسي -في وصفهما بصاحبي السجن، ثم بعد هذا، هذا السؤال التقريري المصور المعبر: أأرباب ثم وصفهم بأنهم متفرقون أم الله ثم وصفه وقرر أنه الواحد القهار، فأفاد في المقابل أن الآلهة الأخرى ليس لها من القهر والأمر شيء إنما هي مزعومة متوهمة متخذة بالباطل أرباباً من دون الله.

ثم قرر هذا المعنى فيما يلي فقال يكلمهما بالصراحة والمواجهة المحددة إذ لا بد أن يعرف الإنسان أين يقف هو بالضبط حتى لا يتوهم أنه خارج دائرة الخطاب:

ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إيّاه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

تطور شخصية يوسف

يعلق الظلال على تعبير يوسف لرؤيا الملك وعدم استجابته لدعوة الملك بقوله عن هذه المرحلة من حياة يوسف إنها «مرحلة جديدة من مراحل حياة الشخصية الأساسية في القصة ـ يوسف ـ ومع امتداد هذه الشخصية واستقامتها على المقومات الأساسية لها، فإننا نجد في هذه المرحلة الجديدة ملامح جديدة تبرز ـ هي امتداد طبيعي واقعي لنشأة الشخصية وللمرحلة السابقة من حياتها ولكنها مع ذلك ذات طابع مميز. .

نجد شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ وقد استقامت مع نشأتها والأحداث التي مرت بها، والابتلاءات التي اجتازتها، في ظل التربية الربانية للعبد الصالح، الذي يعد ليمكن له في الأرض، وليقوم بالدعوة إلى دين الله وهو ممكن له في الأرض، وهو قابض على مقاليد الأمور في مركز التموين في الشرق الأوسط.

وأول ملامح هذه المرحلة، هذا الاعتزاز بالله، والاطمئنان إليه، والثقة به، والتجرد له، والتعري من كل قيم الأرض، والتحرر من كل أوهامها، واستصغار شأن القوى المتحكمة فيها، وهَوَانِ تلك القيم وهذه القوى في النفس الموصولة الأسباب بالله، سبحانه وتعالى.

تبدو هذه الظاهرة الواضحة في موقف يوسف، ورسول الملك يجيء إليه في سجنه يبلغه رغبة الملك في أن يراه، فلا يخفُّ يوسف عليه السلام لطلب الملك، ولا يتلهف على مغادرة سجنه الظالم المظلم إلى رحاب الملك الذي يرغب في لقائه، ولا تستخفه الفرحة بالخروج من هذا الضيق.

ولا تتجلى هذه الظاهرة، وما وراءها من التغيرات العميقة في الموازين والقيم والمشاعر في نفس يوسف الصديق، إلا حين نعود القهقري بضع سنين، لنجد يوسف يوصي ساقي الملك ـ وهو يظن أنه ناج ـ أن يذكره عند ربه. . إن

الإيمـان هو الإيمـان. . ولكن هذه هي الـطمأنينـة. الطمـأنينـة التي تنسكب في القلب وهو يلابس قدر الله في جريانه. . وهو يرى كيف يتحقق هذا القدر أمـام عينيه فعلاً. . الطمأنينة التي كان يطلبها جده إبراهيم عليه السلام.

إنها هي هي الـطمأنينـة التي تسكبها الـتربية الـربانيـة في قلوب الصفـوة المختارة، بالابتلاء والمعاناة، والرؤية والمشاهـدة، والمعرفـة والتذوق. . ثم الثقـة والسكينة. .

وهذه هي الظاهرة الواضحة في كل مواقف يوسف من بعـد، حتى يكون الموقف الأخير في نجائه مع ربه، منخلعاً من كل شيء تهفـو له النفـوس في هذه الأرض: رب قـد آتيتني من الملك وعلمتني من تـأويـل الأحـاديث، فـاطـر السمـوات والأرض، أنت وليي في الـدنيا والآخـرة، تـوفني مـسلماً وألحـقني بالصالحين. » ثم يقول انـه أراد أن «يبرز تلك الظاهرة في الشخصية الرئيسية في القصة. . لأنها الظاهرة الأساسية التي تتكامل بها صورة الشخصية، كما أنها هي الظاهرة الأساسية التي يحتفل بها سياق القصة وسياق السورة من الناحية الحركية التربوية للمنهج القرآني. . »[1]

---

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص٥ ـ ص٦ سنة ١٩٦٧.

المبحث الثاني

شخصية يعقوب

- الصابر الثابت
- الحكيم المجرب
- نافذ البصيرة
- القوي العواطف
- المتسامح
- المتوكل الآخذ بالأسباب

يعقوب

شخصيته تمثل الثبات القوي على المبدأ، والإيمان الراسخ العميق، والثقة المطلقة بالله، تلك الثقة التي لا تهتز حتى في أحلك اللحظات وأشدها.

وقد تجلى هذا الثبات في أكثر من موقف: حين صدم الصدمة الأولى بفقد يوسف كان جوابه لأبنائه: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون». وحين جاءوه بنبأ الفاجعة الثانية في نهاية القصة أو قرب نهايتها أعاد قولته الأولى مما يدل على رسوخ وثبات الشخصية، فقال: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً».

هذا جانب من شخصيته عليه السلام، وجانب آخر يمثل الوالد المحب الشفيق شديد الحنو، قوي العاطفة نحو ولده.

«هو الأب الشفيق الحذر، الحزين الصابر، المترقب دوماً لرحمة الله، والمتفائل ثقة بالله، بانتصار الحق على الباطل، المستشف للفرج من وراء حجب الغيب في أشد الأزمات»[1]

وقال في الظلال يصور شخصيته: «ويعقوب الوالد المحب الملهوف، والنبي المطمئن الموصول، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف، وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه، فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها.

(١) دراسة أدبية لنصوص من القرآن ص٨٧



«قال يا بني لا تقصص..

«قال إني ليحزنني أن تذهبوا به..

«قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون..

ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيتها تلك، وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له.. أخي يوسف.. وقد طلبه منهم عزيز مصر في مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به في السنوات العجاف.

ثم نلتقي به في فجيعته الثانية.. والداً ملهوفاً ونبياً موصولاً.. ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه.. فيتخلف أحد أبناء يعقوب معه:

... قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً. إنه هو العليم الحكيم. وتولى عنهم وقال: يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين. قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون».

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلى نجد ذات الملامح وذات الواقعية وهو يشم ريح يوسف في قميصه، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك في صدق ظنه بربه، إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح، الواقعية المشاعر والتصرفات، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها، بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف»[1]

وإذا كانت شخصية يوسف هي الشخصية الأولى فإن شخصية والده وشخصية امرأة العزيز قد تعاونتا تعاوناً قوياً على جلاء البطل في وضوح!

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص٦٧٣ - ص٦٧٥.



وإننا لنتمثل يعقوب يستشف نوازع أولاده الماكرة بابنه قبل أن تتجسد على مسرح الحياة فيقول في حذر ليوسف: «لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين» ثم تزداد هواجسه قلقاً وحيرة حين يقول له المتآمرون:

«ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون» فيرد عليهم في إشفاق حذر: «إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون»

حتى إذا تمت المؤامرة ورجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون تأكدت هواجسه الواجفة فقال في ألم: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ويكتم الأب لوعته في أحشائه صابراً متأسياً إذ جاء أولاده يطلبون الشقيق الأثير بعد يوسف هاجت نوازعه فصاح بهم متوجعاً: «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل» ثم يتعاظمه الأمر فيقول: «لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم»

وتحدث الحادثة فيحتجز الشقيق ويسعى الأبناء حذرين إلى أبيهم فيكرر قوله السابق: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل، ثم يلهمه الإحساس الصادق فيهتف «عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً».

ويخلو لنفسه لا ليذكر الغائب الجديد وحده بل ليصرخ من أعماقه: «يا أسفا على يوسف!» ولن تجد صورة أبلغ في تصوير وجده من قول الله: «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» ثم يقول لأبنائه: «اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله» اي والله لم ييأس الرجل من روح الله حين رجا لقاء يوسف بعد تصرم الأعوام الطوال! حتى إذا رجع القوم بقميص يوسف وجد ريحه قبل أن يسمع بمقدمهم فصاح بمن حوله: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» فأجاب قائلهم متعجباً من سبحات هذا الحالم «تالله



إنك لفي ضلالـك القديم» ثم تتحقق النبـوءة فيهتف مسروراً «ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون»[1].

المتوكل المتحوط الآخذ بالأسْباب:

حين يطلبُ أبنـاء يعقوب منـه أن يأخـذوا أخاهم الآخـر، يتذكّـر فعلهم القـديم فيمتنع، ثم لا يجـد محيصاً من التسليم لمطلبهم الذي هـو ضرورة حياة تبيـح تجاوز كـل الاحتياطـات، لكنّه قبـل أن يرسـل ابنه معهم يكـل الأمـر إلى مولاه: «فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» ثم يأخذ على أولاده موثقـاً من الله ألا يفرطوا في ولده، وهذا مـا يملكه بـالنسبة لأولاده من ضـمانات، أمـا بالنسبـة للاحتياطات الأمنية الأخـرى من الأخطار المتـوقعة من خـارج دائرة أبنـائه فـإنه يوصيهم بالدخول من أبواب متفرقة وألا يدخلوا من باب واحد، ويبدو من هذه الوصية أكثر من غرض ليعقوب والله أعلم ـ، فهو يـريد أن يـدفع عنهم حسـد الحاسدين وكيد الكائدين وظنون الظانين، ثم من ناحية أخـرى لعل في تفـرقهم بهذا الشكل مزيداً من احتمالات لقيا يوسف.

يقول في هذا المعنى عفيف طبارة:

«وها هو يعقوب نراه بصورة المتوكل على الله، وما يستتبع ذلـك من راحة وطمأنينة نفسيـة لأمر الله، وهـذا ما نـراه عندمـا يوصي أولاده بـدخول مصر في الرحلة الثانية بأن لا يدخلوها من باب واحد، بل من أبواب متفرقة لئـلا يلفتوا الأنظار، ويكونوا موضع ريبة من الحرس فيكون في ذلك ما يسوءهم.

علّل يعقـوب هذا التـدبير والاحـتراس بأنـه لا يـدفـع عنهم مـا قـدر الله عليهم: «ومـا أغني عنكم من الله من شيء» إذ لو أراد الله بهم سـوءاً لم ينفعهم هذا التدبير، ثم تابـع يعقوب نصيحتـه لأولاده بهذه الجملة التي تفيض بـالإيمان

---

(1) البيان القرآني لبيومي ص٢٢٢ ـ ص٢٢٣



والاستسلام لإرادة الله: «إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون».

فيعقوب يعطينا درساً بأن التوكل على الله يجب أن يصاحبه الأخذ بالأسباب، والحيطة والحذر من الأضرار، فللطبيعة في سيرها نظام تأتي فيه المسببات على قدر الأسباب، والمؤمن هو الذي يأخذ بأسباب النجاة مع الثقة والاطمئنان لما قدر الله.

فالاحتراس والحيطة والحذر تعطي النفس الإنسانية قوة وعزاء عند وقوع المصاب. فنصيحة يعقوب لأولاده أدخلت الطمأنينة إلى نفسه وجعلته في وضع لا يتحسر كثيراً، ولا يأسف أسفاً يائساً إذا أصابت أولاده صدمة من صدمات القدر، ولا سيما لم يصدر قصور منه ولا تقصير فهو حين عمل بالواجب سيهون عليه وقع المصاب إذا وقع»[1]

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم ص١٨٨ واليهود في القرآن ص١٨٣ ـ ص١٨٤.

المبحث الثالث

شخصية إخوة يوسف وتطورها

هل هم أنبياء؟

حقيقة نفسية إخوة يوسف.

تطور وعوامل تطور شخصية إخوة يوسف.

شخصية إخوة يوسف

من الشخصيات الرئيسة والمهمة في قصة يوسف شخصية أبناء يعقوب عليه السلام ولم يقل لنا النص الكريم إن كانوا من أمهات مختلفات أوْ لا، ولكن الواضح من السياق والسلوك أنهم كانوا يضعون يوسف وأخاه في زاوية وهم من دونهما في شق آخر. . مما يوحي إيحاء قوياً وواضحاً باختلاف الأمهات.

والنص الكريم من أول القصة إلى آخرها كان يتعامل معهم كوحدة واحدة، وشخصية واحدة، فلم يبرز منهم اسماً بل ولا شخصاً، اللهم إلاّ في آخر القصة حين قال كبيرهم إنه لن يغادر مصر واستقل دون إخوانه بموقف وحوار متميز، وإلاّ فإن النص كان يثبت لهم دائماً موقفاً جماعياً في الحوار والمكر والغدو والرواح والدخول. . وكل أمر. وإنّما عدّهم القرآن كذلك لتماثلهم في النفسية والسمات والمواقف فصاروا كأنهم شخص واحد.

وهم قد رافقوا أحداث القصة من أولها إلى آخرها وإن كانوا غابوا عن مسرح الأحداث فترة من الوقت في وسط القصة في المرحلة التي كان يُصنع فيها يوسف ويصقل ليعد للمرحلة التالية في الثلث الأخير من القصة والتي سيعود الإخوة فيها للظهور مرة أخرى.

حتى في الآيات التعقيبية على القصة ورد ذكر الإخوة ضمناً في قوله تعالى: **﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾** ١٠٢ لقد آعتبرت الإشارة القرآنية هذا الصنيع من الإخوة أحد المحركات الرئيسة والمعالم المهمة في القصة.

وفي الآية الأخيرة من السورة إشارة أخرى إليهم في قوله تعالى: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾** ١١١. ولا شك أن شخصيتهم غريبة وسلوكهم مستهجن... خاصة وأنهم أبناء نبي من الرسل الكرام... والغريب اتفاق كلمتهم جميعاً على ما دبروه لأخيهم من إبعاد ونفي والعجيب من هذه الشخصيات هذه الطفولة الشعورية والعاطفية التي تَنْفِس على فتى صغير أن يحظى بشيء من اهتمام أو محبة من والدهم.

ولا ريب أن الصلة بالوالد والحرص على هذه الصلة أمر بدهي فطري إنساني، لكنّ غير المعقول ولا الإنساني في سلوك الإخوة هو في ترجمة هذا الحرص من خلال ما أوقعوه بأخيهم وأبيهم من بلاء.

قال في الظلال مصوراً شخصيات هؤلاء الإخوة ونفسيتهم:

«إخوة يوسف... والأحقاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها، ثم تزين لهم «المحلل الشرعي» الذي يخرجون به من تلك الجريمة.. ملاحظاً في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية، وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم، وحاجتهم النفسية ـ من ثم ـ إلى مبرر للجريمة، وإلى طريقة للتحل من نكارتها وبشاعتها.

«... اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين» ونحن نجدهم هم هم في كل مواقف القصة بعد ذلك، كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها ـ فما إن يذهبوا بأخي يوسف بعدما طلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذي قدموا من بلادهم ليشتروا منه القمح في سنوات الجدب العجاف، حيث يدبر الله ليوسف أن أخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك في رحله.. ما إن يروا هذا التدبير ـ وهم لا يعلمون ما وراءه ـ حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف:

قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل..»

كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفاجعة الثانية في شيخوخته الحزينة، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة: «... قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين». ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه في النهاية:

«ولما فصلت العير قال أبوهم: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون - قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم»[1] ولسنا مع صاحب الظلال رحمه الله في أنهم هم هم وسنبين ذلك بعد قليل بإذن الله.

وقد آكتفى المرحوم الأستاذ المبارك بأن وصفهم بكلمتين: «حاسدون متآمرون»[2] وقد أسرف في ذمهم ووصفهم بأقذع الأوصاف الدكتور محمد بن فتح الله بدران.[3] وأكثر من ذمهم الشيخ العلمي في مؤتمره لتفسير سورة يوسف ووصفهم بأنهم آباء الصهيونيين[4] وسنرى حقيقة الأمر فيما نرجحه في الصفحات الآتية في تصوير شخصية الإخوة.

قال الدكتور فتح الله بدران في وصف شخصية إخوة يوسف:

«إن بني إسرائيل الأول هم أبناء يعقوب (إسرائيل) مباشرة، وكانوا اثني عشر ذكراً، منهم واحد يمثل المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو يوسف

---

(١) الظلال ج٤ ص٦٦٥ - ص٦٦٦.

(٢) دراسة أدبية لنصوص من القرآن الكريم ص٨٧.

(٣) في محاضرات له بكلية أصول الدين بالأزهر طبعت في كتاب الفلسفة الحديثة في الميزان ص٣٨٣ - ٣٨٤ سنة ١٩٦٨ مكتبة القاهرة الحديثة.

(٤) ارجع إلى المؤتمر ج١ ص٢٩٢، ص٢٩٣، ص٢٩٤ وغيرها، ومما قال: واعجباه لعمري إن هذا لشيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم وقال: عجباً لهؤلاء الإخوة أجداد الصهيونيين!! وقال في ص٢٩٦ وهذا هو حال سلالتهم الصهيونيين اليوم في فلسطين النتيجة تبرر الواسطة مهما كانت منحطة وسافلة.. الخ.



الصديق، ومنهم أخو يوسف الشقيق وكان يمثل طبقة المؤمنين المسالمين الطيبين. . ثم الكبار العشرة، وهم يمثلون الكفرة الفجرة، لأنهم العصبة القذرة، الذين دبروا لأخيهم الصغير يوسف الصديق: جرائم التعذيب والقتل والكيد، والتمزيق، ودبروا في الوقت ذاته جرائم الفجيعة والقطيعة لأبيهم الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام.

ولقد نجّى الله يوسف من البئر التي القاه فيها إخوته العشرة الكبار وهم الإثم والرجس. ما أعجز القرآن وأروعه، وما أيسره وأبدعه وهو يقص التاريخ الأخلاقي الذليل للكبار الكبار من بني إسرائيل.

والقرآن واضح كل الوضوح، ولكني ألمح سريعاً إلى مخاز دامغة في دماء بني إسرائيل منها:

١ ـ حقدهم القاتل للمحبة حتى بين الأب وابنه.
٢ ـ اعتزاز بالقوة الشريرة المدبرة. ويلزم من هذا أنهم لا يخضعون أبداً إلا للقوة.
٣ ـ السب الفاضح المخزي حتى لأبيهم، وتأكيدهم أنه في ضلال مبين، وهذه أخزى مخزيات الدنيا، ويضاف إلى هذا التناقض الشنيع في جمعهم بين وصفه بالأبوة لهم، والضلال في وقت واحد. .
٤ ـ الفجور في تآمر عشرة كبار على قتل طفل بريء هو أخوهم.
٥ ـ حياكة المؤامرات الشريرة.
٦ ـ تفاهة تفكيرهم، وبلاهة مقصدهم، وآنحراف غرضهم.
٧ ـ ترتيب الصلاح على قتل طفل.
٨ ـ ليس فيهم رجل فيه رائحة الإنسانية.
٩ ـ إجرامهم حتى في التنفيذ.
١٠ ـ الخديعة والالتواء ومحاولة التظاهر بأنهم أبرياء.
١١ ـ محاولتهم التضليل بالألفاظ الخلابة.



١٢ ـ وثوق أبيهم في الذئب والوحش أكثر منهم، ومن وعودهم وعهودهم.
١٣ ـ جرأتهم على الكذب على أنفسهم، وسرعتهم في تأكيد العهود بأغلظ المواثيق.
١٤ ـ مجرمون يمثلون أبشع الخسة والنذالة والذلة والهوان.
١٥ ـ بلاهتهم وصغارهم حتى في التمثيل.
١٦ ـ خداعهم لأبيهم.
١٧ ـ توالي كذبهم.
١٨ ـ تفننهم في الإجرام... الخ.

وكل مؤمن أو عاقل في أنحاء الدنيا. متأكد تماماً أن كل هذه الصفات الدنيا، التي جرت في دماء العشرة الكبار من بني إسرائيل، هي هي، بل أشنع منها وأفحش. التي تجري الآن والى قيام الساعة في دمائهم، تنطق بذلك أفعالهم، ويؤكد ذلك سلوكهم، وتبرهن على ذلك دائماً تصرفاتهم...

وأود أن أقرر بقوة أن سورة يوسف تقرر بعمق وشدة أن هؤلاء الإسرائيليين لا وطن لهم جاءوا منه، ولا قبيلة لهم تجمعهم، ولا حاكم يحكمهم، ولا قائد يقودهم، وانهم لا يجتمعون إلا على عصبة، من أجل آمتصاص الأموال بالخديعة والقوة... وهم لا تخضعهم إلا القوة.. كما خضعوا لقوة العزيز قبل أن يعلموا أنه يوسف.

ثم قال الدكتور بدران: وما إن مات يوسف عليه السلام حتى تفجرت ينابيع الشر والفسوق والآثام من هؤلاء البني إسرائيل، براكين الإجرام.. وقد توالدوا بغياً وفساداً، كما تكاثروا أولاداً وأحفاداً....»[1]

وأوصاف الدكتور فيها إسراف وعدم إنصاف فيمن أخطأوا ثم تاب الله عليهم بتوبتهم ليغدوا كواكب منيرة، ونفوساً خيرة.

---

(١) د. محمد فتح الله بدران: الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ص٣٨٣ ـ ص٣٩٣.



يتكلم تفسير المنار عن إخوة يوسف فيقول:

«وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا ما لا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأرذال المجرمين الظالمين وما هي إلاّ الإسرائيليات المنفرة من الإسلام والمسلمين»[1]. وواضح أن المنار لا يوافق على هذه المبالغات في الإساءة في وصف إخوة يوسف.

إخوة يوسف هل هم أنبياء؟!

بينما قوم ينعتون إخوة يوسف بأسوأ النعوت وأقذع الأوصاف وهم في ذلك مبالغون مفرّطون نجد آخرين مفْرطين في الطرف الآخر إذ يعدونهم أنبياء..

قال الرازي في تفسيره لقوله تعالى: **﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل﴾** يفسر إتمام النعمة بالنبوة، ويتأكد هذا بأمور منها أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان. وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا بالنبوة.

وثانياً قوله: «كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق» ومعلوم أن النعمة التامة التي حصل بها امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا بالنبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة.

واعلم أنّا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم أنبياء، وذلك لأنه قال: ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب.

---

(١) تفسر المنار ج١٢ ص٢٦٦.



وأيضاً أن يوسف عليه السلام قال: «إني رأيت أحد عشر كوكباً» وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال، ويستضيء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شيء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى. وذلك يقتضي أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلاً.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام؟ قلنا: ذاك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر في وقت النبوة لا قبلها»(١)

وردنا على الإمام رحمه الله أن تمام النعمة على كل بحسبه، وبحسب ما استعد له وهيء له، ففي حق يوسف شيء، وفي حق إخوانه التمام نسبي وليس بالنبوة.. بل بالتوبة وإصلاح الحال وبر البنوة بعد عقوق..

وأما اعتذاره عن الذي وقع من إخوة يوسف بأنه وقع قبل النبوة فلا يصلح إذ الكذب في حق الأنبياء غير جائز لا قبل النبوة ولا بعدها، حتى لا يتهموا بعدها بما عرف عنهم قبلها، وحاشاهم أن يعرف عنهم قبل النبوة إلا الصدق والطهر والعفاف وكل صفات الكمال. وإلّا فإن الحجة تكون لأقوام الأنبياء على الأنبياء وإذا كان الأنبياء بغير مغمز يتهمون فكيف وقد جرب عليهم مثل هذا الخلق؟! هذا لا يكون.

ووصف إخوة يوسف في رؤيا يوسف بأنّهم كواكب: إني رأيت أحد عشر كوكباً، يدل من أول القصة أن نهايتهم خيّرة وأنهم طيبون، وأن الغلبة في نفوسهم لنزعة الخير لا لنزغات الشياطين ونزعات الشر.

---

(١) تفسير الرازي ج١٨ ص٩٠ وفي تفسير الطبري كذلك رواية في توجيه قراءة نرتع ونلعب ـ بالنون ـ قال: كان ذلك منهم قبل النبوة. (قال حدّثنا حجاج عن حمادويه قال كان أبو عمرو يقرأ نرتع ونلعب بالنون قال فقلت لأبي عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء قال لم يكونوا يومئذ أنبياء) تفسير الطبري ج١٢ ص٩٤ مطبعة بولاق مصر ١٣٢٨هـ وواضح من هذا القول أنه يعتبرهم أنبياء... ولذلك طفق يسوغ لهم اللعب، أفلا شغل نفسه بتسويغ ما هو أخطر وهو الكذب؟!



ولا يفيد هذا الوصف كونهم أنبياء ـ كما فهم البعض ـ، كما لا يفيد وصف الأم بالقمر كونها نبية.

وأما قوله تعالى في سورة البقرة: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم..»

فلا يدل على أنهم أنبياء، وإن كانوا في سياق الأنبياء، لاحتمال أن يكون المقصود أن إنزال الكتاب على الأسباط إنما هو إنزاله على ذراريهم وقد كان من أحفادهم كثير من الأنبياء، فاعتبر المنة على الأبناء منة على الآباء، أو قد يكون الإنزال إليهم بمعنى أنهم المعنيون من إنزال الرسالة لا أنهم المرسل إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾[1].

قال ابن حزم في الملل والنحل راداً على من قال بنبوتهم: «ما احتجوا به لا حجة فيه، لأن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء، ولا جاء قط ـ في أنهم أنبياء ـ نص لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم، فأما يوسف فرسول الله بنص القرآن: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات.. إلى قوله: من بعده رسولاً﴾.

---

(١) يراجع في هذا مؤتمر تفسير سورة يوسف مجلد١ ص٤١-ص ٥٠، وإليك ملخصاً سريعاً لما جاء فيه، قال: الذي عليه الأكثرون سلفاً وخلفاً أنهم لم يكونوا أنبياء، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة أنه قال بنبوتهم، ولا يحفظ ذلك عن أحد من التابعين. ثم ذكر أدلة من قال بنبوتهم كأبي زيد والبغوي المفسر وفنّدها جميعاً. ثم استدل على عدم كونهم أنبياء بتسلط الشيطان عليهم بدليل قول يعقوب: «إن الشيطان للإنسان عدو مبين» ولا سلطان للشيطان على الأنبياء، ثم ما ثبت في القصة من كذبهم وحسدهم ووصف أبيهم بالضلال. والافتراء على يوسف والهم بالقتل، ومن كان بهذه الأخلاق لا يكون نبياً، وذكر الكتاب أدلة أخرى فتراجع آ. هـ. والعجيب أن الطوسي يقول: إن أكثر المفسرين على أن إخوة يوسف كانوا أنبياء، ثم بين مذهبه هو بعدم نبوتهم. راجع التبيان جـ٦ ص١٠١.

وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونـوا متورعـين عن العظائم، فكيف أن يكونوا أنبياء.

وبرهان ما ذكرنا أن أخاهم قال: «أنتم شر مكاناً» ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء، ولا لقوم صالحين، إذ هؤلاء ليسوا شراً مكاناً..»(١)

وقال ابن كثير ينفي نبوتهم، وهو الحق: «واعلم أنه لم يقم دليل عـلى نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن النـاس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتـاج مدعي ذلـك إلى دليل، ولم يذكروا سـوى قولـه تعالى: **﴿قـولوا آمنّـا بالله ومـا أنزل إلينـا وما أنـزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط..» وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، يذكر تعالى أنـه أوحى إلى الأنبيـاء من أسبـاط بني إسرائيـل، فـذكـرهم إجمـالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليـل على أعيان هؤلاء، أنهم أوحي إليهم والله أعلم»**(٢)

وقـال الطوسي في التبيـان: «وقال الحسن: لم يكن إخـوة يـوسف أنبيـاء. وقت أن قالوا ان يسرق، وإنمـا أعطوا النبـوة فيما بعـد، وعندنـا أنهم لم يكونـوا أنبيـاء في وقت، لا في الحال ولا فيـما بعـد، لأن مـا فعلوه بيـوسف من الأفعـال القبيحة ينافي النبوة..»(٣)

وللدكتور حسن باجـودة في كتابـه الوحـدة الموضـوعية في تحليـل شخصية الإخـوة تحليل طـريف فقد قـال تحت عنوان: إخـوة يوسف ليسـوا شراً محضـاً: «حينما نتأمل أولى الآيتين «اقتلوا يوسف أو اطرحـوه أرضاً يخـل لكم وجه أبيكم

---

(١) ابن حزم: الملل والنحل ج٤ ص٢، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٥م. والقاسمي ج٩ ص٣٦٣١ - ص٣٦٣٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٤١.

(٣) الطوسي: التبيان ج٦ ص١٧٦، دار الأندلس: بيروت.



وتكونوا من بعده قوماً صالحين» فإنه يتضح أن هؤلاء الإخوة التسعة لا يبدون شراً محضاً. إنهم وإن كانوا يمثلون الشر في قمته، إلا أنهم في الوقت نفسه يمثلون الخير في أول بذوره، وما كان ينبغي لواحد من أبناء يعقوب نبي الله، في اللحظة التي لا يكون فيها الشيطان غائباً أن يكون شراً محضاً.

إن هؤلاء الإخوة المصممين على التخلص من يوسف لفرْط حسدهم له.. في الوقت الذي يفكرون في طريقة التخلص من يوسف، وقبل التنفيذ، وهم يفكرون في عودتهم مستقبلاً، بعد التخلص من يوسف قوماً صالحين.

ولنتأمل الضمائر التي استعملها الإخوة العشرة في الآية السابقة، «إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين.»

إن ضمائر المتكلمين متصلة هنا لأن المسألة لا تعدو التعبير الانفعالي الحانق.

والآن لنتأمل الضمائر التي استعملها في الآية التالية تسعة منهم: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين».

إن ضمائر المتكلمين تختفي، كي تحل محلها ضمائر المخاطبين، إن الإخوة لا يقولون مثلاً، لنقتل يوسف أو لنطرحْه أرضاً يخل لنا وجه أبينا إلى آخر ذلك.

ومعنى هذا أن الذين يقترحون القتل يكتفون بمجرد الاقتراح، ويريدون من الفئة الأخرى التنفيذ، والذي يقترحون طرحه أرضاً يكتفون أيضاً بمجرد اقتراح، ويريدون من الفئة الأخرى التنفيذ.

وإن من أقوى الأدلة على ذلك ـ أن الإخوة ليسوا شراً ـ أن أصحاب الرأي بقتل يوسف وأصحاب الرأي بطرحه أرضاً، قد تنازلوا عن رأييهم، واتفقوا جميعاً وبمنتهى السرعة واليسر والبساطة على رأي الأخ القائل: «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين»[1].

---

(١) الوحدة الموضوعية ص١٣٩ ـ ص١٤١.

تحليل نفسية إخوة يوسف

يتحدث الدكتور عبد الحميد الهاشمي في كتابه «لمحات نفسية في القرآن الكريم» عن نفسية إخوة يوسف ويشير إلى شعورهم بالتهديد وتخطيطهم للانتقام وأن دافعه «دافع الانتقام» الحقد الحسود الذي يُشعر صاحبَه بتهديد «كيانه الذاتي». . أنا. . كما نجد ذلك في تهديد (نحن) في موقف إخوة يوسف عندما قالوا: «ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة أن أبانا لفي ضلال مبين»

وهذا التهديد المتوهَّم للشخصية الذي يعيشه الحاقد يدفعه إلى التعبير الإشباعي المتطرف ليفكر أول ما يفكر بالقتل وهو أشد مظاهر العدوان إذ يرى فيه الحاقد أن مشكلته تزول بزوال شخصية المحقود عليه، بيد أن هذا الإشباع المتطرف بالقتل قد يناله تخفيف كما في موقف إخوة يوسف: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين»[1] «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والْقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين».

ثم يفسر الكاتب كيف سهّلت لهم نفوسهم الجريمة حتى تقبلوها فيقول، إن عملية الترويض والتطويع، «تقوم بها النفوس المنحرفة لتجعل كل جريمة مهما عظمت سهلة وقريبة ولا مناص منها. فالتطويع عملية نفسية تجعل البعيد قريباً. والصعب سهلاً. والمستهجن أمراً عادياً مقبولاً. وفكرة الجريمة تغدو قريبة المنال سهلة التنفيذ.

تلك هي نفسية المجرم حين يضعُ نَفْسه في قوقعة الإجرام فلا يفكر ولا يشعر ولا يستحسن إلا الإجرام، وتنقلب كل الموازين والمقاييس:

---

(١) اكتفى الكاتب بالاستشهاد بالآية رقم ٩ وموضع الشاهد الأوضح على قوله ليس فيها وإنما في الآية التالية ارجع إلى كتاب لمحات نفسية ص١٤٢ ـ ص١٤٣.



يقضى على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن[1]

ويقدم لنا الدكتور الهاشمي نفسه تفسيراً لدافع الحقد والحسد الذي كان وراء هذا المسلك من الإخوة ووراء مسلك أخ آخر نحو أخيه في فجر الحياة الإنسانية يقول:

«السبب الدافع وراء هذا السلوك: هو دافع نفسي دفين تعاني منه الإنسانية لدى بعض أفرادها المنحرفين، إنه: الحقد أو الحسد المذموم أو الضغينة أو الغيرة الآثمة. . . أسماء مختلفة للدلالة على وجوه متعددة لدافع واحد نفسي كان السبب المباشر لوقوع أول جريمة.

والدافع هو (الحقد) الذي يعتبر من الانفعالات المعقدة المتمركزة حول (الذات المتضخمة). والحقد نتيجة عدة انفعالات نفسية متضاربة، لأنه يضم انفعال (محبة) الحاقد لأمر أو شخص يريده الحاقد لنفسه وحدها. كما يتضمن انفعال (الخوف) على ذلك المحبوب من الضياع والعجز عن حيازته. وهذا يتفاعل مع انفعال (الكراهية) لطرف آخر ينازع الحاقد كما يتفاعل مع خشية (الهزيمة) إذا ضعف الحاقد عن حيازته لذلك الأمر أو الشخص.

لذا فالحاقد يعاني من صراع انفعالي متوقد متواصل يشغل على الحاقد كل حياته ويفسد عليه سواء السلوك واستقامة التفكير. وقديماً قيل:

لله در الحسد ما أعدله   بدأ بصاحبه فقتله

(أقول: ولو غيرنا المثل إلى قولنا: ما أرذله بدل ما أعدله لكان القول ما أجمله وأكمله وأعدله. .)

فالحسد من جهة الانحراف النفسي يتضمن صراعاً بين (تضخم أنا) وبين (تهديد أنا) في نفسية الحاقد»[2]

---

(١) د. الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن ص١٤١ ـ ص١٤٢.

(٢) المرجع السابق ص١٤٦، وقد كتبه الكاتب في تحليل نفسية ابن آدم الذي قتل أخاه ونقلناه في مجال تفسير سلوك الإخوة، إذ الدوافع متشابهة. .

شخصيات إخوة يوسف: بين الخير والشر

هل كان إخوة يوسف شخصيات شريرة فيها قشرة خير، أو يراودها ويعتادها الخير أحياناً؟

أم كانوا شخصيّات خيرة يغلبها الشر أحياناً، كما هو شأن الإنسان وحاله في حالة استوائه النفسي؟

وللإجابة عن هذا السؤال نطرح القضية من خلال النص القرآني ذاته، ولنسجل الآيات التي ترسم شخصيتهم بيّنة واضحة من خلال إشاراتها المفهمة:

«إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين»

«اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين»

«قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين»

والآية الأولى تمثل عرضاً للواقع وتصويراً للمشكلة وتوصيفاً للموقف العائلي، تبرز فيه نبرة الغيظ، نعم، ولكنه وقف عند حدود التشخيص ولم يرتب أمراً ما على هذا التوصيف. وملاحظة أخرى أنهم جميعاً متأثرون مما يجري في الوسط العائلي وقد أوضحوا تأثرهم هذا باستعمال ضمير المتكلم الجمعي: أبينا.. منا.. ونحن.. إن أبانا.. فجاءت الضمائر على نسق واحد، وجاءت النبرة عالية والكلمة واحدة لا تردد فيها، بل جاءت مؤكدة من أول الكلام، ثم هم قد وضعوا يوسف وأخاه في صعيد معزول وكأنهم هم فقط الإخوة بينما لم يفرطوا في الأب فنسبوه إلى أنفسهم: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا.. ثم هذه الجملة المعترضة ـ ونحن عصبة ـ يؤكدون فيها قيمتهم وقوتهم وكثرتهم.. ثم يختمون قولتهم بنتيجة مؤكدة أيضاً: «إن أبانا لفي ضلال مبين»

أما الآية الثانية فهي الخطوة التالية للتشخيص والنتيجة للمقدمة السابقة، وقد جاء مطلعها أحد شيء نبرة وأشد شيء غيظاً: «اقتلوا يوسف» فقد كانت المشاعر محنقة من خلال العرض العاطفي المتشنج في الآية السابقة، فجاء هذا القرار المتشنج العنيف الذي سرعان ما انطفأ وهدأت حدته، وأسفرت النفوس عن بلبال شديد يعتصرها في قولهم: «أو اطرحوه..»

فأوْ هنا تبين أن خاطرة القتل لم تكن سبق إصرار، ونية مدروسة مبيتة أنضجها التفكير الطويل، ولكنه انفعال أعقب ذاك المقال.

وملاحظة أخرى تتصل أيضاً بالضمائر، وقد جاءت في هذه الآية أيضاً متناسقة جميعها، ولكنها هذه المرة ليست في منطقة الحضور أي ليست في منطقة المتكلم ولكن في دائرة المخاطب:

اقتلوا... اطرحوه... يخل لكم.. وجه أبيكم.. وتكونوا.. ماذا تعني هذه الظاهرة؟

إنها تعني أن الأمر لما انتقل من دائرة تشخيص الحال إلى ترتيب الفعل والجزاء تبخر كثير من الحماس والظهور والتوكيد الذي ظلل كلماتهم في الآية الأولى، ليحل محله التردد، والبلبلة وضمائر المخاطبين التي تعني ببساطة التنصل من تحمل تبعة الجريمة، وكأن كل واحد يقذفها من عنقه وظهره ليلقيها على كاهل الآخرين. وكأن المتحدث الآن قوم آخرون غير الذين كانوا يملأون مسرح الأحداث في الآية الأولى، وإنهم لآخرون بالفعل. فشتان بين نفسية ونفسية، مع أن الأمر كله في حدود آيتين، كل آية كانت تصف عالماً نفسياً خاصاً.

ثم لو نظرنا في آخر هذه الآية الثانية وهو قولهم: يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين. إن هذا المقطع من الآية يحدد هدف الجريمة. إن الهدف كما يصرحون هدف نبيل هو: استقلالهم بمحبة أبيهم وتفرغهم

لعباداتهم وأسباب صلاحهم الذي يحول بينهم وبينه وجود عقبة في الطريق هي يوسف، كما يتصورون.

فلم يكونوا يقصدون من وراء القتل إشباع غريزة الإجرام، أو سرقة مال، أو الاستيلاء على نصيب من حظوظ الدنيا. . ليس ذلك كله ولا شيئاً منه هو هدف الجريمة.

وقد يخطر لقائل أن يقول: ما يمنعنا من أن نتهم هؤلاء بالكذب في قولتهم هذه وهدفهم هذا كما كذبوا على أبيهم وخاتلوه؟

ونقول إن الكذب غير وارد هنا، لأنهم إنما يتحدثون في دائرة اجتماعهم الخاص ولا يسمعهم أحد من خارج نطاقهم وليسوا في قفص الاتهام أو ساحة القضاء حتى يكذبوا لتبرئة ساحتهم.

ولسنا بهذا مقتنعين بحقيّة قولهم، ولكنا مقتنعون بصدق مشاعرهم في هدفهم مع كونهم مخطئين. وخطؤهم ناشىء من تصور أنه يمكن الوصول للهدف النبيل عبر الوسيلة الملوثة. وهذا لا يكون أبداً.

أما الآية الثالثة فهي انتقال جديد إلى دائرة الهدوء النسبي والتعقل النسبي، يظهر هذا في عدة وقفات في الآية:

١ ـ قوله تعالى: «قال قائل منهم» بتنكير القائل، فلم يقل قال أوسطهم أو قال كبيرهم لأنه يترتب على التعيين شيء، فهو من عُرضهم ويمثل رأيهم جميعاً، ولذلك يصلح أن يكون أي منهم هو هذا القائل، لأنه نطق وعبر بلسانهم جميعاً. بينما في موقف التأخر في مصر عند أخذ الأخ الآخر قال النص القرآني: قال كبيرهم. . . ويدل لما قلنا قول الآية التالية: «وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب»

٢ ـ «لا تقتلوا يوسف» تأكيد على استبعاد فكرة القتل التي آستبعدت أصلاً من خلال الآية الثانية، في قول القائل: أو اطرحوه، فكأنه بهذا البديل

استبعد فكرة القتل، وهو هنا يدعم ويؤكد هذا الاستبعاد.

٣ ـ ثم هو من جهة أخرى يستبعد البديل الثاني وهو: ‌أو اطرحوه أرضاً. ليضع مكانه بديلاً أخف كثيراً هو: وألقوه في غيابة الجب. ولاحظ أنه استبدل الطرح بالإلقاء، وشتان ما بين الموقفين أو الفعلين(١)

ثم إنه استبدل الإلقاء في غيابة الجب بالطرح أرضاً. والفرق بينهما ظاهر، فإن أرضاً منكرة. أي اطرحوه في أي أرض، إذ المهم خلو السبيل أمام محبة الوالد. ولكنه في الآية التي نحن بصددها عين مكان الإلقاء حين عرف الجب، فهي بئر معينة، ثم إن المراد ليس الإلقاء في الجب نفسها ولكن في غيابتها.

٤ ـ ولاحظ أيضاً التنصيص على أن المقصود ليس ارتكاب الجريمة ـ جريمة القتل ـ ولكن فقط الإبعاد وذلك قوله: «يلتقطه بعض السيارة». فقد اختير الجب إذن على طريق القوافل ليسهل التقاط الغلام من بعض المارة حيث تتم عملية إبعاده.

٥ ـ وانظر أيضاً هذا التذييل الذي ختمت به الآية: «إن كنتم فاعلين» الذي يوحي لك بأن هذا الأخ يقول لهم: ولا إخالكم فاعلين ولا أظنكم. فإنْ في اللغة للتشكيك كما هو معروف.

وبعد تسجيل الآيات الثلاث والنظر فيها ماذا نرى؟ هل نرى نفوساً تتعشق الإجرام وتصر عليه؟ أم انها نفوس وشخصيات فيها الخير الكثير لكنها تحت ضغط ظرف معين قالت ما قالت وفعلت ما فعلت. لكنها بعد هذه العاصفة ما تلبث أن تهدأ نفوسها وتعود إلى طبيعتها الخيرة وتندم كثيراً على ما أقضّت مضجع الوالد والأخ.

---

(١) الطرح في اللغة: قال في الصحاح: طرحت الشيء طرحاً اذا رميته. وطرح النوى بفلان كل مطرح اذا نأت به أي الديار، واطّرحه أبعده والطَّرَح المكان البعيد قال الاعشى:
تبتني الحمد وتسمو للعلى وترى نارك من ناءٍ طرح
الصحاح حـ١، ص٣٨٦ والالقاء فيه معنى الرفق والقرب: «والقيت عليك محبة مني». . «فليلقه اليّم بالساحل» أي برفق.



على أن هذه الشخصيات قد أدخلت بتقدير الله في أتون تجارب شديدة قاسية لأجل صهرها وتخليصها من شوائب الشر، حتى يتألق فيها الخير من جديد وتعود كما وصفتها رؤيا يوسف في أول السورة: أحد عشر كوكباً. .

قال القشيري في لطائفه في وصف حال ونفسية إخوة يوسف: «لم تطب نفوسهم بأن يذهبوا عن باب الله بالكلية فدبروا لحسن الرجوع قبل ارتكاب ما دعتهم إليه نفوسهم، وهذه صفة أهل العرفان بالله»(١)

وإن كنا لا نوافق القشيري في عبارته على إطلاقها، إلا أن فيها إلماحاً إلى ما نحن بصدده من كون الإخوة خيرين وإنما هي نزغة شيطان ألمت بهم وهوى نفس هوى بهم من حالق. . .

قال في كتاب الوحدة الموضوعية في تصوير شخصية إخوة يوسف:

«هناك إشارة إلى الصراع المنتظر حينما نصح يعقوب ابنه ألا يقص رؤياه على إخوته. لقد كان جل الإخوة متفقين على حسدهم ليوسف وتخلصهم منه. ولكنهم كانوا مختلفين في طريقة التخلص.

فمنهم من آثر قتله ـ ومنهم من آثر أن يطرح أرضاً بعيدة احتمال نجاته منها قليل. ولكن أخا منهم رأى إلقاءه في غيابة الجب، وبذلك تتحقق الرغبة في التخلص منه، ولكن احتمال نجاته هنا أكثر. وهذا الرأي هو الذي ارتضاه الجميع أخيراً.

وتبدأ المحاولة من إخوة يوسف لأخذه وإلقائه في غيابة الجب، ولكن جواب يعقوب كان معمقاً فيهم غريزة الحسد ليوسف، إذ تضمن سبب الحسد وهو حب يعقوب له وخوفه عليه»(٢)

---

(١) حـ٣ ص١٧١ اللطائف.

(٢) الوحدة الموضوعية ص٢٦ ـ ص٢٧



ثم قال الدكتور باجودة:

إن إخوة يوسف، إذا آستثنينا معاملتهم ليوسف وشقيقه، كانوا آية في النبل وحسن الخلق، لهذا كانت عبارة «أيتها العير إنكم لسارقون» مستفزة لهم كل الاستفزاز، فجاء على لسانهم بعد أن أقبلوا على الفتيان والمؤذن: «ماذا تفقدون» قالوا: «نفقد صواع الملك» وكان جواب الإخوة: «قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين» لقد عزعليهم أن يلصق بهم ما ليس فيهم.

ومما يشهد لهذا المعنى أيضاً الاعتراف الضمني من إخوة يوسف أمام أبيهم بأن يوسف لا يزال حياً، وذلك حين قال لهم: «يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه. .» وسكتوا، فموقفهم يعني الاعتراف بخطئهم الذي سبق.

ثم ان من وجوه خيريتهم أيضاً عدم الرد على أبيهم حين قال لهم بعد فقد الأخ الثاني: «بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً. .»

وإنهم ليتحملون بسكوتهم فوق ما يطيقون، ولكنهم يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم لذلك مستحقون. لأن لهم يداً في عدم عودة يوسف - وحينما يطلب إليهم يعقوب أن يتحسسوا الأخبار الطيبة الحسنة عن يوسف وأخيه فإنهم يسكتون. وإن هذا الموقف الثاني الصامت يعتبر من أكثر المواقف نبلاً ودليلاً على شعور الإخوة بتأنيب الضمير. هذا بالإضافة إلى أننا في الحقيقة أمام أول اعتراف علني للإخوة بأن لهم يداً في عدم عودة يوسف إلى أبيه. وهكذا يتضح لنا أن الإخوة أخذوا في العودة حثيثاً للأرومة الطيبة التي سبق أن آنشقوا عليها، أرومة آل يعقوب، وأن هذه العودة خير مهيء لأنفسنا لتوقع كشف يوسف لإخوته عن حقيقة نفسه»[1]

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ص٤٣، ص٥٥.



عوامل تطور شخصية إخوة يوسف

وقلنا في العنوان شخصية ولم نقل شخصيات، لأنهم لتشابههم وتقاربهم بل تماثلهم كانوا كأنهم شخصية واحدة لها نفس الملامح والسمات. . كما أسلفنا القول قبل صفحات.

ولقد علمنا من سنة الله تعالى في الكون المادي والنفسي أن حوادثه تجري وفق ناموس الأسباب والمسببات ولا يتعارض هذا مع الحكمة والتقدير، بل يؤكد كل ذلك. وحدوث تغيير في نفسيات إخوة يوسف، حدث لا بد له من أسباب وعلل، ونحن نحاول أن نقف على تلك العلل والأسباب.

وقبل معرفة الأسباب لا بد من معرفة التطور، فما مدى تطور نفسيات إخوة يوسف؟ ونقول إنه تطورٌ من النقيض إلى النقيض، من نفوس معتمة بظلمة الحقد والحسد ونية الإجرام والقتل والكذب والمكر والكيد، إلى نفوس تائبة معترفة، تعرف لذي الفضل فضله وتقر بحكمة الله في تفضيل بعض الخلق على بعض، دون أن يحدث في النفوس مثل هذا التفضيل أي نزعات شريرة أو نزغات شيطانية.

فمن موقف:

«ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين. اقتلوا يوسف. .» إلى موقف: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين» مفارقة واضحة وتغيير هائل الآماد شاسع الآفاق والأبعاد.

من قوم لا يدركون حكمة الله بل يتناقضون معها إلى جماعة راضية مذعنة متفهمة. . لا ريب أنه تغير هائل، ولكن ما هي عوامله؟

نستطيع من خلال استشفاف نصوص القصة الكريمة والوقوف على إشارات الآيات والمواقف والأحداث والكلمات التي تنطلق من أصحابها نستطيع أن نرصد آفاق التغير وعوامله أيضاً، بإذن الله.

فأما العامل الأول من عوامل التغيير والتطوير فهو فشلهم في تحقيق مأربهم والـوصول إلى غـايتهم، وهم قـوم إنمـا سعـوا إلى ارتكـاب جـريمتهم من أجـل الحصول على قلب أبيهم، ومن أجـل أن يخلو لهم وجهه، وإذ بهم بعـد ارتكاب جريمتهم لا يزدادون منه إلا بعداً ولا يزيد لهم إلاّ مقتـاً ومنهم إلا نفوراً، وكيف يحظون بقلبه الـذي فجعوه بـأعز عـزيز وأحب حبيب؟ وهـل أكافىء من يـطعن قلبي في الصميم بأن أمنحه هـذا القلب؟ إنه لأمـر عجيب. المهم أن يعقوب لم يزد من جهتهم إلا وحشة وهانوا عليه أضعاف ما كانوا.

ومن هنا جاء عتابه لهم رقيقاً مريراً قصيراً مفعماً مشحونـاً، يتنزى الألم من كل كلمة فيه:

«بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون». ونستغرب لَمَ لمْ يطلب يعقوب منهم أن يحضروا ولده له، وهو يعلم أنـه لم يقتل! ونقول إن هذا بحد ذاته لدليل عـلى يأسـه من أبنائـه وفقده الأمـل فيهم ونفض اليد من جهتهم. ولو علم فيهم خيراً لطلب منهم إحضاره من المكان الـذي فيه تركوه.

وأما العامل الثاني فيكمن في عنصر الـزمن، ولا ريب أن كر السنـين على من عنـده خميرة من الايمـان ينضج في نفسـه الاحساس بـالالم على خطيئته، ولا يتصـور من اخوة يـوسف أبناء النبي واحفـاد النبي ومن يمتـون لابـراهيم بـأوثق الصلات ومن تربوا في حجر من يتلقى تعليمات السماء، لا نتصور الا أنهم كانوا على شيء من الايمان يمكن أن يستيقظ فيهم إذا مرت عليهم السنون، وأبوهم لم يتغير قيد شعرة، فلم يسلُ يوسف ولم يخل قلبه منه ولم يتوجه وجهه اليهم.

وعامل الزمن كذلك يذهب نزق الشباب وحدّته وطيشـه ورعونتـه وخفته وتفكيراته الهـوجاء اللجـوجة وحلولـه الصبيانيـة، ويعلي من الـنظرة الى الاشياء ويصوب من الموازين، ويعدل في كثير من الاوضـاع المقلوبة، فمن لم يكن منهم

تزوج فقد تزوج وأنجب البنين وأحب صغيرهم اكثر من كبيرهم تماماً كما كانوا يجدون من أبيهم.

كل هذا لعب دوره في تصفية كدورات نفوسهم وقلوبهم وأذهب عنهم الحمية الفارغة.

ولعل العامل الثالث يكمن فيما أصابهم من قحط وجدب دام سبع سنين فأهلك زرعهم وضرعهم وأذاب شحمهم وأجاع ولدهم، وابكى صبيانهم، وأطلق أحزانهم وهمومهم، والذي عنده التصور الايماني خاصة يدرك من تفسيرات الاحداث ما لا يدرك الآخرون المحجوبون الواقفون عند سطوح الاحداث وعند حدود الاشياء الخارجية.

فأبناء يعقوب قوم فيهم ايمان ومن منطلق ايمانهم يعلمون أن ما أصابهم من مصائب انما هو بما كسبت أيديهم وبما صنعوا لاخيهم، فلا ريب يعود لهم الرشد المفقود.. والوعي الغائب.

ولقد الجأهم ذل الحاجة الى السؤال والمسكنة، وكانهم غدوا بعد عزتهم أبناء سبيل ثم لا يعطى الواحد منهم بعد رحلته الطويلة وسفره الشاق ونصبه الا حمل بعير. ثم اشتراط العزيز ـ يوسف ـ عليهم ألا يعودوا مرة أخرى الا مع أخيهم من أبيهم.. والا..

«فان لم تأتوني به فلاكيل لكم عندي ولا تقربون..»

هذا الشرط أوقفهم مرة أخرى أمام أبيهم في مثل موقفهم معه في آستدراج يوسف، «قالوا يا أبانا منع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون، قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل...»

ثم لا يرسله معهم إلا بعد موثق غليظ يأخذه عليهم وشروط مشددة، وتكون النتيجة.. وقوع ما لم يكن في الحسبان!



وإنّ في موقفهم في مصر غرباء متهمين بالسرقة لعاملاً مهماً في تطوير شخصياتهم. وتصور هؤلاء الإخوة بعد أن ملأوا أوعيتهم وحملوا رحالهم واستعدوا للعودة وانطلقوا وكل منهم يداعب خياله صورة أبنائه وقد أفرحهم الطعام الذي قدموا به.. وفجأة.. ينقطع حبل الأمل وشريط الرجاء.. ويصحون من أحلامهم على النداء المفزع. «ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون»

ثم تأملهم بأدب الغريب المتهم وتواضعه بل تذلله في موقف ضعفه الذي هو فيه يرجون رجال الشرطة:

«قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم. قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين» أي إنما جئنا للحاجة نقضيها لا للفساد.

ثم انظر هوانهم على الشرطة وهم يصفونهم بالكذب ويفتشونهم واحداً واحداً: «قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين..»

ثم يعودون إلى العزيز يذرفون الدمع بين يديه ويرجونه حار الرجاء: «قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين.. قال معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون. فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً..

ولا يفوتنا هنا أن نقف وقفة عند المنهج التربوي الإلهي الذي نستشفه من خلال ما مر به إخوة يوسف من صنوف المعاناة، وأنه من كان مثلهم في تغلغل نزعة الشر في نفسه لا يصلحه مجرد النصيحة ولكنه يحتاج إلى تربية بالأحداث ومعاناة المرارة حتى تذيب من نفوسهم حرارة المعاناة ما علق بها من شوائب وخبث.

نعود إلى موقف الإخوة في مصر وتضاعف المرارة في أفواههم ووقوفهم في



مصر متلاومين يتذكرون الآن فعلتهم بيوسف.

أرأيت؟! لقد فتح الحاضر المر عليهم الآن باب الذكريات المرة، وذكرهم فقد أخيهم وتقصيرهم مع أبيهم الآن ـ بغير كسب منهم ـ تقصيرهم معه بتخطيطهم في غابر السنين.

إن شيئاً لم يغب عن دائرة الوعي والحضور ولم ينطمس إثم يوسف من دائرة الشعور أو اللاشعور.

«قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.»

إن الأمور كما ترى تسير معهم باتجاه الطريق المسدود ـ في رأي العين وظاهر الأمر ـ لكن هذا التعقيد والتأزم ـ في حس المؤمن ـ مقصود لصهر تلك النفوس وتأهيلها للانفراج والخير القادم.

وتأمل حراجة موقفهم مع أبيهم والهوان الذي جللهم وهو يعيد عليهم نفس لومه لهم حين أفقدوه يوسف: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل..»

ثم تأمل ما لاقوه من معاناة وقد فقد أبوهم بصره وهم يشعرون أنهم السبب في ذلك واستمع إليهم يعودون من عند أبيهم إلى العزيز وهم يقولون: «يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين»

إن الرجل الحر العزيز يقتله أن يقف في موقف استجداء الصدقة، وهم يطلبونها صراحة لا تعريضاً ولا تلميحاً، وعندما علم الله تعالى أن كبرياءهم قد تطامن وأن غرورهم قد اكتسح، وعندما علم أنهم لم يجدوا في قلوبهم ملجأ إلا

إلى الله تعالى، أمر عبده يوسف بأن يزيل ما بينه وبينهم من حجب ويكشف لهم السر:

«قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون. قالوا أإنك لأنت يوسف. قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا. إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين»

وقول يوسف: هذا أخي فيه من المعاني ما فيه. أي هو أخي دونكم، لا أنه يتنكر لاخوته النَّسبية فهم من هذه الجهة إخوته، ولكن هذا دونهم أخوه في السلوك والتصور والنفسية، وكذلك يذكرهم بأنهم دوماً كانوا يعتبرونهما إخوةً في جانب والعشْرة إخوة في جانب: ليوسف وأخوه.. فهذا وقت تصديق كلامهم وهم أحوج ما يكونون إلى أن يعتبر يوسف نفسه أخاهم! فتأمل!

ثم قوله قد من الله علينا يحمل تبكيتهم بعقوبة الله لهم لعصيانه سبحانه، وآتباعهم خطوات الشياطين.

كل هذه المسيرة الطويلة من السنين والسلسلة المتصلة من الأحداث، والمعاناة الآخذ بعضها برقاب بعض، والفشل المتلاحق، كل هذا عمل عمله في تطوير شخصية إخوة يوسف إلى أن غدوا كواكب كما وصفهم القرآن، وإلى أن استحقوا أن يستغفر لهم يعقوب ربه ولو على وعد مع التسويف: «سوف أستغفر لكم ربي..»

وهكذا تألقت نفوس الإخوة وصفت نحو أبيهم وأنفسهم وأخيهم يوسف وانتقلوا من منتهى التكبر عليهَ إلى منتهى التواضع له: «وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم».



المبحث الرابع

شخصية امرأة العزيز

شخصية قوية.
المطيعة لهواها.
محبة وانتقام.
مكرها بالنسوة.
تحليل نفسيتها.
تطور شخصيتها.
عوامل تطور شخصيتها.

امرأة العزيز

ظهرت امرأة العزيز في القصة في عدة مشاهد، لكنها كانت في كل مواقفها ذات حضور واضح قوي.. في الشر والمكر وفي الخير من بعد.

ومن خلال الإشارات واللمحات نستشف ملامح هذه الشخصية المهمة في القصة، والمهمة في تحريك الأحداث، والمهمة في المجتمع كذلك.

وأول بروز لها كان في خطاب زوجها لها حين اشترى يوسف واستشرف أن يكون طالع خير في حياة هذا البيت... وقد كان، لولا التعكير الذي أحدثته المرأة على صفو البيت، ولم ينقل القرآن لها في ذلك الموقف كلمة.. ولا ندري ما أضمرت في نفسها ولا ما استكنت ضلوعها عليه إزاء هذا الفتى.. إلى أن كشف النص التالي المخبوءَ من المشاعر والأمور في مشهد المراودة.. الذي تبدو فيه امرأة العزيز مجردة من كل عقل أو ضبط أو خوف أو حياء.. مندفعة بأقصى قوتها نحو طلبتها في قضاء الأمر الذي أبرمت في نفسها.

وما كانت لتكون امرأة العزيز لولا مؤهلات كثيرة من حسب وعقل وجمال وامتيازات.. هذا في الغالب.. وهذا الذي ظهر في القصة.

ولقد أظهرت تدبيراً وذكاء ودهاء في موقفها من النسوة، ثم سرعة بديهة في موقفها مع زوجها حين فوجئت بمجيئه في تلك الساعة غير المنتظر مجيئه فيها.

هذا الذكاء والعقل والتدبير كان مستخدماً في الشر والمكر والخبث، لأن الإرادة كانت أولاً سيئة، فسخرت الطاقات لخدمة الإرادة الشريرة، ثم لما صحت منها النية والعزم والوجهة والأرادة تحولت طاقاتها إلى البناء والإصلاح

والخير، الذي بدأته بتبرئة ساحة يوسف ليتسنى له هذا الذي أتيح له من دور عظيم.

إن امرأة العزيز مثال قوي واضح للإنسان ذي الطاقات الضخمة الذي يبدد طاقاته إذ يسخرها في هوى نفسه الطاغي المدمر فيظلم ويفجر وتصبح الطاقة وبالاً عليه وعلى غيره. ثم يقدر الله تعالى لهذه الإنسانة أن تكون لقصتها تلك النهاية المشرقة الوضيئة إذ تنطق بها تيك الكلمات التي كأنها عقد نضيد من حكمة عالية ولآلىء فريدة من علم غزير وخلق جم رفيع.

أما قوة شخصيتها في الباطل والحق فتبدو في كل مشهد ظهرت فيه.. وأول ذلك وأدل شيء على ذلك إملاؤها نوع العقوبة على زوجها والإيحاء له بما ينبغي أن يعمله.

يقول المرحوم بهجة البيطار في تقديمه لتفسير سورة يوسف للمرحوم محمد رشيد رضا، إن امرأة العزيز «كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير، تقوده كيف شاء هواها».(1)

ويقول الدكتور بيومي في تصوير شخصيتها:

«.. أما امرأة العزيز فقد صورت الأنثى الوامقة حين غلقت الأبواب وقالت هيت لك ثم حين استبقا الباب وقدت قميصه من دبر، ثم حين حاولت أن تلصق به الجريمة وحده، فقالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» كما صورت اقتدار الغاضبة الثائرة حين جمعت نسوة المدينة واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن! وحين أعلنت لهن حبها الهائج في غير تحفظ فقالت: «فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين!» كما عبّرت عن ضعفها اليائس حين قالت في النهاية: «أنا راودته

(1) تفسير المنار مقدمة محمد بهجة البيطار ج ١٢ ص ٤.



عن نفسه وإنه لمن الصادقين»[1] «لقد كان لوم النسوة لامرأة العزيز عنيفاً في نظرها، ولكن ردها عليهن أكثر عنفاً، إذ جمع بين القول والفعل.

والعجيب في أمر هذه المرأة أنها استطاعت أن تضبط لسانها حتى نجحت خطتها التي كانت واثقة من نجاحها الثقة كلها. وحينما واتتها فرصة الكلام كان تأنيبها لاذعاً، وتبكيتها مراً، يلفهما التلذذ بفرحة النصر والتشفي من العواذل»[2]

تحليل نفسية امرأة العزيز

قال الدكتور الهاشمي في لمحاته النفسية:

«يقدم القرآن موقفاً نفسياً عميقاً شاملاً يشمل عدة جوانب مختلفة في ثلاث شخصيات متفاعلة: شخصية امرأة العزيز ويوسف عليه السلام وزوجها العزيز.»

أما هي فسيدة تعيش حياة الترف والبذخ، آمرة مطاعة ليس عليها رقيب وفي بيئة غير مؤمنة بالله تعالى وليس لها تلك القيم الخلقية الذاتية الملزمة سلوكياً.

ويوسف يأتيها إلى بيتها فتى وينضج ويكتمل بين يديها.

وزوجها العزيز مشغول بأمور الحكم فهو أشبه برئيس وزراء، ومعها في القصر شاب في كامل الشباب والقوة والوسامة، ثم هو عبدها تملكه وترعاه ويعيش معها تحت سقف واحد ـ فاندفعت تحاول أن تشبع ميولها العارمة، وهكذا ابتدأت محاولات المراودة متدرجة ومتكررة من نظرات إلى إشارات إلى تلميحات وتربصات.

---

(1) البيان القرآني لبيومي ص٢٢٤

(2) الوحدة الموضوعية لباجودة ص٩٤.



أما يوسف عليه السلام فهو شخصية مؤمنة بالله وكان مثالاً للطهر والعفاف، بيد أن المرأة لم تيأس، فهي تحاول إغراء يوسف وتحاول. حتى إذا أعياها الأمر وصلت إلى مرحلة المصارحة بكل ما يغلي فيها من ميول الجنس نحوه. وكانت الخطوات التي نقدمها حسب التسلسل القرآني الحكيم في هذا الموقف النفسي العصيب كما يلي:

١ ـ طلبت المرأة منه بإلحاح وإصرار فعل الفاحشة: وراودته التي هو في بيتها عن نفسه.

٢ ـ اقتران طلبها مع إعداد عملي للأجواء: وغلقت الأبواب.

٣ ـ غاية الصراحة في جرأتها المتهالكة: وقالت هيت لك.

٤ ـ يوسف يستعين بالله ليحميه منها: قال معاذ الله.

٥ ـ يذكر يوسف ربه الذي أكرمه وتفضل عليه: «إنه ربي أحسن مثواي»

٦ ـ درس عملي بليغ يؤكده يوسف عليه السلام لامرأة العزيز في طلبها للفحشاء. إنه ظلم منها أن تطلب الفحشاء، وظلم لزوجها أن يخونه، وظلم من يوسف أن يستجيب لها: «إنه لا يفلح الظالمون».

٧ ـ وتبلغ المرأة ذروة الإلحاح الهائج: «ولقد همت به»

٨ ـ ويحفظ الله هذا الشاب ليكون المثل في الطهر والعفاف: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه»

٩ ـ ويصرف الله عن يوسف كل سوء وفحش لأنه استخلصه ليكون نبياً هادياً. «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين»

١٠ ـ يفرّ يوسف منها نحو الباب ليخرج سالماً من الموقف وتلحق به المرأة تمنعه من الخروج: «واستبقا الباب»

١١ ـ إنها تمسك بثوب يوسف لترده إليها لأنها لا تقبل الهزيمة، إنها تحاول إجباره: «وقدت قميصه من دبر»

١٢ ـ ينفتح الباب وتكون المفاجأة: إنه الزوج، وتتصنع المرأة البراءة على الرغم

من هياجها العارم سعياً وراء يوسف: «وألفيا سيدها لدى الباب».

١٣ - إنها ذكيـة تجد نفسهـا في موقف الـريب والاتهام فتلقي مـا في نفسها عـلى يوسف إسقاطاً نفسياً مكشوفاً، وتقـترح عقوبتـه، وكل هـذا يتم من المرأة دون سؤال من أحد: «قالت ما جزاء من أراد بـأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.»

١٤ - يـظهر يـوسف الحقيقة للزوج عن زوجتـه في موقفهـا المـريب: «قـال هي راودتني عن نفسي».

١٥ - يقدم الشاهد دليلاً حسياً يستخدمه ليعرف به الصادق من الكاذب، ويرى الشاهد الحكيم وهو من أهل امرأة العزيز الدليل المادي يؤيد صدق يوسف وبراءته ويثبت كذب امرأة العزيز ومراودتها.

لقد فشلت امرأة العـزيز أمـام يوسف وزوجهـا وأمام الشـاهد من أهلهـا ولكنها لا تقبل الهزيمة، ولقد زاد من مكابـرتها مـا انتشر من أخبار تلك المـراودة التي تفضح سلوكها حتى غدت حديث نسوة المدينة خارج القصر.

وتجد امرأة العزيز نفسها تحت وطأة فشل المراودة وافتضـاح حبها ليـوسف وقـد تمكن من قلبهـا حتى أصبحت حـديث النسـاء في مجـالسهن، وقـد وصفن سلوكها بالضلال المبين. فتلجأ إلى مزيد من المكابرة والتبريـر بإيقـاع النسوة فيـما وقعت فيه عندما يشاهـدن يوسف. . وتنجـح خطتهـا في الإيقاع بنسـوة المدينـة وتعلن موقفها من يوسف بكل صراحة واستعلاء. .»[1]

تصـور القصة هـذه المرأة «في صرع الشهـوة التي تعمي عن كـل شيء في إندفاعها الهائج الكاسح، فلا تحفل حياء أنثوياً، ولا كـبرياء ذاتيـاً، كما لا تحفـل مركزاً اجتماعياً، ولا فضيحة عائلية. . والتي تستخدم مـع ذلك كـل مكر الأنثى وكيدها، سواء في تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التي ألصقتهـا بـه، وتحديـد عقوبـة لا تودي بحيـاته! أو رد الكيـد للنسـوة من ثغـرة الضعف

(١) د. عبد الحميد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم ص١٩١ - ص١٩٦.



الغريزي الشهوي الذي تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها، الأنثى التي لا تحس في إرواء هواتفها الأنثوية أمراً يعاب أصلاً! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعية، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها، فإن الأداء القرآني لم يتخلَ عن طابعه النظيف مرة واحدة.

ونلتقي مع هذه الشخصية «مرة أخرى بعدما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة وبقي هناك حتى رأى الملك رؤياه، وتذكر الفتى الذي كان سجيناً معه أن يوسف هو وحده الذي يعرف تأويل الرؤيا، فطلب الملك أن يأتوه به، فأبى حتى يحقق قضيته، ويبرىء ساحته، فاستدعاها الملك مع النسوة، وإذا بها ما تزال المرأة المحبة، مع التغير الطبيعي الواقعي الذي يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف، ومع تسرب الإيمان الذي تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعاً..»[1]

ويقول صاحب التصوير الفني عن امرأة العزيز حين فتح ملف القضية وبرأته النسوة: «وترى امرأة العزيز أن تبرئه أيضاً، فالظاهر أنها كانت قد أسفت، إذ نحن نرجح أنها فعلت فعلتها وهي في الأربعين أو فوقها، فهي فعلة امرأة مكتملة في نهاية المرحلة، فإذا أضفنا إلى سنها، «بضع سنين» كانت في الخمسين أو قرب الخمسين فلا ضير حينئذ من كشف الماضي الدفين: قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق. أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين..»[2]

وللمرحوم الرافعي في وحي القلم لفتات طيبة في تصوير نفسية امرأة

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص٦٦٦ - ٦٦٧.
(٢) التصوير الفني في القرآن ص١٦٦ - ص١٦٨.



العزيز وتفسير الآية الكريمة التي تصور تعرضها للنبي الكريم، يقول: «هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة! لم تزد الآية على أن قالت وراودته «التي».. والتي هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت فلم يبقَ على الحب ملك ولا منزلة، وزالت الملكة من الأنثى.

وأعجب من هذا كلمة راودته، وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها، لون بعد لون، ذاهبة إلى فن راجعة من فن، لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها، تذهب وتجيء في رفق. وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها...

.. ثم قال «عن نفسهِ» ليدل على أنها لا تطمع فيه...

.. ثم قال: «وغلقت الأبواب» ولم يقل أغلقت، وهذا يشعر أنها لما يئست ورأت منه محاولة الانصراف أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالاً عدة. وتجري من باب لباب، وتضطرب يدها في الإغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

«وقالت هيت لك» ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثة حيوانية صرفة متكشفة مصرحة.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها..»[1]

وقال في سيكولوجية القصة: «وفي قصة يوسف تظهر في امرأة العزيز

(١) وحي القلم ج١ ص١١٥، ص١١٦، ص١١٧.



جوانب أخرى للمرأة: وهي عاشقة، وهي منتقمة لكبريائها، وهي نادمة. فإنها لم تكد تعجب بحسنه وجمال طلعته حتى تفتن فتطغى عاطفتها على الواجب، ويستبد بها الغرام، فتراوده عن نفسه في مخدعها، فيأبى ويستعصم، فتكيد له وتتهمه باطلاً أمام زوجها. ولكنها عاشقة! فهي تخشى عليه، فتشير بالعقاب المأمون إبقاء على حبها. وما هذا العقاب إلا انتقاماً لكبريائها، وهي التي شذت عن طبيعة المرأة في التمنع، وبذلت نفسها في ذل لمن أعرض عنها في عز.

ولما ذاع خبرها بين نساء المدينة، وبخاصة في الوسط الأرستقراطي الذي لا هم لنسائه إلا الحديث عما يجري في محيطهن، عيل صبرها. فجمعتهن في قصرها، وأمرته بالخروج عليهن، كي يلقين من طلعته ما لقيت من الدهش والإعجاب فيكون لافتتانها به ما يبرره. وفعلاً فقد تواطأن على كيدها..»[1].

تطور شخصية امرأة العزيز وعوامل هذا التطور

لمعرفة مدى التطور الذي حدث على شخصية امرأة العزيز لا بد من تأمل مواقفها التي سجلتها السورة الكريمة وكلماتها التي قالتها، ثم تحليل هذه الكلمات للتعرف إلى عالمها النفسي. فموقفها الأول الذي أسفر عن نفسيتها وشخصيتها هو موقف المراودة الذي كان غاية في النكارة والإسفاف أو كما يقول سيد «وهنا تبرز المرأة في حالة من أنكر حالاتها وفي دفعة من دفعات غريزتها»[2].

والموقف الثاني الذي رأينا فيه امرأة العزيز موقفها من النسوة وكان أشد من الأول في النكارة، إذ من المعروف أن الإنسان لا يصل به الحد أن يسفر عن مخبوء نفسه إلى هذا الحد حتى يستوى لديه الاسرار والعلانية إلا أن يكون وصل من التدني الخلقي والنفسي حداً هائلاً، فكيف إذا كان هذا الإنسان امرأة لها

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص٤٠٣ ـ ص٤٠٤.
(٢) التصوير الفني ص١٦٦



زوج، له مكانة اجتماعية وسياسية قد تهزها وتؤثر عليها مثل هذه الهمسات، وهي تصارح النسوة بكل ما في نفسها من حب وشهوة نحو هذا الفتى، وهي تعلم أنهن لا يكتمن سراً أبداً، معنى هذا أنها كأنما تعلن في المجتمع كله موقفها لا في مجتمع من نسوة معدودات، غير عابئة بزوج ولا أعراف ولا مكانة سياسية ولا اجتماعية ولا تقاليد. .

الموقف الثالث حين وقفت للتحقيق مع النسوة أمام الملك بعد أن طلب يوسف ذلك، وهذا الموقف هو الانقلاب الهائل في شخصيتها، فهو مغاير تماماً لما عرفناه عنها من سيطرة الشهوة وغياب العقل، بل نجدها هنا رمز الحكمة والحق والإيمان، والفضيلة. بل إن كلماتها التي قالتها أمام الملك جعلت كثيراً من المفسرين والكتاب يستغربون صدورها منها وينسبونها - بغير مناسبة - ليوسف عليه السلام.

وهذه هي إجابتها على سؤال الملك:

«قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم.»

وهذه رؤية الدكتور باجودة - وكتابه من أجود ما كتب في تفسير السورة - يقول معلقاً على قوله تعالى: «وان الله لا يهدي كيد الخائنين».

«علام يدل هذا؟ هذا يدل على أن امرأة العزيز تحولت فجأة إلى شخصية هي القمة في التدين - ولا يخفى أننا في مجتمع غير ديني أساساً - وأن هذه المرأة أخذت في طرفة عين، ودون سابق إنذار، تستقي من أصفى المنابع الدينية وأعلمها بالواحد المعبود.

وهل كانت امرأة العزيز، من الوجهة الدينية مهيأة لأن يصدر منها كلام كهذا؟



ثم يذكر الكاتب أن امرأة العزيز تمثل الطبقة الراقية المترفة في مجتمع غير ديني مترف منغمس في الشهوات فهي لذلك غير مهيأة لصدور الكلام عنها كما قرر.

ثم ينتقل إلى بقية النص وينسبه أيضاً ليوسف، وأن قوله: وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم» تفيض بالتواضع الجم، وكأنه وهو نبي الله المعصوم لا يبرىء نفسه ولا يغتر بهذه النفس، ومصدر ذلك كله الاعتماد الكلي المطلقَ على الله عز وجل، والأدب الكامل والخلق العظيم. . . »[1]

ولسنا مع الدكتور باجودة فيما ذهب إليه من نسبة هذا الكلام ليوسف وعند تفسير الآيات في القسم الثاني تفصيل هذا القول.

وإنما هذه الحكمة العالية صادرة من امرأة العزيز التي استنارت بصيرتها، وصفت سريرتها وتطورت من النقص إلى الكمال ومن السفاهة والطيش والرعونة إلى الحكمة والاتزان.

ويفسر الدكتور التهامي نقرة في سيكولوجية القصة هذا الاعتراف من امرأة العزيز تفسيراً لا يسلم بسهولة إذ يقول: «وبعد شهادة النسوة ببراءة يوسف من كل ما آتهم به، تتقدم امرأة العزيز فتشهد أيضاً ببراءته وصدقه، وتعترف بما صدر عنها من مراودته، حرصاً منها على أن يحترمها الرجل المؤمن بتقديره لإيمانها ولصدقها في حقه عند غيبته، بعد أن تبين لها أنه لا يقدرها من أجل جمالها الجسدي. . »[2]

ويبدو من كلمات الدكتور التهامي أن المرأة لم تتطور نفسيتها وإنما تطورت أساليبها، فبعد أن كانت تعرض عليه جمالها وجسدها لتنال إعجابه، أصبحت

(١) الوحدة الموضوعية ص٤٢٨ ـ ص٤٣٤

(٢) سيكولوجية القصة ص٤٠٥.



الآن تتكلم بتبرئته وبالكلام الطيب لتحظى بما لم تحظَ به من قبل بوسائلها وأساليبها القديمة.

وأعتقد أن هذا التفسير البراغماتي لنفسية المرأة لا يتناسب مع كلماتها التي سجلها القرآن، والتي تفيض بالتألم لما فات وبالإيمان والحكمة.

كما لا يتناسب مع طبيعة مسيرة الشخصيات كلها في قصة يوسف، فكل الشخصيات تسير في خط التحسن والتطور والنمو إلى الاكتمال في الفضائل والأخلاق والنفسية.

عوامل تطور شخصية امرأة العزيز

هذه النقلة البعيدة الواسعة في شخصية تلك المرأة، أو هذا التطور الهائل في عالمها النفسي والقيمي لا بد أنه كان نتيجة تأثير عوامل نفسية وبيئية عديدة، قد يخفى عنا بعضها وقد نتعرف إلى بعضها الآخر.

ومن خلال قراءتنا لكلام التصوير الفني في التعريف بشخصية هذه المرأة، رأينا أنه يركز على عامل الزمن والسن كعنصر مطور منضج للشخصية ومغير للنفسية من حالة إلى حالة، ونقول إن السن والزمن عامل لا شك، ولكنه ليس العامل، فمن ملاحظاتنا وتجاربنا نرى كثيرين من أصحاب السن لا يفيدهم السن ولا الزمن شيئاً ولا يغير الكبر بل الهرم من طباعهم التي تكبر معهم وأمزجتهم التي تستعصي على الإصلاح كلما تقدمت بها السن ودلف بها العمر نحو النهاية، ومع هذا لا تزداد إلا عناداً ومكابرة. كما قال المتنبي:

وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يحلّم تقادم الميلاد

وحتى يوظف الزمن توظيفاً إيجابياً ـ وهو بذاته عنصر محايد ـ لا بد من عوامل أكثر أهمية، هي التي جعلت من يوسف على صغر سنه وشبابه المتفتح يستعصم ويستعلي على المعصية وما يدنس طهره.

وأهم هذه العوامل التصور الإيماني، الذي بدأ يتسرب إلى قلب المرأة من



كلام يوسف خلال إقامتـه الطويلة في ذلـك البيت، لا بد أن المبـادىء والعقيدة التي كـان يدعـوهم إليها قـد تفاعلت مـع قلوبهم ونفوسهم خـاصة بعـد غيـاب يوسف من البيت وانتهاء الخضوع لتأثيره الشخصي على المرأة.

كذلك فإن من العوامل في تغيير نفسيتها الشعور بالإثم الذي ارتكبته حين أوحت بسجن بريء واستمر سجنـه بضع سنـين، لا بد أنها كـانت خلال تلك السنين تتفاعل في نفسها مشاعر ومعان مختلفة لعل أبرزها الإحساس بالخطيئـة، هذا الإحساس ثقل عليها وتاقت نفسها إلى الإفلات منه والتخلص من ضغـطه وثقله والتخفف من وزره الذي أنقض ظهرها، فما ان جاءت الفرصة حتى قالت ما قالت، ليس جواباً عن سؤال الملك فقط ـ وكـان يكفي لجوابـه كلمة ـ ولكن تخفيفاً لضغط نفسي وتنفيساً لمكبـوت من المشاعـر دام سنين. ولـذلك نجـد أنها بالغت في إثبات براءته عليه السلام تعويضاً عـما لحقه من جهتهـا من أذى، عبر عن ذلك قولها: «وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» والذي أراه أن مرجع الضمير في أخنـه إلى يوسـف والفـاعل امرأة العزيز، أي ليعلم أني لم أخنه بالغيب كما فعلت معه في حضوره وشهادته، فلئن كنت أسأت إليه حاضراً لأنصفنه غائباً.

ومن العـوامل أيضـاً الإحباط والإخفـاق في إحراز مـا تـريـد، وإذا يئس الإنسان من شيء كان مستهلكاً في هواه حيناً من الدهـر يعود إليـه عقله بعد أن ييأس منه ويعلم أنه لا سبيل إلى نيله.

ومن عوامل عـودة وعيها ويقـظة وجدانها مـواجهتها بـالحقيقة بـلا أمل في المراوغة، بعد أن سدت كل منافذ التنصل والتهرب من خلال سؤال الملك، بل إتهامه المباشر الذي لا يبحث عن نفيه أو إثباته بل يسـأل عن أسبابـه. فالجـريمة ثابتة وإنما السؤال عن دوافعها: «قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه».

ومَثلها ومثَلهن في ذلك مثل من كان فاراً من وجه العدالة فلما أطبق عليـه بـالأدلة وحـوصر من كل جـانب اعترف، وأكـثر، بأن بـادر إلى التوبـة من كـل



الماضي الذي لم يجده السير في دروبه المعوجة إلا أن أورده هذا المورد الوبيل والعاقبة الوخيمة.

ولعل من المؤثرات أيضاً تقريعها الدائم ولومها ولمزها والهمسات التي لاحقتها من كل جانب فجعلتها فوق مرارة الفشل تواجه مرارة التشفي والتعليقات الساخرة والنبذ الاجتماعي، مما سارع في عودتها إلى رشدها.

ولعله يكون قد نال مركز زوجها شيء من الاهتزاز فتضاعفت الخسائر عليها، ومن مؤشرات ذلك أنا لم نعد نراه على مسرح الأحداث منذ إيداع يوسف السجن.

هي إذاً عوامل متشابكة وعديدة تأخذ طريقها إلى أعماق النفس فتعمل فيها يد التغيير والتحوير والتطوير إلى أن تصبح بالصورة الجديدة، ولحكمة يقدرها الله ويعلمها أن تفاعلت هذه العوامل تفاعلاً إيجابياً في نفس امرأة العزيز فأثمرت من التوبة والحكمة ما أثمرت.

يقول ابن القيم بعد أن يستعرض كلمات المرأة أمام الملك ويرجح بالأدلة كون هذه الكلمات منها لا من يوسف، يقول:

«... فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله، ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشر. فوازن بين هذا وبين تقدير هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى.

وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وتعالى وبحقه، وإن أشركوا معه غيره. ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: «واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين»[1]

(١) التفسير القيم لابن القيم ص٣١٨ وروضة المحبين لابن القيم ص٣٤٥.



المبحث الخامس

شخصيات أخرى

شخصية العزيز

«وقال الذي آشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»

يبدو لنا العزيز من هذه الآية رجلاً نبيلاً، طيب القلب رحيماً، بعيد النظر، ألمعياً - إنه وهو الرجل الثري، ذو الخدم والحشم، والعبيد والإماء، يطلب من امرأته، وليس من أي شخص سواها، أن تكرم مثوى الغلام، وأن تتعهده بالعناية والرعاية.

فقد تبين في الغلام يوسف بألمعيته وفراسته، أنه من معدن متميز، لهذا خصه دون سواه بهذا الاهتمام الفائق. ولأنه رجل مشغول بمصالح قومه، منصرف إلى أعماله، أوصى بالغلام خير من كان يعتقد أنه سيقوم بهذه المهمة وفق رغبته.

وهو رجل متزن مجرب، لذا هو يقدم فعل الرجاء «عسى» بين يدي قوله «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» إنه يرجو أن يكون واقع هذا الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته فيه.

فإذا تحقق ما ظن فيه حصل منه النفع الذي يؤمل من أمثاله. بل ربما نزل في القرب والمحبة منزلة الولد.

وواضح أن العزيز الرجل المفكر، منطقي في رجائه. فهو يقدم النفع بين يدي اتخاذهما يوسف ولداً، فإن الرجاء الثاني مبني على الأول. ولا يتحقق الثاني إلا بعد تحقق الأول.

والعزيز أيضاً منطقي في رجاءيه المعقولين، فكثير هم الذين في مثل وضع الغلام يوسف ونزلوا إحدى هاتين المنزلتين.

ثم إنه إنما قال في خطابه لزوجه «أو نتخذه ولداً» منطلقاً من حقيقة كون يوسف بعد غلاماً صغيراً، قد ابتعد ما بينه وبين كونه في المستقبل رجلاً، وهذه الفترة، كفيلة في اعتقاد العزيز، أن تنزل يوسف من زوجه منزلة الولد الفعلي وأن تنزل زوجه من يوسف منزلة الأم التي افتقد. وكان يعتقد أنهما سينجحان في تحقيق الرجاءين معاً، أو أولهما على الأقل، إذا استطاعت زوجه أن تغمر الغلام بإحسانها، وتشمله بعطفها. خاصة، وأن يوسف في السن التي يعتبر فيها صفحة بيضاء نقية وأداة طيعة.

وقد يكون الدافع للعزيز على ربط الرجاءين أو أحدهما بيوسف عليه السلام أنه والله أعلم لم تكن له ذرية، وأنه كان حريصاً عليها، ولعله قد يئس من حصوله عليها من صلبه، ففكر في طريقة طبيعية أخرى، هي طريقة التبني.

ولعل زوجه كانت تشاركه هذا الرأي قبل الحصول على الغلام يوسف.

وها هو الآن يذكر زوجه وقد حضر الغلام بالنفع المأمول، أو الولد المتوقع منبهاً لها إلى الطريق التي ينبغي أن تسلكها بغية الوصول إلى إحدى الغايتين أو إليهما معاً. هذه الطريقة هي أن تكرم مثواه.(١)

ولكن يبدو من شخصيته بالإضافة إلى ما ذكر الدكتور باجودة من رحمته وحكمته، يبدو جوانب أخرى من هذه الشخصية تبرزها المواقف.

فحين ألفاها ويوسف على الباب لم نسمع منه شيئاً، حين بادرته امرأته بإلقاء الاتهام على يوسف، ولكن الشاهد هو الذي تكلم، فقال ما قال(٢):

---

(١) الوحدة الموضوعية ص٧٩ ص٨٠.

(٢) يرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه القصص القرآني وكتابه عن قصة يوسف أن الشاهد من أهلها هو نفس الزوج، وهو غريب على السياق الذي يظهر منه تماماً أنه يتكلم عن شخصيتين: سيدها، وشاهد من أهلها. وسنناقشه بإذن الله عند تفسير الآية في القسم التفسيري.



«وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين.

فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.

يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين»

ويبدو أن المفاجأة عقدت لسان الزوج فكلاهما عزيز عليه لا يستطيع أن يضحى به ولذلك لم يتكلم، ولم يتخذ أي إجراء لتغيير الواقع الذي جر إلى ما جرّ إليه. وآكتفى العزيز بنصيحة هذا القريب، ظناً منه لطيبته أو ضعفه أو غير ذلك أن النصيحة تطفىء نار الغريزة في نفس تأججت فيها.

ومن هنا أطع هذا السلوك الضعيف من العزيز، وأغرى امرأته بالاستمرار في مسلكها، بل بأكثر من هذا، بالتصريح أمام النسوة بمرادها من الغلام، وهي تعلم أن النسوة سيتحدثن بما سمعن وسيصل الحديث إلى الزوج لكنها لا تأبه له لهذا الجانب الضعيف فيه.

وقد يجمع إنسان في شخصية واحدة عقلاً واتزاناً وحباً للناس ورحمة وإكراماً للآخرين، ولكن مع الضعف في الشخصية بحيث يعجز عن اتخاذ الإجراء اللازم والعلاج الحاسم للمشكلات، لعدم القدرة على المواجهة والتحدي، وهذا الذي كان من العزيز.

ويؤكد هذا الجانب من شخصية العزيز أن المرأة توحي له بما يصنع في قولها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم»

ثم يوقع العزيز بالفتى البريء عقوبة السجن حفاظاً على مركزه الاجتماعي الذي بدأ يهتز بفعل الشائعات: «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين» وبعد هذا آختفى العزيز من مسرح الأحداث تماماً..

يقول الدكتور الهاشمي في تصوير شخصية العزيز:

«إنه رجل مسنّ جاوز منتصف العمر حين جاء يوسف عليه السلام



القصر وليس له ولد، وكانت للعزيز فراسة في ترقب النفع من هذا الغلام أو أن يكون له ولزوجته ولداً. والعزيز رجل مسؤول باعتباره أشبه برئيس الوزراء بمصر، فهو مشغول بأمور الحكم ولقد طلب من زوجته أن تكرم مثوى يوسف وترك الأمر لها في التنفيذ والرعاية، ويظهر أن العزيز كان شديد المحبة لامرأته كما أن حياة القصور المترفة جعلت عزيز مصر لا يواجه زوجته بأخطائها مواجهة صريحة ومباشرة وقاطعة، ويتجلى هذا الاتجاه في حادثة المراودة الكبرى وظهر اتهام الزوجة وبراءة يوسف بالشهادة وانتشار الخبر من القصر إلى مجتمع النسوة في المدينة، فلقد كان موقف عزيز مصر من زوجته كما يلي:

آ ـ توجيه اللوم لجنس النساء جميعاً، وليس لزوجته على وجه التحديد.

ب ـ الالتفات ليوسف على وجه التحديد للإعراض عن ذلك الحديث على الرغم من أنه هو البريء المظلوم.

جـ ـ طلب من الزوجة أن تستغفر لأنها من الخاطئين.

د ـ ثم موافقته لزوجته بسجن يوسف حين طلبت ذلك على الرغم من علمه ببراءة يوسف»[1]

ونقول تعليقاً على الدكتور الهاشمي إن الذي وجه اللوم وطلب من الزوجة الاستغفار هو قريبها الشاهد وليس زوجها... لكنه كان موافقاً على كلام الشاهد... بدليل أن القرآن لم يسجل له ما يزيد أو ينقص من قول قريب زوجته.

وقال المنار في التعليق على قوله تعالى: «ليسجننه حتى حين»

وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير، تقود بقرنيه كيف شاء هواها، وانه كان فاقداً للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات.

---

(١) لمحات نفسية ص١٩٠ ـ ص١٩١.

وقد أعجبَني فيه قول الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم الروايات الإسرائيلية المخترعة، قال في تفسير ما رأوا من الآيات: وهي الشواهد على براءته، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب[1]، وكان مطواعة لها، وجملاً ذلولاً زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعدته، وذلك لما أيست من طاعته، وطمعت في أن يذلله السجن ويسخِره لها.

وجملة القول في هذه الحادثة أن يوسف عليه السلام كان أكمل مثل للعفة والصيانة والأمانة»[2]

***

شخصية الملك

ظهر الملك في عدة مشاهد ومواقف في قصة يوسف.. بدءاً من الآية الثالثة والأربعين حين رأى رؤياه الغريبة والعجيبة وطلب من الملأ تفسيرها، لكن يبدو من طريقة حديثه مع الملأ وتشككه في خبرتهم في تعبير الرؤى عارفاً بمن عنده وقدراتهم وهذا من مؤشرات القيادة الواعية.

ثم يبدو عارفاً الفضل لأصحابه في طلبه يوسف للمكافأة وطلب التعرف عليه وبحثه عن الكفاءات وأصحابها، وكان يستطيع أن يرسل له جائزته دون طلب حضوره عنده.

ثم يبدو حازماً قوياً في تحقيقه مع النسوة ومساءلتهن بالطريقة التقريرية التي لا تدع مجالاً للتملص والروغان.

---

(١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده، والذروة بالكسر والضم أعلى الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير، والغارب ما بين العنق والسنام منه، وهو الذي يلقى عليه الخطام وهو بالكسر حبل يوضع في عنقه، ويثنى في خطمه أي أنفه ليقاد به بسهولة وأصل هذا المثل فيهما أن يجيء الرجل بالخطام فيخفيه عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ بفتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به، فإذا تمكن منه وضع الخطام وقاده به فانقاد.

(٢) تفسير المنار ج١٢ ص٣٠١ ـ ص٣٠٢ وارجع إلى تفسير الكشاف ج٢ ص٣١٩ ط المعرفة.



ثم يظهر في تعيينه ليوسف في هذه المناصب المهمة رجلا يقدر ذا الأخلاق وذا القدرات، وهو حريص على تقدم مجتمعه وحريص على تقديم الأحسن له سواء في كبار الموظفين أو في البرامج والخطط.

كل الإشارات والمؤامرات تبدو لصالح الملك، وفي خانة الإيجابيات كشخص لا كمنهاج، فلا يجوز أن ننسى أن المجتمع كله محكوم بمنهاج الجاهلية وشركها وأوضاعها وإفرازاتها ومفاهيمها ومقاييسها. لكن تصوَّر فداحة الموقف إذا آنضم إلى رداءة المنهاج رداءة الشخص القائم على الأمور.

الخلاصة أن الذي يبدو لنا من إلماحات وومضات تتبدى هناك وهنا في القصة أن الملك كان على قدر من المواصفات أهلته لأن يتعاون يوسف معه ولو كان منعدم الخير والفضائل لما أمكن التعايش والتفاهم.

وهو كذلك على جانب من الإدارة الحازمة القوية..

ويخلط كثيرون بين لقب الملك الوارد في قصة يوسف، ولقب الفرعون الوارد في قصة موسى[1] والقرآن فصل وميّز، ففي قصة يوسف سمى الحاكم الملك في كل الآيات التي ذكر فيها الملك... «وقال الملك إني أرى» «صواع الملك» «دين الملك..» الخ.

وفي قصة موسى لم يسمه إلا فرعون.

ولو تأملنا خصائص كل من الحاكمين في كلا الفترتين لوجدنا التمايز في السمات والمسميات الذي من أجله كان التمايز في الأسماء...

بالإضافة إلى أن حكام مصر في زمن يوسف لم يكونوا من الفراعنة، وإنما كانوا من الرعاة الهكسوس..

---

(١) أنظر على سبيل المثال كتاب الدكتور محمد البهي رحمه الله: تفسير سورة الأعراف ص١٧٤ فهو يقول: «ويوسف باعتبار ما وصل إليه من شغله منصب الوزير لفرعون مصر...» ط١: دار الفكر بيروت ١٣٩١ - ١٩٧١. والتوراة نفسها لا تعبر إلا بوصف فرعون.



شخصية الشّاهد

قال في المحاسن:

ومن اللطائف ما قيل: إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها. ثم ذكر القسم الآخر، وهو قده من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفها جميعاً، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده. ومن ثم قدم أمارة صدقها، على أمارة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها.

وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: «وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم» فقدم قسم الكذب على قسم الصدق، إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه، هو الواقع فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة.. ومن ثم قال: بعض الذي يعدكم، ولم يقل كل ما يعدكم، تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه»(1)

أقول: وقوله يصح لو كان الشاهد هواه مع يوسف. ولكن المتوقع والمتيقن أن قريبها قريبٌ هواه من نصرتها.. لكنه رجل عادل فغلب عدله وعقله على هواه. ولسنا نرى التشبيه قريباً بين مؤمن آل فرعون وشاهد القضية في قصتنا هنا إلا في الظاهر... أما في حقيقة الأمر وخفي ما في النفس فإن مؤمن آل فرعون كان مع موسى عليه السلام تماماً.. ولكنا لسنا نجزم بأن هذا كان في حقيقة الأمر مع يوسف عليه السلام... وإن كان حكمه جاء لصالح الحق ولصالح العدل وصالح يوسف. فهما في الظاهر متشابهان وفي دخيلة النفس يبدو الأمر مختلفاً. والله أعلم.

(1) المحاسن ج9 ص3532 - ص3533



الساقي :

ومن الشخصيات التي أسهمت في تطوير الأحداث شخصية الساقي ولقد لعب دوراً مهماً وإن يكن مركزه الاجتماعي ليس أكثر من ساقي شراب، المهم مساهمته التي أسهم بها في وصل أمر يوسف بالملك. . . ونقل الخبر من يوسف إلى الملك.

ولا يخلو من ذكاء وفطنة وحدة ذهن، إذ تفطن ليوسف في السجن إبان اشتراكهما فيه، فطن لإحسانه واستشفه من سيماه وسمته. . فعرض عليه قضيته.

ويبدو دقيقاً في نقله لرؤيا الملك ونفهم هذا من نقل القرآن لها بذات الحروف لتي نطق بها الملك.

كما يبدو لنا مخلصاً متلهفاً حريصاً على المصلحة العامة في قوله: لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون.

ويبدو سليم الاستنتاج من خلال توقعه أن الرؤيا لا تهم الملك فقط وإنما تتعدى دائرته إلى الشعب من بعده.

وممن أسهم بدور أقل أهمية نسوة الكبراء في المدينة، وقد كن صورة عن امرأة العزيز، نفس الموقف كأنهن نسخة مكررة. وتطورن إلى نفس النهاية الصالحة حين شهدن بالحق.

وتبدو شخصية الملأ من حول الملك عاجزة في الأزمات قاصرة في مواجهة المعضلات مشلولة في تجاوز المحن والتحديات. . فلم يذكر القرآن لهم إلا نفي المعرفة عن أنفسهم: وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. . وإن كانوا يقصدون إثبات العلم لأنفسهم في حيز ما ليس من الأحلام.

وباقي شخصيات القصة «كومبارس» يشغلون المسرح ويسهمون بأدوار ثانوية في القصة.



القسم الثاني
تفسير السورة

- العزيـز
- الملك
- الشاهـد
- النسوة
- الساقي
- الملأ

وقفات سريعة مع الآيات القرآنية

الر:

والحروف المقطعة في أوائل السور الكريمة لها وظائف وإن كنا لا نقف على حدود معناها لكن ندرك بعضاً من وظائفها.

فمن ذلك: أنها لإثارة الاهتمام وجلب الانتباه والتشويق، ومَثَلها في ذلك مثل أدوات الاستفتاح في العربية: ألا، هلاّ... إلخ، ولكنها جاءت على غير مألوف العرب، لأن المعاني وسمو البيان ليس ضمن النمط المألوف، فجدد له في أدوات الاستفتاح.

ثم هي مؤشرات ودلائل على الإعجاز، من وجوه ذلك: أن هذه الحروف إشارة إلى مادة القرآن الكريم، فهي نفس حروفكم أيُّها العرب فلماذا تعجزون عن أن تؤلفوا منها كلاماً مثل كلام القرآن[1].

---

(١) قال ابن كثير: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجز عن معارضته بمثله، مع أنه مركّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرّره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية، ثم قال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته.

انظر صفوة التفاسير جـ ١ ص ٣١ ـ ٣٢ ومختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧، والظلال جـ ١ ص ٣٨.

ولسنا مع الأستاذ عبد الكريم الخطيب الذي يرى هذه الأحرف «مجرد رموز، وإشارات، لا يعلم تأويلها إلاّ الله والراسخون في العلم.. وهذا يعني أن هذا مقام يستدعى له الراسخون في =

ووجه آخر معجز فيها أنها تصدر من نبي أميّ لم يعرف أسماء الحروف ولا مسمياتها فأنى له النطق بها أسماء ومسميات إلّا أن يكون من تعليم الله له.

ثم إن من لطائفها أن كل حرف أو أحرف جاءت في أول سورة، له أو لها علاقة وطيدة بموضوع السورة وبكلماتها وجرس حروفها.

تأمل سورة (ن) كيف جاءت فواصل آياتها غنية بالنون. (ن والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربّك بمجنون، وإن لك لأجراً غير ممنون)... إلخ.، وفي آخرها قصة الحوت الذي هو النون في اللغة العربية «وذا النون». وموضوع السورة بعد هذا: نبوة النبي ﷺ.

ثم تأمل ق هٰذا الحرف القوي الذي تكرّر بظهور جلي في السورة التي موضوعها القيامة. ثم السور المبدوءة بحرف ص كيف كانت فيها القصص والصَّبر والخصومة. ثم هذه السورة كيف بدئت بحروف (الر) وهي كما ترى تشكل نصف حروف كلمة الرؤيا التي هي قلب موضوعات هذه السورة.

وكل سور «الر» قضيتها الأساس الرسل والرسالات، ويكثر فيها ذكر اسم «الرب» تعالى.

ومن لطائف هذه الحروف أن السور التي بدئت بها بعدد حروف اللغة العربية، لكن الحروف المستعملة ـ مع إسقاط التكرار ـ هي نصف حروف المعجم فقط، وقد صاغ العلماء من هذه الحروف عبارة حتى يسهل حفظها وضبطها، فكانت هذه العبارة: «نص حكيم قاطع له سر».

ومن وظائفها كذلك: الإشارة إلى عظمة ما يأتي بعدها، وكأنها كما يقول الأستاذ المودودي في تفسيره، كأنها طلائع موكب وأعلام ورايات تسبق الفاتح

= العلم حيث يجدون لعلمهم هذا مجالاً للكشف عن أسرار ضمت عليها هذه القصة، وليس لغير الراسخين في العلم سبيل إلى الوصول إليها.. ففي القصة أحداث غامضة خفي على الناس أمرها، وأعياهم تأويلها كرؤيا السجينين ورؤيا الملك...

القصص القرآني ص ٤٠٠، وقصتا آدم ويوسف للخطيب ص ٥٠ ـ ٥١. فقصة يوسف وصف الكتاب في أولها بأنه المبين.. وليس ثمة أسرار كما عبّر الأستاذ..



العظيم القادم بعدها وتنبيء عن قدومه، فهي أيضاً تنبيء أن وراءها سورة عظيمة وكلاماً علوياً قادماً، ومن هنا لم تأتِ هذه الحروف - إلاّ مرة أو نحوها - إلاّ متبوعة بالإشارة إلى القرآن والإشادة بـه.

هذه بعض وظيفة الحروف، وإن كنّا كما قلت لم ندخل في شيء من معناها وما ترمي إليه وتفصيلات ما قيل فيها.

قال صاحب كتاب: يوسف عليه السلام. نظرات في التفسير:

«(الر). هذه كلمة مركبة من ثلاثة أحرف من أحرف الهجاء ينطق بكل حرف منها في حالة تركيبه مع غيره كما ينطق به في حالة سرد الحروف الهجائية أ، ل، ر وهي ومثيلاتها من الكلمات التي نزلت في أوائل كثير من سور القرآن أعلام للإعجاز تشبه أعلام الفاتح المنتصر التي يركزها في قلاع أماكن الفتح ترفرف فوق القوة الفاتحة رمزاً إلى العزّة والنصر المبين.

وقد أنزل الله تعالى هذه الكلمات المركبة من الحروف الهجائية التي في أوائل السور أعلاماً لهذا الإعجاز لأنها هي التي كانوا يؤلفون منها ومن أخواتها كلامهم الفصيح البليغ الذي افتتنوا به.

وما القرآن في سمو بلاغته، وجمال رونقه إلاّ مركب من هذه الحروف. أما وقد عجزوا عن تأليف مثله، فهذه الكلمات أعلام نصر وعزّة تدلّ على المعجزة الباقية إلى يوم الدين.

وهذه سورة يوسف التي فيها من دلائل النبوّة وبراهين الرسالة آيات للسائلين فلا غرو ان افتتحها الله تعالى بعلم من أعلام الإعجاز «الر» لينبّه الأذهان إلى ما تحويه من جمال يبهر النفوس ويشرح الصدور ومن جلال يفتح القلوب المغلقة، ولذا أردف الله هذه الكلمة بقوله: «تلك آيات الكتاب المبين».

أي هذه الآيات التي في هذه السورة، والتي لا يشار إليها إلاّ بما يشار به للبعيد، لبعد مكانتها في سمو بلاغتها وقوة إعجازها.. هي آيات الكتاب الذي أنزله الله على رسوله النبي الأميّ، المظهر بنفسه وبإعجازه انه كلام الله تعالى وأنه



المعجزة لهذا الرسول الأمين»[1].

﴿تلك آيات الكتاب المبين[1] إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2]

والحديث عن الكتاب وآياته بهذا التعظيم والإجلال والمديح ليعلم أن القصة التي هي جزء من هذا الكتاب لها نفس الأوصاف والأهمية وليست حكاية تتلى فحسب، وليست ـ لكونها متعلقة بحياة أشخاص ـ تقل أهمية عن آيات متحدثة مباشرة في صلب موضوع العقيدة، فإن القرآن قد عرض من خلال القصة كل ما يريد من عقيدة وتوجيهات أخلاقية، وحكمة علوية، وآداب إنسانية، وسنن اجتماعية. كل ذلك حشده في القصة القرآنية، التي هي آيات من آيات هذا الكتاب المبين.

والإشارة إلى عربية اللسان الذي به نزل القرآن من باب إقامة الحجّة على قوم النبي ﷺ وأن هذا الكتاب بلسانهم فلا عُذر لهم في عدم اتباعه، ثم هو من باب المديح لهذا الكتاب أن يكون بأكرم لسان وأجمل لغة اختارها الله لكلامه وكتابه ورسالته الأخيرة إلى الناس. وليس نزول الكتاب باللسان العربي بمقيد له، أو محدّد لأفقه، قاصر إياه على القوم الذين نزل بلغتهم. فهو إنساني الأفق وإن كان عربي اللسان.

وتأمل ما في النص من شموخ وكبرياء: انّا أنزلناه. . . نحن نقص. . . مما يوحي لك بل يقطع أن مثل هذه العزة لا تكون إلاّ من عزيز لا حدود لعزّته، ولتعلمك بالتالي أن هذا الكتاب أيضاً عزيز بعزّة من أنزله.

ثم الحظ الغاية من إنزال هذا الكتاب وأنها تسديد العقل بل وجوده. فمن لم يهتدِ عقله وقلبه بنور هذا الكتاب كيف يستطيع أن يدرك عالم الغيب، أو قيم الأشياء والمعنويات، اللّهمَّ إلا أن يخبط خبط عشواء فيأتي بالغث الهزيل من التصورات الباطلة المناقضة للحق.

---

(١) عبد الحميد كحيل داود: يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير ص ٥ ـ ص ٨، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٩.



واسم الإشارة تلك للبعيد إشارة إلى بعد القرآن في المنزلة وعلوّه فيها.

آيات جمع آية والآية العلامة، وسميت جمل القرآن آيات للإشارة إلى أنها في عظمتها وإعجازها ودلالتها القاطعة على الحق كأنها الآيات المعجزات التي كانت يزوّد بها الأنبياء.

ومن معاني الآيات: العلامات التي أقامها الله في الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وتنزيهه. والآيات التي في الكتاب العزيز تشهد لها الآيات التي في كتاب الكون الكبير وتؤديان معاً وظيفة واحدة هي الدلالة على وحدانية الله وعلمه وعظمته. ومنها المعجزات الخارقة للعادة التي أجراها الله على أيدي رسله، وآيات القرآن المعجزة تدل على نبوّة محمد ﷺ وتأتي بمعنى العبر والحكم والذكر والعظات، ﴿**لقد كان في يوسف وأخوته آيات**﴾ ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة**﴾.

وتأتي بمعنى العجائب، لأنها عجب من العجائب، هذه الآيات المنزلة في هذا الكتاب.

والكتاب هو الاسم الثاني للقرآن، ويطلق كالقرآن على الكل أو على البعض.

قال في المنار: «أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين الظاهر بنفسه في حقّيته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدينَ ومصالح الدنيا. وقال مجاهد: بيّن الله حلاله وحرامه، وقال الزجاج: مبيّن الحق من الباطل والحلال من الحرام.

تقول العرب: أبان الشيءُ فعلاً لازماً بمعنى ظهر واتضح. وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره، وفصله عن غيره مما شأنه أن يشتبه به، ويجوز الجمع بينهما»[1].

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٥١ وتفسير سورة يوسف في الطبعة المستقلة للمنار ص ٣. وانظر تفسير مجاهد ص ٣١١.



الكتاب المبين: «وصف الكتاب هنا بالمبين، ووصف به في طالعة سورة يونس بالحكيم لأن ذكر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصة التي تضمنتها هذه السورة مفصلة مبينة لأهم ما جرى في مدة يوسف عليه السلام بمصر.

ثم علّل الشيخ عاشور بيان قصة يوسف بأن قصته لم تكن معلومة للعرب بخلاف قصص الأنبياء هود وصالح.. ولذلك كان القرآن مبيناً لها (لقصة يوسف) ومفصّلاً.

ونزول هذه القصة قبل اختلاط النبي ﷺ باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إيّاه بعلوم الأولين.

والمراد بالمبين الإبانة التامة باللفظ والمعنى»[1].

قال أبو السعود رحمه الله في معنى المبين:

«المبين: من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى، وفي إعجازه، أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم، أو بمعنى بيّن أي المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغير ذلك من الحكَم والمعارف والقصص. وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصة يوسف عليه السلام»[2].

وقال الجمل في معنى المبين إنه «إمّا من أبان المتعدي بمعنى أظهر، فهو يظهر الحلال من الحرام والحق من الباطل، وإما من بان اللازم أي الكتاب البيّن في حدوده وأحكامه...»[3].

(المبين): «يمتاز القرآن على سائر الكتب السماوية بالبيان والظهور وسهولة الفهم، وشدة إبانته لمعانيه ومراميه، فكانت العرب لا تتوقف في فهم مفرداته

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٥٠ ط. دار المصحف القاهرة.

(٣) الفتوحات الإلهية جـ٢ ص ٤٣٢.



وجمله، أما أهل اليوم فإنهم لبعدهم عن العربية وإهمالهم لها تراهم يعسر عليهم فهم بعض مفردات تعد على الأصابع.

ولم ينقل إلينا أن صحابة رسول الله ﷺ عمي عليهم شيء من آيات القرآن فلم يفهموها، وحتى أعداء هذا الدين من المشركين لم تكن تغمض عليهم دعوته وقضاياه.

وبطبيعة الحال فإن المقصود هنا بأنه واضح بيّن إنما هو المعاني العامة والمقاصد الكلية ويتجلّى فضل العلماء والتعلم في استنباط الدقائق واللطائف واستخراج السنن والقوانين، فهذا مما يحتاج إلى نظر وتدبر.. وعلى كل حال فإن من الواجبات المهمّة والأساسات أن نتعلم اللغة العربية.

وهذا يقودنا إلى المتشابهات، فكيف يكون الكتاب مبيناً مع أنّ فيه متشابهات بنص الكتاب نفسه: «منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربّنا وما يذكر إلّا أولو الألباب».

وإن وجود بعض الآيات المتشابهات لا ينقض أنه بيّن مبين. فهذه المتشابهات تفسّرها الآيات المحكمات، وحتى هذه المتشابهات فإنها في معناها المجمل واضحة بيِّنة، مثل آيات الاعتقاد والصفات، هي في معناها بيِّنة، لكن الجدل حولها والمذاهب هي التي جعلت منها شيئاً صعباً، وليست كذلك.

وأما عن قراءة الآية السابقة التي من سورة آل عمران فالذي نميل إليه في قراءتها ونرجحه بالدليل هو: وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم. وإليك الدليل: كان ابن عباس يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله. وكان كثير من السلف يقولون انه ما من آية إلّا وهم يعلمون فيمن نزلت ومرماها ومرادها. وأيضاً فلو كان الراسخون لا يعلمون مثل غيرهم فما وجه الثناء عليهم ووصفهم بالرسوخ.

المتشابه:

ومن فضل الله علينا أن جعل لنا في الكتاب قواعد محكمة هي غالب الكتاب، إليها نَرد ما تشابه من الكتاب فتستبين الأمور. وتتضح المقاصد.

فمثلاً ما ورد في الصفات نرده إلى القاعدة الكلية المحكمة: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير). فينتفي بهذا كل ما أوهم التأويل الباطل أو التمثيل أو التعطيل. والحمد لله الذي هدانا لهذا.

وهذا من مهمات قواعد فهم القرآن، فانتبه له وعضّ عليه بالنواجذ.

يقول الشيخ العلمي رحمه الله في بيان كيف ينشأ المتشابه:

من المعلوم أن الناس وضعوا ألفاظ اللغات، لما يعرفون من المعاني في هذا العالم فيتعينّ على من يريد إخبارهم بشيء، مما لا يعرفون، أن يستعير بعض ألفاظهم الموضوعة لما يعرفون، ويَنْصِبُ القرائن لمنع الاشتباه، ولا شك أن أفهام الناس تختلف في فهم القرائن، وأن الذي يريد الفتنة، يسهل عليه أن يتبع ما تشابه من القول، لأن له معنى يدلّ على ما وضع له في الأصل ومعنى آخر تناول بالكناية أو بالاستعارة وغيرها من ضروب التجوز، وهو المراد، فيحمله على غير المراد، ويُضل به الناس.

والخلاصة أنه لعدم اقتدار اللغة على تعيين المراد من نحو صفات الله وعلم الغيب فلا مندوحة عن أن تستعمل فيها الألفاظ التي لها معنى مراد، ومعنى غير مراد، ومن هنا كانت تلك الألفاظ متشابهة غامضة، ولكنها لما كانت محفوفة بالقرينة التي تبينّ المعنى المراد كانت مبينة لذلك المعنى، موضحة له، وبذلك خرجت عن كونها غامضة، وان كل كتاب سماوي لا يخلو من أمثال ذلك.

فمن نظر في متشابه القرآن، وعرف القرينة الصارفة عن الباطل، المعيّنة للمعنى الصحيح كان على نهج أهل السنّة والجماعة والسلف الصالح، ومن أمثلة الذين نظروا في متشابهه، وغفلوا عن القرينة الهادية للمعنى الصواب: الباطنية،



والمجسمة، والحلولية، وما إلى ذلك»[1]. أ. هـ. كلام الشيخ وهو نفيس كما ترى.

(إنَّا أَنْزَلنَاه قرآناً عَرَبيًا لَعَلَّكم تَعْقلون)

الخطاب في الآية الكريمة لنواة الأمة ولخميرة الخير التي ستحمل الخير والنور للبشرية، تقول لهم الآية: إن الله جعل القرآن عربياً بلسانكم وأنتم الطليعة والرواد وحملة النور من أجل أن تفهموا معاني ومرامي وغايات هذا القرآن العظيم وتفهموه فهماً عميقاً راسخاً إلى حد الامتلاء والتشبع حتى يفيض الخير من الينبوع.. منكم ويجري في تياره ويتدفق في نهره إلى أن يصل العالم كله. ولا يفيض الا الممتلىء بالشيء، وأساس الامتلاء الانصباغ والتشرب للمبدأ، وأساس ذلك لا ريب الفهم وأساس الفهم إعمال العقل ورويته وتدبره في الحق العظيم النازل عليه، والحكمة البالغة التي أكرم بها.

ولئن كان العالم لا يستغرب أن يكون أدب شكسبير الانجليزي اللسان والبيان عالمي الآفاق والانتشار، فكيف يستغرب من القرآن المنزل من الحكيم العليم رب العالمين باللسان العربي المبين أن يكون موجهاً إلى العالمين أجمعين؟!

أفانتاج عبد حري بوصف العالمية، والكلام المنزل من خالق العالم لا يكون عالمياً؟ العجب كل العجب.. والدهشة التي لا تنقضي من قوم يتعجبون من عالمية رسالة الإسلام! وكل كلمة فيه عالمية الآفاق.. إنسانية المضمون.

(إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون).

هذا نظير قوله تعالى: **﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾**. فصلت ٤٤

معنى أنـزلناه أوحينـا إليك بـه؛ وإنما عـبر عن الوحي بـذلك لـلاشعار بعلو

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف ج١ تفسير الآية الاولى ص ٨٧، ٨٨.



مرتبة الموحي على الموحى إليه، أو للاشعار بعلو مرتبة ذلك الشيء الموحى. .

ويصح التعبير بالانزال عن كل عطاء منه تعالى، كما قال: **﴿وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج﴾، ﴿وأنزلنا الحديد﴾ ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً﴾. ﴿رب اني لما أنزلت الي من خير فقير﴾ ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾.**

والأصل في اللغة أن كلمة نزل وما اشتق منها لم تستعمل في كلام العرب الا فيما يأتي من الفوق إلى التحت «وما ينزل من السماء»، وسميت البيوت منازل لأنه يأوي إليها الإنسان حين ينزل عن دابته أو سيارته. . .

وقد ابتدأ نزول القرآن في رمضان، واستمر ربع قرن إلاّ عامين.

قال العلامة العلمي: «أنزل القرآن بأشرف اللغات، وعلى أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، في أشرف بقاع الأرض، مكة والمدينة، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه». ا. هـ. [١]

وقال أبو السعود: «أنا أنزلناه أي الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فإن كان عبارة عن الكل وهو الأظهر الأنسب بقوله تعالى: **﴿قرآناً عربياً﴾**، اذ هو المشهور بهذا الاسم، المعروف بهذا النعت، المتسارع إلى الفهم عند اطلاقهما، فالأمر ظاهر. وإن جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآناً لكون اسم الجنس «قرآناً» يقع على الكل والبعض كالكتاب. (لعلكم تعقلون): لكي تفهموا معانيه طراً، وتحيطوا بما فيه من البدائع خبراً، وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل من عند خلاق القوى والقدر». [٢]

قال البيضاوي في معنى لعلكم تعقلون: **«علة لانزاله بهذه الصفة كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه وتستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن قصه كذلك ممن لم**

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف جـ١ ص ٩٧ وقد ذكره كثير من المفسرين كالقمي النيسابوري ومحاسن التأويل والرازي.

(٢) تفسير أبي السعود: ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم جـ ٤ ص ٢٥.



يتعلم القصص معجز لا يتصور الا بالايحاء» .[1]

(إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون):

يستوقفنا في هذه الآية الإشارة إلى عظمة منزل الكتاب من خلال نون العظمة (إنا أنزلناه). . وكيف لا، وهو قيوم السموات والأرض وملك الملوك والآخذ بناصية كل شيء. . وإن هذه العظمة التي في القرآن لتقطع لك بأنه كلام الله، فإنه لا يستطيع بشر أن ينتحل هذه العظمة. . وإن فعل فإنه سيكون هزء الدنيا وسخرية العالم. .

وإن عظمة المنزِل يرتبط بها عظمة الكتاب المنزَل، وعظمة الأمة المنزَّل فيها الكتاب. والحمدلله الذي جعل كتابه الخاتَم فينا، وبعث فينا رسولاً من أنفسنا يتلو علينا آيات ربنا ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة.

ويستوقفنا ثانياً عربية هذا القرآن: **﴿قرآناً عربياً﴾ وقد أكدت آيات عديدة في القرآن الكريم على هذه القضية. وإن عروبة لسان القرآن لا تعني عروبة القيم والمباديء والعقائد التي فيه والنظم، فتلك إنسانية عامة تنتظم البشرية كلها، وإنما العربية وصف للسان الذي نزلت به تلك التعاليم لا لذات التعاليم، فلنتنبه أخي، حتى لا نخدع بدعاوى المزيفين الذين يزعمون أن الإسلام رسالة قومية عربية.**

ثم وقفة ثالثة مع قوله تعالى: ﴿لعلكم تعقلون﴾.

ولعلكم في جنب البشر للتوقع وفي جنب الله عز وجل للقطع ـ فهذا الكتاب من شأنه أن ينبه عقل من قرأه، ولكن فريقاً من الناس لا ينتبهون ولا يعقلون لا لأن القرآن لا يستطيع أن يوقظ العقل ويهديه، لا، ولكن لأنهم هم عطلوا عقولهم وملكاتهم ومواهبهم. وإن من مهام هذا القرآن أن يهدي العقل إلى الطريق السليم للتفكير، وأن يزوده بالمعلومات السليمة التي تمكنه من التفكير

---

(١) تفسير البيضاوي ص ٣٠٩ سنة ١٣٥٨هـ. مصر مصورة عن ط تركيا سنة ١٣٠٥هـ. وانظر الجمل جـ ٢ ص ٤٣٢.



السليم، فإن العقل يحتاج إلى منهج كالطريق يسير عليه، ويحتاج إلى معلومات تشغّله. والقرآن زودنا بكل ذلك: بالمعلومات اللازمة عن الغيبيات وعن الكون، وزودنا بالمنهج الذي به نفكر ووفقه ننظم طاقتنا الفكرية، ونحفظ عقولنا من أن تتبدد في الضلال وتأسرها الأهواء والأحكام الخاطئة والمناهج الفاسدة، من فلسفة ضالة أو منطق مزيف. وكم اخترع الإنسان من مناهج ضلل بها نفسه، والحمدلله على منة حفظ عقولنا مع منة هداية قلوبنا.

والذين يعطلون عقولهم عن التفكير الصحيح وصفهم القرآن بأنهم لا يعقلون، وذلك الحق، فإن العقل الذي من شأنه أن يهدي، إن اسيء استخدامه فقد يعمق الضلال، والا فمن أين نشأت الأفكار الضالة؟

«أنزلناه» أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونـه قرآناً عربياً، بين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والأدب والسياسة، لعلكم تعقلون معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من مطالب الروح ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الـوجدان والحس، واصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل.

والقرآن اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة، وقيل انـه المراد هنا، وعلى جملته كلها». (١)

وقال صاحب الظلال في معنى قوله تعالى:

﴿**لعلكم تعقلون**﴾: لعلكم تدركون أن الذي أنزل من هذه الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً، فلا بد عقلاً أن يكون وحياً، والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة.»(٢)

قال في محاسن التأويل:

«**لعلكم تعقلون بانزاله عربياً ما تضمن من المعاني والأسرار، التي لا يتضمنها**

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٥١-٢٥٢ ط بيروت مصورة عن ط المنار الأولى.

(٢) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٤. طبعة الشروق المجلد الرابع ص ١٩٧٠.



ولا يحتملها غيرها من اللغات. وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس.»[1].

(إنا أنزلناه) «أكد تعالى أنه هو الذي أنزله على رسوله ﷺ، وقد أنزله قرآناً عربياً يقرأ بلغتهم وبلسانهم لكي يعقلوا ما فيه من حق وهدى ونور وخير وسعادة، ويعقلوا سموه بما اشتمل عليه من أنواع الإعجاز التي لا تسامى ولا تدانى من جمال اللفظ وجلال المعنى، وقوة الأسلوب وحسن التنظيم، وتلازم الكلمات، وأخذ كل كلمة بحجز الأخرى مما يأخذ بمجامع القلوب والالباب، وما إلى ذلك مما احتواه من السياسات الحكيمة والتشريعات الرشيدة، والمعاملات العادلة، وما أخبر به من أحوال الماضين، وما تنبأ به من أحداث المستقبل، كل ذلك من نبي أمي لم يمسك قلماً، ولم يقرأ في كتاب، ولم يدرس على معلم، ولم يخالط العلماء، ولم يعاشر أحداً من القسيسين والرهبان.

فإذا عقلوا القرآن الذي نزل بلغتهم علموا أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد».[2]

من وجوه البَلاغة في الآية:

قال في التحرير والتنوير:

«أنا أنزلناه: استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه، فإن كونه قرآناً يدل على ابانة المعاني، لأنه ما جعل مقروءاً إلا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارىء.

وكونه عربياً يفيد إبانة الفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء وهم العرب إذ لم يكونوا يتبينون شيئاً من الأمم التي حولهم لأن كتبهم كانت باللغات غير العربية.

---

(١) المحاسن جـ ٩ ص ٣٥٠٢-٣٥٠٣.

(٢) يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير ص ٨-ص ٩.



والتأكيد بإن متوجِّهٌ إلى خبرها وهو فعل أنزلناه رداً على الذين أنكروا أن يكون منزلاً من عند الله.

(قرآناً)، حال من الهاء في أنزلناه، أي كتاباً يقرأ، أي منظماً على أسلوب معد لأن يقرأ.. إذ هو أسلوب كتاب نافع نفعاً مستمراً يقرأه الناس، و(عربياً) صفة لقرآناً..

وقد أفصح عن التعليل المقصود جملة (لعلكم تعقلون) أي رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه، لأنكم عرب فنزوله بلغتكم مشتملاً على ما فيه نفعكم هو سبب لعقلكم ما يحتوي عليه، وعبّر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حد أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء.

وحذف مفعول تعقلون للاشارة إلى أن انزاله كذلك هو سبب لحصول تعقل لأشياء كثيرة من العلوم من إعجاز وغيره».[1]

(نحن نقص عليك) . . .

إن الذي في القرآن الكريم من قصص الأولين ليس تاريخاً سردياً تفصيلياً، كما هو صنيع التاريخ أو التوراة مثلاً، ولكن ما فيه إنما هو آيات وعبر تجلت في سياق الوقائع، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها في القرآن سوى قصة يوسف، وحتى هذه القصة فلم يغلب عليها الطابع التاريخي وإنما العبرة مصبوبة في وقائع.

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٢ ص ٢٠١-ص ٢٠٢.



قال في الظلال: «**لما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب على وجه التخصيص**»[1]

ولاحظ كيف يتدرج بك النص الكريم من العموم إلى الخصوص فالأخص، من الحديث عن القرآن ثم الحديث عن قصص القرآن على وجه الخصوص، ثم الحديث عن قصة يوسف، بل عن مشهد معين منها: (**إذ قال** يوسف لأبيه يا أبت). .

ونعود في هذا المشهد إلى قضية ربانية القرآن وكونه من كلام رب العزة وموحيات هذه الحقيقة من داخل النص وروحه، ومن تقريره، وبرهانه بالتالي، وتأمل أن الحديث موجه إلى النبي الكريم ﷺ لأجل هذا المعنى وهذه القضية، انه رسول الله، وأن القرآن كلام الله.

ثم لاحظ وصف أحسن القصص وأنه منصرف إلى كل قصص القرآن وليس إلى قصة يوسف بالذات، فالله تعالى يقول: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ وهذا أولى من أن نجعل لفظة القرآن هنا عائدة إلى سورة يوسف، أي أن نحمل العموم على الخصوص فيكون المقصود: بما أوحينا إليك هذه السورة من القرآن، ويكون وصف الأحسنية ساعتئذ منصرفاً إلى قصة يوسف، أما وصف الغفلة الذي وصف به النبي ﷺ في هذه السورة ووصف «ضالاً» في سورة الضحى، فيعنيان عدم تحصيل العلم أي الأمية، وهذا من باب تقرير الواقع لا من باب الذم ـ معاذ الله ـ، أما الغفلة المذمومة فهي ما كانت عن تشاغل ولهو وإعراض، بعد معرفة.

وفي هذا يظهر فضل الله على هذه الأمة الأمية وعلى نبيها، ويظهر لنا أيضاً أن العقل يكون في غفلة وإن كان ذكياً المعيّاً حتى يتلقى علماً منهجياً ينقله إلى دائرة الحضور والوعي على الكون المحيط وحقائقه الثابتة الصحيحة.

(نحن نقص): «إن من المؤثرات التي تثير أعظم الأحاسيس الدينية في

---

(١) الظلال جـ ٤/ص ٦٩٤، وطبعة الشروق جـ ٤ ص ١٩٧٠.



قلب المؤمن شعوره بأن الله ذا السلطان الأعلى هو الذي يقص هذه الأنباء، ويكشف عما خفي من أسرارها.

ثم إن شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث نحو وجهة معينة، وتؤثر على نتائجها التي كثيراً ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدروا، أو على غير ما عرفوا، هو عنصر هام من عناصر التأثير في هذا القصص الذي يملأ الإحساس رهبة ورغبة، باعتبار أن مصدره هو مصدر القوة المطلقة، والإرادة النافذة في مجرى تلك الأحداث.

ولهذا الإحساس صداه البعيد في النفس. ذلك أن القدر الخفي الذي يسيّر الأحداث الواردة فيه هو قوة عظيمة كامنة في أسرار الغيب، ولكنها عادلة لما تنجلي عنه في عالم الشهادة من عناية الله بالمخلصين الأخيار وإن كانوا ضعفاء، ونقمته ومكره بالمبطلين الأشرار وإن كانوا أشداء أقوياء».[1]

(١) سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٣٨ ـ ص ٤٣٩.

أحسن القصص:

قال القشيري:

«أحسن القصص: لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب اشتغال القلب بما يعرض لوقوع التقصير.

أحسن القصص: لأن فيه عفو يوسف عن جنايات أخوته.

أحسن القصص: لما فيه من ذكر ترك يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه.

أجسن القصص: بالإضافة إلى ما سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس.

أحسن القصص: لأنه غير مخلوق.

وأحسن القصص: لأن فيه ذكر الأحباب.»[1]

وقال أبو السعود: «أحسن القصص أي أحسن الاقتصاص، فنصبه على المصدرية. وفيه مع بيان الواقع إشارة لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل.

وأحسنيته لأنه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة، كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الأولين والآخرين وإن كان لا يميز الغث من السمين، ولا يفرق بين الشمال واليمين.

وأحسنيتها ـ أي القصة أو قصص القرآن ـ لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه. (وإن كنت من قبله): من قبل ايحائنا اليك هذه السورة لمن

(١) عبد الكريم القشيري: لطائف الإشارات جـ٣ ص ١٦٦-ص ١٦٧

الغافلين عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط، وهو تعليل لكونه موحى.

والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لإجلال شأن النبي ﷺ، وإن غفل عنه بعض الغافلين[1] - أي غفل عن هذا المعنى -.

قال الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان في بيان معنى (نقص عليك أحسن القصص):

«نبين لك قصة يوسف أحسن البيان، يقال قص عليه الخبر أعلمه إياه. واقتص الحديث: رواه على وجهه من قص الأثر قصاً وقصصاً تتبعه».[2]

وقال البيضاوي: «أحسن القصص: أحسن المقصوص، وأحسن الاقتصاص[3]

«جمع هذا القصص إلى كمال البيان وتمام التفصيل، وجـزالة اللفظ، ووضوح المعنى، الأخلاق والآداب والفضائل والحكم، مما يستحيل أن يوجد في غير قصص القرآن.. ناهيك بقصة يوسف وإخوته وقد قدمها الله تعالى بقوله: «نحن نقص عليك أحسن القصص» يشير إلى جميع قصص القرآن، وفي طليعته هذه القصة لما فيها من الفوائد والحكم، ولما اشتملت عليه من المثل العليا في الصبر على المكاره والمحن وبيان عاقبة الصابرين.

كل ذلك مع ما تبتهج به الروح، وتتغذى به النفس، ويتذوقه القارىء والسامع من لذة وحلاوة، وما تثيره هذه القصة في الإنسان من مشاعر جمة وعواطف متباينة، فهي كثيرة الاستبشار والأمل، والدهشة والحيرة، والتعجب والتلهف، والعطف، والرقة، والحزن والأسى، والإعجاب بالرجولة، والذهول، والخجل، والتألم للظلم والاطمئنان إلى نصرة الحق والفرح والسرور لعـاقبة المخلصين.

---

(١) تفسير أبي السعود جـ ٤ ص ٢٥١

(٢) ص ٣٠٢ صفوة البيان

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ص ٣٠٩.



كل ذلك في تصوير أدبي رائع يملك على الإنسان مشاعره، ويأخذ عليه سمعه وبصره، وكأن الإنسان يتقلب في روضات نضرات لا يمل ولا يسأم، وما تكاد القصة تنتهي حتى تكون النفس في أشد شوق إلى إعادتها وتكريرها. . فلا غرو أن كانت هذه القصة طليعة أحسن القصص». (١)

«إنه أحسن القصص انتقاء واختياراً، وإنه أحسن القصص نظماً وترتيباً وتفصيلاً وتبويباً، وإنه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنه أحسن القصص حكماً وأحكاماً». (٢)

«وأحسن القصص: أصدقه حديثاً، وأشرفه غاية، وأكرمه مقصداً، وأقومه طريقاً» (٣)

وقال في المنار: «نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بياناً وأسلوباً وإحاطة، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعاً وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين، فالقصص مصدر أو إسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها، لأنه من قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً، كانه قال: نقصّه عن اقتصاص وإحاطة، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الأخبار والأحاديث». (٤)

ويسأل محمود شلبي في كتابه حياة يوسف:

«لماذا كانت قصة يوسف أحسن القصص؟

ثم يجيب: «لأنها قصة أخطر عاطفة بشرية. . العاطفة الخالدة. . التي نسميها: الحب. الحب. . تلك العاطفة الكبرى من عواطف البشر.

تلك العاطفة التي أخذت على الإنسان عقله وتفكيره وأحلامه وحياته. . ما

---

(١) نظرات في التفسير ص ١٠ ص ١٢

(٢) الدكتور فضل عباس: القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته ص٣٩٧، ط ١: عمان: دار الفرقان ١٩٨٦.

(٣) قصتا آدم ويوسف ص ٥٥ والقصص القرآني في منطوقه ومفهومه للخطيب ص ٤٠٥.

(٤) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٥٢.



هو الحب؟ الجواب في قصة يوسف ـ لقد كانت قصة يوسف أحسن القصص بما فيها من تلاطم عواطف الحب والجمال والكر والفرحول تلك العاطفة الخالدة. وجماهير الناس يهمها الحب وما يتعلق به.. أكثر من أي شيء آخر.

وقد تكون أقاصيص الجهاد في سبيل الحق.. أعلى مقاماً عند الله.. إلا أنها لا تستهوي الجماهير.. بمثل ما تستهويهم أقاصيص الحب والغرام.. لأن عاطفة الحب عاطفة جنس.. والجنس هو الغريزة الأولى في أحاسيس البشر».[1]

وكلام الأستاذ محمود.. شلبي.. ليس.. يحتاج إلى تعليق ولا نقد.. فقصة يوسف أحسن القصص بما سلف بيانه وبغيره من القيم الإيمانية والاخلاقية والاجتماعية والتربوية الرفيعة.. لا للاعتبار الذي اعتبره الاستاذ.. بل ان اعتباره ليس من بين ما يعتبر.. أصلاً.

ثم لاحظ قوله: وقد تكون.. فكأن المسألة تحتاج إلى مثل هذه الصياغة من الاحتمالية والتردد.. قد تكون قصص الجهاد في سبيل الحق أعلى مقاماً عند الله.. وقد لا تكون هذا مقتضى كلام الاستاذ. والحق أن قصص الدعوة هو غالب قصص القرآن.. ولذلك يسمى قصص القرآن قصص الأنبياء.. والأنبياء إنما تجربتهم تتركز وتتلخص في كلمة واحدة.. الدعوة والجهاد في سبيل الحق.

ثم ان وصف أحسن القصص يشمل قصة يوسف وسائر قصص القرآن

(١) محمود شلبي: حياة يوسف ص ٥-ص ٧ مكتبة القاهرة.
يقول الكاتب عن أسلوبه في عرض قصة يوسف: من أجل الحفاظ على اشعاعات أنوار القصة كما رتبها تبارك وتعالى في كتابه المكنون، سلكنا في حياة يوسف مسلكاً جديداً... أن نقدم حياة يوسف كما قدمها كتاب الله.. فنمضي مع الآيات تبييناً وتفسيراً.. ثم نتبع الآية بما فيها من اشعاعات.. فلا نحجب قلب القارىء بظلمات التأليف... ولعل هذا المنهج يكون أجمل أسلوب لأجمل قصة». ص ١٠
هذا علماً بأن الكاتب التزم الاسرائيليات في كثير من المواطن كأن يقول ولد يوسف من راحيل بعد عقم أكثر من أربعين عاماً ص ٢١ والثابت تاريخياً أن يوسف مات عن مائة وعشر سنين ثم ينقل ذلك عن التوراة ص ٢٢٨.





بينما اعتبر الكاتب أن وصف الأحسنية مقتصر على قصة يوسف ثم قصَّر بعد تقصيره الأول في تصور وجه الأحسنية . .

وإن كنت من قبله لمن الغافلين:

«أي الذاهبين (هكذا ولعلها الذاهلين) عن فهم هذه القصة. أي ما كنت إلا من جملة الغافلين عنها قبل أن أوحينا إليك بها، أي انك لم تصل إلى معرفتها بكدّك وجهدك، ولا بطلبك وجدك، بل هذه مواهب لا مكاسب. . فبعطائنا وجدتَها لا بعنائك، وبتفضلنا لا بتعلمك، وبتلطفنا لا بتكلفك، وبنا لا بك»،[1]

قال في الظلال: «كنتَ أحد الأميين في قومك الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التي جاء بها القرآن، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق». [2]

البلاغة في الآية:

«هذه الجملة تتنزل من جملة إنا أنزلناه قرآناً عربياً منزلة بدل الاشتمال، لأن أحسن القصص مما يشتمل عليه انزال القرآن.

وكون القصص من عند الله يتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة تأكيده انزاله من عند الله.

وقوله بما أوحينا إليك هذا القرآن يتضمن رابطاً بين جملة البدل والجملة المبدل منها. وافتتاح الجملة بضمير العظمة للتنويه بالخبر.

وتقديم الضمير (نحن) على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص، أي نحن نقص لا غيرنا، رداً على من يطعن من المشركين في القرآن بقولهم: إنما يعلمه بشر، وقولهم أساطير الاولين.

(١) لطائف الاشارات حـ٣ ص ١٦٧.

(٢) الظلال حـ ٤ ص ٦٩٤.



وفي هذا الاختصاص توافق بين جملة البدل والجملة المبدل منها في تأكيد كون القرآن من عندالله.

ومعنى نقص نخبر الأخبار السالفة. وهو منقول من قص الأثر إذا تتبع مواقع الأقدام ليتعرف منتهى سير صاحبها. وذلك أن حكاية أخبار الماضين تشبه اتباع خطاهم.

واحسن القصص هنا اما مفعول مطلق مبين لنوع فعله، وإما أن يكون القصص بمعنى المفعول من إطلاق المصدر وارادة المفعول، كالخلق بمعنى المخلوق.

والباء في بما أوحينا إليك للسببية متعلقة بنقصّ، فإن القصص الوارد في القرآن كان أحسن لأنه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنه أحسن نفعاً للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح وابتهاج النفس والذوق مما لا تأتي بمثله عقول البشر.

واسم الإشارة لزيادة التمييز، فقد تكرر ذكر القرآن بالتصريح والإضمار واسم الإشارة ست مرات، وجمع له طرق التعريف كلها وهي اللام والاضمار والعلمية والإشارة والإضافة.

والغفلة انتفاء العلم لعدم توجه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كل من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم». [1]

***

«إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» آية ٤

من هذه الآية تبدأ قصة يوسف وحتى الآية رقم ١٠١، تبدأ بالظرف الزماني «إذ» الذي وظيفته اقتطاع جزء من الزمن الممتد والتركيز عليه ووضعه تحت الأضواء لأخذ العبرة منه والفائدة. ولذلك كثر هذا الظرف في القصص القرآني،

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٠٢-ص ٢٠٤.

وكثر أيضاً في المواطن التي يراد لفت نظر العباد إلى ما فيها من آيات الله وأفضاله، وتأمل إن شئت آيات الانفال التي وصفت لنا غزوة بدر: إذ تستغيثون ربكم، إذ يغشيكم النعاس، إذ يوحي ربك إلى الملائكة، وإذ يريكهم الله، وإذ يريكموهم.. الخ.

وفي اللغة يقدر لهذا الظرف فعل محذوف يتعلق به، كقولنا: واذكر إذ، وهذا المشهد وما بعده إلى نهاية الآية رقم ٦، يمكن أن نعتبره موجزاً للقصة يلخصها من بدئها إلى منتهاها ثم يبدأ السرد التفصيلي من غير انقطاع إلى نهاية القصة، وبين الموجز وبدء التفصيل فُصل السياق بقوله تعالى: ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾.

ثم بدأ السرد بالظرف مرة ثانية «إذ قالوا ليوسف..»

وتأمل كيف أن الآية الأولى من القصة ذكرت لنا اسم الشخصية الأساسية وذكرت لنا أهم الشخصيات الأخرى في القصة وذكرت عاقبة القصة.

ويستوقفنا من الآية رأيتُ بصيغة الماضي، بينما السجينان يقول كل منهما إني أراني والملك يقول: إني أرى، ولعله والله أعلم عبر هنا بالماضي إما لأن الغلام سكت عن الرؤيا حتى ما عاد يصطبر فقال الذي قال، وإما أنه لم يعرها من الاهتمام ما أعار رؤياه الملكُ أو كلٌ من السجينين.

أما الأحد عشر كوكباً فهم الأخوة، ووصفهم بهذا الوصف يدل من أول القصة أن نهايتهم خيرة وأنهم طيبون وأن الغلبة في نفوسهم لنزعة الخير لا لنزغات الشياطين ونزعات الشر. ومعلوم أن الرؤى رموز في الغالب ولا تكون مباشرة..

ولا يفيد هذا الوصف كونهم أنبياء كما لا يفيد وصف الأم بالقمر كونها نبية، وأما قوله تعالى في سورة البقرة: آية ١٣٦: ﴿**قولوا آمناً بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم..**﴾ فلا يدل على أنهم أنبياء وإن كانوا في سياق من الأنبياء، لاحتمال أن يكون المقصود أن إنزال الكتاب على الاسباط إنما هو



انزاله على ذراريهم وقد كان من أحفادهم كثير من الأنبياء فاعتبر المنة على الابناء منة على الآباء، أو قد يكون الانزال إليهم بمعنى أنهم المعنيون من انزال الرسالة لا أنهم المرسل إليهم، كما قيل في القرآن: سورة الانعام آية ١١٤: «وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً»(١).

والشمس والقمر ظاهر أن معناها إنما هو الأب والأم، والإشكال هنا كيف يسجد الوالدان لابنهما؟ ونقول ان الواو هنا في قوله «والشمس والقمر» يحتمل أن تكون واو العطف أو واو المعية.

فإن كانت للعطف فالأب والأم مشتركان مع الأبناء في السجود ليوسف، وان كان الوضع والدافع مختلفاً لكل من الفريقين، فسجود الوالدين رحمة ومحبة وشكر لله على ما أنعم على ابنهما، وأما سجود الأخوة فتكريم واحترام وتقدير ليوسف وعرفان بالفضل.

وإن كانت للمعية وهذا الظاهر فيكون المعنى أنه رأى أحد عشر كوكباً مصحوبين بالشّمس والقمر رآهم له ساجدين، ولا يلزم من كونهم معاً اشتراكهم في نفس العمل. أو قد يكون المعنى: إني رأيت حالة كوني مصحوباً بالشمس والقمر اخوتي الأحد عشر رأيتهم لي ساجدين.

ثم وقفة أخرى مع السجود ما هو وكيف جاز، ونقول إنه مظهر للاحترام وليس عبادة بطبيعة الحال، وهذا المظهر منعه شرعنا سداً للذرائع ومنعاً لأي بارقة من بوارق الشرك أن تتسلل إلى القلب.

(١) يراجع في هذا مؤتمر تفسير سورة يوسف مجلد ١ ص ٤١ - ص ٥٠ واليك ملخصاً سريعاً لما جاء فيه، قال: الذي عليه الاكثرون سلفاً وخلفاً أنهم لم يكونوا أنبياء، أما السلف فلم ينقل عن أحد من الصحابة انه قال بنبوتهم، ولا يحفظ ذلك عن أحد من التابعين. ثم ذكر أدلة من قال بنبوتهم كابن زيد والبغوي المفسر وفندها جميعاً. ثم استدل على عدم كونهم أنبياء بتسلط الشيطان عليهم بدليل قول يعقوب «ان الشيطان للانسان عدو مبين» ولا سلطان للشيطان على الانبياء وما ثبت في القصة من كذبهم وحسدهم ووصف أبيهم بالضلال، والافتراء على يوسف والهم بالقتل، ومن كان بهذه الاخلاق لا يكون نبياً، وذكر أدلة أخرى.



قال أبو جعفر النحاس في اعرابه: «والشمس والقمر» عطف (رأيتهم) توكيد، ثم لفت النحاس النظر إلى التعبير عن الكواكب بضمير العاقل المذكر رأيتهم، ثم نقل عن الخليل وسيبويه تعليل ذلك فقال:

لما خبّر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل جعل فيها ما يكون لما يعقل»(١).

قـال أبو السعـود:

«وإنما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لإظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام، وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر، ولا يبعد أن يكون ذلك إشارة إلى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لإخوته.

رأيتهم لي ساجدين: وتقديم الجار والمجرور «لي» لاظهار العناية والاهتمام بما هو الأهم، مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة». (٢)

«لمَّا ذكر يوسف عليه السلام رؤياه لأبيه علم يعقوب عليه السلام صدق تعبيرها، ولذلك كان دائم التذكر ليوسف مدة غيبته، وحين تطاولت كان يذكره حتى قالوا: تالله تفتأ تذكر يوسف فقال: إني أعلم من الله ما لا تعلمون، فهو كان على ثقة من صدق رؤياه.

فإن قيل: فإذا كان الصبي لا حكم لفعله فكيف يكـون حكم لرؤيـاه؟ وما الفرق؟ فيقال: إن الفعل بتعمد يحصل فيكون معرَّضاً لتقصير فاعله، أمـا الرؤيـا فـلا تكـون بتعمــد منـه فتنسب إلى نقصــان». (٣)

---

(١) اعراب القرآن للنحاس جـ ٢ ص ١٢٤ وارجع إلى تفسير الطبري جـ ١٥ ص ٥٥٦ - ٥٥٧ الطبعة المحققة.

(٢) تفسير أبي السعود حـ ٤ ص ٢٥٢.

(٣) لطائف الاشارات جـ ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨.



يا أبت: للمفسرين فيها أقوال كثيرة، وفيها قراءات، ولسنا ندخل في تفصيلات، وإنما خلاصة الذي قالوه فيها أن هذه التاء عوض عن ياء المتكلم، فبدل أن تقول يا أبي، تقول يا أبت. وهذا من عبقرية اللغة العربية في ابدال الحروف في بعض الحالات..

وهذا من إعجاز القرآن في استخدام أنسب البدائل.. وتأمل لو كان النص يا أبي اني رأيت، هل هو في قوة وجمال يا أبت؟

وملخص الرؤيا التي يقصها الفتى يوسف على أبيه أنه رأى أحد عشر كوكباً يسجدون بين يديه، ورأى الشمس والقمر.

والذي أرجحه هنا ان الواو ليست للعطف، وانما هي واوُ المعية، كما تقول رجعت والغروب، تقصد مع الغروب، وتقول مشيت والساحل، مع الساحل، فهنا يقول يوسف انه رأى الاحد عشر كوكباً تسجد له، بحضور الشمس والقمر اذ لا يليق أن يسجد الاب والام للابن، خاصة وان يعقوب نبي قد بلغ من الكبر مبلغاً.

ويرجِّح ما نقول بإذن الله ما ورد في آخر السورة الكريمة، ورفع أبويه على العرش وخروا له ـ أي الاخوة ـ سجداً..

يا أبت: فيها عدة قراءات، وهذا إيجاز عنها:

بكسر التاء، قراءة عاصم ونافع وحمزة والكسائي والاعمش، وقرأ ابو جعفر والاعرج وعبدالله بن عامر (يا أبتَ)

وأجاز الفراء يا أبت بضم التاء.

قال ابو جعفر: اذا قلت يا أبت بكسر التاء، فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الاضافة ولا يجوز على قوله الوقف الا بالهاء، وله على قوله دلائل.

ولا يقال: يا أبتي لأن التاء بدل من الياء فلا يجمع بينهما.

ويا أبت بفتح التاء مشكل في النحو، وفيه أقوال: فمذهب سيبويه أنهم شبهوا هذه الهاء التي هي بدل من الياء بالهاء التي هي علامة التأنيث، فقالوا: يا

أبت، كما قال: كليني لهم يا أميمة ناصب.

وهذا أحد قولي الفراء، وله قول آخر وهو قول قطرب وأبي عبيدة وابي حاتم يكون الاصل: يا أبتاه، ثم حذف الألف، ويكون الوقوف عند الفراء على هذا بالتاء لا غير، وعلى القول الذي وافق فيه سيبويه بالهاء عندهما جميعاً، وهذا القول خطأ لأن هذا ليس موضع ندبة والألف خفيفة لا تحذف[1].

وقال العلامة العلمي في مؤتمره لتفسير سورة يوسف:

«يا أبت: أب منادى مضاف منصوب بالفتحة الظاهرة على الباء الموحدة، وأب مضاف والتاء التي هي تاء التأنيث والتي هي عوض عن ياء المتكلم مضاف اليه مبني على الكسر في محل جر بالاضافة، ولكون المنادى ههنا مضافاً إليه لياء المتكلم أي للتاء التي هي نائبة عنها، أعرب بالحركات، ولم يعرب بالحروف، اذ شرط اعراب الاسماء الخمسة بالحروف أن تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم». أ. هـ[2].

وقال في صفوة البيان: «أصله يا أبي فحذفت الياء وعوّض عنها تاء التأنيث اللفظي، ونقلت اليها كسرة الباء، ثم فتحت الباء على القاعدة في فتح ما قبل تاء التأنيث.»[3]

وقال مكي:

«قرأ ابن عامر بفتح التاء وقرأ الباقون بالكسر.

وحجة من فتح أنه قرّر اثبات ياء الاضافة (أي كأنه قال: يا أبتي، ثم قال مكي انها تحولت إلى يا أبتا ثم حذفت الالف لدلالة الفتح عليها.

---

(١) باختصار اعراب القرآن جـ٢ ص ١٢٠ ـ ١٢١ ابو جعفر النحاس ت سنة ٣٣٨، تحقيق الدكتور زهير زاهد، نشر وزارة الاوقاف بغداد سنة ١٩٧٩.

(٢) جـ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣

(٣) صفوة البيان للعلامة الشيخ حسنين مخلوف ص ٣٠٢.



وحجة من كسر أنه أبقى الكسرة تدل على الياء المحذوفة»[1].

يا أبت:

قال البيضاوي:

«قلبها هاء في الوقف ابن كثير وابو عمرو ويعقوب. وكسروها لأنها عوض حرف يناسبها، الا ابن عامر ففتحها في كل القرآن لأنها حركة أصلها، أو لأنه كان يا أبتا فحذف الالف وبقي الفتحة، وانما جاز يا أبتا، ولم يجز يا أبتي، لأنه جمع بين العوض والمعوض.

وقرىء بالضم إجراء لها مجرى الاسماء المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض. وانما لم تسكن كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب.»[2]

البلاغة

«تقديم المجرور على عامله في قوله «لي ساجدين» للاهتمام.

وابتداء قصة يوسف عليه السلام بذكر رؤياه إشارة الى أن الله هيأ نفسه للنبوة، فابتدأه بالرؤيا الصادقة.

وفي ذلك تمهيد للمقصود من القص وهو تقرير فضل يوسف عليه السلام من طهارة وزكاة نفس وصبر، فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهاً ليوسف عليه السلام بعلو شأنه ليتذكرها كلما حلّت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة.»[3]

ولما كانت هذه الآية تتحدث عن الرؤيا، بل ان السورة أبرزت موضوع الرؤيا وجدت مفيداً أن نفرد موضوع الرؤيا لا ببحث ولكن بمقال بسيط، نأخذ فيه من الفوائد من اصحاب الاهتمام بهذا الموضوع..

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: ابو محمد مكي بن ابي طالب ت ٤٣٧ هـ. جـ٢ ص ٣، تحقيق د. محيي الدين رمضان.

(٢) تفسير البيضاوي ص ٣٠٩.

(٣) التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٠٨.



الرؤيا

والرؤيا لغز حيّر علماء النفس - بخاصة - هذه الأيام، لا يستطيعون مهما كانت ماديتهم غليظة موغلة أن ينكروها فهي من الواقع المشاهد المحسوس، وهم بأنفسهم يرونها. ولئن استطاعوا أن يفسروا الرؤى الماضية، والرؤى التي هي اخلاط وأضغاث، فكيف يفسرون الرؤى الصادقة المستقبلة؟ انه ليس لها تفسير الا أن الرؤى من عالم الروح. . وعالم الغيب.

ومن هنا وردت عدة أحاديث تشير إلى أن الرؤيا جزء من أربعين أو من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. ولاحظ أن الاربعين هي سن البعثة، وأما الستة والاربعون فإن النبي ﷺ بقي ستة أشهر يرى الوحي مناماً، ثم جاءه الملك يقظة، ومدة الوحي ثلاث وعشرون سنة، فتكون نسبة الرؤى من حيث المدة واحداً إلى ست واربعين. والرؤى الصادقات من المبشرات التي بقيت كما أخبر النبي ﷺ. وأول ما بديء به النبي ﷺ الرؤيا الصادقة، فكان يرى الرؤيا فتأتي مثل فلق الصبح، وفي البخاري ومسلم عن ابي قتادة قال: كنت أرى الرؤيا تمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

الرؤيا الصالحة من الله، والرؤيا السوء من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدثْ بها الا من يحب، واذا رأى أحدكم ما يكره، فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنها لن تضره.»[1]

وموضوع الرؤيا موضوع يحتاج إلى بيان وتفصيل وهذا ليس المجال

(١) البخاري: كتاب التعبير باب ٤٦، رقم الحديث ٧٠٤٤
مسلم: كتاب الرؤيا رقم الحديث (١ - ٥) من الكتاب. .



لذلك. . ولكنا سنذكر طرفاً من أقوال العلماء في الرؤيا سواء كانوا قدماء أو محدثين من مختصي علم النفس أم من العلماء بالدين.

ومن لطف الله بيوسف أنه لم ير الا الخير الذي سيصيبه والنهاية الحسنة التي سيؤول إليها، ولم ير البلاء والفتن التي سيتعرض لها.

«وكل ما يرى في المنام انما هو من عالم المثال، إلا أن الاشياء الخارجية قد تمثل للرائي بصورتها وحقيقتها، وتقع في اليقظة كما رآها في المنام تماماً، وهذه الرؤيا الصريحة التي لا تحتاج إلى تأويل، لأنها تجيء مثل فلق الصبح وضوحاً وجلاء، كرؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين. . . وقد يرى الانسان الاشياء الخارجية لا بصورتها بل بصور أشياء أخرى كرؤيا ملك مصر في منامه السنين الخصب، والسنين المجدبة، مصورة بسبع بقرات عجاف وسبع سمان، وهذه هي التي تحتاج إلى تأويل. ورؤيا يوسف من هذا القبيل، فقد أراه الله اخوته الاحد عشر في صورة أحد عشر كوكباً، وأراه أمه واباه في صورة الشمس والقمر.

ولا بد أن يكون السجود قد صور له بحدوث حركة من هذه الأشياء ملائمة لاستعدادها حال ظهورها له مصورة بصورة الكواكب فهم منها أنها سجدت له. كما فهم أن هذه الكواكب تمثل أشخاصاً عقلاء بدليل قوله: رأيتهم لي ساجدين، فجمعهم جمع العقلاء وان كان لم يدرك أعيانهم ولم يعرف أشخاصهم.»[1]

قال في التحرير والتنوير:

«وانما أخبر يوسف عليه السلام أباه بنهاية الرؤيا لأنه علم بالهام أو بتعليم سابق من أبيه أن للرؤيا تأويلاً.

وكانوا يعدون الرؤيا من طرق الانباء بالغيب، اذا سلمت من الاختلاط،

(١) يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير ص ١٤.



وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه.

ولما كانت رؤيا الانبياء وحياً، وقد رأى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ولده. وفي الحديث: لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له.»[1] والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوة.

أما العرب فإنهم لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالاحلام، ولعل قول كعب بن زهير: ان الاماني والاحلام تضليل، يفيد عدم اعتدادهم بالاحلام.

قال ابو علي بن سينا في الاشارات ما حاصله:

«ان الروح قابلة لاكتشاف الكائنات، على تفاوت في هذا القبول، والروح تودع في جسم الجنين عند اكتمال طور المضغة، وان للروح آثاراً من الانكشافات اذا ظهرت فقد ينتقش بعضها بمدارك الانسان في لوحة حسه، وقد يصرفه عن الانتقاش شاغلان: أحدهما حسي خارجي، والآخر باطني عقلي أو وهمي، وقوى النفس متجاذبة متنازعة، فإذا اشتد بعضها ضعف البعض الآخر، كما إذا هاج الغضب ضعفت الشهوة، فكذلك ان تجرد الحس الباطن للعمل شغل عن الحس الظاهر، والنوم شاغل للحس، فإذا قلّت شواغل الحواس الظاهرة، فقد تتخلص النفس عن شغل مخيلاتها، فتطلع على أمور مغيبة، فتكون المنامات الصادقة.

والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم فتتصل نفوسهم بتعلقات من علم الله، وتعلقات من ارادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها اطلاعاً عادياً، ولذلك قال النبي ﷺ: الرؤيا الصالحة من

---

(١) عن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: ان الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي قال فشق ذلك على الناس فقال: لكن المبشرات. قالوا يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: رؤيا المسلم وهي جزءٌ من اجزاء النبوة.

الترمذي حديث حسن صحيح، كتاب الرؤيا ص ٥٣٣، مجلد ٤ طبعة دار احياء التراث.



الرجل الصالح جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة.

وقد بينّ تحديد هذه النسبة الواقعة في الحديث في شروح الحديث.

وانما شرطت المرائي الصادقة بالناس الصالحين لأن الارتياض على الأعمال الصالحة شاغل للنفس عن السيئات، ولأن الاعمال الصالحات ارتقاءات وكمالات فهي معينة للروح على الاتصال بعالمها الذي خلقت فيه وانزلت منه، وبعكس ذلك الاعمال السيئة تبعدها عن مألوفاتها وتبلدها وتذبذبها.

والرؤيا مراتب: منها أن ترى صور افعال تتحقق امثالها في الوجود مثل رؤيا النبي ﷺ أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل..

ومنها أن ترى صورٌ تكون رموزاً للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني وتشكيل المخيّلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل تخترعه الالباب في حالة هدوء الدماغ من الشواغل الشاغلة. وهذا اكثر انواع المرائي.

وقد رأى النبي ﷺ أنه يشرب من قدح لبن حتى رأى الري في أظفاره ثم أعطى فضله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتعبيره ذلك بأنه العلم.

وكذلك رؤياه امرأة سوداء ناشرة شعرها خارجة من المدينة إلى الجحفة، فعبّرها بالحمى تنتقل من المدينة إلى الجحفة، ورئي عبدالله بن سلام أنه في روضة، وأن فيها عموداً، وأن فيه عروة، وأنه اخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود، فعبره النبي ﷺ بأنه لا يزال آخذاً بالايمان الذي هو العروة الوثقى، وأن الروضة هي الجنة، فقد تطابق التمثيل النومي مع التمثيل المتعارف في قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾.[1]

وقال ابن خلدون في المقدمة في موضوع الرؤيا:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٠٨ - ص ٢١٢ بتصرف يسير. وارجع إلى ابن سينافي كتاب: الاشارات والتنبيهات.



«وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات. . .

وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الامور المستقبلية وتعود به إلى مداركها.

فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة الى التعبير.

وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال.

والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية بالقوة مستكملة بالبدن ومداركه، ولا بد من تخلصها من البدن ومداركه - أي بالنوم أو غيره - حتى تصير بذاتها تعقلاً محضاً ويكمل وجودها بالفعل، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية.

ثم قال ابن خلدون: ان هذا الاستعداد حاصل للروح ما دامت في البدن، ومنه نوع خاص كالذي للأولياء، ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا. وأما الذي للانبياء فهو استعداد متفرد. . كأنه انسلاخ من البشرية إلى الملكية. .

ثم قال ابن خلدون ان هناك شبهاً بين حال تلقي الوحي والنوم ولأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة. .

ويرى ابن خلدون ان العدد ليس مقصوداً بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه المراتب. . وما ذهب اليه بعضهم في رواية ستة واربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي نصف سنة، ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة، فنصف السنة منها جزء من ستة واربعين فكلام بعيد من التحقيق. . لأنه انما وقع ذلك للنبي ﷺ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء، مع أن ذلك إنما يعطي نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطي نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة.



واذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم صلوات الله عليهم، إذ هو الاستعداد البعيد وان كان عاماً في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل. ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة. ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف اليه في عالم الحق، فتدرك في بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب. ولذلك جعلها الشارع من المبشرات، فقال: لم يبق من النبوة الا المبشرات، قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له..

ثم بيّن ابن خلدون سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم.. ثم قال: ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية، كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشي الروح بكثرة التصرف.. فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الادراك على الصورة الكاملة.

ويقول بعد ذلك: فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية واكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة تقريباً. ثم ينزلها الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة. وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحاني لأنها مفطورة عليه، وتقتبس من صور الاشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ. ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة. والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير. وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هو أضغاث احلام. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان.» وأضغاث الاحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل.

هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم، وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يخلو عنها أحد منهم، بل كل من الاناسي رأى في نومه ما صدر له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم، ولا بد. وإذا جاز ذلك في عالم النوم، فلا يمتنع في غيره من الاحوال، لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال. والله الهادي إلى الحق بمنه وفضله.

ثم قال بعد ذلك: ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالباً انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه، وانما تكون النفس متشوّفة لذلك الشيء، فيقع لها بتلك اللمحة في النوم، لا أنها تقصد إلى ذلك فتراه.

ثم ذكر أنه وقع له مراء عجيبة واطلع بها على أمور كان يتشوف إليها من أحواله. وليس ذلك بدليل على أن القصد للرؤيا يحدثها، وانما التشوف يحدث استعداداً في النفس لوقوع الرؤيا، فإذا قوي الاستعداد كان أقرب إلى حصول ما يستعد له ـ فالقدرة على الاستعداد غير القدرة على الشيء. فاعلم ذلك وتدبره فيما تجد من أمثاله، والله الحكيم الخبير.»(1)

قال الامام الراغب الاصفهاني في كتابه الذريعة في بحث الفراسة:

«ومن الفراسة علم الرؤيا. وقد عظّم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس﴾ وقال: ﴿اذ يريكهم الله في منامك قليلاً..﴾ وقال في قصة ابراهيم: ﴿يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك﴾...

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الانسان فائدة. والله سبحانه وتعالى يتعالى عن الباطل.

وهي ضربان: ضرب وهو الاكثر، أضغاث أحلام واحاديث النفس بالخواطر الردية لكون النفس في تلك الحال كالماء المتموج، لا يقبل صورة.

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون جـ١ ص ٣٦٤ ـ ص ٣٦٩ تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط ١ ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧، القاهرة: لجنة البيان العربي.



وضرب وهو الاقل صحيح، وذلك قسمان: قسم لا يحتاج إلى تأويل، وقسم يحتاج. ولذلك يحتاج المؤول إلى مهارة يفرق بين الاضغاث وبين غيرها، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس، إذ كان منهم من لا تصح له رؤيا، وفيهم من تصح رؤياه. ثم من صح له ذلك، منهم من يرشح أن تلقى اليه في المنام الاشياء العظيمة الخطيرة، ومنهم من لا يرشح له ذلك. وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه، ورب نزر الحظ من العلوم توجد له فيه قوة عجيبة.»[1]

قال في الظلال: «وبهذه المناسبة أي مناسبة قوله تعالى على لسان يوسف: اني رأيت، نذكر كلمة عن الرؤى والاحلام، وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة، اننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد. ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، ورؤيا صاحبيه في السجن، ورؤيا الملك في مصر. وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤيّة في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده، لأنهُ موجود بالفعل.

والسبب الأول يكفي. ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لا يمكن انكارها الا بتعنت.

فما هي طبيعة الرؤيا؟

تقول مدرسة التحليل النفسي: إنها صورة من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الاحلام في غياب الوعي.

وهذا يمثل جانباً من الاحلام. ولكنه لا يمثلها كلها. وفرويد ذاته، على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته، يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية، فما طبيعة هذه الاحلام التنبؤية؟

وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لا علاقة له بإثبات

(١) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٠٨ - ص ٣٥٠٩ وارجع الى الراغب الاصفهاني في الذريعة.



وجودها، وصدق بعضها. انما نحن فقط نحاول أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب، وبعض سنن الله في هذا الوجود.

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو، ان حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل، أو الحاضر المحجوب. وان ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً انما يحجبه عنا عامل الزمان كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان، وان حاسة ما في الانسان لا نعرف كنهها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان، فتتغلب على حاجز الزمان، وترى ما وراءه في صورة مبهمة، ليست علماً ولكنها استشفاف، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس، وفي الرؤى لبعضهم، فيتغلب على حاجز المكان، أو حاجز الزمان، أو هما معاً في بعض الأحيان، وان كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان، كما أن حقيقة المكان ذاتها، وهي ما يسمى بالمادة، ليست معلومة لنا على وجه التحقيق: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً».[1]

قال الدكتور فاخر عاقل:

«اهتم الانسان بأحلامه منذ أدرك أنها أحلام، اذ لا شك أنه في باديء الأمر خلط بين حياة الحلم وحياة اليقظة، فاشتبه عليه الأمر! ولقد اعتقد الانسان دوماً أنه لا بد للاحلام من تفسير ودلالة، فنشأ عن ذلك العلم الذي سماه الاقدمون تفسير الاحلام. وهو علم كتبوا عنه كتباً مطولة كثيرة في جملتها كتاب «ابن سيرين». ويظهر أن الاحلام التي فقدت أهميتها خلال القرنين الماضيين عند العلماء على الاقل، بدأت اليوم تستعيد هذه الأهمية، وبدأ علم النفس بعد فرويد ينظر اليها نظرة أقل ما توصف بـه الجدية والاهتمام.

ثم قال الدكتور محاولاً تفسير سبب الاحلام:

اذا نام الانسان هبطت فعالية دماغه الى مستوى واطٍ، وقد تتوقف تماماً خلال النوم العميق جداً. ومن هنا كان قولنا بأن معظم الاحلام المنسجمة لدرجة

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٦ - ٦٩٧.



تساعد على تذكرها انما تحدث بعيد النوم مباشرة، أو قبيل الاستيقاظ مباشرة، أو في أوقات يكون النوم فيها خفيفاً، أي حين تكون الرقابة غير خاضعة تماماً لإرادة الشخص النائم.

والاحلام تشبه التخيل والإبداع من حيث كونها عناصر ذكريات جمعها الحالم من هنا وهناك، ثم ركبها بعضها مع بعض، وأنشأ منها حوادث لم تمر به قط، وكثيراً ما تكون غريبة أو مستحيلة. وتتصف النفس النائمة بأنها تكون في تراخ أي عدم مقاومة، ومعنى ذلك أنها أضاعت القدرة على الايقاف، ولذلك فهي تقبل أي احساس أو صورة أو فكرة كانت. فالانتباه والارادة بمعناهما الدقيق مفقودان لدى مثل هذه النفس وكل شيء مقبول عندها حتى ولو كان مستحيلاً، ولذلك فمثل هذه النفس حين تحلم تقبل أن يتحدث صاحبها إلى ميت ويماشيه ويؤاكله. انها تتصف بالقبول المطلق لكل تفسير يقدم لها أو تعبير يعرض لها.

ثم ان النفس النائمة ينقطع الاتصال بينها وبين العالم الخارجي، أو على الاقل يخف الاتصال إلى حد كبير. إن العالم الخارجي يرسل إلى النفس أثناء اليقظة رسائل ضوئية أو صوتية أو غيرها، تشعر بها النفس وتفسرها، منتبهة اليها، لاهية بها عن حياتها الداخلية. أما أثناء النوم، وبسبب انقطاع هذا الاتصال، أو خفته على الأقل، فتأخذ الرسائل الواردة من أعضاء جسمها ومن حياتها الداخلية أهمية اكبر.

ولذلك فقد تعبّر نفوسنا عن الرسائل الواردة من أجهزتنا الهضمية أو التنفسية أو الدموية في صورة أحلام. وبما أن ذكاءنا هو في الدرجة الاولى اداة للتعبير والتفسير فإن هذه الاداة تداوم على عملها حتى أثناء النوم، مع فارق واحد، وهو عدم تشددها وضبطها وانتباهها كما تفعل اثناء اليقظة. وهكذا فإن النفس تترجم الاحساس بالراحة أو الضيق، وتجد لكل منهما في التو، الظرف الذي يجعله طبيعياً، أو على الاقل طبيعياً في نظرها آنئذ، وبما أنها في حالة تراخ فهي اكثر تساهلاً في طبيعة هذه الظروف وعلى هذا الشكل يصبح عدم الحركة العضوي سبباً في أن يحلم النائم بعدو يهدده وأنه قد تسمر من الخوف. أما وضع

الرأس السيء فكثيراً ما يكون سبباً في حلم مرعب يرى فيه النائم أنه يشنق أو أن رأسه قد فصل عن جسده بالمقصلة. أما الحلم بأنك تطير في أجواز الفضاء فقد تجد تفسيره في حركة تنفسية وقلبية، وما ذلك إلا لأن الانسان المتمدد على فراشه يرتفع وينخفض من أسفل إلى أعلى بحركة تشبه خفقان الاجنحة.

أسباب الاحلام

يمكننا أن نحصر أسباب أحلامنا في ثلاثة:

١ ـ **المثيرات الخارجية**: التي تثابر رغم ضعفها وإعاقتها على الوصول الينا. فأشعة الشمس الساقطة على عيني نائم قد تسبب له الحلم بحريق، وصوت الساعة المنبهة قد يكون سبباً في حلم يسمع فيه النائم نواقيس تدق، أو مطارق تتهاوى على سندان، أو أواني تتكسر.

٢ ـ **المثيرات العضوية الداخلية**: التي تقوى أثناء النوم لضعف المؤثرات الخارجية. فقد يحلم النائم المعسور الهضم بعدو يأخذ بخناقه. وقد يحلم المريض بالموت.

٣ ـ **رغباتنا التي لم توفهـا حياة اليقظة**: وهنا مكان العالم فرويد وأضرابه من علماء التحليل النفسي. فهو يرى أن اللاشعور (العقل الباطن) مكون من رغبات مكبوتة، منع من تحقيقها المجتمع وما فيه من تقاليد، لكن هذه الرغبات المكبوتة لا تترك المسرح، مسرح النفس بسهولة، وهي اذا تركت اختبأت وحاولت أن تدلـل على وجودها بطرق خفية رمزية. ويرى فرويد أن الحلم عند الافراد الاسوياء هو المتنفس الأهم للرغبات المكبوتة.

ولكن هذه الرغبات قد لا تجسر حتى في حياة الحلم على اظهار نفسها عارية صريحة، فتختبىء وراء رموز بريئة المظهر.

أما أدلر تلميذ فرويد، الذي انشق عنه، فيتفق مع فرويد في أن الاحلام تحقيق للرغبات، ولكنه يرى أن غريزة (تثبيت الذات) أشد أصالة من غريزة



الجنس، وهو يرى أن الحلم ليس احياء للماضي، بل تهيؤاً للمستقبل القريب.

واما يونج وهو التلميذ الثاني لفرويد الذي انشق عنه وكوّن لنفسه مدرسة خاصة، فالحلم عنده متصل بمشاكل الحالم الحاضرة ومعبر عن موقف الحالم اللاشعوري من مشاكل حياته.

ويعلق الدكتور عاقل على أقوالهم فيقول إن هؤلاء يبالغون في ما اكتشفوا ويبنون كلامهم على الحدس والتخمين، اكثر مما يبنون على التجربة والتحقيق، وهما الشرطان الاساسان للعلم في وقتنا الحاضر.

ثم قال: إن الرغبة سبب هام من أسباب الاحلام وأغلب الظن أنها أهم أسبابه. وقد يحقق الحلم هذه الرغبة بصورة مباشرة فلا يجد الانسان صعوبة في التفسير، كحلم الجائع بالطعام..

كما أن الحلم قد يحقق الرغبة تحقيقاً رمزياً يترك للمفسر أن يستعمل حذقه وذكاءه لاستكشافه ـ ولقد حاول القدماء أن يضعوا لهذا التفسير قواعد ـ وفرويد نفسه يرى أن الدار تدل على جسد الحالم، والملك والملكة والعظماء هما الابوان، والسفر يدل على الموت.. الخ.

والمهم هو أن أحلام المريض اليوم أصبحت عوناً للمحلل النفسي يستعين بها على استكشاف أسباب اضطراب الحياة النفسية عند مريضه، وبالتالي على مداواته وشفائه.

ثم حاول الدكتور عاقل أن يفسر الرؤى المستقبلية فسأل:

«ما مقدار الصحة في اعتقاد العامة بأن الحلم ينبيء عن ما سوف يحدث في المستقبل؟ والجواب على ذلك هو أن لا غرابة في أن ينبيء الحلم عما قد يحدث في المستقبل. ونجد تعليل ذلك فيما شرحناه من الرسائل التي تصل النفس من الأجهزة العضوية واللاشعور، فالأجهزة العضوية التي خلا لها الجو أثناء نوم النفس وانقطاع الصلة بينها وبين العالم الخارجي تجد فرصة مناسبة تستطيع خلالها انباء النفس عما تتوقعه من خلل أو ضعف في ذاتها.



واللاشعور الذي أجرى حسابات لذاته، وتوقع حدوث أمر ما، يجد في نوم النفس فرصة سانحة يبادر أثناءها إلى إعلام النفس عن حساباته وما يتوقعه. وفي كثير من الاحيان يصح ما توقعته النفس، ويحدث ما ضمنه اللاشعور، فيتحقق الحلم، وحينذاك يقال ما أصدق الاحلام.»[1]

وما قاله الدكتور عاقل في انباء النفس وتوقعات اللاشعور لا يكفي تفسيراً فالمسألة فوق التوقعات. انها رؤيا تأتي مثل فلق الصبح.. هي اليقين بعينه. ثم انها كثيراً ما لا تتعلق بالذات.. كما رأينا في رؤيا ملك مصر بالذات.

يبقى أن نقول ان قطع النفس عن عالم الروح وعن الغيب، وعن الصلة بالله عز وجل يضيق الرؤية أمامنا في موضوع الرؤيا، ويحرمنا الفرصة للفهم العميق الدقيق والصحيح.

---

(١) د. فاخر عاقل: طبائع البشر: دراسات نفسية واجتماعية ص ١١ ـ ص ١٥ كتاب العربي السادس يناير سنة ١٩٨٥ الكويت.

عالم الاحلام العجيب

هذا عنوان كتاب صدر حديثاً في الغرب.

يقول مترجم الكتاب والمعرف به: احمد عمر شاهين، في تعريفه بالكتاب وموضوعه: «ما زالت الاحلام وعالمها الغريب وستظل، تجذب اهتمام القراء لمعرفة المزيد عن هذا العالم الواضح الغامض، البعيد القريب. وقد كان لكتاب فرويد تفسير الاحلام في بداية هذا القرن صدى كبير لدى القراء والاوساط العلمية خاصة علم النفس، وتوالت بعده البحوث المعملية على الاحلام تحليلاً وتفسيراً ومقارنة للوصول إلى تفسير واضح ومعنى محدد لهذا العالم العجيب.

ومن أهم الكتب الصادرة حديثاً حول هذا الموضوع كتاب العمل بالاحلام من تأليف مونتاج أولمان ونان زمرمان. ويعد مونتاج أولمان أحد القلائل في عالمنا الذين يعرفون الكثير عن سيكولوجية الحلم وتفسير الاحلام، ولقد شارك في ربع القرن الأخير في العديد من الكتب حول هذا الموضوع نظرياً ومعملياً، تدريباً وتعليماً.

في الفصل الأول من الكتاب يقدم المؤلفان إجابة على عدد من الاسئلة حول الاحلام. إجابات جاءت نتيجة تجارب واختبارات معملية عديدة ومتكررة. ويرى المؤلفان أن الانسان دائرة مغلقة بالنسبة لأحلامه، وهو الاقدر على تفسيرها بناء على ظروف حياته الخاصة النفسية والاجتماعية..

ويشرحان طريقة فهم الحلم التي تتطلب بعض الجهد وبعض الشجاعة وأحياناً الاستعانة ببعض الاصدقاء. لكنها لا تحتاج ابداً للاستعانة بنظرية خاصة في تفسير الاحلام أو بمتخصص في علم النفس.

ومن الاسئلة التي جاءت في الفصل الأول:

ـ هل كل انسان يحلم كل ليلة؟

نعم، كل انسان يمر بدورة نوم عادية لا بد أن يحلم إلا إذا قطع نومه. الفترة الأولى من الاحلام تحدث تقريباً بعد تسعين دقيقة من نومنا وتستمر من ٥ إلى ١٠ دقائق. نومنا يتوالى في دورات تستغرق كل منها تسعين دقيقة، وتطول أحلامنا مع كل دورة، ففي الفترة الاخيرة قبل الاستيقاظ قد يستمر الحلم فيها أربعين دقيقة.

ـ دورة النوم والاحلام هل هي نفسها عند الاطفال كما هي عند البالغين؟

لا. الاطفال يقضون معظم دورة النوم في الاحلام، لكن المعدل ينقص بنمو الطفل.

ـ هل في تفسير الاحلام خطر؟

إن احلامنا قادرة على توضيح ما مرّ بنا من تجارب وقادرة على ان تعرفنا بأنفسنا أكثر بحيث نصبح اكثر قوة واتزاناً. [1]

ـ هل حياة الحلم حقيقة في ذاتها؟

الحياة في أحلامنا تبدو وكأن لها حقيقتها الخاصة، ومهما كانت طبيعة هذه الحقيقة فإن علاقتها بما نسميه الحقيقة أثناء الاستيقاظ تبقى واجبة التحديد. فنحن نشعر أن هناك نوعاً من الوحدة بين هاتين الحقيقتين، فنحن نفس الاشخاص، سواء كنا نائمين أم يقظى، بالرغم من حقيقة أننا نرى أنفسنا والعالم خارج نطاق الزمان والمكان اللذين يحددان شخصياتنا أثناء اليقظة. فدماغ الانسان مقسم إلى قسمين، الجزء الأيسر وهو الذي ينظم تجربتنا منطقياً في الزمان والمكان ويعبر عنها باللغة، وهوالنصف المسيطر الذي يحكم حياة اليقظة. ولقد افترض ان في الحلم، فإن الجزء الآخر ـ الأيمن عادة ـ يصبح مسيطراً ويحرر قدراتنا

---

(١) عالم الاحلام العجيب مقال يعرف بكتاب Working with Dreams. مجلة الفيصل عدد ١٢٢ شعبان ١٤٠٧ السنة ١١ نيسان ١٩٨٧.



الخلاقة والحدسية والوجدانية ويأمر تجربتنا بالتحرك على مستوى الشعور اكثر منها على مستويات السبب والمسبب والزمان والمكان. والنتيجة أننا نرى مدى أوسع من عالمنا ـ نفس العالم الذي نتحرك فيه ونحن يقظى ـ ولكننا نراه بطريقة مختلفة. والتعبير الحقيقي عن إنسانيتنا يعتمد على المهارة التي نتعلمها لنوفق بين هاتين الطريقتين لكوننا في العالم.

ـ ما الحقيقي وما الرمزي في الحلم؟

الأحداث الحقيقية من الممكن أن تظهر في الحلم، ولكن أهميتها لنا آنذاك تتعدى حدود ما تبدو أنها تعنيه حرفياً. إن الحلم يقول لنا ان هناك مغزى أكبر لهذه الاحداث مما تراه العين مباشرة، ومن هذا المنطلق فإن كل شيء في الحلم رمزي.. هناك بعض العناصر فقط أكثر وضوحاً من غيرها.

ـ ما مصدر الاحلام؟

الإجابة الحقيقية على هذا السؤال أننا لا نعرف.

معظمنا يرجع مصدرها إلى اللاشعور، بانياً ذلك على تصور فرويد للدور الديناميكي الذي تلعبه جهود اللاشعور للسيطرة على حياتنا، بينما يتحدث يونج عن اللاشعور الجمعي والمساهمات التي يمكن أن يقدمها للحلم في شكل صور بدائية.

أما البحوث الباراسيكولوجية (ما وراء علم النفس) فهي تفسر فكرة وقت الحلم بأنها مناسبة تمكننا من أن نركز على مصدر صور ومعلومات يمتد فيها وراء الحيز المكاني العادي والحدود الوقتية لوجودنا.(١)

ويبدأ الدكتور الهاشمي بحثه في موضوع الرؤيا بالسؤال:

«لماذا ينام الانسان؟ ويقول:

يقضي الانسان ما لا يقل عن ربع حياته في المتوسط وهو نائم، فما هو

---

(١) السابق.

النوم؟ النوم عملية توقف نسبي في تفاعل حس الانسان وحركته وإدراكه مع ما يحيط به من مختلف أنواع المؤثرات عموماً.[1]

والنوم ضرورة أساسية من ضرورات الحياة كالأكل والشراب. لأنه يقدم فترة زمنية مناسبة للجسم لترميم خلاياه المتهدمة. ولتجديد نشاطه، ومتابعة نموه التكويني المتوازن، فالطفل الوليد يكاد ينام اكثر ساعات يومه. وصحوه للرضاعة تقريباً. أما الانسان الراشد فتتراوح ساعات نومه بين ٤ ـ ١٠ ساعات يومياً، مع تناقص تدريجي مع تقدم العمر، في فروق فردية بين انسان وآخر.

فإذا منع الانسان عن النوم وحرم منه لأيّام متواصلة فإن ذلك يؤدي إلى هلوسات بصرية ثم إلى سرحان وعدم التذكر، والهزال ثم الهذيان الفكري مع انهيار جسمي وعقلي عام ينتهي بالموت.

وتدل الدراسات النفسية العقلية وبحوث وظائف الاعضاء أن النوم ليس ظاهرة سلبية تتجلى في تناقص الحس والحركة والوعي الشعوري أو أنه مجرد مرحلة ترميمية لبعض الخلايا. ذلك أن العلماء اكتشفوا اليوم أن النوم ظاهرة إيجابية مرتبطة كل الارتباط بالحياة الواقعية وما تتضمنه من شعور وإدراك وانفعال وسلوك، لذا فإن دراستنا للنوم وما يكتنفه من احلام تساعدنا على فهم غير قليل من عمليات اليقظة، لذلك الانسان.

وقد أشار القرآن إلى عدة حقائق علمية تتصل بالنوم، فهو نعمة من الله لأن به استعادة لنشاط الحياة في ابتغاء فضل الله: «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله.»

والنوم راحة جسمية، وخيره ما كان ليلاً: **﴿وهو الذي جعل الليل لباساً، والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً.﴾**

﴿وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً﴾

﴿وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً﴾

---

(١) د. احمد عكاشة: التشريح الوظيفي النفسي ص ٢٣٠ ـ ص ٢٤٠... وعنه الدكتور عبد الحميد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم ص ٢٠٨.



حقائق نفسية علميّة حول النوم:

للنوم دراسات عضوية وظيفية واسعة، ولكن الذي يعنينا في هذا البحث هو ما يتصل بالنوم من حقائق نفسية تكوينية وأهمها:

أولاً: في الحياة الجسمية تحدث بعض التغيرات الحيوية المهمة أثناء النوم مثل انخفاض كل من سرعة دقات القلب، وضغط الدم، وسرعة النبض، وهذا مظهر عضوي للاسترخاء الجسمي والادراكي والانفعالي العام أثناء النوم.

ويقوم الجسم أثناء النوم على الرغم من كونه عميقاً ببعض التقلبات والحركات الخارجية للأطراف في سبيل حماية النائم وراحته، كما يظل الجهاز العصبي اللاإرادي عاملاً نشيطاً أثناء النوم، ويزيد أيضاً جريان الدم في المخ أثناء النوم بالمقارنة مع اليقظة.

ثانياً: في الحياة النفسية، استناداً لما تقدم، ينقطع الانسان عن التجاوب عموماً عما حوله من مؤثرات، ولكن تظل بعض الخلايا الحسية على درجات من الصلة في بعض الاحيان، كما تظل بعض الخلايا العصبية في المخ نشيطة إلى درجة ما، وهذا ما يفسر لنا حدوث الاحلام وحركات عين النائم، كما يحدث ما يسمى (بالتفكير اللاشعوري) الذي يساعد الانسان على فهم أو حل المشكلات الفكرية والسلوكية أثناء النوم، فيستيقظ فاهماً واعياً لتلك الأمور، كما أن فترة النوم بين فترتي الدراسة والاستذكار كثيراً ما تساعد على تثبيت الافكار وصقل عملية التعليم.

ثالثاً: ليس النوم بدرجة واحدة من الوجهة الصحية ـ فمنه ما هو صحي مفيد منعش عندما يكون عميقاً ومتواصلاً وفي الليل ـ أما النوم المتقطع والسطحي والقليل فإنه لا يقدم للجسم راحته الضرورية في نشاطه الفكري والحركي.

رابعاً: لا يمثل النوم انقطاعاً إنسانياً كاملاً عن المؤثرات المحيطة فبعض الاحلام انعكاس لمثيرات حول النائم مثل صوت جرس، أو إشعال ضوء كبير، أو طقطقة آلات، أو ضجيج حركات صاخبة. وكذلك، فإن صلة النائم بما حوله قد

تكون صلة انتقائية. فالأم الحديثة الولادة على الرغم من أنها قد تنام نوماً عميقاً ولا تتأثر حينذاك بالأصوات المزعجة من حولها ولكنها تستيقظ من نومها مباشرة لأول صوت يصدره ابنها النائم إلى جوارها.

وكذلك حارس الطاحونة حين ينام هادئاً مع ضجيج آلاتها ما دام صوتها مستمراً فإذا توقف الضجيج هبّ من نومه مستيقظاً ليبحث السبب المزعج لانقطاع الضجيج وانقطاع نومه أيضاً.

الاحلام:

لقد لاحظ الانسان منذ عهده بالحياة ظاهرة الاحلام وحاول أن يفهم ما يتصل بها ولا سيما خلال هذا القرن الأخير حين حاول علماء وظائف الاعضاء وعلماء النفس استخدام ما يسمى اليوم بمقياس الكهربائية ـ الدماغية الذي يسجل التيارات الكهربائية الصادرة عن الدماغ حيث أمكن التعرف على وجود الحلم أثناء النوم بطريق وجود بعض التغيرات في مقياس الكهربائية الدماغية مع تسجيل حركات سريعة للعين تحت غطائها تدل على حدوث صور بصرية مع تسارع في التنفس والنبض أثناء فترة الحلم من النوم.

بيد أن ما توصل إليه أولئك العلماء لا يزال قليلاً وبداية، ولعل ذلك يرجع إلى صعوبة التجريب في هذا المجال، فمثلاً ان تسجيل نوم مجرب عليه واحد يتجاوز ميلاً من الورق يجب أن يقرأ و يفسر بوصة بوصة.[1]

وعلى الرغم من أن الاحلام حقيقة في حياة النائم ولها آثارها المباشرة وغير المباشرة على حياته وهو في اليقظة إلا أن دراسة الاحلام ومحاولة تفسيرها قد تجاذبتها آراء ونظريات انسانية لا تزال في مستوى الفرضيات، ومع ذلك تظل الاحلام النومية حقيقة في الحياة النفسية بحيث لا تخلو حياة الانسان من الاحلام سواء تذكرها بعد اليقظة أم لا.

(١) د. فاخر عاقل: اصول علم النفس وتطبيقاته ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧... وعنه الدكتور الهاشمي.



مدرسة التحليل النفسي والأحلام

لمدرسة التحليل النفسي التي دعا إليها فرويد وأتباعه أسس عامة، على الرغم مما لحقها من تعديل في فترات زمنية متلاحقة. وأهم تلك الأسس التي تتصل بالأحلام، ما يلي:

١ ـ للانسان حياة شعورية مشاهدة ـ وهي تتأثر كلها بحياته اللاشعورية التي تتضمن رغباته ودوافعه المحرمة والمكبوتة والتي لم يتم إشباعها في الحياة الشعورية.

٢ ـ أحلام الانسان تنطلق من حياته اللاشعورية، والحلم بأحداثه وأشخاصه وأشيائه يتضمن رموزاً لتلك الرغبات المحرمة المكبوتة في اللاشعور.

٣ ـ رموز الاحلام لا تكون صريحة بل في شكل مقنع يسمح لها الرقيب الذاتي بالتعبير الاشباعي بشكل غير صريح.

وتفسير تلك الرموز هو تأويل للاحلام، وبالتالي فهم للحياة اللاشعورية في التشخيص والعلاج لحياة المرضى النفسية.

٤ ـ يجعل فرويد رموز الاحلام تدور كلها حول الثلاثي الذي يلخص أفكاره (الجنسية الطفولية المكبوتة) وهي رغبات جنسية محرمة سابقة لا يجيز المجتمع اشباعها في الشعور لضوابط الاخلاق والدين والاعراف فتظل في اللاشعور وتتحين فرص الاحلام للاشباع بأشكال مقنعة. على الرغم من أن تلامذة فرويد من أمثال (أدلر) أو (يونج) أو (هورني) أدخلوا رغبات (أنا) المتفوقة أو العدوانية لكنها جميعاً رغبات مادية جسدية.

فرويد في الميزان:

إن أفكار فرويد وأتباعه فيما يتعلق بالاحلام تمثل فترة تاريخية في النمو العلمي للدراسات النفسية. . فهي لا تمثل نهاية الطريق. ولاتمام الانجاز العلمي فهي كما يلي:

١ ـ إن أهمية الحياة اللاشعورية المتعلقة بمرحلة الطفولة أهمية اكيدة في الحياة الشعورية للانسان الراشد. . وهذه فكرة لها رصيد علمي مقبول. .

٢ ـ إن تحديد مصدر الاحلام بالحياة اللاشعورية السابقة للانسان فقط هو تقييد لا يقبله الفكر العلمي الذي لا يزال في بداية الطريق لدراسة النفس الانسانية وسلوكها.

٣ ـ إن جعل الحياة اللاشعورية للطفولة الجنسية المحرمة هي المحور الذي تدور عليه الاحلام في رموزها وتأويلها هو ادعاء فرضي ليس له سند علمي.

٤ ـ إن الاحلام التي درسها فرويد هي أحلام مرضى عصبيين وأفراد شواذ، فكيف يجوز علمياً تعميم نتائج تلك الحالات الشاذة والمنحرفة على الاصحّاء الاسوياء.

وموجز القول فإن مدرسة فرويد في الاحلام هي في أحسن فروضها تفسير جانبي لبعض عوامل الرؤى كما أنها تفسير مرحلي لفترة المرض النفسي فقط.

النظرية العلمية للرؤى:

إن الرؤى حقيقة قائمة في الحياة الانسانية في فترات النوم. وهذه الحقيقة النفسية القائمة لا تستلزم صدق مضمون الاحلام أو عدم صدقها ـ كما لا تستلزم مقدرة الانسان على فهم طبيعة الرؤى أو عدم مقدرته. . أو فهم محتوياتها أو عدم فهمه.

إن الرؤى تتحرر من قيود المكان ومن قيود الزمان.

فالتحرر المكاني يتجلى بالزمن الحاضر وما يجري في أمكنة متباعدة تسقط بينها الحواجز، فالنائم وهو في مدينة (س) يرى في المنام أنه في (ص) أو (ع) أو (ل) مع أهله ومعارفه. . أو مع أناس لا يعرفهم مثلاً في مكان لا يدريه. .

والتحرر الزماني يتجلى بالزمنين الماضي والمستقبل. في الماضي عما حدث وقد



طواه النسيان الشعوري، أو في المستقبل بطريق التنبؤ أو الترقب في سبيل الحذر مما يخشى أو الترجي للمأمول. .

فمن الرؤى ما هو انعكاس لحالات جسمية داخلية كالتخمة أو المغص حين يرى النائم نفسه في حرب أو خصام أو مرض. . أو في انعكاس لمؤثرات خارجية بحته، مثل ضوء ساطع فيرى النائم نفسه في النهار المشرق، أو قريباً من حريق. .

وتلك هي أضغاث أحلام أي أخلاط من انعكاسات مضطربة لا تتضمن إشارة هادفة إلى معنى جدي مفيد في الحياة النفسية الداخلية.

ومن الرؤى ما يعكس الحياة الواقعية بكل ما فيها من رغبات متصارعة ودوافع متنافسة فهي نوع من حديث النفس أثناء فترة النوم، فالفقير وهو يتوق للغنى جاهداً يرى نفسه قد اغتنى بين عشية وضحاها. . والمريض الذي أعياه المرض يرى نفسه كامل الصحة وموفور القوة وهكذا.

ومن الرؤى ما يحمل في طياته عنصر التنبؤ عن المستقبل القادم حين تسقط الرؤى حواجز الزمن. . كما في النماذج القرآنية.

نماذج قرآنية:

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة (الرؤى) لما يراه النائم ويحتمل التأويل بينما استخدم (اضغاث أحلام) لما يراه النائم من أخلاط في تصورات لا تحتمل تعبيراً. وقد جمع هذين النوعين باسم (أحاديث) وقد ورد هذا في سورة يوسف. . «ويعلمك من تأويل الاحاديث» «ولنعلمه من تأويل الاحاديث» «وعلمتني من تأويل الاحاديث.»

وفي اطلاق (الاحاديث) على الرؤى والاحلام اكثر من فائدة. . ذلك أن الحديث انما يكون بين طرفين. .

والطرفان قد يكون أحدهما الملك، وهذه البشرى، والتنبؤ بالمستقبل وهذه خاصية لبعض الناس الذين لهم أهلية واستعداد.



وقد يكون أحد الطرفين الهوى أو الشيطان. . وهذه رؤى الشر والكيد والفساد. . كما قد يكون الحديث بين الانسان ونفسه، وما يجري بينهما من تعارض الرغبات وتناقض الدوافع، كما قد يكون الحديث بين الانسان جسماً وما حوله من مؤثرات خارجية من مؤثرات البيئة.

وقد أورد القرآن عدة رؤى في سورة الانفال، والصافات، والاسراء، غير أن سورة يوسف عليه السلام تتضمن ثلاث رؤى تحمل معالم (الرموز) وعملية (التأويل). »[1]

قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً. .

يكيدوا لـك: أي يتكلموا معك بكلام حسن وهم في طيه يضمرون لك السوء، ويفعلون ظاهراً الفعل الجميل، وهم يرصدون لك الانتقام.

والكيد بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدو له قوي لا يقدر على معارضته بالبطش، ولا مصارعته بالانتقام، فيظهر له رفقاً ولين جانب، وهو في خلال ذلك ينصب له حبائل الشر حتى يرتطم فيها.

والكيد في اللغة يكون ممدوحاً ومذموماً، وان كان يستعمل في المذموم أكثر، من مثل: «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.» «أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون.» وسميت الحرب كيداً لما فيها من الاحتيال والاجتهاد والخديعة، ومنه حديث ابن عمر، غزا رسول الله ﷺ غزوة كذا وكذاولم يلق كيداً، أي حرباً.

لا تقصص «قص الرؤيا اخبر بها على وجه الدقة والاحاطة، وقد يفهم منه المعبر البصير المعنى المناسب للرائي القاص أو المعنى الذي تؤول إليه في المستقبل، اذا كانت رؤيا حق كما يقع للأنبياء عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته. .

فيكيدوا لك كيداً: أي إن تقصصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للإيقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية، كما يفعل الاعداء في المكايد

---

(١) د. عبد الحميد الهاشمي: لمحات نفسية في القرآن الكريم ص ٢٠٨ ـ ص ٢٢١.



الحربية، يقال كاده اذا وجه إليه الكيد مباشرة، وكاد له اذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا، أو لمنفعته، ومنه قوله تعالى: **﴿كذلك كدنا ليوسف﴾**..

عدو مبين: ظاهر العداوة بيّنها لا تفوته فرصة لها فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد، وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عندما تعرض له داعية من هوى النفس، وشرُّها الحسد الغريزي في الانسان..»[1]

«قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا له كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين.»

في هذه الآية تتجلى حكمة يعقوب في فهم واقع أبنائه ومحاولة معالجته لهذا الواقع بقدر الامكان، والتحرزِ من مضاعفة عوامل الحسد والغيرة في نفوس الاخوة جهد الطاقة، ومن هذا المنطلق وصاتُه ليوسف بأن لا يخبر إخوانه برؤياه، وقد يقال انه بهذا الكلام قد نبه وعي ابنه على ما قد يكون غائباً عنه، وان من الأسلم والافضل الابقاء على حاله على ما كان، ونقول: هذا يصح لو لم يكن من المحتمل أن يقص الولد على اخوانه فيتفاقم الشر ويقع المحذور.

وقد يقال: لم لم يمنعه من السرد والقص دون تعليل؟ ونقول ان الانسان يكون اكثر اقتناعاً بما عرف علته من الاشياء، فهذا التبرير والتعليل يحفز إلى الالتزام، ومن هنا كان الآمر الحكيم سبحانه يفرض علينا ما يفرض ويبرر لنا فرائضه علينا وهو الرب الذي حقه أن يعبد فيقول: **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** الخ.

ولاحظ أن يعقوب قد صاغ كلامه ألطف صياغة وفي كلمات دقيقة، حين عزا الدافع الشرير الذي قد ينشأ في نفس الاخوة إلى ما يثيره الشيطان ويلقيه من

---

(1) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٥٤.



وساوس اذ هو العدو المبين للانسان.

وتنكير كيداً يحتمل التعظيم والتحقير، فإن كان للتعظيم فليردع ابنه وليكون المنع آكد، وان كان للتهوين فحتى يخفف من أضغان النفوس بين يوسف واخوته.

قال في صفوة البيان في معنى فيكيدوا لك كيداً: «فيحتالوا في هلاكك احتيالاً خفياً لا قبل لك بدفعه. وكاد يتعدى بنفسه فيقال: كاده يكيده كيداً، ويعدى باللام لتضمنه معنى احتال.) أ. هـ[١]

وقد أخذ صاحب مؤتمر تفسير سورة يوسف من هذه الآية عدة فوائد نقتطف منها:

«١ ـ أنه ينبغي للاب أن يدلي بالنصح لابنه.

٢ ـ أنه يجب لذوي الفضل ألا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شرا.

٣ ـ ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على ايذاء أخ واحد من بينهم، فالحذر مطلوب.

٤ ـ أن للشيطان سلطة حتى على أولاد الانبياء.

٥ ـ أن تعدد الزوجات ربما أثار عداء ينتشر من الضرائر إلى اولادهن.

٦ ـ أن أهل الفضل والنبل محسدون من قديم الزمان.

٧ ـ أن الحسد قد يقع ممن هو في سن كبيرة لمن هم في سن الفتيان الصغار.»[٢]

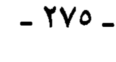
الشيطان:

ويطلق لفظ الشيطان على ابليس، وعلى أعوانه من الشياطين.

ويطلق على كل عدو لله ولو كان من الانس، لما بين الانسان والشيطان ساعتئذ من تشابه.

(١) صفوة البيان، حسنين مخلوف ص ٣٠٢

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف جـ ١ ص ٢٠٢





«وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن.» ولاحظ تقديم شياطين الانس.

«واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم.»

«الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس.»

وأما عداوة الشيطان للانسان فمما ركز عليه القرآن وأبرزه، «ان الشيطان للانسان عدو مبين»، «ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير». «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء». «وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم». «يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً»..

ولقد أبرزت قصة آدم ما جره الشيطان على الانسان من شر ووبال، وما يضمره الشيطان في نفسه نحو الانسان من كره شديد: «قال لا قعدن لهم صراطك المستقيم» «فبعزتك لاغوينهم اجمعين».. الخ الآيات، وهي كثيرة في هذا الباب.. والمفارقة أن لا يتخذ الانسان عدوَّه عدواً.

لا تقصص رؤياك:

«الرؤيا هي ما في المنام، كما أن الرؤية ما في اليقظة، فرق بينهما بحرفي التأنيث - الألف والتاء المربوطة -، كما في القربى والقربة - وحقيقة الرؤيا: ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المخيلة إلى الحس المشترك. والرؤيا الصادقة انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغ النفس من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق من المعاني الحاصلة هناك، ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه، فترسلها إلى الحس المشترك، فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت إليه.

فيكيدوا لك كيداً: أي كيداً متيناً راسخاً لا تقدر على التفصي عنه أو خفياً عن فهمك لا تتصدى لمدافعته، وهذا أوفق بمقام التحذير، وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه،

ان الشيطان للانسان عدو مبين: ظاهر العداوة فلا يألو جهداً في اغواء إخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه»[1]

قال في محاسن التأويل في قوله تعالى: ﴿لا تقصص رؤياك﴾:

«هذا النهي من الالهامات المجملة، يصل أثره إلى القلب، ولا يتشخص في النفس مفصلاً حتى يقع العلم؛ كما هو، فيقع في النفس منه خوف واحتراز ان كان مكروهاً، وفرح وسرور ان كان مرغوباً، ويسمى هذا النوع من الالهام، انذارات وبشارات. فخاف عليه السلام من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته، وزيادة قدره على اخوته، فخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك.»[2]

يا بني لا تقصص..

البلاغة:

«النداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب احضار الذهن اهتماماً بالغرض المخاطب فيه.

والتصغير في بني للتحبيب والشفقة.

والرؤيا هي رؤية الصور في النوم، فرقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث (الالف والتاء).

وقد علم يعقوب عليه السلام أن اخوة يوسف عليه السلام العشرة كانوا يغارون منه لفرط فضله عليهم خلقاً وخلقاً، وعلم أنهم يعبّرون الرؤيا إجمالاً وتفصيلاً، وعلم أن تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف عليه السلام على اخوته

---

(١) تفسير ابي السعود جـ ٤ ص ٢٥٢ ـ ص ٢٥٣ وقريب منه ما في البيضاوي مختصراً ص ٣٠٩.

(٢) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٠٤ ـ ٣٥٠٥ نقلاً عن القاشاني.



الذين هم أحد عشر، فخشي ان قصها يوسف عليه السلام عليهم أن تشتد بهم الغيرة إلى حد الحسد، وأن يعبروها على وجهها فينشأ فيهم شر الحاسد إذا حسد فيكيدوا له كيداً ليسلموا من تفوقه عليهم وفضله فيهم.

والكيد: إخفاء عمل يضر المكيد.
واللام في «لك» لتأكيد صلة الفعل بمفعوله. كقولك: شكرت لك.
وتنوين كيداً للتعظيم والتهويل زيادة في تحذيره من قص الرؤيا عليهم.

وقصد يعقوب عليه السلام من ذلك نجاة ابنه من أضرار تلحقه، وليس قصده ابطال ما دلّت عليه الرؤيا فإن يقع بعد اضرار ومشاق، وكان يعلم أن بنيه لم يبلغوا في العلم مبلغ غوص النظر المفضي إلى أن الرؤيا إن كانت دالة على خير عظيم يناله فهي خبر إلهي، وهو لا يجوز عليه عدم المطابقة للواقع في المستقبل، بل لعلهم يحسبونها من الانذار بالاسباب الطبيعية التي يزول تسببها بتعطيل بعضها.

وقول يعقوب عليه السلام هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأن التحذير لا يثير في نفسه كراهة لاخوانه، لأنه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحاً، عاذراً، معرضاً عن الزلات، عالماً بأثر الصبر في رفعة الشأن، ولذلك قال لإخوته: «انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.» وقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم.» وقال احد ابني آدم عليه السلام لأخيه الذي قال له لأقتلنك، حسداً: «لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك إني أخاف الله رب العالمين.»

ولذلك عقب يعقوب كلامه بقوله: ان الشيطان للانسان عدو مبين، ليعلم أنه ما حذره الا من نزغ الشيطان في نفوس اخوته. فجملة «ان الشيطان للانسان عدو مبين» واقعة موقع التعليل للنهي عن قص الرؤيا على اخوته. وعداوة الشيطان لجنس الانسان تحمله على أن يدفعهم إلى اضرار بعضهم ببعض وظاهر الآية أن يوسف لم يقص رؤياه على اخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على

طاعة أمر أبيه. ووقع في الاسرائيليات أنه قصها عليهم فحسدوه.»[1]

***

«وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق ان ربك عليم حكيم». - ٦.

لم يمنع تحذير يعقوب لابنه من قص رؤياه لم يمنع ذلك يعقوب أن يعبرها له ولو على وجه الاجمال وليؤكد له صراحة ما رآه في الرؤيا ضمناً.

فيقول له يعقوب ان هذا هو الناموس الذي ظهر لآبائك، وهذه بشارة بأن النبوة والاجتباء صائر اليك كما كان لاجدادك من قبلك.

واداة التشبيه الكاف بمعى المثل، قد يكون المعنى عندها، مثلما أكرمك الله بالرؤيا الصالحة يجتبيك.

والأحسن أن يكون التشبيه هو عين المشبه به[1]، أي اجتباءً كاملاً رائعاً مثل هذا الاجتباء الذي اكرمت به والذي من علاماته الرؤيا يجتبيك ربك ويعلمك.. ونظائر هذا في القرآن كثيرة: وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق، وكذلك أخذ ربك، وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا.

أما الاجتباء فالاختيار والاصطفاء، وقد وردت في القرآن الكريم في حق كثير من أنبياء الله عليهم السلام، فآدم عليه السلام «اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» وابراهيم «اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم» والانبياء عموماً «اجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم.»

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص٢١٢ - ص ٢١٥.

(١) ولعل مما يدعم اختيارنا هذا ما قال النحاس: الكاف، في موضع نصب لأنها نعت لمصدر محذوف. ص ١٢٤ اعراب القرآن، والتقدير على ما قال: اجتباء مثل هذا الاجتباء يجتبيك ربك



وللمرحوم الشيخ العلمي في مؤتمره تحقيق لغوي طريف في «يجتبيك» نقتبس منه:

«يقال: جباه الله واجتباه جمعه اليه وادناه منه واختاره دون سواه، فهو مجتبى منخول، مختار مصطفى، كلها كلمات متقاربة، والجابية تجمع الماء وجمعها جوابي، قال تعالى: ﴿وجفان كالجواب﴾ وقال: ﴿اولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي يجمع، وجبي الخراج يجبي جباية جمعه. وكلمة جبى تشارك جاب الثلاثية في حرفين فهما متقاربان في المعنى، جاب بمعنى قطع وفيه قوله تعالى: ﴿جابوا الصخر بالواد﴾ أي قطعوه، وجاب البلاد قطعها بالاسفار، واجتبيتها قطعتها، ووجه المقاربة بينهما في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها. فمعنى يجتبيك في الآية يختارك ويصطفيك ويدنيك منه، ويجمعك اليه، ويقتطعك من دون العالم إلى حضرته، تبارك المعطي الوهاب، فالله اجتبى يوسف، وملك مصر استخلصه لنفسه، وما الثانية الا مظهراً من مظاهر الأولى، فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبى لجميع من يعقل من اهل الأرض.

الله اجتبى يوسف وانتخله على اخوته، واختاره على عموم من سواهم من الاسرة، واصطفاه على سائر أهل عصره ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرهما، لأنه أصفاهم جوهراً، وأروضهم نفساً، وأطيبهم قلباً، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع يجتبيك باعتبار ما سيكون ليوسف آنذاك في القريب العاجل، وكل آت قريب، وما أبعد المسافات، وما أقرب ما هو آت!»[1]

قال القشيري في تفسيرها:

«أي كما اكرمك بهذه الرؤيا التي أراكها يجتبيك ويحسن إليك بتحقيق هذه الرؤيا، وكما اكرمك بوعد النعمة اكرمك بتحقيقها.

ويقال الاجتباء ما ليس للمخلوق فيه أثر، فما يحصل للعبد من الخيرات لا بتكلفه ولا بتعمده فهو قضية الاجتباء.

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف جـ ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧

وذكر القشيري من الوان وصور الاجتباء أن عصمه الله تعالى عن ارتكاب ما راودته امرأة العزيز عن نفسه.

ومن قضية الاجتباء كذلك هذا العفو الكريم باسباله الستر على فعل اخوته حيث قال: وقد أحسن بي اذ أخرجني من السجن، ولم يذكر خلاصه من البئر.

ومن قضية الاجتباء توفيقه لسرعة العفو عن اخوته حيث قال: لا تثريب عليكم اليوم.

ويتم نعمته عليك: من اتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن اتمام النعمة صونها عن السلب والتغيير[١]

قال الرازي:

«إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وقوله وكذلك يجتبيك يعني وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن، كذلك يجتبيك لأمور عظام. قال الزجاج: الاجتباء مشتق من جبيت الشيء اذا خلصته لنفسك.

وقوله: ويعلمك من تأويل الاحاديث المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام، يعني تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم.»[٢]

قال الشيخ حسنين مخلوف: «تعبير الرؤيا علم ما تؤول اليه. من الأوْل وهو الرجوع.»[٣] و«لو لم يكن ليوسف من عتاد ذهني، وهو في غيابة الجب الا ما كان قاله يعقوب في هذا الحديث عن خط سيره في المستقبل لكفاه ذلك ثقة بأن الله تعالى معه وأنه سيتكفل بحفظه.»[٤]

---

(١) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) التفسير الكبير جـ١٨ ص ٨٩

(٣) صفوة البيان ص ٣٠٢

(٤) في التذوق الجمالي لسورة يوسف ص ٣١



ويعلمك من تأويل الاحاديث

قال في الظلال: والتأويل هو معرفة المآل - فما الاحاديث؟ هل قصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذي تنتهي اليه منذ أوائلها - وهو الهام من الله لذوي البصائر المدركة النافذة، وجاء التعقيب ان ربك عليم حكيم مناسباً لهذا في جو الحكمة والتعليم؟ أم قصد بالاحاديث الرؤى والاحلام كما وقع بالفعل في حياة يوسف فيما بعد؟ كلاهما جائز، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب.»[1]

قال في المحاسن: «تأويل الاحاديث أي تعبير المنامات، وانما سمي التعبير تأويلاً، لأنه جعل المرئي آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير، وراجعاً إليه، والاحاديث اسم جمع للحديث، سميت به الرؤيا لأنها اما حديث ملك أو نفس أو شيطان.»[2]

قال ابو السعود: «كان يعقوب عليه السلام أشار بقوله «ويعلمك من تأويل الاحاديث» إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن، ورؤيا الملك، وكون ذلك ذريعة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التي عبر عنها بإتمام النعمة. وإنما عرف يعقوب ذلك منه من جهة الوحي. أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة، والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا، لا بد من توفيقه لتعبيرها، وتأويل أمثالها، وتمييز ما هو آفاقي منها، مما هو أنفسي، كيف لا، وهي

(١) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٦

(٢) المحاسن جـ ٩ ص ٣٥٠٦



تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام في عالم المثال وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها في عالم الشهادة.»[1]

تَمام النعمة

«ويتم نعمته عليك..»

«إن تمام النعمة لكل انسان انما يكون أمراً زائداً على النعمة مناسباً لما أنعم به، ولحال المنعم عليه، فإذا أضيف إلى نبي من الانبياء كان معناه تمكنه من أداء الرسالة، ونصره على أعدائه، واستقرار الامر له حتى يدخل الناس في دين الله، ولذلك لما عقد الرسول ﷺ معاهدة الحديبية مع قريش، وانتهت منازعتهم له، واستراح من حروبهم، وتيسر السبيل لدخول الناس في دين الله أفواجاً..خاطبه الله بقوله: **﴿انا فتحنا لك فتحا مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾**..

أما اذا أضيف اتمام النعمة إلى غير نبي، كان له معنى آخر مناسب لما أضيف اليه.. كما قال الله تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ في حجة الوداع: **﴿اليوم اكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾**[2]

وقال الطوسي: «اتمام النعمة هو أن يحكم بدوامها على اخلاصها من كل شائبة فهذه النعمة التامة بخلوصها مما ينغصها، ولا تطلب الا من الله تعالى، لأنه لا يقدر عليها سواه.

ثم أخبر سبحانه أنه عليم بمن يصلح أن يجتبى، حكيم في اجتبائه من يجتبيه، واضع للشيء في موضعه..

قال الفراء: «قوله وكذلك يجتبيك جواب لقوله إني رأيت أحد عشر كوكباً.»[3]

---

(١) تفسير ابي السعود جـ ٤ ص ٢٥٤

(٢) عبد الحميد كحيل: يوسف عليه السلام ص ١٩ - ٢٠.

(٣) تفسير التبيان جـ ٦ ص ٩٨ - ٩٩



البلاغة:

«عطف هذا الكلام على تحذيره من قص الرؤيا على اخوته اعلاماً له بعلو قدره ومستقبل كماله، كي يزيد تحلياً من سمو الاخلاق، فيتسع صدره لاحتمال أذى اخوته، وصفحاً عن غيرتهم منه وحسدهم إياه ليتمحض تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبوية عظيمة وطباً روحانياً ناجعاً.

والإشارة في قوله وكذلك إلى ما دلت عليه الرؤيا من العناية الربانية به أي ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربك في المستقبل.

فتعليم التأويل ناشيء عن التشبيه الذي تضمنه قوله «وكذلك»،

ولأن اهتمام يوسف عليه السلام برؤياه وعرضها على أبيه دل اباه على أن الله أودع في نفس يوسف عليه السلام الاعتناء بتأويل الرؤيا وتعبيرها.

والتأويل ارجاع الشيء إلى حقيقته ودليله. والحديث الشيء الحادث.

وتأويل الاحاديث ارجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعني بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصح أن يكون الحديث بمعنى الخبر المتحدث به، فالتأويل تعبير الرؤيا. سميت أحاديث لأن المرائي يتحدث بها الراؤون.

ولعل كلا المعنيين مراد، واختيار هذا اللفظ ايجاز معجز حكي به كلام طويل...

واتمام النعمة عليه اعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوة، أو هو ضميمة المُلْك إلى النبوة والرسالة، فيكون المراد اتمام نعمة الاجْتباء الاخروي بنعمة المجد الدنيوي.

والتشبيه في قوله كما أتمها على أبويك من قبل تذكير له بنعم سابقة، وليس مما دلّت عليه الرؤيا. ثم ان كان المراد من اتمام النعمة النبوة فالتشبيه تام، وان كان المراد من اتمام النعمة الملك فالتشبيه في اتمام النعمة على الاطلاق.



وجملة ان ربك عليم حكيم تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل لأنه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بان للاهتمام. والاهتمام ذريعة إلى افادة التعليل، والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السلام وتأهله لمثل تلك الفضائل.»[1]

***

«لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين.» آية ٧

تلمح الآية إلى منهج القرآن في عرض القصة.

«فهو ليس تاريخاً ينبغي أن يذكر فيه جميع أسماء الأزمنة والامكنة والاشخاص، وهو اذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب أن يلتزم ذكر هذه الاشياء تفصيلاً، وانما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس، «لقد كان في قصصهم عبرة.» أو بيان سنن الاجتماع «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين..»

أو للهداية والعظة «هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.»

أو للتذكر «ان هو الا ذكرى للعالمين ـ الانعام ـ (٩٠) «وإنه لتذكرة للمتقين ـ الحاقة ٤٨» «ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ـ ١١٤ هود. وربما اكتفى القرآن من القصة واقتصر على موضع العبرة فيها، لأن التفاصيل ربما تشغل عن الفائدة والعبرة.

وقد اهتدى بعض المؤرخين إلى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العليا منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية، وهي الامور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات، لما يقع فيها من الخلاف، ولما في قراءتها من اضاعة للزمن واسراف، وبهذه الطريقة يمكن ايداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه.

ان محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يرون فيها على أنه

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢١٥ ـ ص ٢١٧



بيان لها هي مخالفة لسنته، وصرف للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصده وحكمته، فالواجب أن نفهم ما فيه، ونعمل أفكارنا في استخراج العبر منه، ونزع نفوسنا عما ذمّه وقبّحه ونحملها على التحلي بما استحسنه ومدحه. .»[١]

قال المنار: «هذا شروع في القصة بعد مقدمتين: أولاهما في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الله دالاً على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربياً تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه، وكون النبي ﷺ كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه لا يدري منه شيئاً والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه. . فمثل هذا الترتيب البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والاحاطة بدقائقها. .»[٢]

لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين:

إن الآيات في يوسف واخوته وكل شخصيات القصة، ولكن السياق الكريم اقتصر على يوسف واخوته لأنهم موضوع القصة، ومحور السورة، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعَرَض.

يقول الشيخ العلمي الغزِّي: «جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من العلل التي يُظهر فيها حِكَمَه، ووسيلةً من الوسائل التي يرشد الناس بها للعبرة والعظة، فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب، بل لما حوته من العظات والعبر، وما اشتملت عليه من الحكمة والادب.

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ويتعلم الحكم التي وردت فيها، والغاية التي أراد الله من سرد مواضيعها. وان القاريء إن لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة.

---

(١) المؤتمر جـ ١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١

(٢) المنار جـ ١٢ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.



وينبغي أن لا تكون غاية القاريء معرفة معاني الالفاظ فقط، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب، ولا استفادة النكت التي تذكر في البلاغة، ان هنالك ما هو أهم وذلك ما تضمنته هذه السورة من الامثال وعجائب التدبير الالهي والمسائل الاجتماعية. ومن لم يفعل فإن مثله كمثل الغواص الذي كان يلتقط الجواهر، ثم انصرف عنها لما رأى سمكة، فترك اصطياد الدر لاصطياد السمكة..»[1]

وانتبه إلى تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها: آيات للسائلين.

قال القشيري: آيات للسائلين: يعني لكل ذي محنة حتى يعلم كيف يصبر، ولكل ذي نعمة حتى يعلم كيف يشكر ـ ويقال في قصتهم آيات في كيفية العفو عن الزلة، وكيفية الخجْلة لأهل الجفاء عند اللقاء. وفي قصتهم دلالات لطف الله سبحانه بأوليائه بالعصمة، وآيات على أن المحبة من المحنة.»[2]

قال ابو السعود: آيات: علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة.

للسائلين: لكل من يسأل عن قصتهم وعرفها، أو للطالبين للآيات المعتبرين بها، فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى: **﴿وكاين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾** أ. هـ[3]

قال ابو جعفر النحاس في اعراب القرآن:

«قرأ أهل المدينة واهل البصرة واهل الكوفة «آيات» وقرأ أهل مكة «آية» على واحدة واختيار أبي عبيد آيات لأنها عبر كثيرة، قال ابو جعفر ـ أي النحاس ـ: آية ههنا قراءة حسنة، أي لقد كان في الذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا خبرنا عن رجل من الانبياء كان بالشام

(١) المؤتمر جـ ١ ص ٢٥٢
(٢) اللطائف جـ ٣ ص ١٦٩
(٣) تفسير ابي السعود جـ ٤ ص ٢٥٥



أخرج ابنه إلى مصرَ فبكى عليه حتى عمي، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا ممن يعرف خبر الانبياء، وانما وجه اليهود اليه من المدينة يسألونه عن هذا فأنزل الله عز وجل سورة يوسف جملة واحدة فيها كل ما في التوراة من خبره وزيادة، فكان ذلك آية للنبي ﷺ بمنزلة إحياء عيسى ﷺ الميت. أ.هـ[1]

وفي كثير من التفاسير أن الذين سألوا الرسول هم اليهود[2]

والذي يترجح لي أن ما يروى من كون اليهود هم السائلين ليس الأوفق، وانما الاقرب لسياق السورة ولواقع المسلمين أن يكون السائلون إما المسلمين[3] أصحاب النبي ﷺ وهم الذين كانوا يستنصرونه ويتسقربونه فرج الله، فنزلت السورة تخبرهم بسنن النصر وقوانينه وأن ما هم فيه من شدة هو أول النصر وبداية التمكين: «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء..»

واما النبي نفسه ﷺ كما قال الطبري «وانما أراد جل ثناؤه بذلك نبيه محمداً ﷺ.»[4].

ومما جعلَنا نرجح ما ذكرنا من أن السائلين المشار اليهم هم المسلمون وليسوا اليهود أن الآيات التي في قصة يوسف انما يستفيد منها المسلمون فهي دلالات لهم وآيات. أما اليهود فلا يدلهم شيء ولا يهديهم من الاخبار شيء.

---

(١) اعراب القرآن للنحاس ط اوقاف العراق سنة ١٩٧٩ جـ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥

(٢) راجع مثلاً صفوة التفاسير جـ٢ ص ٤١ وفيه روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع اخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة - وارجع إلى القرطبي جـ ١٠ ص ١١٨ وروي عن سعد بن ابي وقاص رواية ثانية فيما رجحنا.

(٣) راجع مختصر ابن كثير جـ٢ ص ٢٣٩ ط دار القرآن بيروت ط ٧ سنة ١٩٨١ وارجع الى تفسير الطبري ط المعارف جـ ١٥ ص ٥٥١ - ٥٥٣ فقد ذكر عدة روايات ليس من بينها رواية واحدة تشير إلى اليهود أنهم السائلون. قال ابن كثير: وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قصصت علينا! فنزلت، فأرادوا القصص فدلّهم على أحسن القصص.

(٤) جـ ١٥ ص ٥٦١



ومن ناحية أخرى فإن في السورة من أخلاق اليهود ما يحرص بنو اسرائيل على اخفائه لا على اظهاره بالسؤال عنه.

قال الطوسي:

«اللام في قوله لقد هي اللام التي يتلقى بها القسم. فقد أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه كان في يوسف وفي اخوته آيات.

والآية الدلالة على ما كان من الأمور العظيمة.

والآية والعبرة والعلامة نظائر في اللغة.

وقال الرماني: الفرق بين الآية والحجة أن الحجة معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى.

والآية تكشف عن المعنى الذي فيه أعجوبة.

ووجه الآية في يوسف واخوته أنهم نالوه بالحسد والاذى، فصفح وعفا، وأحسن ورجع إلى الأولى، وكان ذلك خروجاً عن العادات.

وقال الزجاج الآية البصيرة الدالة على نبوة محمد الذي أنبأهم بالقصة وهو ﷺ لم يقرأ كتاباً قط..»[1]

«لقد كان في قصة يوسف واخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم.. وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام.

ثم يرد صاحب الظلال على العهد العتيق ومن ينقلون عنه زعمهم بأن يوسف قص على اخوته رؤياه فيقول:

«ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه ـ فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على اخوته قد تم عن طريق آخر، وهو حقدهم عليه لايثار أبيهم له.»[2]

(١) تفسير التبيان جـ ٦ ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٨



«بين الله تعالى أن في قصة يوسف واخوته آيات بينات، وبراهين ساطعات، تدل على صدق رسوله ﷺ.

في القصة آيات للسائلين عن صحة نبوته ﷺ وصدق رسالته.»[1]

جاء في محاسن التأويل: «لقد كان في قصتهم وحديثهم دلائل على قدرته تعالى وحكمته في كل شيء.. وآيات معظمات لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها تدلهم **أولاً**: على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى، لا يتعلق بسعي ساع، ولا ارادة مريد، **وثانياً**: أن من أراد الله به خيراً، لم يمكن لأحد دفعه، ومن عصمه الله، لم يمكن لاحد رميه بسوء، ولا قصده بشر، فيقوى يقينهم وتوكلهم. **وثالثاً**: تدل على أن كيد الشيطان أمر لا يؤمن، فيكونون منه على حذر. وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم، الذي هو الانتقال الذهني، على أحوالهم في البداية والنهاية، وما بينهما، وكيفية سلوكهم إلى الله، فتثير شوقهم وارادتهم، وتشحذ بصيرتهم، وتقوي عزيمتهم.»[2]

البلاغة:

«الظرفية المستفادة من (في) ظرفية مجازية بتشبيه مقارنة الدليل للمدلول بمقارنة المظروف للظرف، أي لقد كان شأن يوسف عليه السلام واخوته مقارناً لدلائل عظيمة من العبر والمواعظ، والتعريف بعظيم صنع الله تعالى وتقديره.

والآيات الدلائل على ما تتطلب معرفته من الامور الخفية. والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق، وأدلة المعلومات الدقيقة.

وجمع الآيات هنا مراعى فيه تعددها وتعدد أنواعها.. ففيها دلائل على ما

---

(١) يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير، لكحيل ص ٢١.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي جـ ٩ ص ٣٥١٣



للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر، وفيها من الدلائل على صدق النبي، وأن القرآن وحي من الله.

والسائلون مراد منهم من يتوقع منه السؤال عن المواعظ والحكم، كقوله تعالى: ﴿في أربعة أيام سواء للسائلين﴾ ومثل هذا يستعمل في كلام العرب للتشويق والحث على تطلب الخبر والقصة: قال طرفة: سائلوا عنا الذي يعرفنا.. وقال السموءل:

سلي ان جهلت الناس عنا وعنهم ليس سواء عالم وجهول

وقال عامر بن الطفيل:

طلقتِ ان لم تسألي أيُّ فارس حليلك اذ لاقى صَداءً وخثعما»(1)

***

﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين﴾ (٨)

من هذا المشهد يبتدىء سرد قصة يوسف بالظرف اذ مرة أخرى، فهناك اقترنت اذ بالموجز وهنا اقترنت اذ ببدء التفصيل.

والغريب أن الاخوة العشرة يجتمعون على قضية لا يليق بمثلهم سناً وتربية أن يجتمعوا عليها وتأمل رجالاً أشداء، أبناء نبي بل انبياء يعقوب واسحق يعقدون مؤتمراً غاضباً صاخباً لأجل حب أبيهم لاخيهم الصغير.

وتأمل كيف جرؤ هذا المقترح على افتتاح هذاالمؤتمر الحاقد لولا أنه رأى من نفوس اخوانه ومن تصريحاتهم وتلميحاتهم ما شجعه على أن يتولى كبر هذه المسألة غير هيّاب ولا وجل أن ينقلها أحد من اخوته لأبيه لأنه رأى منهم جميعاً ما رأى من نفسه غضباً وحنقاً وحقداً.

والتصريح باسم يوسف واخفاء اسم الاخ الآخر دلالته أن القوم مغتاظون من يوسف، وأما أخوه فليس بذي شأن بالنسبة ليوسف فألحقوه به الحاقاً.

(1) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢١٨ - ٢١٩.



ثم لفتة نبه اليها الدكتور حسن باجودة في كتابه الوحدة الموضوعية عن بروز ضمير المتكلم في هذه الآية، والتأكيد على اظهار ذواتهم في معرض الحديث عن تشخيص الواقع الذي يعيشون، وانظر كم مرة تردد ضمير المتكلم في نصف سطر: أبينا منا ونحن عصبة ان ابانا،

وهنا ننبه إلى أن الوهم قد يسيطر على الانسان فيقع الانسان فريسة له، وهذا الذي حدث مع ابناء يعقوب، وكما يقول الغزالي في المستصفى، فإن اغلب الناس يسيطر عليهم الوهم. ولذلك فنحن محتاجون أن نراجع ما عندنا من قناعات وما يعشش فينا من مسلَّمات، فلربما كان الكثير منها مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة على الاطلاق.

ومن هذا القبيل أي سيطرة الوهم خوف الملدوغ من الحبل المرقش كما يقول الغزالي رحمه الله، ومن هذا أيضاً خوف الناس من الظلمة، وخوف الناس من المكوث مع الميت.. كل هذه أوهام. وجنون العظمة وهم، والغرور وهم.. وغير هذه..

نعود إلى الاخوة، هل كان ثمة شيء من الذي قالوه، أم إنها خيالاتهم السقيمة والا فإنه لا يعقل من نبي كريم كيعقوب أن يقع منه ما يستوجب ثورة هؤلاء الابناء ولا حقدهم على أخيهم.

ولئن كان مميزاً بحب فهذا لا جريرة ليوسف فيه، فإن كان من خطأ فليس هو مخطئاً.

يدعي الاخوة انهم أحق بالأحبية من يوسف لأنهم عصبة، والعصبة كما في الكشاف[1] العشرة فصاعداً، وكما في مفردات الراغب[2] الجماعة المتعصبة المتعاضدة، وفي النهاية لابن الاثير[3] من العشرة إلى الاربعين.

---

(١) الكشاف ٢/٣٠٤

(٢) المفردات ص ٣٣٦

(٣) النهاية جـ٣ ص٢٤٣ دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.



والاثنان لا يطلق عليهما لغة عصبة، وكأن الاخوة يقولون نحن عصبة وليس هذان بعصبة.

وهذا الذي قالوه من أفضليتهم عنوان على فساد مقياسهم، اذ متى كانت الكثرة عنوان الافضلية ومعيارها. فمثقال من ذهب خير من مئة من تراب.

وما أشبه حالهم بقول القائل:

تقول انا الكبير فعظموني	ألا هبلتك أمك من كبير
اذا كان الصغير أعمَّ نفعاً	فما فضل الكبير على الصغير

قال الشيخ مخلوف في بيان معنى عصبة: «جماعة قادرون على خدمته دون يوسف وأخيه، والعصبة ما بين العشرة إلى الاربعين كالعصابة من العصب وهو الشد، لأن كل واحد منها يشد الآخر ويعضده، أو لأن الامور تعصب بهم أي تشتد فتقوى.» أ. هـ[1].

قال في اللطائف:

«لما حسدوا يوسف على تقديم ابيهم له لم يرض سبحانه حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام وخروا له سجداً ليعلموا أن الحسود لا يسود.

ويقال أطول الناس حزناً من لاقى الناس عن مرارة، وأراد تأخير من قدّمه الله أو تقديم من أخّره الله، فاخوة يوسف أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجب فرفعه الله فوق سرير الملك.»[2].

(١) صفوة البيان. ص ٣٠٢

(٢) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٧٠



إن أبانا لفي ضلال مبين

«اذ يؤثر غلاماً وصبياً صغيرين على مجموعة من الرجال النافعين الدافعين. ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان، فيختل تقديرهم للوقائع، تتضخم في حسهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام. تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح غلام بريء لا يملك دفعاً عن نفسه، وهو لهم أخ، وهم أبناء نبي، وتتضخم في أعينهم حكاية ايثار أبيهم له بالحب، حتى توازي القتل، اكبر جرائم الارض قاطبة بعد الشرك بالله»[1]

والضلال في الشيء فقدان الهدى فيه، سواء أكان كثيراً أم يسيراً، وسواء أكان عمداً، أم سهواً، أم تأويلاً، وسواءً أكان في الامور الدينية أم الدنيوية.

ومن الضلال الناشيء عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى: «فعلتها اذن وانا من الضالين». ومن اطلاق الضلال على النسيان: «أن تضل احداهما فتذكر إحداهما الأخرى.»

ويقع الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون تعمد الغلط، ولعل من هذا القبيل «ولا الضالين».

ووصف يعقوب هنا بالضلال، ووصفه في نهاية القصة كذلك «انك لفي ضلالك القديم» ووصف امرأة العزيز بالضلال لحبها يوسف، كل ذلك بمعنى الحب الشديد الزائد الذي يخرج عن الجادة، طبعاً في نظر من يقوله أو يصف به غيره بقطع النظر أكان ذلك مطابقاً للواقع أم لا.

قال في صفوة البيان: «في ضلال مبين أي خطأ ظاهر بايثارهما علينا بالمحبة،

(١) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٨ ـ ٦٩٩



مع فضلنا عليهما، وكونهما بمعزل عن كفاية الامور؛ ولم يريدوا الخطأ في الدين - وأصل الضلال: الميل عن المنهج السوي، يقال: ضل يضل اذا خفي وغاب وضاع.» أ. هـ[1]

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان: «الظاهر أن مراد أولاد يعقوب بهذا الضلال الذي وصفوا به أباهم انما هو الذهاب عن علم حقيقة الامر كما ينبغي. ويدل لهذا ورود الضلال بهذا المعنى في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في هذا المعنى قوله تعالى عنهم مخاطبين أباهم؛ قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم» وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف الا بالوحي، فهداك اليها وعلمكها بما أوحى اليك في هذا القرآن العظيم.

وليس مراد أولاد يعقوب الضلال في الدين، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كفاراً، وانما مرادهم أن أباهم في زعمهم في ذهاب عن ادراك الحقيقة، وانزال الامر منزلته اللائقة به، حيث آثر اثنين على عشرة، واعلم أن الضلال اطلق في القرآن إطلاقين آخرين.

أحدهما: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق الذي صابرت به الرسل - «ولقد ضل قبلهم اكثر الاولين». «ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً». . الخ.

الثاني: اطلاق الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، من قول العرب: ضل السمن في الطعام، اذا غاب فيه، ولذلك تسمي العرب الدفن إضلالاً لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك عظام الميت فيها، لأنها تصير رمياً وتمتزج بالارض، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وقالوا أإذا ضللنا في الارض. .﴾

ومن اطلاق الضلال على الغيبة قوله تعالى: ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي غاب واضمحل.

ومن إطلاق الضلال على الدفن قول نابغة ذبيان:

فآب مضلوه بعين جلية وغودر بالجولان حزم ونائل

---

(١) صفوة البيان ص ٣٠٣





فقوله مضلوه: يعني: دافنيه وقوله بعين جلية: أي بخبر يقين. والجولان جبل معروف دفن عنده المذكور.»[1]

البلاغة:

«افتتاح المقول بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقصد تحقيق الخبر. والمراد توكيد لازم الخبر اذ لم يكن فيهم من يشك في أن يوسف واخاه أحب إلى ابيهم، فأراد بعضهم اقناع بعض ليتمالأوا على الكيد ليوسف.

وأحب اسم تفضيل، وأفعل التفضيل يتعدى إلى المفضل بـ(من) ويتعدى إلى المفضل عنده بـ(إلى).

وجملة ونحن عصبة، في موضع الحال من أحب، والمقصود من الحال التعجب من تفضيلهما في الحب في حال أن رجاء انتفاعه من اخوتهما أشد من رجائه منهما، بناء على ما هو الشائع عند عامة البدو من الاعتزاز بالكثرة، فظنوا مدارك يعقوب مساوية لمدارك الدهماء، والعقول قلما تدرك مراقي ما فوقها، ولم يعلموا أن ما ينظر إليه أهل الكمال من أسباب التفضيل غير ما ينظره مَن دونهم.

وتكون جملة «ان ابانا لفي ضلال مبين» تعليلاً للتعجب وتفريعاً عليه.

والضلال إخطاء مسلك الصواب. وانما أراد القائل الخطأ في التدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد. والتخطئة في أحوال الدنيا لا تنافي الاعتراف للمخطيء بالنبوة.»[2]

---

(١) أضواء البيان جـ٣ ص ٤٦ ـ ٤٨

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢



﴿اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ (٩)

ونقف مع الآية وقفات عجلى، فما نحن بصدد تفسير تفصيلي، ولكن بصدد إعطاء فكرة عامة.

الوقفة الأولى التفكير بالقتل لأخيهم الصغير الذي لم يرتكب جريرة ولا جريمة، وهذا يذكرنا بقتل ابن آدم لاخيه، ويذكرنا بأن الانسان اذا خضع لوسوسة الشيطان انحط الى اسفل سافلين، ورد إلى مرتبة أحط من الوحوش، وصار كما توقعت الملائكة: اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وأي دماء!؟.. إنها دماء بريء.. وأي بريء!؟ إنه الأخ اللطيف المهذب الذي لم يسيء.. ولن يسيء.

وتأمل الانسان بين ما يريده الله له وما يريده له الشيطان.

ثم وقفة ثانية مع التراجع السريع عن القتل إلى الطرح أرضاً، والطرح أرضاً أخف من القتل، فقد يصل إلى حد القتل ولكنه قتل بالتسبب، وهم لا يريدون القتل بالعمد ولكن لا بأس بالقتل بالتسبب، وقد لا يترتب على الطرح أرضاً موت ولا قتل. إن هذا التراجع السريع يدل على أن ما صدر من تلفظ بالقتل ليس مقصوداً، ولكنها ثورة الغضب وسورة النفس في أول الأمر، ثم ما لبثت أن سكنت بعض الشيء.

النقطة الثالثة، هذه جريمة طريفة في هدفها وغايتها، ولو جاز التعبير لقلنا إنها جريمة نبيلة الهدف، على الأقل في نظر من يرتكبها. ولسنا نقول بأن هناك جريمة نبيلة الهدف، فالغاية النبيلة يجب أن تكون وسيلتها في مثل نبلها، فلا يسرق الانسان ليحج أو ليتصدق مثلاً.

وهذا يجعلنا ننتبه إلى المنطق الذي يسير تفكيرنا، فقد يكون خاطئاً مقلوباً ولكننا نحن لطول تعودنا عليه نعتبره سليماً معتدلاً. فلينتبه كل منا لنفسه ولمنطقه ولفكره وما يجول في داخله، ولا يعيش الانسان جاهلاً بنفسه.

فالهدف الذي زعموه: أنهم يريدون أن يزيحوا العقبة التي تقف أمام برهم لأبيهم وحبه لهم وحبهم له، والعقبة التي تحول دون صلاحهم.. انه منطق مخرَّق أخرق، أن نرتكب جريمة لوجه الله أو في سبيل الله أو ليكون فاعلها صالحاً مرضياً من الله.

ووقفة أخرى مع مداخل الشيطان، كيف أنه يصطنع لكل حالة أسلوبها ولكل شخص طريقة خطابه، ولينتبه المؤمنون أن ابليس لن ييأس منهم بعد أن آمنوا والتزموا، فقد يفسد عليهم التزامهم، بالتنطع، أو بالغلو، أو بكثرة الخلاف، أو بالتعالي على المسلمين، أو بسوء الظن بهم.. فليحذر المؤمنون.

«بدأت قصة يوسف بالحقد الذي ثار في نفوس اخوته لما رأوا من حب أبيه، فاجتمعوا على النيل منه وتآمروا على المباعدة بينه وبين أبيه، فليكن قتله حلاً لحب يفتقدونه وضغن استقر في نفوسهم لا يكاد يريم. ومع ذلك فقد كانت للقتل بشاعة ترهق نفوس الاخوة وتردها عن اقترافه والتورط فيه واحتماله، فلينصرفوا عن قتل أخيهم وليؤثروا المباعدة بينه وبين أبيه بالقائه في البئر حيث يلقى ما قدر عليه من مصير لا يستثنى منه الموت..»[1]

اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضاً:

«هذا رأي يدل على منتهى الدهاء، والمكر، وإحكام التدبير، فقد خيَّرهم في سلوك أحد طريقين كلاهما يقضي على يوسف القضاء المبرم، وأتى برأيه على صيغة الأمر ليكون أشد تأثيراً عليهم، وليحملهم على المبادرة الى تنفيذ ما رآه، وليقطع عليهم سبيل المعارضة، وفاجأهم باقتراح القتل أولاً ليصدع به قلوبهم،

(١) مصر في القرآن والسنة ص ٤٢



ثم أسرع إلى اقتراح طرحه أرضاً، ليهون على من كبر القتل على نفوسهم قبول هذا الرأي والاخذ به.

واني لأتصور هذا القائل الذي يمثل الرأس المدبر، يلهب الشعور ويشعل الصدور، ويثير فيهم كوامن الحقد، ويدفعهم إلى الشر دفعاً، ويأمرهم بالاسراع بتنفيذ ما يراه صالحاً لهم، ويصل بهم إلى الغاية التي ينشدونها من أقرب طريق.. اقتلوا يوسف، أخفوا أثره من الوجود، أو اطرحوه أرضاً، إن أبت نفوسكم الاقدام على القتل، فارموه في أرض بعيدة ليهلك فيها أو يغيب طول حياته، فلا يرجع إلى ابيه أبداً. فإن فعلتم أي الأمرين يخل لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم وحدكم، ولا يجد أمامه من ينظر إليه غيركم، فيصفو لكم وده، ويجتمع لكم حبه، ولا يكون من يشرككم في معزته ورضاه، وتكونوا من بعده قوماً صالحين: وتصيروا من بعد يوسف رجالاً صالحين، حائزين لجميع صفات الصلاح الدنيوي باستئثاركم بحب أبيكم كله، وبرضاه عليكم بعد اعتذاركم له، وبالتفرغ لتدبير شؤونكم الدنيوية، وحائزين لصفات الصلاح الديني بالتوبة إلى الله تعالى، والرجوع اليه، والاستقامة بعد ذلك على العبادة والتقوى.

وهذا مدخل من مداخل الشيطان التي يخدع بها المؤمنين ويغرهم بربهم الكريم، ويغريهم على الوقوع في المعصية، ارتكاناً على التوبة والصلاح بعد أن تزل أقدامهم.»[1]

«وهما قريب من قريب ـ فطرحه أرضاً في أرض نائية مقطوعة مُفْضٍ في الغالب إلى الموت.. ولماذا؟

يخل لكم وجه أبيكم.

فلا يحجبه يوسف، وهم يريدون قلبه ـ كأنه حين لا يراه في وجهه يصبح قلبه خالياً من حبه، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين.

---

(١) نظرات في التفسير ص ٢٥ ـ ٢٦



والجريمة؟! الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتكابها «وتكونوا من بعده قوماً صالحين».

هكذا يزغ الشيطان، وهكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحة تقديرها للأشياء وللأحداث. وهكذا لما غلا في صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم: اقتلوا.. والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات! وليست التوبة هكذا. انما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى اذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة. أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفاً قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، انما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان.»

ولكن ضميراً واحداً فيهم، يرتعش لهول ما هم مقدمون عليه فيقترح حلاً يريحهم من يوسف، ويخلي لهم وجه أبيهم، ولكنه لا يقتل يوسف، ولا يلقيه في أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك، انما يلقيه في الجب على طريق القوافل، حيث يرجح أن تعثر عليه احدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيداً.»[1]

قال في لطائف الاشارات:

«يخل لكم وجه أبيكم: أي يخلص لكم إقبال ابيكم عليكم. وقديماً قيل: من طلب الكل فاته الكل، فلما أرادوا أن يكون اقبال يعقوب عليه السلام بالكلية عليهم قال تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾.

ويقال: كان قصدهم ألا يكون يوسف أمام عينه، فقالوا: اما القتل واما النفي ولا بأس بما يكون بعد ألا يكون يوسف.

وتكونوا من بعده قوماً صالحين:

عجّلوا بالحرام، وعلقوا التوبة بالتسويف والعزم، فلم يمح ما أجّلوا من التوبة ما عجلوا من الحوْبة.»[2]

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٦٩٩

(٢) لطائف الاشارات جـ ٣ ص ١٧٠

ان هذا النمط من التوبة يحتاج إلى توبة، كما كان يقول **القائل**: ان استغفارنا يحتاج إلى استغفار. .

ومن اللطائف والفوائد أيضاً ما نقله القاسمي في المحاسن:

«في الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد، كالمال، وقد يمنع من المحبة الاصلية من القرابة ونحوها، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الاجانب. وأن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمن يراعيه، والحسد انما يكون برؤية الماكر نفسه اكمل عقلاً من الممكور به. وأن الحاسد اذا ادعى النصح والحفظ والمحبة وأظهر ذلك لم يعتمد عليه.

وفي الآية أن من طلب مراده بمعصية الله بعد عنه.»[1]

البلاغة:

«هذه جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن الكلام المتقدم يثير سؤالاً في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه، فهذا المقصود للقائلين. وإنما جعلوا له الكلام السابق كالمقدمة لتتأثر نفوس السامعين، فإذا القي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه.

وهذا فن من صناعة الخطابة أن يفتح الخطيب كلامه بتهيئة نفوس السامعين لتتأثر بالغرض المطلوب، فإن حالة تأثر النفوس تغني عن الخطيب غناء جمل كثيرة من بيان العلل والفوائد.

والخلو حقيقته الفراغ. وهو مستعمل هنا مجازاً في عدم التوجه لمن لا يرغبون توجهه له، فكان الوجه خلا من أشياء كانت حالّة فيه.

واللام في قوله لكم لام العلة، أي يخل وجه أبيكم لاجلكم، بمعنى أنه يخلو

(١) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٢٠ ـ ٣٥٢١



ممن عداكم فينفرد لكم. وهذا المعنى كناية تلويح عن خلوص محبته لهم دون مشارك.

وعطف وتكونوا من بعده على يخل ليكون من جملة الجواب للأمر «اقتلوا». واقحام لفظ «قوماً» بين كان وخبرها للاشارة إلى أن صلاح الحال صفة متمكنة فيهم، كأنه من مقومات قوميتهم»[1]

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤

﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين﴾ (١٠)

هذه انكسارة أخرى في حدة اللهجة والتراجع عن القتل وحتى عن الطرح.

والملاحظ أن القرآن هنا لم يسم هذا القائل، ذاك ليشير لك أن القائل ليس واحداً بعينه دون موافقة لما عند غيره، بل هم جميعاً متفقون، وهذا عبر عما في نفوسهم جميعاً.

ثم لاحظ التراجع من الطرح وما فيه من غلظة وشدة إلى الالقاء وما فيه من تخفيف، ولذلك جاء أمر الله إلى أم موسى فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، وجاء الأمر إلى اليم فليلقه اليم بالساحل.

ثم لاحظ أن الالقاء في الجب - وأل هنا للعهد لا للجنس - أي الجب المعهودة المعروفة لكم، والتي ليس فيها ماء مغرق، وليست مهجورة بحيث تكون مأوى العناكب والحيات والعقارب، وليست معزولة عن طريق المارة فيموت من الجوع، ولكنها الجب التي تعرفون على ممر السيارة حتى يلتقطه هؤلاء ويأخذوه..

إن الغرض تدرج الآن وتحدد في الابعاد ليوسف فقط دون ما هو أعلى من ذلك من صور الاذى...

ثم لاحظ هذا التذييل للآية الكريمة: «ان كنتم فاعلين».. كأنه يحرضهم من طرْف خفي على ألا يفعلوا..

قال الخازن والجمل: «فيه اشارة إلى ترك الفعل فكأنه قال: لا تفعلوا شيئاً



من القتل والتغريب، وان عزمْتم على الفعل ولا بد فافعلوا هذا القدر أي القاءه في البئر.»[١]

وفي معنى غيابة الجب قال الشيخ العلامة حسنين مخلوف في صفوة البيان: «في قعر الجب حيث يغيب خبره، والجب: البئر التي لم تطو أي لم تبن بالحجارة، وجمعه أجباب وجباب وجببة، وسميت جباً لأنها قطعت في الارض قطعاً. والغيابة غور الجب وما غاب منه عن الاعين وأظلم من أسفله.»[٢]

قال في الظلال: ونحس من قوله ان كنتم فاعلين، روح التشكيك والتثبيط، كأنه يشككهم في أنهم مصرّون على ايقاع الأذى بيوسف، وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا كان أقل ما يشفي حقدهم، ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه..

نفهم هذا من المشهد التالي في السياق..»[٣]

قال في اللطائف:

«اخوة يوسف وان قابلوه بالجفاء منعتهم شفقة النسب وحرمة القرابة من الاقدام على قتله، فقالوا: لا تقتلوه وغيبوا شخصه.

ويقال انما حملهم على القائه مرادهم أن يخلو لهم وجه أبيهم، فلما أرادوا حصول مرادهم في تغييبه لم يبالغوا في تعذيبه.

ويقال: لما كان المعلوم له سبحانه في أمر يوسف تبليغه اياه تلك القربة القى الله في قلب قائلهم حتى قال: لا تقتلوا يوسف.

ثم انه وان أبلاه في الحال، سهّل عليه ذلك في جنب ما رقاه إليه في المآل.

---

(١) تفسير الخازن جـ٣ ص ٢٦٦ المطبوع مع تفسير البغوي ـ الطبعة الثانية ١٩٥٥ مصطفى البابي الحلبي والفتوحات الالهية جـ٢ ص ٤٣٨

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٣٠٣.

(٣) الظلال جـ٤ ص ٧٠٠



قال قائلهم:

كم مرة حفّت بك المكاره خار لك الله وأنت كاره»[1]

البلاغة:

قال في المحاسن: «أظهر اسم يوسف في مكان الاضمار (أي بدل لا تقتلوه) استجلاباً لشفقتهم عليه أو استعظاماً لقتله[2] «قوله: وألقوه في غيابة الجب يلتقطه: مقصود قائله اظهار أن ما أشار به من القاء يوسف عليه السلام في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله، لأن بالقائه يحصل ابعاده عن أبيه ابعاداً لا يرجى بعده تلاقيهما، من غير الحاق ضر القتل بأخيهم، والتقاط السيارة إياه يزيده بعداً على بعد.

والالتقاط تناول شيء من الارض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.

والسيارة الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنهم علموا أن الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر.

وجملة ان كنتم فاعلين شرط حذف جوابه لدلالة «والقوه»، أي ان كنتم فاعلين ابعاده عن أبيه، فألقوه في غيابة الجب ولا تقتلوه.

وفيه تعريض بزيادة التريث فيما أضمروه لعلهم يرون الرجوع عنه أولى من تنفيذه، ولذلك جاء في شرطه بحرف الشرط وهو «إن»، ايماء إلى أنه لا ينبغي الجزم به.»[3]

***

«قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا لهُ لنصاحون.» آية ١١

شرحت الآية السابقة تخطيط الاخوة وهذه الآية تشرح شروعهم في التنفيذ.

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٧١

(٢) تفسير محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥١٥

(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٢٤ - ص ٢٢٦

وقد رأينا أنهم استقروا على الكلمة الاخيرة التي استبعدت القتل، ورأت الحل في الابعاد فحسب.

وهكذا جاءوا أباهم مصممين على أخذ يوسف، وسيحتالون لذلك بكل حيلة ويتذرعون بكل ذريعة. وهذا الذي جعلهم يقدمون الاغراءات من زعم أنهم يريدون لاخيهم أن يتنزه وأنهم ناصحون في الذي يقولون، وأنهم لاخيهم حافظون.

وقد بدأوا بداية غريبة في الكلام، قد نستنتج منها السذاجة البالغة ويمكن استنتاج الذكاء الخبيث، أما السذاجة فمن جهة أنهم بهذه الكلمة يطابقون قول القائل: يكاد المريب يقول خذوني، فهم يقدمون اتهام انفسهم من غير ان يتهمهم أحد.

واما الذكاء الخبيث، فلأنهم بدأوا بالهجوم اذ هو آخر وسيلة للدفاع وحتى يضعوا أباهم في موضع لا خيار له فيه، وإلا فان عدم إرساله معهم يعني حسب رأيهم التمييز وتخوين الأبناء وانطواء صدر الوالد على أمور ليست صحيحة.

وقد فهم الدكتور احمد يوسف من هذا السؤال من الاخوة أنهم سألوا خروجه معهم من قبل اذ قال: «وظاهر أنهم كانوا تقدموا إلى ابيهم من قبل في اصطحابه والخروج به فأظهر الخوف عليه والشك فيهم، وقد كان يعلم أن في نفوسهم وقلوبهم ذئباً ضارياً يتربص به ريب المنون.»[1]

والنصح هنا هو اخلاص الود وهو عموماً الاخلاص، ومنه «إذا نصحوا لله ورسوله»، ومنه حديث البخاري: الدين النصيحة.[2]

قال القشيري:

«كلام الحسود لا يسمع، ووعده لا يقبل، وان كانا في معرض النصح،

(١) مصر في القرآن والسنة ص٤٢

(٢) رواه البخاري تعليقاً ورواه أبو داود والنسائي والترمذي وأحمد وهو صحيح كما في الجامع الصحيح وشرحه جـ٣ ص ٥٥٥



فإنه يطعم الشهد ويسقي الصاب.

ويقال: العجب من قبول يعقوب عليه السلام ما أبدى بنوه من حفظ يوسف عليه السلام، وقد تفرس فيهم قلبه فقال ليوسف: فيكيدوا لك كيداً..

ويقال: من قبل على محبوبه حديث أعدائه لقي ما لقي يعقوب في يوسف من بلائه.»(١)

مالك: سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع اخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه ألا يحتمل الجو والجهد الذي يحتملونه وهم كبار، لا لأنه لا يأمنهم عليه. فمبادرتهم له بأنه لا يأتمنهم على أخيهم وهو أبوهم، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثم يفقد اصراره على احتجاز يوسف. فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة!

«وانا له لناصحون»

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء - وكاد المريب أن يقول خذوني - فذكر النصح هنا وهو الصفاء والاخلاص يشي بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب.»(٢)

قال الطوسي في معنى تأمنا، وناصحون:

«الأمن سكون النفس إلى انتفاء الشر، وضده الخوف، وهو انزعاج النفس لما يتوقع من الضر.

وقوله تعالى وإنا له لناصحون تمام الحكاية عنهم أنهم قالوا إنا ليوسف

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٧١ ويعقوب عليه السلام لم يقبل حديث الابناء - الاعداء - على ما قال القشيري وانما هو لذلك مضطر.

(٢) الظلال جـ٤ ص ٧٠٠ - ٧٠١



ناصحون وعليه مشفقون. والنصح اخلاص العمل من فساد يتعمد ونقيضه الغش. والنصح في التوبة اخلاصها مما يفسدها.»(1)

البلاغة:

«وإنا له لناصحون، معترضة بين جملتي ما لك لا تأمنا، وجملة أرسله.

وجملة: «وإنا له لحافظون» في موضع الحال، مثل «وإنا له لناصحون». والتأكيد فيهما للتحقيق تنزيلاً لأبيهم منزلة الشاك في أنهم يحفظونه وينصحونه كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث انه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه.

وتقديم «له» في قولهم: «له لناصحون»، و«له لحافظون» للاهتمام بشأن يوسف، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره.»(2)

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ آية ١٢.

أطمعوا يعقوب عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحة نفس يوسف في اللعب، والرتع الاكل والتوسع فيه.

وتأمل هذا الحرص والمسارعة وهذا الاقناع ومحاولة التأثير.

وفي الآية اكثر من قراءة، يرتعِ ويلعب، نرتع ونلعبْ، - أي بالياء والنون - ولئن كان لنا أن نرجح قراءة على قراءة او نختار فانا نختار قراءة يرتع لأنهم يريدون له هو هذا الأمر وهذه المصلحة.. وكذلك يلعب اذ هو المتصور منه اللعب أكثر من الكبار.

والقراءات الأخرى طبعاً صحيحة بل متواترة.. ولها وجهتها ووجاهتها وتوجيهها.

---

(1) تفسير التبيان جـ ٦ ص ١٠٤

(2) تفسير التحرير والتنوير حـ ١٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون﴾، آية ١٣.

اعتذر الوالد عن دعوة أبنائه لأخيهم بعذرين الحزن على الولد وذهابه من عنده، ثم اعتذر ثانياً بخوف أن يأكله الذئب في ساعة غفلة منهم. وهو لا يتّهم اخلاصهم. وتأمل الحكمة، واسلوب التربية العظيم، فإنه ليس من الحكمة أن أهدم جسر الثقة بيني وبين من أربي حتى يهدمه هو. فيعقوب يعلم من أبنائه يقيناً ما هم عليه من سوء طوية لكنه لا يفاتحهم بذلك حرصاً على بقاء خيط الحياء في نفوس الأبناء موصولاً، فإذا انقطع تجرأوا على المعصية اكثر. فلينتبه الآباء والامهات والمدرسون من هذه النقطة: أن انقطاع حبل الحياء بين الكبير والصغير يجعل الحياة لا تطاق.

وقد ينشأ هنا سؤال: هل أخبر يعقوب بغير الحقيقة حين قال: وأخاف أن يأكله الذئب؟ والجواب لا بطبيعة الحال، إن نبي الله لا يخبر بغير الحقيقة، فخوف الذئب، واحتمال عدوانه قائم وموجود، واحتمال التغافل والتشاغل عن الولد ليتمكن منه الذئب وارد، وخلاصة القول ان قوله وأخاف أن يأكله الذئب هو عين الحقيقة وليس خُلْفاً من القول. أو نقول إنه موقن أن الذئب لن يأكل ولده، ولكنه يحكي لهم من باب الاحتمال العقلي فحسب وان لم يكن من باب الاحتمال الواقعي، فإن يعقوب كان يبشر ابنه قبل قليل بأن الله عز وجل سيجتبيه ويتم نعمته عليه.

قال القشيري:

«يحزنني أن تذهبوا به لأني لا أصبر عن رؤيته ولا أطيق على فرقته.. هذا إذا كان الحال سلامته، فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب؟! ويقال: لما جرى على لسان يعقوب عليه السلام من حديث الذئب صار كالتلقين لهم، ولو لم يسمعوه ما اهتدوا إلى الذئب.»[١]

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٧٢

وقال الطوسي: «الحزن ألم القلب بفراق المحب ويعظم اذا كان فراقه إلى ما يبغض..»(١)

«لم يكتف الاب الرحيم بما أبداه بنوه من تأكيدات في نصحهم ليوسف، ومحافظتهم عليه، بل أراد أن يتوثق لنفسه، ويأخذ الحيطة لابنه الذي يحبه، وعز عليه فراقه، ولم يصرح لهم بأن أخشى ما يخشاه على يوسف هو كيدهم له لئلا يزيد حقدهم عليه، وانما أبان لهم مكانته في نفسه، ومنزلته في قلبه، من الحب، ليرعوا فيه حق الابوة، ولفت نظرهم إلى خوفه من شيء آخر هو الذئب ليتعهدوا بالمحافظة عليه، ويردوه إليه سليماً، ومتى تعهدوا بذلك وعزموا على الوفاء كان ذلك كافياً ولا داعي لإظهار الخوف عليه منهم، فإن ذلك يثير الاحقاد، وليس هذا بسبيل الحكماء..»(٢)

«رداً على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب ينفي ـ بطريق غير مباشر ـ أنه لا يأمنهم عليه، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه، وخوفه عليه من الذئاب: قال اني ليحزنني...

انني لا أطيق فراقه.. ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها، أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا للنشاط والمسرة.

وأخاف أن يأكله الذئب..

ولا بد أنهم وجدوا فيها عذراً كانوا يبحثون عنه، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب!.»(٣)

«انما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به يحدث به حزناً ليصرفهم عن

---

(١) التبيان جـ ٦ ص ١٠٧

(٢) يوسف عليه السلام لعبد الحميد كحيل ص ٣٣.

(٣) الظلال جـ ٤ ص ٧٠١



الالحاح في طلب الخروج به لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه. وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع الحاحهم بتحقيق أن حزنه لفراقه ثابت.»[1]

* * *

﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذاً لخاسرون﴾ آية ١٤

يظهر من مدافعتهم لكل ما يعطل ذهابهم بالولد حرصهم على اصطحابه لحاجة في نفوسهم، وما كانت تغيب هذه النفسية عن يعقوب، ولكنه ليس دائماً نفعل ما نحب ونختار، بل كثيراً ما تحمل أعمالنا صفة الاضطرار. ثم انه خشي ان لم يرسله معهم ان تزداد النار اشتعالاً، والعداوة عداوة، فاختار أهون الشرين وأخف الضررين، أن يرسله مع احتمال الشر، أو يبقيه مع تأكد زيادة الشر.

ولا نلومنَّ من يعمل العمل قبل التجربة، فإنه لا ذكاء بعد وقوع التجربة.

ولاحظ أن الاخوة لم يتعرضوا للشق الأول من كلام ابيهم اني ليحزنني أن تذهبوا به، وذلك إما لأنه غاظهم فلم يردوا عليه، أو لأنه لا حيلة لهم فيه فبم يردون؟ فتجاوزوه. ثم ان الاب تخوف من غفلتهم عن الولد، وهم أجابوا بأنهم عصبة ولم يشيروا إلى التنبه أو الغفلة، وقد تغفل العصبة.

ثم لم يشيروا إلا إلى قوة العدد ولم يشيروا إلى النصح للولد.

قال القشيري:

«لحق اخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا: «إنا اذاً لخاسرون»: لأن من باع أخاً مثل يوسف بمثل ذلك الثمن حقيق بأن يقال: قد خسرت صفقته.»[2]

«لئن غلبنا الذئب عليه، ونحن جماعة قوية هكذا، فلا خير فينا لأنفسنا واننا لخاسرون كل شيء، فلا نصلح لشيء أبداً.

---

(١) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢

(٢) اللطائف جـ٣ ص ١٧٣ ولعل القشيري هنا يقصد ان الاخوة هم الذين باعوه للسيارة كما هو قول كثير من المفسرين. وهذا لا يصح ولا يتصور.



وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الاحراج ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئته.

والآن وقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء، والله سبحانه يلقي في روع الغلام أنها محنة وتنتهي، وأنه سيعيش وسيذكّر اخوته بموقفهم هذا منه وهم لا يشعرون أنه هو.»[1]

البلاغة:

«اللام في لئن موطئة للقسم، أرادوا تأكيد الجواب باللام، وانّ، ولام الابتداء، واذن الجوابية، تحقيقاً لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشرط، والمراد الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إياه لأن المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران. أي إنا اذاً لمسلوبون من صفات الفتوة من قوة ومقدرة ويقظة.»[2]

﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ آية ١٥.

رضخ يعقوب أخيراً للاعتبارات التي أسلفنا، وكانت كلمة الاخوة قد استقرت على مجرد الابعاد كما قلنا، والنص هنا يفيدنا أن الله عز وجل ألقى في روع يوسف ما يطمئنه بأنه سيأتي عليه يوم ينبيء اخوانه بالذي فعلوه معه وهم غافلون لا يشعرون.

وكيف كان الالقاء في الروع؟ لا ندري، والذي نقطع به وقوعُه.

وتأمل في هذه الآية لطف الله عز وجل، كيف يبتلي عباده ولكنه لطيف بهم.

(١) الظلال جـ ٤ ص ٧٠١ ـ ٧٠٢

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ص ٢٣٢



وقد يقال أليس كمال اللطف عدم الابتلاء؟ والجواب الايماني والعقلي معاً: لا. لأن الخلق مخلوقون لحكمة الابتلاء، ولولا البلاء والابتلاء لتأسنت الحياة، ولما عُرف المتقدم من المتأخر والسابق من المبطّيء، والمجاهد الصابر من القاعد المتخلف المتخوف. فالحياة والابتلاء قرينان: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم»، «انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم..» «إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه.»

لكن الله الذي يبتلي عباده يلطف بهم حتى في الابتلاء، انظر كيف يطمئن هذا الولد المسكين حتى لا يتقطع قلبه كمداً وحزناً وخوفاً.

ثم لطف آخر هو أنه ما جَعَل الاخوة يعملون هذا العمل مع يوسف الا وقد بلغ سن الادراك والفهم، وبعد أن غرست في قلبه بذرة التوحيد.

ثم لطف ثالث انه أراه الرؤيا التي طمأنته وطمأنت أباه، ثم لطف آخر أكبر كيف ان الله حول البلاء إلى نعماء والضراء إلى سراء والشر إلى خير على غير توقع من أحد وبلا تدبير من أحد. وصدق الله: الله لطيف بعباده.

وتأمل من صياغة الآية أن جواب فلما محذوف: وتقديره فلما ذهبوا به فعلوا به ما فعلوا وكان منهم الذي كان، والحذف ابلغ من الذكر. قال القشيري: «الجواب فيه مقدر، ومعناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فعلوا ما عزموا عليه. أو فلما ذهبوا به وألقوه في غيابة الجب أوحينا اليه، فتكون الواو صلة» أ. هـ.[1] ومنتهى الأمر أن الاخوة وصلوا إلى بغيتهم وسنحت لهم أخيراً فرصتهم ليضربوا ضربتهم، وما كانوا ليضيعوها.. فكان منهم الذي كان. وما أصدق فيهم مع أخيهم قولَ القائل:

ألا ان اخـواني الـذين عهـدتهم	أفـاعي رمـال لا تقصّر عن لسعي
ظـننـت بهـم خـيـراً فـلما بـلوتهـم	نـزلت بـواد منهـم غـير ذي زرع

(١) اللطائف ٣: ١٧٣

وفي معنى أجمعوا قال في صفوة البيان: «عزموا عزماً قوياً، يقال: أجمعت السير والأمر واجمعت عليه: عزمت عليه.»[1] أ.هـ.

وقال الطوسي في معنى أجمعوا:

«لا يقال أجمع الا اذا قويت الدواعي إلى الفعل من غير صارف، وأما من دعاه داع واحد، فلا يقال فيه انه أجمع، فكانه مأخوذ من اجتماع الدواعي ويجوز أن يكون المراد انهم اتفقوا على القائه في غيابة الجب.»[2]

ولا يخفى أن المعنى المتبادر هو اجتماع كلمتهم، وان كان المعنى الذي أفاده الطوسي جميلاً يمكن أن يضاف إلى المعنى المتبادر لا أن يكون بديلاً.

وقال في المحاسن تعقيباً على أجمعوا: «فيه تعظيم لما أزمعوا، اذ أخذوه ليكرموه، ويدخلوا السرور على أبيه، ومكروا ما مكروا.»[3]

قال شلبي في حياة يوسف في معنى قوله تعالى: وأوحينا:

«لقد بدأت النبوة.. الايحاء قد حدث.. النبوة قد بدأت.. الايحاء إلى طفل كما أوحى تعالى إلى عيسى عليه السلام وهو في المهد..»[4]

وليس الأمر على ما قال الاستاذ.. فهذا الوحي كالوحي إلى أم موسى ليس نبوة..

قال القشيري في اللطائف:

«لما حلت بيوسف البلوى عجلنا له التعريف بما ذكرنا من البشرى، ليكون محمولاً بالتعريف فيما هو متحمل له من البلاء العنيف.

ويقال: حين انقطعت على يوسف مراعاة أبيه حصل له الوحي من قبل مولاه، وكذا سنته تعالى أن لا يفتح على نفوس أوليائه باباً من البلاء الا فتح على

---

(١) صفوة البيان ص ٣٠٤

(٢) التبيان جـ ٦ ص ١٠٩

(٣) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥١٧

(٤) حياة يوسف لشلبي ص ٢٩



قلوبهم ابواب الصفاء، وفنون لطائف الولاء»[1]

وقال في صفوة البيان في طرق الوحي المتصورة إلى يوسف: «أي بطريق الالهام، أو مبشرات الرؤيا، أو بإرسال جبريل، تطميناً له وليس استنباء.»[2]

قال في أضواء البيان: «قرأ جمهور القراء غيابة بالافراد، وقرأ نافع غيابات بصيغة الجمع، وكل شيء غيب عنك شيئاً فهو غيابة، ومنه قيل للقبر غيابة:

وان أنا يوماً غيبتني غيابتي ... فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

واختلف العلماء في جواب لما أمثبت هو مذكور أم محذوف.

فقيل مذكور هو: «قالوا يا أبانا إنا ذهبنا» واستحسنه ابو حيان.

وقيل جواب لما هو قوله: أوحينا والواو صلة. وهذا مذهب الكوفيين، تزاد عندهم الواو في جواب لما، وحتى، واذا، وعلى ذلك خرجوا قوله تعالى: **﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه﴾** وقوله: **﴿حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها﴾**

ومن شواهد هذا من اقوال العرب قول امريء القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى ... بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل

أي لما أجزنا ساحة الحي انتحى.

وقيل جواب لما محذوف، وهو قول البصريين، واختلف في تقديره. وقدره بعضهم: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب جعلوه فيها.

واستظهر هذا الأخير أبو حيان، لأن قوله: «وأجمعوا أن يجعلوه» يدل على هذا المقدر»[3]

وأوحينا اليه لتنبئنهم بأَمْرِهم هَذا وهم لا يشعرون:

«أي أوحينا عند القائه في الجب وحياً إلهامياً علم أنه منا، مضمونه: وربك

---

(١) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٧٣

(٢) صفوة البيان ص ٣٠٤

(٣) أضواء البيان جـ٣ ص ٤٨ ـ ٤٩



لتنبئنهم بأمرهم هذا معك إذ يظهرك الله عليهم ويجعل رؤياك حقاً.

وهم لا يشعرون يومئذ بما آتاك الله، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك.

وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن.»[1]

***

﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ آية ١٦-١٧

الآن يواجه الاخوة اختبار الذي كانوا رسموه وأمّلوه، ومقدار نجاح خطتهم التي خططوا ومكرهم الذي مكروه.. هل يصلون إلى بغيتهم، ويبلغون إى طلبتهم من خلو وجه أبيهم، لقد ظنوا أن يوسف إن غاب عن العين سيغيب عن القلب، وما دروا أنه بهذا التغييب عن العين هيجوا كل ذرة في القلب ليتضاعف فيها حب يوسف.

وكانوا يريدون خلو وجه أبيهم، فما خلا لهم منه الا الاستياء والبغض.. فلم يستفد الاخوة شيئاً وليتهم حافظوا على منزلتهم الاولى، انهم لم يستفيدوا سوى أنهم ظلموا أخاهم وباءوا بإثمه، وعقوا أباهم وادخلوا عليه الهم والقلق.

وهذه نتيجة كل فعل يدلّي فيه الشيطان الانسان بغرور، حتى اذا صار في قرارة البئر قطع به الحبل.

ان الذي سقط في تجربة البئر هم الاخوة، وان الذي ارتفع حين سقط في البئر هو يوسف، ونعود للآية وجاءوا أباهم عشاء يبكون، والعشاء هو آخر النهار، والذي وقع منهم هو التباكي الذي يُظهر لمهارة الممثل أنه يبكي.

ويبدو لي والله أعلم أن العشاء الذي رجعوا فيه قد لا يكون عشاء نفس

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٦٦

اليوم وإلا لكان يعقوب بحث عنه لأنه يعلم أنه ليس بميت. إنا ذهبنا نستبق: نتسابق في العدو وتركنا أخانا يوسف في حراسة المتاع، وتأمل كم ثوب حجتهم خلق، وهل يستر من سوءة كذبهم شيئاً؟

لقد وعدتم أن يكون الذي يلعب هو الولد، فلعبتم أنتم يا كبار وتركتموه، ووعدتم بحراسته فلم تخلّفوا يا عصبة عنده أحداً يحرسه بل تركتموه يحرس المتاع، فما عدا مما بدا؟

وتأمل كيف أعادوا نفس قولة أبيهم: واخاف أن يأكله الذئب، فقالوا: فأكله الذئب، ان الأمر مكشوف مفضوح.. ان حيلتهم شفافة تنم عما وراءهم، وما أشبه حالهم بحال النعامة. يظنون انهم إن أقنعوا أنفسهم سيقنعون الناس. ولماذا لم يأكل الذئب شاة من الغنم بل أكل الولد؟!

ثم انظر كيف يكون منطق الذي يكذب مهما حاول التذاكي والتباكي، كيف يكون مهلهلاً؟ ثم انه يقع في عثرة لسانه وسقطات كلامه، ويتهم نفسه بنفسه، «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين.»

«لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهكمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير اتقان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب..»[1]

وقال ابن الزملكاني في كتابه البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن متحدثاً عن البلاغة في التعبير بالفعل المضارع يبكون:

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ـ الشروق: ٧٠٢/٤: دار احياء التراث العربي



«جاءت الحال في صورة المضارع ليريك صورة ما هم عليه وقت المجيء وأنهم آخذون في البكاء يجددونه شيئاً بعد شيء.»[1]

«وهكذا الباطل، يفضح نفسه، ويخزي أهله.. لقد جاءوا أباهم عشاء.. وتلك أول أمارات الكذب الذي جاءوا به معهم.. انهم جاءوا ملففين في ظلام الليل، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار، ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة.. ان العين اذا التقت بالعين كشف لها ذلك عن كثير من خفايا النفس، وقرأت على صفحة الوجه ما لا يصرح به اللسان، ولا تبوح به الكلمات.. ولهذا يجرؤ الانسان على أن يقول في الظلام ما لم يكن ليقوله في النور حين تلتقي العين بالعين..

والعين تعرف من عيني محدثها ان كان من حزبها أو من أعاديها.

ثم هذا البكاء، هو فضيحة أخرى تفضح الكذب.. إنه تباك وليس بكاء، إنه مجرد أصوات حاكية لصوت البكاء، ليس فيها حرقة الكبد، ولا زفرة الصدر الكليم.. وان الاذن لقادرة على أن تميز التباكي من البكاء وتفرق بينهما..»[2]

«تمكين الكذاب من البكاء سمة خذلان الله تعالى إياه، فإنه اذا كمل نفاق المرء ملك عينه حتى يبكي ما شاء.

ولا يبعد أن يقال انهم وان جنوا على يوسف عليه السلام فقد ندموا على ما فعلوا فعلاهم البكاء لندمهم، وان لم يظهروا لأبيهم وتقولوا على الذئب.»[3]

وكلام القشيري الأخير بعيد كما لا يخفى.

«البكاء خروج الدموع من العينين عند الحزن والاسف والقهر.
وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي، وانما اصطنعوا البكاء تمويهاً

---

(١) البرهان ص ١٤١ ـ ١٤٢، تحقيق د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب، بغداد ط١ سنة ١٩٧٤ مطبعة العاني، نشر وزارة الأوقاف العراقية.

(٢) قصتا آدم ويوسف ص ٦٧ والقصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص ٤١٧ ط دار المعرفة بيروت

(٣) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٧٣



على أبيهم لئلا يظن بهم أنهم اغتالوا يوسف. ولعلهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي الناس عجائب من التمويه والكيد، ومن الناس من تتأثر أعصابهم بتخيل الشيء ومحاكاته فيعتريهم ما يعتري الناس بالحقيقة.

وبعض المتظلمين بالباطل يفعلون ذلك، وفطنة الحاكم لا تنخدع لمثل هذه الحيل ولا تنوط بها حكما، وانما يناط الحكم بالبينة.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء اخوة يوسف عليه السلام أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة. لا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بالحق.

قال ابن العربي: فبكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنعاً. ومن الخلق من لا يقدر على ذلك ومنهم من يقدر.

قلت: ومن الامثال: دموع الفاجر بيديه. وهذه عبرة في هذه العبرة.

ولو كنا صادقين: في موضع الحال، فالواو واو الحال. ولو اتصالية، وهي تفيد أن مضمون ما بعدها هو أبعد الاحوال عن تحقق مضمون ما قبلها في ذلك الحال.»[1]

***

﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ آية ١٨

في محاولة لتسويغ جريمتهم صبغوا قميص أخيهم بالدم ولطّخوه به ظانين أن هذا كاف وكفيل بإقناع الأب، وحالتهم صورة للانسان حين تستبد به المعصية،

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

وارجع الى احكام القرآن لابن العربي جـ٣ ص ١٠٦٣، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٩٥٨، تحقيق علي محمد البجاوي



فهي تحقّره، وتسفّه عقله. ووصف الدم بأنه كذب، أي ليس الدم المدعى أنه لصاحبه.

وكان ردّ يعقوب لهم مباشرة لانكشاف أدلتهم وتهافتها ولما يرتسم على وجوههم، وقد عرفهم في لحن القول الذي يصدر عنهم، كما أكد له كذبهم ما رآه ابنه من رؤيا وما قص له في تعبيرها. . ومن أدب النبوة الرفيع العالي أنه لم يكذبهم صراحة بل استعمل حرف الاضراب بل. رد عليهم بأن هذا من املاء النفوس وتزيينها وتطويعها اياكم لفعل الشر. وتنكير لفظ أمراً يدل على التعظيم والتهويل أي أمراً خطيراً.

وأما موقفي فصبر لا شكوى فيه ولا تضجر، بل الرضا كله من جهة ربي تعالى، ومعنى الصبر تلقي المكروه بالاحتمال، وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه، ومقاومة ما يحدثه من الجزع، وقد ذكر في خمسة وتسعين موضعاً في القرآن مما يدل على عظيم منزلته. وأما من جهتكم فاني أسأل الله العون على الرزية التي تقصونها علي والبلية التي تصفها السنتكم لي.

ولفظ «الوصف» ما جاء في القرآن إلا لمعنى الكذب والتزيين، ومنه: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون.» «وتصف السنتهم الكذب. .»

ولله حكمة جليلة في ابتلاء عبده يعقوب بهذا الذي ابتلاه به، فهو يرفع درجاته عنده، وأيضاً، فإن الله تعالى يحبنا أن نكون خالصين مخلصين له، فلما تعلق يعقوب تعلقاً شديداً بيوسف سلبه الله إياه حتى تم ما أراد الله ثم أعاده إليه، وابراهيم لما رزق ولده على غير توقع منه وتعلق به، أمره الله أن يذبحه، فلما علم الله خلوص قلب خليله فداه بذبح عظيم.

ومن حكم هذا الحادث أيضاً أن يكون درساً للاجيال، وتجربة تنضاف إلى التجارب الهادية المعلمة.

وقد كان موقف الاخوة موقف الذي بهته ما سمع فلم يقل جواباً.

وكان حال يعقوب مع أبنائه كحال الذي قال:



قــومي هـمــو قـتـلوا أمـيـم أخـي	فــإذا رمـيت يـصـيـبـني سـهـمـي
ولئــن عـفــوت لأعــفــونْ جـللا	ولئـن ســطوت لمــوهـن عــظـمي

ما أشبه بلاء يعقوب بولده فتى كاد يبلغ السعي ببلاء الجد ابراهيم بولده اسماعيل إذ بلغ السعي برؤيا يراها الوالد ابراهيم نفسه عليه السلام، وذلك ان ابراهيم عليه الصلاة والتسليم رزق باسماعيل حين بلغ من الكبر عتياً فتعلق به تعلقاً شديداً فأراد الله تعالى أن يمتحنه لأجل هذا التعلق.. وكذلك كان تعلق يعقوب بيوسف اذ جاءه على الكبر وتعلق به.

ثم ما أشبه هذين البلاءين ببلاء آخر وقع لنبي كريم من نفس السلسلة الطاهرة الكريمة هو زكريا عليه السلام اذ رزق بيحيى بعد أن بلغ كذلك من الكبر عتياً، وبعد أن جزم أن لا ولد إذ امرأته عاقر، وهو قد بلغ ما بلغ، ثم كان ما كان من البشارة بالولد ثم رؤيته ملء العين والسمع وما وقع في القلب من حبه، ثم يشاء الله أن يذبح هذا الكريم يحيى وهو في زهرة الشباب وتفتحه...

حكمة بالغة.. وبلاء مبين.. وامتحان عظيم.. وأنبياء بصبرهم رسموا لنا الافق الأعلى من التحمل الانساني.. وعلى قدر أهل العزم تأتي البلايا والمحن..

و«وصف الدم بالكذب أي مكذوب في كونه دم يوسف، اذ هو دم جدي، فهو دم حقاً لكنه ليس الدم المزعوم. ولا شك في أنهم لم يتركوا كيفية من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق مما لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك.»(١)

قال المنار:

«المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاءوا بقميصه ملطخاً ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلاً على كذبهم،

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٣٨



فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه، حتى كان هو الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، وقال على قميصه ليصور أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً . . »[1]

«لقد قدموا لأبيهم برهانين على صدقهم: الاول: البكاء، والثاني: تلويث القميص بالدم . . أما البكاء فلا يخفى اصطناعه على ذي فطنة كيعقوب، اذ ليست النائحة كالثكلى. وأما الدم فهو أبلغ في الدلالة على كذب صانعيه، إذ لا بد أن يكون ثمة فرق كبير بين الدم الموضوع باليد على القميص وبين آثار الدم المتخلف فيه من أكل الذئب . .

على أنهم كانوا أثناء اعتذارهم مريبين ويكاد المريب أن يقول خذوني، ألم يقولوا: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين.

ومن هذا الذي يصطنعون له الحيل، ويختلقون له المعاذير؟ انه رسول الله مستنير البصيرة، ناضج الفكر، فلا تجوز عليه الغفلة . . »[2]

البلاغة:

بل سوّلت: «حرف الاضراب ابطال لدعواهم أن الذئب أكله فقد صرّح لهم بكذبهم.

والتسويل: التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله.

والابهام الذي في كلمة أمراً يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف عليه السلام، من قتل أو بيع، أو تغريب، لأنه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

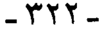
وتنكير أمراً للتهويل.

وفرّع على ذلك انشاء التصبر. عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام.

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٦٧

(٢) عبد الحميد كحيل: يوسف عليه السلام ص ٣٩





والجمال حسن الشيء في صفات محاسن صنفه. فجمال الصبر أحسن أحواله، وهو أن لا يقارن بشيء يقلل خصائص ماهيته.

والله المستعان عطف على جملة فصبر جميل، محتملة للانشاء أو الاخبار بحصول استعانته بالله على تحمل الصبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف على الخلاص مما أحاط به.

والتعبير عما أصاب يوسف بما تصفون في غاية البلاغة لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة وواثقاً بأنهم الحقوا بيوسف ضراً، فلما لم يتعين عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً.»[1]

ويسأل الاستاذ محمود شلبي: «لماذا وقعت تلك المصيبة بيعقوب؟
ويجيب جواباً طيباً لطيفاً فيقول: «إن الله أراد أن يقرب يعقوب.. فأعطاه ولداً.. حتى اذا فرح يعقوب به وصار له قرة عين لا يطيق فراقها.. سلبها فجأة منه.. على يدي سائر أولاده.. لتأخذ المصيبة عليه كل السبل.. ولا يجد أمامه إلا أن يفر إلى ربه فراراً.. ثم جعل الجناة أبناءه ليشعر نحوهم بالمرارة فلا يجد في نفسه رغبة في الشكوى اليهم.. وبذلك تمّ عزله عن أولاده جميعاً.. فلم يبق الا الباب الأوحد..»[2]

بل: «هذا اضراب عن تكذيب صريح تقديره: ان الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الأمّارة بالسوء أمراً إمراً، وكيداً نكراً، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه، هذا أمركم. وأما أمري معكم ومع ربي «فصبر جميل» فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله، القانطين من رحمة الله، ولا الشكوى إلى غير الله، «والله المستعان على ما تصفون» من هذه المصيبة، لا استعين على احتمالها غيره أحداً منكم ولا من غيركم.

هذا هو الفصل الأول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص٢٣٨ - ص ٢٤٠
(٢) حياة يوسف ص ٣٥ - ٣٦



القصص بما فيه من الدقة والعبرة.. ثم حمل المنار على رواة الاسرائيليات التي تشوه الجهال ثم قال: من شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر.»[1]

***

﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾ آية ١٩

كان الأمر كما توقع الاخوة، وسار الأمر لا كما توقعوا الأمر، والسيارة هي الصحبة والرفقة والقافلة والركب والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

فأدلى الساقي دلوه لينتشل الماء واذ به يصادف ما لم يكن في الحسبان، مفاجأة سارة للساقي هذا الغلام، ومفاجأة محزنة جداً لأبيه فقده، فوائد قوم عند قوم مصائب.

قال الساقي يا بشرى، كأنه ينادي البشرى، يا فرحتاه، أبشر، أو أبشروا بهذا الذي لقيناه..

إن يوسف في نظره سلعة، ستجلب له بعض النفع، وما يدري ما يوسف! وقيم الاشياء عندنا شيء وهي في الحقيقة شيء. وتوقعاتنا شيء والواقع شيء. هذا المزهود فيه الآن سيكون المرجوّ المؤمّل لانقاذ شعوب باذن الله. واسراره بضاعة، اخفاؤه عن العِيان حتى لا يطالب به مطالب، وهذا يدل على نفسية مادية، ولو كانوا احسن حالاً لبحثوا عن أهله. واسراره يدل على أنه يمكن اخفاؤه مما نستشف منه ونستنتج سنّه ولو تقديراً.

بضاعة: أي متاعاً للتجارة.

والله عليم بما يعملون: هذا التذييل في الآية يقول ان الذي يجري بتقدير وتدبير، والله عز وجل ينقّل هذا العبد بعلمه وحكمته خطوة خطوة.

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٦٧

ولا يقولنَّ أحد انه طالما كان الأمر بعلم وتدبير فما موقف اخوة يوسف؟ وفيم العتاب والملام؟ ونقول: لو قال أحد هذا القول: إنهم قصدوا الشر فكانت نتيجة تدبيراتهم خيراً للمكيد، فلا يؤجرون بالنتيجة ولكن بالقصد والنية، لأن من قصد الشر ولم يحصّله تحمل وزره كاملاً.

وما أشبه حال يوسف بقول القائل:

وان نبتْ بـك أوطـان نشـأت بهـا ... فـارحـل فكـل بـلاد الله أوطـان
وان جفـاك أخٌ قـد كنت تـألفـه ... فاطلب سواه فكم في الارض اخوان

والله عليم بما يعملون:

«أي بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله اخوة يوسف فلكل منهم ارب في يوسف: السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به، واخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في اخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب اياه معلوم وانه كيد باطل. وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك.»(1)

آية ٢٠

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾

وشروه أي باعته القافلة، وما قيل في التوراة ونقله بعض المفسرين ان الذي باع يوسف هم إخوته فهذا أولاً مما لا ينسجم مع النص، واستبشار الوارد بلقيا الغلام، ثم ثانياً ان اخوة يوسف حين خططوا قالوا: يلتقطه ولم يكن وارداً بيعه، ثم ثالثاً إن كانوا يريدون بيعه، فلماذا يلقونه في الجب.

إن كثيراً من الأقوال تنقلها بعض التفاسير من أسف دون رويّة واعمال فكر.

والثمن البخس: القليل، كما في قوله تعالى: ولا تبخسوا الناس أشياءهم. أي لا تنقصوا.

ثم ذكر القرآن هذا الثمن البخس أنه دراهم معدودة أي قليلة.

---

(1) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٧٠

وهنا شطحة أخرى لكثير من التفاسير أنها دخلت في جحر الضبّ الذي دخلت فيه الروايات الاسرائيلية فصارت تبحث عن اسم الوارد، وعن عدد السيارة، وعن الثمن الذي بيع به يوسف، ولامام التفسير الطبري رحمه الله منهج في هذه المسألة يقول فيه ما ملخصه: يسعنا ما ذكر القرآن، ونقف عند حدود ما وقفنا القرآن، ولو كان في تحديد الشجرة التي أكل منها آدم، أو في الثمن الذي بيع به يوسف أو لون الكلب الذي كان في صحبة الفتية، لو كان في ذلك كله أدنى فائدة لذكره القرآن الكريم.

لكن الطبري رحمه الله، كان أحياناً مع سلامة منهجه الذي ذكرناه الآن، كان أحياناً يذكر مثل هذه الاسرائيليات.. ويتجاوز عن منهجه الذي رسمه.

وأما بيعه بهذا الثمن البخس والزهد فيه فمما يحتاج إلى تفسير، وقد حاولنا ذلك في حديثنا عن المقدمات العامة للسورة الكريمة فلا نعيد هنا، ولكن أحد وجوه الزهد فيه أنهم ما تكلفوا فيه قليلاً ولا كثيراً، على حدّ قول من قال:

ومن أخذ البلاد بغير حرب ... يهون عليه تسليم البلاد

وما أصدق فيهم كذلك قول من قال:

إن كنتُ عندك يا مولاي مطَّرحاً ... فعند غيرك محمول على الحدق

ولئن جاء على يوسف يوم بيع فيه بثمن بخس فقد أصبح بمصر عزيزاً يتصرف حيث يشاء فيوم بيوم. فإن مع العسر يسراً، يومان شتان بينهما.

قال الطبري: «ان الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولاوضع عليه دلالة في كتاب، ولا خبر من الرسول ﷺ، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا الجهل به دخول ضر فيه، والايمان بظاهر التنزيل فرض وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه.»(1)

---

(1) تفسير الطبري ١٢:١٠٢ - ١٠٣ ط أميرية



﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وكذلك مكنّا ليوسف في الارض، ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ آية ٢١.

انتقل يوسف إلى حياة جديدة بل قل إلى فتنة جديدة، يمتزج فيها البلاء بالخير بالبلاء بالشر، ونبلوكم بالشر والخير فتنة. إن يوسف ما ان خلص من فتنة الجب حتى جاءت فتنة الرق ثم فتنة النساء.. والتعرض له بالتحبب أو الحب.

وأما وجه الخير في هذا المقام، فأن يكون في هذا البيت الذي تتوفر له فيه كل أسباب الراحة والرغد وهناءة العيش والنعيم، ثم كلُّ أسباب التعليم، وأن يكون قريباً من مراكز صناعة القرار في مصر، فيتعلم الشيء الكثير من احوال البلد وعقلية الادارة والتركيبة السياسية والاجتماعية والامكانات الاقتصادية، ويكون بالجملة في موقف مشرف يطّلع منه على كل ما يجري في المجتمع المصري، بعكس ما لو عاش في قاع المجتمع المصري... أو في صعيده أو ريفه.

قوله: أكرمي مثواه، المثوى المأوى[1]، أي أحسني منزله واجعلي مقامه عندنا كريماً مرضياً وتفقديه بالاحسان وتعهديه.

ولاحظ أن وصية العزيز لزوجته جاءت معللة بالحكمة حتى يحرك دواعي الاستجابة لديها. وهذا منهج في القرآن متبع، لا يأمرنا الله تعالى بأمر الا ويذكر لنا حِكَمَهُ، فاتخذوه منهجاً حتى يتحرك الناس بقناعات وليس حركة آلية.

وينبه الشيخ العلمي إلى مسألة اجتماعية هي أن ذوي البيوتات الكبيرة يسلمون سياسة البيت والخدم لسيدة البيت، ويبيحون الاختلاط بنسائهم، وهم في ذلك مخطئون، اذ يترتب عليه البلاء والحوادث المشؤومة[2] ـ والشيخ قد كتب هذا الكلام من حوالي ستين سنة، وقت أن لم يكن عند العرب بعد امكانات

---

(١) قال الطوسي في التبيان: مثواه يعني موضع مقامه، وانما أمرها باكرام مثواه، لأنه من اكرم غيرُه لاجله كان أعظم منزلة ممن يكرم في نفسه فقط، والاكرام اعطاء المراد على جهة الاعظام ـ جـ ٦ ص ١١٥

(٢) انظر المؤتمر جـ ١ ص ٤٥٢



استقدام واستخدام الخدم بهذه الوفرة التي في هذه الأيام فلينتبه من هذه المسألة، وما خبر امرأة العزيز عن أسماعنا ببعيد.

«الحلقة الثانية من حلقات القصة، وقد وصل يوسف إلى مصر، وبيع بيع الرقيق، ولكن الذي اشتراه توسم فيه الخير، فإذا هو يوصي به امرأته خيراً، وهنا يبدأ أول خيط في تحقيق الرؤيا.

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده، وقد أوتي حكماً وعلماً يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التي لا يقف لها الا من رحم الله. انها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه «الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور. ويخرج يوسف منها سليماً معافى في خلقه وفي دينه.

والسياق لا يكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه، وسنعلم بعد شوط في القصة أنه عزيز مصر، ولكنا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن، وأن المحنة قد انتهت بسلام، وأنه مقبل بعد هذا على خير:

«أكرمي مثواه»

والمثوى مكان الثويّ والمبيت والاقامة، والمقصود باكرام مثواه اكرامه، ولكن التعبير أعمق، لأنه يجعل الاكرام لا لشخصه فحسب، ولكن لمكان اقامته، وهي مبالغة في الاكرام. في مقابل مثواه في الجب وما حوله من مخاوف وآلام!.

ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه في الغلام من خير، وما يتطلع اليه فيه من أمل: «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»

ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات. ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه ولداً اذا صدقت فراسته، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته.

وهنا يقف السياق لينبه إلى أن هذا التدبير من الله، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين في الأرض، وها قد بدت بشائره بتمكين يوسف في قلب الرجل وبيته، ويشير إلى أنه ماض في الطريق ليعلمه الله من تأويل الاحاديث،

ويعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة



الله غالبة، لا تقف في طريقها قوة، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل:

«وكذلك مكنا ليوسف في الارض، ولنعلمه من تأويل الاحاديث. والله غالب على أمره..» وها هوذا يوسف أراد له اخوته أمراً، وأراد له الله أمراً، ولما كان الله غالباً على أمره ومسيطراً فقد نفذ أمره، أما اخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوا: «ولكن اكثر الناس لا يعلمون» لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون.(1)

«ولقد حمل يوسف إلى مصر حيث كانت تجارة الرقيق من البنين والبنات الآسيويين تلقى يومئذ من الرواج ما يدل عليه ما كشفت عنه بردية في متحف بروكلين بنيويورك الآن. فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين آسيوياً من نيف وثمانين كانوا يعملون خدماً في بيت واحد في عصر الأسرة الثالثة عشرة قبل مجيء الهكسوس.»(2)

يقول الدكتور خلف الله:

«.. نحسّ أن الحظ قد التفت إلى ذلك البدوي.. - لاحظ الجفاء! - ثم يقول:

ويوسف - قبل كل شيء - فتى تغيرت بيئته الاجتماعية، فنزل الحضر بعد اذ كان بادياً، ونزل في بيت تظهر فيه النعمة والثراء، نزل في بيت العزيز، وهو من البيوت المرموقة من القوم في ذلك الزمان. وحمل يوسف معه من البداية (لعلها البادية) أخلاق البداة وصفاة الرعاة. ولاحظ يوسف - من غير شك - الفروق القائمة بين بيئته الاولى وبيئته تلك، وأحدث له هذا - من غير شك - شيئاً من الاضطراب...

ونلحظ من مقام يوسف في بيت العزيز شيئاً من الصلة بين السادة

---

(1) الظلال جـ ٤ ص ١٩٧٨ - ١٩٧٩ ط الشروق بيروت رقم ١٠ سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م جـ ٤ ص ٧٠٦ - ٧٠٧ دار احياء التراث.

(2) مصر في القرآن والسنة ص ٤٣



والاتباع، فالعزيز يوصي به خيراً، ويتوقع أن تكون منزلته بينهم منزلة الابناء من الآباء.»[1]

ولا نريد أن نتوقف عند جفاء الدكتور خلف.. في حديثه عن الكريم ابن الاكرمين، فللدكتور من القواصم ما هو فوق هذه بمراحل بعيدة.. ولكن نسأل ما أخلاق الرعاة وصفاتهم التي حملها معه يوسف؟ وهل هي محمودة أو مذمومة؟ ومن أين للدكتور هذه القطعيات ـ من غير شك ـ أن يوسف حدث له اضطراب؟ وما هذا الاضطراب؟

والتمكين ليوسف في الارض ذكر هنا وذكر حين استلم مقادير مصر، وإما أن تكون التي هنا تلمح إلى تلك، واما أن تكون تمكيناً نسبياً، أي مكنا له في بيت العزيز، وأطلق الارض وأراد خصوصية بيت العزيز، كما أطلق الارض في المرة الثانية وأراد مصر فقط..

وأما قوله تعالى وكذلك، فيمكن أن يكون التشبيه الذي فيه بمعنى ومثل ذلك الانجاء الذي أنجيناه يوسف مكناه في الارض.

والذي أرجحه في هذا الموطن وفي كل موطن من هذا القبيل أن التشبيه هنا من باب تشبيه الشيء بنفسه، أي: وتمكيناً مثل هذا التمكين مكنا ليوسف، لأن صنع الله في هذا التمكين بالغ حد الكمال..

وقد يقال كيف يكون الرقيق ممّكناً؟ والجواب أنه لم يكن معاملاً كالرقيق.. وانما تمكينه في المنزلة التي له في بيت مضيفيه، وبالتالي في البيوتات المصرية التي تحله المنزلة اللائقة به تبعاً لمنزلة أهله، وللمنزلة التي يحلها فيه اهله: العزيز وزوجه.

ولنعلمه من تأويل الاحاديث: الظاهر أن هذه المنة مستقلةٌ عن سابقتها، وليست مترتبة عليها فهي جديدة.

---

(١) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن ص ٢٨١ ـ ٢٨٢، ط٣: القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥



وتعليمه من تأويل الاحاديث إما أن يكون المقصود به تعبير الرؤىٰ، أو ما هو أشمل من هذا، وأياً كان المقصود فإن وجوده في بيت العزيز يوسع مداركه ويفتّح آفاقه الفكرية. ومصر اذ ذاك من أرقى البلاد، ويوسف في غرة مصر وفي بيت ثاني شخصية فيها، فهو يكتسب العلم من البيئة العامة ومن البيئة الخاصة. والرائع أنه قد حصّل المنهج السليم لتلقي العلوم مذ كان عند والده بالتربية الربانية، وهنا يتلقّى العلوم التفصيلية، وان المنهج يتلقى منذ الصغر، والمعلومات يبقى الانسان يحصلها حتى يوارى الثرى، والمنهج أخطر من المعلومات..

«ولنعلّمه». هذا وعد من الله تعالى، وقد هيأ الله لانجازه الاسباب المطبوعة في المتعلم والاسباب المكتسبة المسموعة من البيئة. ووفى المولى العظيم سبحانه لعبده ما وعده، ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، وهذا باب من العلم جديد وفيه مزيد على الذي كان فيه يوسف، لعله علم النبوة أو غيره.

ولا بأس أن نذكر هذين البيتين يحضان الشباب على العلم والاجتهاد فيه، بمناسبة الحديث عن العلم

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ... ما كان يبقى في البَرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً ... فندامة العقبى لمن يتكاسل

قوله تعالى ﴿مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه﴾

علام عطف ولنعلمه؟

عطف على محذوف تقديره ـ والله أعلم ـ: مكنا ليوسف في الارض لحكم عظيمة، ولنعلمه.. ومثل هذه في القرآن كثير، من ذلك: وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا.

والاشارة إلى تعليم يوسف في اكثر من موطن يدلنا على أهمية العلم، والجد في تحصيله، وأن العلم أساس الملك، فقبل أن يسلم الله عز وجل مقاليد الناس في مصر ليوسف زوّده بالعلم وأهّله بالعلم. كما أنه سبحانه قبل أن يسلم آدم مقاليد الخلافة في الارض زوده بالعلم. ولاحظ العلاقة بين تأويل الاحاديث التي تعني استشفاف المستقبل واستشراف الآتي، وعلاقة هذا بالسياسة التي تحتاج إلى

بعد نظر. نسأل الله أن يعلمنا منه علماً وأن يعيننا على تحصيل العلم وأن يرزقنا مع العلم العمل ومع العمل الاخلاص، ومع كل ذلك القبول.

ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿**والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون**﴾ - غالب سبحانه على أمره في نجاة يوسف والاخوة كانوا يريدون قتله، وغالب على أمره بأن جعل يوسف عزيزاً، وكان التجار قد باعوه عبداً رقيقاً، وغالب على أمره بانجاز ما وعد عبده بتعليمه، وغالب على أمره بإيصاله إلى أعلى الدرجات التي قدّرها الله تعالى دون أن يشعر أحد أو يخطط لهذا الوصول أو يرتب له. انها الارادة النافذة، والكلمة الماضية، ولكن اكثر الناس لا يعلمون.

جعلنا الله تعالى من القليل الذين يعلمون، وهدى الكثير حتى يعلموا ويوقنوا أن الامر كله لله وليس للاسباب التي يعبدها البشر من دون الله ويتعلقون بها ويتوسلون ويستعينون، ولا يلجأون إلى الله. وانما جعل الناسَ كذلك أنهم يرون الأسباب تعمل وتؤثر ولا يرون يد الله تنقل الناس وتهيىء الاسباب، ولما لم يُرزقوا القدرة على الاستشفاف، ولا العلم بالوقائع التي يجريها الله في خلقه، وكانت نظرتهم ضيقة، وحصيلتهم قاصرة، حبسوا أنفسهم في زنزانة الاسباب، وكانوا لا يعلمون.

وقد وردت هذه القضية قضية كون اكثر الناس لا يعلمون، وردت في القرآن في عشرين مرة، وتكررها يدلك على خطرها حتى لا يجرف السيل الانسان فتنتقل الجهالة اليه.

البلاغة:

«إن أجرينا اسم الاشارة على قياس كثير من أمثاله في القرآن كقوله: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ كانت الاشارة إلى التمكين المستفاد من قوله: ﴿**مكنا ليوسف**﴾، تنويهاً بأن ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتم منه لما كان الا أن يشبّه بنفسه، فيكون الكاف في محل نصب على المفعول المطلق. والتقدير مكنا ليوسف تمكيناً كذلك التمكين.



ويجوز ان يكون المعنى: مكنا ليوسف مثل ما نجينا.. فتكون الكاف في موضع الحال.

والتمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه، وتقدير أول اجزائه، فيوسف عليه السلام بحلوله محل العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض بالوجه الأتمّ الذي اشير له بقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، فما ذكر هنالك رد على ما هنا ـ أي عود ـ، وهو تمامه»[1]

قال الطوسي: «وجه التشبيه فيه أنه تعالى شبه التمكين له في الارض بالتوفيق للاسباب التي صار بها الى ما صار بالنجاة من الهلاك والاخراج الى أجلّ حال.»

والذي نختاره نحن في مثل هذا التعبير القرآني أن يكون الأمر المشبه غير ملحق بغيره ولا مشبه به بل هو مشبه بذاته لبلوغه في مراقي العظمة مبلغاً لا مزيد عليه، فلا يحتاج إلى الحاق بغيره.

ثم قال الطوسي في معنى ولنعلمه: اللام فيه محمولة على تقدير دبرنا ذلك لنمكنه في الأرض، ولنعلمه من تأويل الاحاديث.

والله غالب على أمره: قادر عليه من غير مانع حتى يقع ما أراد.

ولكن اكثر الناس لا يعلمون: اخبار منه تعالى أن اكثر الخلق غير عالمين بحسن تدبير الله لخلقه، وما يجري اليهم من مصالحهم وانه قادر لا يغالب، بل هم جاهلون بتوحيده، لأن المراد بذلك ما قلناه من أنه غالب على ما يريد فعله بعباده، فاما ما يريده على وجه الاختيار منهم فلا يدل على ذلك..»[2]

---

(١) التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧

(٢) تفسير التبيان جـ ٦ ص ١١٦



﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ آيـة ٢٢

بلغ أشده: أي بلغ مبلغ الرجال.

«وسن بلوغ الأشد أو بلوغ الحلم هو السن الذي تتغلب على الشباب فيه شهواتهم ونزواتهم، فخص الله أنبياءه برعايتهم في هذه السن وايتائهم العلم والحكم ليعلموا الاشياء النافعة والضارة، ويحكموا أنفسهم ويقصروها على النافع، فيسلموا ويعصموا مما يقع فيه غيرهم من الشباب العاديين، ويوسف على الاخص سيواجه من المحن التي يبتلى بها بعد بلوغ الاشد، افتتان النساء به وتعرضهن له، وعرض أنفسهن عليه، فأراد الله أن يعصمه من هذه الفتن، فآتاه العلم والحكم في هذه السن المبكرة، فضلاً منه ورعاية. .»[1]

والحكم بمعنى الحكمة، أو بمعنى نفاذ الكلمة، والتأثير في الناس.

قال الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبابه آتاه الله الحكمة في اكتهاله. أخذاً لهذه الفائدة من هذه الآية الكريمة.

وأصل الحكم الالزام والمنعة، والحكم ملكة في النفس بها يقْدر الانسان أن يحكم نفسه بحيث يلزمها الطاعات، ويمنعها من المعاصي، وهو كذلك القدرة على وضع الشيء في نصابه، وصواب الفهم ودقته، والرأي السديد الصائب والحل الموفق للمعضلات، كل ذلك والله أعلم من معاني الحكم والحكمة.

والحكمة عملية وفكرية.

وقد ورد الحكم والعلم في قصة داود وسليمان وفي قصة موسى وفي قصة لوط بالاضافة إلى ما هنا.

والحكمة شيء والمعلومات شيء آخر، وان كانت الحكمة تستقي من كل معرفة ومعلومات يحصّلها الانسان، وان كانت الحكمة في الاساس تنبع من الدين:

(١) عبد الحميد كحيل: نظرات في التفسير ص ٤٨

﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ ﴿ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة﴾

ولقد أوتي يوسف الحكمة والعلم، وهو بذلك قد أوتي كنوز الدنيا جميعاً. ان العلم هو الذي ـ بفضل الله وتقديره ـ كان سلاحه وعدته ووسيلته الى الحكم في المال.

وكما قالوا: العلم خير من المال، لأنك أنت تحرس المال والعلم يحرسك، والمال بلا علم صائر للزوال، ومن هنا قال القائل:

اذا لم يكن علم يزان به الفتى فمالُ الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك ان المال داعيةُ الهوى اذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

وقدمت الحكمة على العلم لأنها التي تجعل الانتفاع بالعلم ممكناً، ورب عالم محتاج للحكمة، ورب عارف بالحكْم تنقصه معرفة الحِكَم، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ على قلة المعلومات في عصرهم، كانوا قمماً في العلم والفقه في الدين لأنهم أوتوا الحكمة، ثم تشققت العلوم وكثرت وخفّت الحكمة..

قال الطوسي في معناها: «يعني أعطيناه ذلك، والحكم: القول الفصل الذي يدعو إلى الحكمة

والأصل في الحكم تبيين ما يشهد به الدليل، لأن الدليل حكمة، من أجل أنه يقود إلى المعرفة، وقيل معناه: آتيناه الحكم على الناس. وقيل: آتيناه الحكمة في فعله بألطافنا له، والحكيم: العامل بما يدعو اليه العلم. والعلم ما اقتضى سكون النفس.

وكذلك نجزي المحسنين:

معناه: مثل ما جازينا يوسف نجازي كل من أحسن، وفعل الافعال الحسنة من الطاعات. والاحسان هو النفع بالحسن الذي يستحق به الحمد، فعلى هذا يصح أن يحسن الانسان الى نفسه، كما يصح أن يسيء إلى نفسه، ولا يصح أن



ينعم على نفسه، لأن النعمة تقتضي استحقاق الشكر عليها، ولا يصح ذلك بين الانسان ونفسه.»[1]

الاحسان، تكشف لنا الآية الكريمة عن سنة الله في أصحابه أنه يكرمهم بالحكمة والعلم، وأركان الاحسان ثلاثة: الايمان الصحيح، والاعمال الصحيحة، والآداب والاخلاق الفاضلة. والاحسان ليس له جزاء الا الاحسان: هل جزاء الاحسان الا الاحسان، والجزاء في الدنيا والآخرة.

قال القشيري في معنى الحكم: من جملة الحكم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته، وامتنع عما راودته تلك المرأة عن نفسه، ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره.

ولما بلغ أشده: أي حين استوى شبابه واكتملت قوته، وكان وقت استيلاء الشهوة، وتوفر دواعي مطالبات البشرية، اتاه الله الحكم الذي حبسه على الحق وصرفه عن الباطل، وعلم أن ما يعقب اتباع اللذات من هواجم الندم أشد مقاساة من كلفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة.. فآثر مشقة الامتناع على لذة الاتباع.

وذلك الذي أشار اليه الحق سبحانه من جميل الجزاء الذي أعطاه هو امداده بالتوفيق حتى استقام في التقوى والورع على سواء الطريق، قال تعالى: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾**[2]

«ويمضي السياق ليقرر أن ما شاء الله ليوسف من تعلم تأويل الاحاديث قد تحقق حين بلغ أشده. فقد أوتي صحة الحكم على الامور، وأوتي علماً بمصائر الاحاديث، أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أعم، من العلم بالحياة وأحوالها فاللفظ عام ويشمل الكثير. وكان ذلك جزاء احسانه. احسانه في الاعتقاد، واحسانه في السلوك.

(١) الطوسي: تفسير التبيان جـ٦ ص ١١٧ ـ ١١٨
(٢) اللطائف جـ٣ ص ١٧٧



وعندئذ تجيئه المحنة الثانية في حياته، وهي أشد وأعمق من المحنة الأولى، تجيئه وقد أوتي صحة الحكم، وأوتي العلم، رحمة من الله، ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجله الله له في قرآنه.»[1]

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون﴾ آية ٢٣

لقد كانت تظن أن مراودتها اياه منةٌ منها وتكرم عليه، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً، لأن مستواه الاجتماعي دون مستواها، وهي لا تتصور أن امرأة ذات منصب وجمال تبدأ رجلاً فتعرض نفسها عليه ثم يقول إني أخاف الله. ولكن كان الذي ما توقعت، وما كان الذي توقعت. لقد استعصم كمحارب في قمة جبل شاهق لا يطاول، وواحد في أسفل الجبل يريد أن يصله برمية حجر، أو بمد اليد.

وتأمل كيف يرفع الايمان الناس وكيف تحط المعصية صاحبها وتزله وتذله وتمرغه في الرِغام.

ولله عز وجل في ذكر هذا الخبر حكمة بليغة، وقد يخطر ببال أحد أنه لو خلا القرآن من هذا المشهد. ومعاذ الله وحاش لله أن يكون في كتاب الله ما يقبل الرفع أو الحذف.

هذه هي واقعية القرآن، أوليست الحياة الانسانية فيها هذا الدافع القوي؟ بلى. فلا بد من عرض مشهد مربٍّ يكون قدوة للناس في الاستعصام والاستمساك أمام اغراء المعصية ووسوسة الشيطان وقوة الدافع الداخلي.

وبعد هذا، هل في المشهد القرآني الا ما يربي بكل كلمة فيه، مع أنه يعرض حالة من أشد حالات الانسان اسفافاً وتردٍ، وانتبه للعاقبة، ولا يقصر نظرك عنها.

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٧٩ ٤ : ٧٠٧ ـ ٧٠٨ الظلال ط دار احياء التراث.



وما يرويه بعض المفسرين: لا تعلّموهن سورة يوسف وعلّموهن سورة النور، هذا من الموضوعات التي لا تُقبل أدنى قبول لا سنداً ولا متناً، وهل العبرة التي في هذه السورة والقصة التي فيها مقصورة على الرجال؟! والله يقول: **﴿لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين﴾**. ويقول: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب﴾**.

وراودته: والمراودة لم تقع في القرآن الكريم الا في موضع الاحتيال والدهاء.

ولعل الدرس الاول الذي يأخذه قاريء القصة خطرُ الاختلاط على الحياة الاخلاقية، وخاصة إذا كان متكرراً ولوقت طويل، ومن هنا قال النبي ﷺ: الحم الموت، والعادات الاجتماعية تستهجن أن يرد الاخ عن بيت أخيه اذا لم يكن هو فيه.. والحق أحق من العادات بالاتّباع، ورضا الله أحق أن يحرص عليه. ومن ترك من أحكام دينه شيئاً دفع ثمن الترك غالياً.

وكم شدد النبي ﷺ في تحريم الخلوة..

ودرس آخر في مقاومة هوى النفس والاغراءات التي يتعرض لها الانسان، وكمال انسانية الانسان في هذا الضبط.

قال القشيري في اللطائف: «لما غلّقت عليه أبواب المسكن فتح الله عليه باب العصمة فلم يضرْه ما أغلق بعد اكرامه بما فتح»(١)

قال المنار:

«وجملة القول ان أعظم مزايا البشر في قوة الارادة، فلولاها لكان الانسان كالحيوان الأعجم عبد الطبيعة، ولذلك كانت المراودة احتيالاً لتحويل الارادة وجعلها خاضعة للمراود، وانما يظفر من كانت ارادته أقوى. وفوق ذلك عناية الله.

(١) جـ٣ ص ١٧٧.



وقال المنار كذلك:

«وتوجيه النفس إلى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الارادة، وتربية الارادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل. وسالك طريق الحق يسمى مريداً، والوصول إلى غاية المراد لا يكون على كماله الا لأصحاب الايمان اليقيني الوجداني، ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف..»[1]

قال في الظلال:

«لقد كان يوسف غلاماً عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي انه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد. فهذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمى فتى فشاباً فرجلاً.. وهي السن التي يجوز فيها أن يقول يعقوب: «وأخاف ان يأكله الذئب.».. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة، وكانت وزوجها لم يرزقا أولاداً كما يبدو من قوله: «أو نتخذه ولداً».. فهذا الخاطر خاطر التبني.. لا يرد على النفس عادة الا حين لا يكون هناك ولد، ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد. فلا بد أن تكون قد مضت على زواجهما فترة يعلمان فيها أن لا ولد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالي الثلاثين.

ثم قال الظلال: ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها.

نبحث هذا البحث، لنصل منه إلى نتيجة معينة. لنقول: ان التجربة التي مر بها يوسف أو المحنة لم تكن فقط في مواجهة المراودة في هذا المشهد الذي يصوره السياق، انما كانت في حياة يوسف فترة مراهقته كلها في جو هذا القصر، مع هذه المرأة، في جو البيئة التي يصورها قول الزوج أمام الحالة التي وجد فيها امرأته على تلك الحالة: «يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك..» وكفى.

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٣



هذه هي المحنة الطويلة التي مر بها يوسف وصمد لها، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة.»[1]

«ومما لا مرية فيه أن الله ما ذكر قصص أنبيائه في القرآن الا ليظهر للناس ما اشتملت عليه نفوسهم الزكية من أخلاق كريمة وصفات عالية، والا ليكونوا شموساً يستنير بها الناس كافة في سيرهم في هذه الحياة، وليتخذوا منهم مثلاً علياً للرجولة الحقة الكاملة التي تجلت في يوسف حين بلوغه الأشد..

وفي قول يوسف لها: معاذ الله إنّه ربي، لفت لنظرها إلى أن البيت وإن خلا من الرقباء، فإن عليهما رقيباً لا يغيب وهو الله سبحانه وتعالى الذي يجب أن تخافه وتخشى غضبه وعقابه، لأنه هو العليم السميع البصير...»[2]

وقوله معاذ الله تعني الالتجاء والاحتماء والتحصن بحمى الله، ومن تحصن بذكر الله ما كان للشيطان عليه من سبيل: **﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون﴾ ﴿ان عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ﴿الا عبادك منهم المخلصين﴾**

وقوله: «إنّه ربي». يعني به إلهه سبحانه، ونرجح أنه لا يعني به زوج المرأة، فإن يوسف يعرف الفضل لصاحبه ومسببه، وان شكره له أولى، وخوفه منه هو الخوف. وقد وردت على لسان يوسف نفسه لفظة الرب مضافة إلى السّاقي يعني بها الملك، ولكن هو نفسه ليس ينسب نفسه الا إلى الله. طبعاً مع الجواز اللغوي والعقدي أن يقول ربي، لكنه لا يليق بيوسف وان كان جائزاً.

ولئن كان قوله انه ربي على قول بعض المفسرين انه زوجك ظانين أنّ يوسف يخوفها بهذا بذكر الزوج، فإن قوله انه ربي قاصداً الله فيه من الترهيب اكثر.

وقول يوسف بعد قليل ان ربي بكيدهن عليم عند قوله للساقي: ارجع الى

(١) الظلال جـ٤ ص ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ٤: ٧٠٨ ـ ٧٠٩ دار احياء التراث.

(١) نظرات في التفسير ص ٥١ ـ ص ٥٣



ربك، من هذا القبيل أيضاً، فهو يخاطب الساقي بلغة واقعه، ويتحدث عن نفسه بلسان حاله وواقعه. أما الظلم الذي أشار اليه يوسف، فمن وجوه:

أولها ظلم النفس بتدسيتها وتجريئها على الخيانة، وهذا الفعل الشائن وان كان فيه قضاءُ الوطر، الا انه فيه اتلاف القيم، وتدمير المعاني والاخلاق، وأين هذا من هذا ثم ان قضاء الوطر بذاته جريمة، فكيف اذا انضم اليه جيش الجرائم الأخرى من الافساد للذات وللمجتمع. ثم ان الفعلة هذه ظلم للمرأة نفسها بنفس الطريقة.

وظلم للزوج بخيانته، وهل الظلم بأكل دريهماتٍ ظلمٌ، وبانتهاك الشرف والحرمات والأعراض ليس ظلماً، انه أقسى الظلم.

ثم ظلم للحكم الالهي، أوليس في ترجيح قول الشيطان وتزيينه على حكم الرحمن قسمة ضيزى جائرة ظالمة؟

ان الظالم وان نجا مؤقتاً ليوقعن الله به ما يشيبه هولاً، وان الله عز وجل ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته، كما قال النبي ﷺ وتلا: وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد.

إنه لا يفلح الظالمون

«الفلاح هو الظفر والنجاح في الدنيا، والفوز هو النجاح في الآخرة. والذي ينعم النظر في آيات القرآن الكريم التي تعرضت لكلمة الفلاح وما يشتق منها يجد أنها تعني الظفر في ميادين العمل والجهاد في هذه الحياة الدنيا.»[1]

وأقول: إن نفي الفلاح عن الظالمين الوارد على لسان يوسف في رده على امرأة العزيز، عام، يشمل الدنيا والآخرة. ولا مانع أن يكون الفلاح في الغالب يرد في الاستعمال القرآني للظفر في الدنيا.

---

(١) الاستاذ عودة ابو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩.



البلاغة:

«المفاعلة مستعملة في التكرير. والمراودة مشتقة من راد يرود اذا جاء وذهب، شبه حال المحاول أحداً على فعل شيء مكرراً ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة الى الشيء المذهوب عنه، فاطلق راود بمعنى حاول.

و«عن» للمجاوزة، أي راودته مباعدة له عن نفسه. أي بأن يجعل نفسه لها، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس اريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلم اليها ارادته وحكمه في نفسه.

«معاذ» مصدر اضيف إلى اسم الجلالة اضافة المصدر إلى معموله وأصله أعوذ عوذاً بالله، أي أعتصم به مما تحاولين.

«وانه» مفيدة تعليل ما أفاده «معاذ الله» من الامتناع والاعتصام منه بالله المقتضي أن الله أمر بذلك الاعتصام.

وجملة انه لا يفلح الظالمون: تعليل ثان للامتناع. والضمير المجهول اسماً لـ(ان) ضمير الشأن يفيد اهمية الجملة المجعولة خبراً عنه، لأنها موعظة جامعة.»[1]

***

﴿ولقد همت به، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين﴾ الآية ٢٤

بعد محاولتها الكلامية، لجأت إلى ما هو أرقى منها، ولكنه استمر كالجبل الراسي، وهل اذا ناديت جبلاً تبعك، أو اذا شددته بحبل لحق بك.

إن المسألة ليست مسألة مساومات، ولا هو يسوق الدلال ليرى معزّته، معاذ الله، انه موقف مبدئي لو ارتقت المسألة في المساومة إلى أن يصبح ملكاً على

(١) التحرير والتنوير ١٢: ٢٥٠ ـ ٢٥٣.



بلاد الدنيا ما فعل، أو يسفك دمه، ما فعل. . هكذا صاحب المبدأ في الحياة. وليس بصاحب مبدأ أبداً من رفض الثمن الرخيص فاذا زيد له في الثمن قبل، أو اذا زيد له في التنازلات رضخ. . لا. .

وهذه الآية مما زلقت فيه ـ من أسف ـ أقلام، ووقعت وضلت فيه بعض أفهام، وأمرها يسير جداً على من أوتي فهماً ـ ولو قليلاً ـ لمعاني الكلام.

إن الآية بسيطة كل البساطة واضحة كل الوضوح فما حاجتنا الى استعمال نظارات الروايات الاسرائيلية أو الخيالات المريضة والأوهام؟ ما الحاجة؟

الآية ببساطة تقول وبتحقيق مقترن بالواو واللام وقد: إنها همت به، وعند هذا نقف. ثم نقول وهم بها لولا أن رأى برهان ربه. وقد يعترض معترض على الذي نقوله من أن يوسف لم يقع منه لا فعل ولا أدنى درجات الهم بالفعل، قد يعترض فيقول، لماذا لم يقل النص: ولقد همت به وما هم بها. أو ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، إن كان النص يريد الذي تقوله من عدم وقوع الهم منه؟

وأقول ان بحراً من البلاغة كان حينئذ سيجف، وان محيطاً من الاشارات الايمانية كان سيتبخر.

وتأمل من كلامنا مثل هذه العبارات والمواقف، رجل كان يقف على جانب شارع غير منتبه فجذبه شخص فجأة لا يدري هو لماذا واذ بشاحنة ضخمة قد أفلتت ضوابطها، فعندما رأى المجذوب ما رأى انطلق لسانه بقول: داستني السيارة لولا أنك جذبتني. فهل داسته السيارة ولو مثقال ذرة ان كان الدوس يتجزأ؟ والجواب لا، لكنها المبالغة في كونه على حافة الخطر، ثم الامتنان للمنقذ صاحب اليد.

وهكذا الذي معنا، ولله المثل الاعلى، ولكلامه سبحانه وتعالى المثل الاعلى.

والآية نفسها تقطع بهذا الذي نقول باذن الله، فاطّرح عنك جانباً ما تجده



في كثير من التفاسير غير هذا الحق الناصع المبين.[1]

أقول ان الآية تؤيد هذا الحق، وذلك كما يلي. هل البرهان الذي تبلج في قلب يوسف مضافاً إلى الله منسوباً إليه سبحانه، هل هذا البرهان أزال جزءاً من ظلمات وساوس الشيطان هي الفعلة الفاحشة وأبقى جزءاً منها هو مقدماتها وهو الهم، ام ان البرهان اجتث الأمر من جذر الجذر، همّاً وفعلاً؟

ثم هذا الثناء المبدوء بقوله تعالى كذلك، التي علمت معناها، وأنها من تشبيه الشيء بنفسه لأنه بلغ حد الكمال، وبعدها لنصرف عنه السوء والفحشاء، أقول هل صرف الله عز وجل جزءًا وأبقى في قلبه جزءًا، أم ان كمال الفضل وتمام المنة أن يصرف عنه الأمر برمته ساقاً وأعماقاً..

ولاحظ السوء والفحشاء كيف نفيا عن يوسف، والفحشاء الزنا، فما السوء؟ انه كل مقدمة للزنا، اذن فكل ذلك بفضل الله مصروف عن يوسف.

ثم أيضاً يقول الله فيه انه من عبادنا المخلصين، بهذه الاضافة التشريفية عبادنا، وبهذا الوصف: المخلصين، فهل يوسف مخلص بنسبة ٩٠٪ مثلاً أم إنه مخلص مكرر بنسبة ١٠٠٪، فهو بالتالي مصروف عنه الهم من درجة خاطرة إلى درجة عزم، كل ذلك هو منه في عافية.

أرأيت. إنا لم نلجأ الا لنفس النص ولم نستعن بعد الله عز وجل الا بكلامه، فما الحاجة إلى خلط المخلّطين واسفاف الذين طبع الله على قلوبهم من بني اسرائيل. وأما قول المفسرين هم بضربها ودفعها فهذا قبيح مستهجن في غير محله

---

(١) زعمت كثير من التفاسير غير الذي ارتضينا، فمن زاعم أنه هم بضربها، والهم بالضرب لا يحتاج إلى رؤية برهان ربه حتى ينصرف عنه، ومن قائل قولاً شنيعاً لا يجوز في حق الانبياء ولا صالح المؤمنين ولا عامتهم ثم يزعم أن هذا القول الشنيع هو قول جمهور المفسرين.
ونقول: حتى لو صح ما زعموا وأن جمهوراً قال بهذا القول، فهل القول الباطل يصبح حقاً اذا قاله جمهور من النقلة للاسرائيليات؟ أما المفسرون الواقفون عند حدود كتاب الله.. فان النص لا يحتمل عندهم غير هذا. وحتى تقرأ نموذجاً من التفسيرات العجب اقرأ تفسير الماوردي: النكت والعيون جـ٢ ص ٢٥٩.



على الاطلاق، ونحن لسنا ملزمين بأقوال الناس ان خالفت كلام الله وكلام رسول الله أو خالفت عقيدتنا في عصمة الانبياء.

قال ابن حزم في معنى الآية في كتابه الملل:

«واما قوله: همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، فليس كما ظن من لم يمعن النظر، ومعاذ الله أن يظن برجل من صالحي المسلمين أو مستوريهم فكيف برسول الله ﷺ ثم فند ابن حزم ما زعم انه روايات مسندة إلى ابن عباس.

ثم قال في توجيه النص الكريم:

ان الكلام تم عند قوله: ولقد همت به، ثم ابتدأ تعالى خبراً آخر فقال: وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل. وبهذا نقول.

وبرهان ربه هاهنا هو النبوة، وعصمة الله عز وجل اياه، ولولا البرهان لكان يهم بالفاحشة وهذا لا شك فيه، ولعل من ينسب هذا الى النبي المقدس يوسف ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك.

ثم قال ابن حزم في الملل:

«نسأل من خالفنا عن الهم: سوء هو أم غير سوء؟ فلا بد أنه سوء فإذ هو سوء، وقد صرف عنه السوء، فقد صرف عنه الهم بيقين.»[1]

ويرى رشيد رضا أن الهم في اجماع أهل اللغة انما يكون بالاعمال لا بالشخوص والاعيان. وتحقيق معناه أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي، فلم يقع لرجحان المانع.

ثم فسر همها بمحاولة ضربه وهمه كذلك، وانما منع همه ارادته ومنع همها عجزها عنه بهربه. ثم ساق الشواهد من القرآن على أن الهم ورد للفعل لا بالاعيان.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي جـ ٩ ص ٣٦٣٦ وقد نقل قول ابن حزم وعلق عليه بقوله مستحسناً له: وما محاسن شيء كله حسن..!!؟



ثم قال: «ما قاله الجمهور باطل لمخالفته للغة القرآن وهدايته، وانما خدعتهم الروايات الباطلة.»(١)

ونحن نتفق مع الشق الأخير من قول رشيد رضا رحمه الله ونخالف في الشق الأول لبعده عن السياق.

قال الطوسي: ومعنى الهم في اللغة على وجوه، منها: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿**اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم**﴾. أي أرادوا ذلك وعزموا عليه. ومثله قول الشاعر: هممت ولم أفعل وكدت وليتني..

ومنها: خطور الشيء بالبال، وإن لم يعزم عليه، كقوله تعالى: ﴿**اذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما**﴾. والمعنى أن الفشل خطر ببالهم، ولو كان الهم عزماً لما كان الله وليهما. اذ إرادة المعصية والعزم عليها معصية بلا خلاف.

ومنها: المقاربة، يقولون هم بكذا أي كاد يفعله. ومنه قول ذي الرمة: وقد همّ دمعي أن تسيل أوائله. والمعنى أن الدمع كاد أو قارب.

ومنها: الشهوة وميل الطباع، يقول القائل فيما يشتهيه ويميل طبعه إليه: هذا من همي، وهذا أهم الاشياء الي.

وروي هذا التأويل في الآية عن الحسن. وقال: أما همها فكان أخبث الهم، وأما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، واذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه العزم على القبيح، وأجزنا باقي الوجوه، لأن كل واحد منها يليق بحاله.»(٢)

ونقول: انه وان كانت المعاني التي ذكرها وردت في اللغة للهم، لكن ورودها في اللغة شيء، ونسبتها الى يوسف شيء آخر. المهم أن الهم ان كان بمعنى الخاطر أو بمعنى المقاربة أو غير ذلك، فإنه بهذا المعنى أو ذاك لم يقع لوجود البرهان الالهي.

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٨٥

(٢) الطوسي: التبيان جـ٦ ص ١٢٠ ـ ١٢١.



وبعد الذي قال الطوسي في معنى الهم أنشأ يدفع عن يوسف هم العزم بقوله إنه لو كان عزم ما وُصِف بما وُصف به من صرف السوء والفحشاء وكونه من المخلصين، ولما قالت فيه المرأة: فاستعصم.

ونقول ما كان أحرى الطوسي أن يجعل هذا دليله لنفي الهم بتاتاً، لا نفي الهم بمعْنى واحد.

يقول استاذنا الدكتور فضل عباس في كتابه القيم: القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته:

«يسفّ بعض الناس وبخاصة عشاق القصص الاسرائيلية فينسجون خيالات كاذبة حول يوسف عليه السلام، وكيف أنه استجاب للمرأة ولم يمنعه من ذلك الا أنه رأى أباه، وقد تمثل له فنهاه عن ذلك، وفريق آخر على النقيض من أولئك قالوا: ان يوسف عليه السلام لم يحدث منه أي هم بل مجرد تفكير، وفسروا لهم بمحاولة الضرب، أي انه حاول أن يدفعها عن نفسه بالضرب، لكن الله تعالى صرف عنه هذا السوء كما صرف عنه الفحشاء.

وفريق ثالث وقف وسطاً بين الفريقين، ونحن مع هذا الفريق الوسط، وقد فسر هؤلاء الهم بالميل، ونحن نقرر رأيهم ان شاء الله فنقول:

أي فعل من الافعال قبل أن يقع يمر في النفس، وهناك خمس مراتب يمر بها الفعل، وهذه المراتب هي: الهاجس و الخاطر، وحديث النفس، والهم والعزم.

أما الهاجس والخاطر: وهما أول ما يطرأ على النفس. وتأتي المرتبة الثالثة وهي حديث النفس وذلك حينما يتم الأمر فيحدث به الانسان نفسه. وهنا مفترق الطرق فإما أن يرفضه وتنتهي الفكرة من أساسها، وإما أن يقبله. فإن كانت الأولى انتهى الامر ومات قبل أن يولد، وان كانت الثانية بأن قُبل هذا الفعل ورجّح العمل فهذا القبول والترجيح يسمى هما، وهذه المراحل الاربع ليس عليها مؤاخذة.

أما الهاجس والخاطر فالأمر فيهما ظاهر.



وأما حديث النفس فلقد بين النبي ﷺ أن الله تبارك وتعالى لا يؤاخذنا بما تحدثنا به النفوس.

وأما الهم فلأن النبي ﷺ يقول في الحديث: فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وان هم بها وفعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة، وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وان هم بها وفعلها كتبها الله عنده سيئة واحدة.» رواه البخاري

تبقى المرحلة الاخيرة وهي العزم وهذه المرحلة الاخيرة هي التي يحاسب عليها الانسان، العزم على الفعل انها النية..

ويوسف عليه السلام لم يكن منه هذا العزم، وانما الذي كان منه هو الهم فقط.

ويتساءل المتسائلون: ولكن كيف ذلك وكيف يمكن للنبي أن يكون منه هذا؟

ونجيب بأن يوسف عليه السلام بشر ومثله في جماله ونضارته وشبابه وفي النعيم الذي يعيش فيه، وهو سوي في رجولته لا مانع من أن يفكر في هذا، ولكن لا يقف الأمر هنا، بل ان هنا سر العظمة أن يفكر الواحد في شيء تتوق اليه نفسه ولكن يمتنع عنه رغم كل الظروف والموجبات.

إن يوسف عليه السلام لو لم يكن منه هذا الهم لكان عديم الشهوة وانتزعت منه الحاجة الى النساء، واذا كان كذلك، فليس هناك عظيم فضل في امتناعه عن اجابة المرأة.»

وأقول: ليس من تلازم فيما أرى بين ترك الهم وانعدام الميل والشهوة، فهذا شيء وهذا شيء. وان الفضل الأعظم في الامتناع الكامل عن المعصية حتى من درجة الهم.



ثم قال الاستاذ: ان هناك فرقاً بين من يترك الشهوة خشية الله، وبين من تتركه هذه الشهوة، لأنه لا يقدر عليها.

فالمراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت اليها عن شهوة الشباب ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين..»[1]

قال القاسمي: لولا رؤيته برهان ربه لهم بها، كما همت به، لتوفر الدواعي. ولكنه رأى من تأييد الله له بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء.

قال ابو حيان: ونظيره قارفتَ الاثم لولا أن الله عصمك. ولا نقول: إن جواب لولا يتقدم عليها، وان لم يقم دليل على امتناعه، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه، بل نقول: هو محذوف لدلالة ما قبله عليه، لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله. أ.هـ.

ثم قال القاسمي: فالآية ناطقة حينئذ بأنه لم يهم أصلاً.[2]

قال الشيخ الشنقيطي:

«ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم بين براءته من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشاهد، ثم ذكر الشيخ رحمه الله الآيات الدالة على تبرئته على لسان نفسه والمرأة وزوجها.. الخ وختمها بشهادة الله له: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء..

(١) الدكتور فضل عباس: القصص القرآني، نفحاته وايحاؤه: ص ٣٩٩ - ص ٤٠٢

(٢) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٢٨ - ٣٥٢٩ والبحر المحيط لأبي حيان جـ ٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ط١ سنة ١٣٢٨ هـ



ثم نقل الشيخ رد الرازي الشديد على من قال بخلاف هذا القول.»[1]

ثم قال المرحوم الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان:

«فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة. ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: وهم بها.

فالجواب من وجهين:

الأول: المراد بهم يوسف بها خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى.

وقال بعضهم هو الميل الطبيعي والشهوة المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه، لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف.

والجواب الثاني: هو اختيار ابي حيان أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

وهذا الوجه الذي اختاره ابو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه كقوله تعالى: ﴿فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين﴾. أي ان كنتم مسلمين فتوكلوا عليه. وكقوله: ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾.

وعلى هذا القول فمعنى الآية: «وهم بها لولا أن رأى برهان ربه»، أي لولا أن رآه هم بها. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها﴾. أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا. وإلى جوازه ذهب الكوفيون، ومن اعلام البصريين ابو العباس المبرد، وابو زيد الانصاري، ثم علق الشيخ الشنقيطي على الاقوال المروية في البرهان فقال انها بين قسْم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا اشكال في سقوطه، ومن ثبت عنه فإنما تلقاه من الاسرائيليات لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير اليه ﷺ..

(١) أضواء البيان جـ٣ ص ٤٩ ـ ص ٥١



وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف اعتماداً على مثل هذه الروايات.»[1]

ولقد همت به: المقصود أنها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة. والمقصود من ذكر همها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنه معصوم.

وجملة وهم بها لولا أن.. معطوفة على جملة «ولقد همت به» كلها. وليست معطوفة على جملة همت التي هي جواب القسم المدلول عليه باللام، لأنه لما أردفت جملة وهم بها بجملة شرط لولا المتمحض لكونه من أحوال يوسف وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعين أنه لا علاقة بين الجملتين، فتعين أن الثانية مستقلة لاختصاص شرطها بحال المسند اليه فيها. فالتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فقدم الجواب على شرطه للاهتمام به. ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب لولا بها لأنه ليس لازماً، ولأنه لما قدّم على لولا كره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط، فيحسن الوقف على قوله ولقد همت به، ليظهر معنى الابتداء بجملة وهم بها واضحاً، وبذلك يظهر أن يوسف عليه السلام لم يخالطه هم بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهم بالمعصية بما أراه من البرهان.

قال ابو حاتم كنت اقرأ غريب القرآن على ابي عبيدة فلما أتيت على وهم بها، قال ابو عبيدة هذا على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط.

لنصرف عنه: الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه.

انه من عبادنا المخلصين: تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء،[2]

---

(١) اضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن جـ٣ ص ٥٢ - ص ٦٠ بتصرف واختصار وارجع إلى كتاب: دراسات لاسلوب القرآن للشيخ عضيمة، وهو في بابه نفيس قيم تحت ترجمته لحذف جواب لولا، وقد نقل كذلك قول ابي حيان في بحره المحيط: لم يقع من يوسف هم بها البتة بل هو منفي لوجود البرهان. دراسات جـ٢ ص ٦٨٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٥٢ - ص ٢٥٥



قال الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الانبياء:

«والقول الذي لا غبار عليه ويلتئم مع قوله تعالى: ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء**﴾ ومع قوله في الآية نفسها ﴿**انه من عبادنا المخلصين**﴾ ان همه عليه السلام بها امتنع لوجود البرهان عنده، وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وبأخلاقهم الزكية الطاهرة، وأن قوله «وهم بها» لا يصلح جواباً لأنّ «لولا» لها الصدارة. لأنا لا نقول ان هذا هو الجواب، ولكنه دليل الجواب. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين**﴾ لأن لولا حرف امتناع لوجود. امتنع الهم لوجود البرهان. وامتنع ابداء ام موسى بما في نفسها على ابنها لوجود ربطنا على قلبها. والجواب محذوف تقدم دليله على لولا.»[1]

قال الطبري: ان الله جل ثناؤه أخبر عن هم يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من آيات الله زجرته عما هم به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا - تأمل! - ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك من أي. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى والايمان به وترك ما عدا ذلك.»[2]

ومنهج الطبري في ترك التتبع غير المجدي والوقوف عند النص جيد، لكن الاحتمالات التي يضعها كصور جائزة لا تصل أن تكون كذلك، فلو ترك الأمر عند حد الوقوف من غير الافتراضات لكان أسلم.

يقول الاستاذ كحيل في تفسيره لهذه الآية الكريمة، ولهمّ يوسف:

«عزم على أن يكسر حدتها، ويدفعها عن نفسه بقوة، حتى يتخلص منها، لولا أن رأى برهان ربه، الذي يدين له بتربيته، ورعايته، عند ذلك رأى أن أي طريقة خشنة في دفعها قد تؤدي إلى ايذائها، وفي هذا ما فيه من الاساءة لذلك

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الانبياء ص ١١٢ ط٣ بيروت: دار احياء التراث العربي.

(٢) تفسير الطبري ١٣:١١٣.



الزوج الكريم في معاملته معه، لذلك فكر في التخلص منها بطريقة أخرى مبتعداً عن العنف، تقديراً لذلك الزوج، وما سلف من ايوائه له، وتربيته ورعايته، وسرعان ما اتجه نحو الباب حتى لا يعطيها فرصة تسيء بها الى زوجها.

«كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء» مثلما أنجيناه من مراودتها، أريناه برهان ربه، وحجة سيده، لنصرف العقاب المسيء له الذي كان سيترتب على استعمال العنف معها، والفحشاء التي رغبت المرأة فيها.

إنه من عبادنا المخلصين الذين أخلصناهم لطاعتنا وعبادتنا وتبليغ رسالتنا.»[1]

وفي تفسير هذه الآية أتى الاستاذ الشيخ بعدة غرائب:

أولها تفسير الهم بأنه محاولة الدفع، والتخلص من المرأة بطريقة خشنة، وهذا خلاف السياق ومغاير لروح النص، الذي يعني كما رجحنا نفي الهم وامتناعه لوجود البرهان وعصمة الله لنبيه الكريم.

والغريبة الثانية تفسيره لبرهان ربه بأنه تربية العزيز ليوسف وايواؤه له، ورؤية البرهان تذكر يوسف لنعمة العزيز عليه..

وهو تفسير لا يتبادر إلى الذهن من النص بحال، الا بكثير من التكلف، وبُعدٍ شديد في التأويل.

والنص الكريم لم يطلق على العزيز قط أنه رب يوسف. ولا قال يوسف عنه: انه ربي. أما الآخرون كالساقي وغيره، فقد أطلق النص الربَّ على سيده.. ارجع إلى ربك فاسأله.

ثم تفسيره للسوء بأنه العقاب الذي كان سيقع على يوسف وهو كذلك من أغرب وابعد ما يكون، وعقاب البشر وظلمهم ليس بهذه الدرجة من الخطورة التي تستحق أن يتكلم عنها النص في هذا الموطن، وأليس قد وقع عليه الظلم

(١) نظرات في التفسير ص ٥٥ ـ ٥٦



أخيراً حين أودع السجن فكيف يسجن وهو قد صرف عنه العقاب؟

قال ابو السعود:

«ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبيء عن كمال كراهيته للهم، ونفرته عنه، وحكمه بعدم افلاح الظالمين؟ هل هو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه عليه السلام تسجيلاً محكماً؟ وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر، بطريق المشاكلة، لا لشبهه به كما قيل. ولقد أشير إلى تباينهما حيث لم يلزّا في قرن واحد من التعبير، بأن قيل: ولقد هما، أو هم كل منهما بالآخر. وصدّر الاول بما يقرر وجوده من التوكيد القَسَمي، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل: ﴿**لولا أن رأى برهان ربه**﴾، أي حجته الباهرة، الدالة على كمال قبح الزنا. وسوء سبيله.

والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين. وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يحذر منه، ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه.

وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام. وفائدة هذه الشرطية بيان ان امتناعه عليه السلام، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة، بل لمحض العفة والنزاهة، مع وفور الدواعي الداخلية، وترتيب المقدمات الخارجية، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية. ثم قال ابو السعود في معنى لنصرف عنه: آية بينة، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه هم بالمعصية، ولا توجه اليها قط، والا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء. . وانما توجه اليه ذلك من خارج، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة، فتأمل.»[1]

قال القاسمي: «هذا وقد ألصق هنا بعض المفسرين الولعين بسرد الروايات، ما تلقفوه من أهل الكتاب، ومن المتصولحين، من تلك الاقاصيص

---

(١) تفسير ابي السعود جـ ٤ ص ٢٦٦



المختلقة على يوسف عليه السلام في همه، التي أنزه تأليفي عن نقلها، بردّها، وكلها كما قال العلامة ابو السعود: خرافات وأباطيل، تمجها الآذان، وتردها العقول والاذهان، ويل لمن لاكها ولفّقها، أو سمعها وصدّقها. وسبقه الزمخشري فجود الكلام في ردها، فلينظر، فانه مما يسرّ الواقف عليه.»[1]

قال الزمخشري في كشافه يفند مقولات المفسرين المنقولة عن الاسرائيليات، ونعت الذين ينقلون هذه الروايات بأنهم دأبوا على البهتان على الله ورسله، ثم قال:

«ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره، كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى ايوب وعلى ذي النون وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصاً، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وانه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح، حتى استحق من الله الثناء وضربت سورة كاملة على قصته ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل ابراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الازار، والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في ايرادهم ما يؤدي إلى أن يكون انزال هذه السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين، . . .

ثم قال في تفنيد ما زعم من ظهور الآيات والقوارع التي يراد منها ردع يوسف ـ بزعمهم ـ: «ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم واحدّهم حدقة وأجلحهم وجهاً، لقي بأدنى ما لقي به نبي الله كما ذكروا، لما بقي له عرق ينبض. فيا له من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه.»[2]

وبَعْدَ أن يذكر الدكتور رمزي نعناعة روايات البغوي[3] نقلاً عن شيخه الثعلبي الذي هو امام الاسرائيليات الهالكة، يقول:

---

(١) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٣٠ ـ ٣٥٣١

(٢) الكشاف للزمخشري ١٠٦، حـ٢ ص ٣١٢ طـ الحلبي

(٣) ارجع ان شئت إلى تفسير البغوي معالم التنزيل جـ٣ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٧ والخازن نفس الصفحات. ط٢ مصطفى الحلبي، القاهرة: ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م



«هذه الاساطير والاسرائيليات التي راجت على بعض المفسرين، فسودوا صحفهم بكتابتها، وأضاعوا الوقت بنقلها، لا يقبلها عقل ولا شرع ولا ذوق سليم، ولا ندري كيف جرت أقلام أولئك الذين كتبوا عن يوسف ما كتبوا، وكيف غفلوا عن مقصد القرآن من قصص هؤلاء الانبياء الكرام؟!

أليس من مقاصد القرآن أن نعتبر ونتعظ ونتأسى بهم في الصبر والتزام جانب الحق؟ وأي معنى للعصمة يبقى بعد الذي زعموه؟! وما امتناعه عن الزنا ـ على رواياتهم المفتراة ـ الا وهو مقهور مغلوب على أمره.

ولو أن عربيداً رأى صورة أبيه[1]، تحذره من الاقدام على معصية لكف عنها، ورجع عن غوايته، فأي فضل ليوسف عليه السلام إذاً وهو نبي من سلالة الانبياء؟! بل أي فضل له في امتناعه بعد أن خرجت شهوته من أنامل قدميه ـ فقد زعموا أنه ما كف عن المعصية حتى مسح جبريل عليه بجناحه فأخرج الشهوة من أصابعه ـ وما امتناعه في هذه الحالة الا قسري جبري، وكيف يتفق ما حيك من روايات باطلة وقول الله جل شأنه: **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين﴾**.

وكيف يتفق ما حكوه وما حكاه الحق تبارك وتعالى عن المرأة في قولها: «انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين.»[2]

ثم قال الدكتور نعناعة: «والبَغوي متابع لشيخه الثعلبي في قوله عن هذه الاباطيل انها مذهب السلف، ومن العجيب أن يضعف الثعلبي والبغوي مذهب الذين ينفون هذا الزور والبهتان ويفسرون الآيات على حسب ما تقتضيه اللغة ويحتمه الشرع بقولهما: «وزعم بعض المتأخرين أن هذا لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام». وحجتهما في التضعيف مخالفتهم لاقوال السلف!

---

(١) قال الدكتور رمزي صورة أبيه وقد مات، وتعبيره غير صحيح لأن المثل يفترض أن يطابق الممثل له ويعقوب لم يكن مات.

(٢) الاسرائيليات وأثرها في كتب التفسير للدكتور رمزي نعناعة ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ط١ دمشق: دار القلم ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠



وقد وقع الواحدي في كتابه البسيط في مثل ما وقع فيه الثعلبي والبغوي، فروى من هذه الاسرائيليات الباطلة التي دسها الزنادقة على الرواة، ونقلها بعض المفسرين في كتبهم اغتراراً بأنها من أقوال السلف وهم منها براء، ولم يكتف الواضعون بأن الصقوا أمثال هذه الروايات بالصحابة والتابعين، بل رووا من المرفوع - بزعمهم - ما يؤيد هذه الفرية.

ثم فند الدكتور نعناعة ما قيل من أن يوسف هو القائل وما ابرىء نفسي، ثم قال:

«ولا تلتفت إلى ما ذكره بعض المفسرين من خلاف في قائل هذا القول، فالحق ما سمعته، ولقد انتصر لهذا الرأي الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله، وذكر العلامة ابن كثير أنه افرده بتصنيف على حدة.

وهكذا نرى أن ما حيك من روايات في قصة يوسف مختلق، وليس أدل على ذلك من أنه لم يخرجها أحد من أهل الصحيح، ولا أصحاب الكتب المعتمدة عند المحدثين الذين يرجع اليهم في ذلك، وانما ذكرها الأخباريون، وبعض المفسرين وديدنهم التساهل في مثل ذلك.

وإذا خلصنا إلى ما رأيت، فالحق الصحيح في تفسيرهم يوسف أنه لم يقع من يوسف هم بالفاحشة، وأن الكلام من قبيل التقديم والتأخير، أي لولا أنه رأى برهان ربه لكان هم بها، ولكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعي، وههنا المعجزة الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة، حتى لا يظن به، ثم هي تريد من ذلك ان يتعلم الرجال، وخاصة الشبان منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات»[1]

قال الشريف المرتضى في أماليه:

والوجه الثاني في تأويل الآية أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير، ويكون تلخيصه: ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ويجري ذلك مجرى

---

(١) الاسرائيليات ص ٢٧٦ - ٢٧٧



قولهم: قد كنتَ هلكتَ لولا أني تداركتك، وقُتلتَ لولا أني خلصتك، والمعنى: لولا تداركي لهلكت، ولولا تخليصي لقتلت، وان لم يكن وقع هلاك ولا قتل،

واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك**﴾، والهم لم يقع لمكان فضل الله ورحمته.

ومما يشهد لهذا التأويل أن في الكلام شرطاً، وهو قوله: لولا أن رأى برهان ربه. فكيف يحمل على الاطلاق مع حصول الشرط؟ وليس لهم أن يجعلوا جواب لولا محذوفاً مقدراً لان جعل جوابها موجوداً أولى.

وليس تقديم جواب لولا بأبعد من حذف جواب لولا جملة من الكلام. واذا جاز عندهم الحذف ـ لئلا يلزمهم تقديم الجواب ـ جاز لغيرهم تقديم الجواب حتى لا يلزم الحذف.

وملخص كلامه: اذا جاز الحذف في جواب لولا جاز التقديم والتأخير وهو أخف.

والجواب الثالث ما اختاره ابو علي الجبائي ـ وان كان غيره تقدمه إلى معناه ـ وهو أن يكون معنى هم بها اشتهاها، ومال طبعه إلى ما دعته إليه. وقد يجوز أن تسمى الشهوة في مجاز اللغة هماً، كما يقول القائل فيما لا يشتهيه: ليس هذا من همي، وهذا أهم الاشياء إلي، ولا قبح في الشهوة لأنها من فعل الله تعالى فيه، وانما يتعلق القبح بتناول المشتهى.

وقد روي هذا التأويل عن الحسن البصري قال: أما همها فكان أخبث الهم، وأما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، ويجب على هذا الوجه أن يكون قوله تعالى: لولا أن رأى برهان ربه، متعلقاً بمحذوف، كأنه قال: لولا أن رأى برهان ربه لعزم أو فعل.

والجواب الرابع أن من عادة العرب أن يسموا الشيء باسم ما يقع عنده في الاكثر، وعلى هذا لا ينكر أن يكون المراد هم بها، خطر بباله أمرها، ووسوس اليه الشيطان بالدعاء اليها، من غير أن يكون هناك هم أو عزم، فسمي الخطور بالبال

هماً من حيث كان الهم يقع في الاكثر عنده، والعزم في الاغلب يتبعه. ثم قال: وانما انكرنا ما ادعاه جهلة المفسرين ومخرفو القصاص، وقرفوا به نبي الله عليه السلام(١)

«ومن اكبر السوء والفحشاء العزم على الزنا، ثم الاخذ فيه والشروع في مقدماته، وقوله تعالى ايضاً: ﴿انه من عبادنا المخلصين﴾ يقتضي تنزيهه عن الهم بالزنا والعزم عليه.

فأما البرهان الذي رآه فيحتمل أن يكون لطفاً لطف الله به في تلك الحال أو قبلها اختار عنده الانصراف عن المعاصي والتنزه عنها.

ويحتمل أيضاً ما ذكره ابو علي، وهو أن يكون البرهان دلالة الله تعالى له على تحريم ذلك عليه، وعلى أن من فعله يستحق العقاب.

وليس يجوز أن يكون البرهان ما ظنه الجهال من رؤية صورة أبيه يعقوب عليه السلام متوعداً له، أو النداء له بالزجر والتخويف، لأن ذلك ينافي المحنة وينقض الغرض بالتكليف، ويقتضي ألا يستحق على امتناعه وانزجاره مدحاً، ولا ثواباً، وهذا سوء ثناء على الانبياء، واقدام على قرفهم بما لم يكن منهم ونحمد الله على حسن التوفيق.»(٢)

ويعجب الاستاذ عبد الكريم الخطيب من الذين فسروا الهم بمجرد الميل النفسي، إذ يرى هو الهم هم فعل، لا مجرد هم خاطر، ويرى أن الذي حمل المفسرين على هذا أمران:

---

(١) أمالي المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد جـ١ ص ٤٧٧ ـ ص ٤٨٢، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، نشر عيسى الحلبي القاهرة ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤ ط١

(٢) الأمالي السابق ص ٤٨٢ جـ١

وقريب من قول المرتضى قول القاضي عبد الجبار في متشابه القرآن جـ١ ص ٣٩١ ومما قال: من أين أنه هم بذلك مع وجود الشرط في الكلام. ويبين ذلك انه تعالى وصفه بأنه صرف عنه السوء والفحشاء. وسائر ما ذكره تعالى من تنزيهه يوسف عليه السلام في السورة يدل على ما قلناه، لانه تعالى وصفه بأنه يجتبيه وهذه صفة من لا يعزم على الفواحش. ووصفه بأنه من عباده المخلصين، وذلك ايضاً لا يليق به الاقدام على العزم على الزنا... الخ.



أولهما: أنهم الزموا لفظ ربه معناه المطلق.. ويرى هو معناها: السيد، ثم يقول ان المفسرين لو فهموا فهمه لخرجوا من هذا الحرج الذي وقعوا فيه.

وثانيهما: أنهم يرون في النبي أنه ينسلخ عن طبيعة البشر، فلا تتحرك له شهوة، ولا تندفع في كيانه رغبة.. ولكن فات هؤلاء الذين ينظرون إلى النبي هذه النظرة، فاتهم - يقول الاستاذ - أن النبي بشر، قبل أن يكون نبياً، وأنه حين يلبس ثوب النبوة الجليل لا يخلع ثوب البشرية العظيم.. فالنبوة لا تلبس الا أعلى قمم البشرية، وأعظمها..

ثم يقول: وعلى هذا فالذي نطمئن اليه هو أن هم يوسف كان هم فعل، وأن برهان ربه هو برهان سيده العزيز، وأن هذا البرهان هو إشارة معروفة، كان يشار بها عند مجيء العزيز إلى بيته، حيث يكون ذلك إعلاناً لخدمه، وحشمه، وحرسه، ليكونوا جميعاً في هيئة استعداد لاستقباله.. أي أنه ما كادت امرأة العزيز تداني يوسف، وما كاد يوسف يدانيها حتى رأى حركات في القصر تنبىء عن مقدم العزيز، وأنه ما كاد يفلت من بين يديها ويتجه نحو باب الخروج حتى كان العزيز بالباب.

ثم يقول ان ظهور العزيز في تلك اللحظة التي كاد يقع فيها المنكر لطف من الله بيوسف، واحسان اليه.. وهذا هو صرف السوء عنه.

ثم يستدل على مقولته بما في آخر السورة: حتى اذا استيأس الرسل، أي حتى اذا وصلوا حافة الانهزام توافدت عليهم الامداد..

ثم أثنى الاستاذ الخطيب على تفسير البيضاوي الذي قال في معنى الآية: انها قصدت مخالطته وقصد مخالطتها..»[1]

وعجباً لا ينتهي من تفسير الاستاذ الخطيب للآية بما فسرها به. وهل هذا هو أحسن الفهم الذي أمرنا به؟ وهل هذا هو الاليق والاوفق بمقام النبي الكريم؟

(١) قصتا آدم ويوسف ص ٧٧ - ص ٨٠ والقصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص ٤٢٦ - ص ٤٢٩



وهل هذا هو المنسجم مع السياق؟ ثم أي فضل ليوسف ان كان قصد لولا العوامل الخارجية صرفته في آخر لحظة؟ وكيف تبرئه امرأة العزيز وقد رأت منه ما رأت؟ وكيف تقول انه امتنع واستعصم والاستاذ يرى أنه لا امتنع ولا استعصم بل وافق هواها وقارب المقارفة؟

وهل مجيء زوجها الأنسب لمعنى كلمة برهان ربه بهذه الاضافة المفيدة للتعظيم والتفخيم؟ وكيف يقول الاستاذ عن يوسف بعد قليل انه دافع عن نفسه بالحق؟

لا ريب أن الاستاذ اختط طريقاً شططاً لا ترى فيها غير العوج والأمت. وأين ثوب النبوة الجليل الذي يلبس على ثوب البشرية العظيم؟! على حد تعبيره. ان تفسيره يمزق الثوبين الجليل والعظيم.

ولعل من أبعد ما قيل في تفسير الآية بعد الروايات الاسرائيلية الملصقة زوراً بابن عباس والتي نقلتها كثير من التفاسير الأثرية، ما قاله الاستاذ ابو حمدة في ما كتبه في تعليقه على هذه الآية، اذ قال: «ثم ها قصة القميص تطفو الى سطح الاحداث مرة أخرى. هي قد غلقت الابواب ودعته الى الفراش فلم يستجب وكان متأبياً. ثم يبدو أن المرأة قد تجاوزت الحدود في التعري والمجاذبة لدرجة بدا عليه أنه قد وضع في مناخ الاغواء. وهو أمر قد كان متوقعاً ـ من الناحية الجسدية ـ بحكم ما يحدثنا القرآن الكريم من أن يوسف قد «بلغ أشده» ولو لم يكن يوسف «هم بها» لما ظلت شخصية يوسف الرجولية تحتفظ بخصائصها التي أراد النسق القرآني الكريم اظهارها. تأمل!

واذاً، فقد كان استعداد يوسف الجسماني «يؤهله» للمواثبة، (هكذا) لو لم يكن برهان من ربه وصرف السوء والفحشاء. وهو استعداد كان «يضغط» على أعصاب يوسف حتى كان يخشى أن يضعف أمام مطاردات امرأة العزيز وتحريش النسوة لها.

لقد وجد يوسف نفسه يهم مقبلاً على المرأة ثم فجأة ينتفض متأبياً.



فهل رؤية القميص الداخلي الذي يلامس جسده (قميص النبوة) ـ ما بداخل القوسين من الكاتب! ـ قد أعاد اليه أمانة السر مع يعقوب واسحق وابراهيم؟ يبدو أن لا شيء غير هذا.

يعزز هذا الاستنتاجَ دورانُ التنويه بالقميص في حكاية الحكومة بين الخصمين ثم حكاية البشير ورجوع البصر ليعقوب.

ـ ثم ذكر الكاتب الآيات ٢٦ ـ ٢٨، ثم قال:

«فهل دوران لفظة القميص أربع مرات في هذا السياق لا تعكس أهمية منوطة بهذا القميص؟ ان الذي يعرف أساليب العرب في القول لا يعوزه كبير اجتهاد كي يتبين الدور «البطولي» الذي «خاضه» القميص في هذه «المعركة الجانبية» ـ كل الأقواس من الكاتب ـ.

وخرج القميص هذه المرة أيضاً «منتصراً». فهل كان القميص الذي قدّ من دبر هذه المرة هو قميص النبوة صاحب السر؟

أغلب الظن أن نعم.

إن سياق الآيات يحدّث به، فان كان يوسف قد هم بالمرأة...[1] فحتماً كان قد أصبح في القميص الذي يلي الجسد. ومن ثم كان أمر قده إلى نصفين سهلاً بحكم ما كان من خيوط قديمة ونسيج قد تقادم عليه العهد.

ثم يذكر الكاتب عبارة لا أدري عدم وضوحها من خطأ طباعي أو من ضعف تحليلي أو من تعقيد العبارة، مفادها أن القميص لو لم يكن يوسف به ضنيناً لكانت امرأة العزيز احتفظت به «ذكرى عطرة لمحاولة تعتز بها مستقبلاً على عادة

(١) عبارات لا أنقلها ولا أثبتها ولا أسجلها حتى في معرض النقد والرد، مفادها أنه بقي بقميص النبوة الداخلي.. على حد تعبير الكاتب.. ولم ينس الكاتب أن يحيلنا في هذه الاقوال الى التفاسير.. القرطبي والطبري وابن كثير وكأن ورودها في تلك التفاسير أكسبها صفة الثبوت والبسها ثوب الحق وكأنها التفسير المتعين للآيات.. ومعاذ الله أن تكون كذلك ولو بلغ الناقلون عدد النجوم..



المحبين. . . ولكن عكس هذا قد حصل وها هو يوسف يرسل بقميصه هذا شارة صدق إلى يعقوب مع وفد «رسمي».

وحين يتحدث يوسف عن القميص فانما يتحدث بصيغة بالغة الخصوصية. فهو يقول: «اذهبوا بقميصي هذا»، وهذا له دلالة كبيرة على أن هذا القميص يقوم الآن بدور «البطولة» وحسم النصر لصالح معركة الحق. ولو لم يكن هذا القميص هو قميص النبوة ما كان يوسف ليتحدث بمثل هذه الثقة بالنتيجة. . في مثل قوله «فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً» وقد حصل. . «القاه على وجهه فارتد بصيراً.»

وفي الوقت الذي كان يوسف يقوم فيه بالصراع في قضية المراودة كان الذي تراءى له برهان ربه ـ والبرهان هذا حتماً لم يصل إلى درجة النبوة. ولو كانت النبوة قد حصلت ما كان ليبقى في نفس يوسف بقية من استجابة لفتنة وغواية.

وهكذا يكون القميص قد قام بدور كبير من أدوار البطولة وكان وراء تأمين الاتصالات «اللاسلكية» بين يوسف من جهة وبين يعقوب من جهة أخرى عبْر لغة «الشيفرة» التي كان يسمع بعض مفرداتها اخوة يوسف ولكنهم ما كانوا يقدرون على حل مغاليقها وفك رموزها.

وقد كان هذا «القميص» يقوم بتأمين الاتصالات في حدود الامكانات البشرية وآفاقها المتاحة لها من تأويل وفراسة والمعية واستنتاج وقياس من غير ما وحي واخبار إلهي. وفي ذلك ما فيه من الهاب المشاعر وتطهير العواطف ورياضة النفس على الصبر وعلى الترقب وعلى الاحتمال، وعلى العزم، وعلى الشعور بحلاوة التقوى ونشوة النصر واجتياز التحديات والمصاعب والحواجز والعقبات. . .»[1]

(١) في التذوق الجمالي لسورة يوسف ص ٣٦ ـ ص ٤١. والكاتب ينوه في البداية ص ٣٦ أن البطل الثاني في القصة: القميص، ثم يقول: ولعل هذا القميص كان قد لبسه اسحق ويعقوب على نحو له مباركة سماوية وشارة الهية. ويبدو أن هذا القميص قد كان مما يلي الجسد. ثم يقول الكاتب ان ابناء يعقوب لما جاءوا بالقميص وعليه الدم أخذوا القميص الخارجي، وبقي قميصه الداخلي لاصقاً بجسده. . وهذا أعطى يعقوب انطباعاً أن قيمص النبوة لم يمس بسوء. واذاً فيوسف والقميص الداخلي انما هما في مأمن وامان. ولعل هذا ما يفسر كيف أن يعقوب كان متأبياً على كل الروايات التي قدمت، وكان دائم التطلع الى عودة مظفرة ليوسف وللقميص ايضاً. . !!



ونستميح الاستاذ الصديق أبا حمدة عذراً في أن ننقد ما قال مقولة مقولة، وموقفاً موقفا. . .

أدار الأستاذ القصة كلها والبطولة ـ على حد تعبيره ـ على القميص، وتوهم أن القميص هو قميص النبوة الموروث من عهد ابراهيم واسحق ويعقوب وأنّى هذا؟ أنّى أن نثبت هذا الأمر، بل هو من القول بالظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، والمنهج الأمثل في الفهم والتذوق الجمالي للنص القرآني أن نقف عند حدود النص القرآني.

ثم كيف يعيش القميص هذه الاجيال كلها، ثم كيف يلبس الغلام الصغير قميص أجداده الكبار؟ وأنى لنا ان كان القميص داخلياً أو خارجياً كما ظن الاستاذ؟

ثم قال الاستاذ ان من المعاني التي حرص النسق القرآني على اظهارها شخصية يوسف الرجولية! ومتى كان هذا من هم القرآن؟ ومما يحرص على إظهاره؟ وما هذه الشخصية الرجولية التي يتحدث عنها الكاتب؟

وأين في التذوق القرآني أن يوسف وجد نفسه مقبلاً على المرأة؟! وأنه ما منعه الا رؤية قميص؟ اذاً لم يمنعه قيم استقرت في النفس وانما خرقة كست الجسد.

وأما انشغال الاستاذ بدوران قصة القميص فلأن في القميص دليل البراءة لا أنه القميص الذي لبسه أربعة أجيال من الانبياء والذي كان مشحوناً برموز الشيفرة!

ويصر الاستاذ ويحرص على أن القميص هو الذي خاض المعركة وهو الذي انتصر في الوقت الذي كان يوسف على ما قال الاستاذ يضعف ويقبل ويهم كان القميص ثابتاً بطلاً منتصراً! وهل قميص النبوة أعظم من صاحبه وأعظم من النفس التي أكرمت بالنبوة؟ وهل اكتسب القميص شرفه الاّ من شرف لابسه لكن



الاستاذ عكس الأمور كلها وجعل البطولة والراية المظفرة والفتح المبين للقميص العظيم.

ثم ينبهنا إلى أن يوسف خاض هذه المعركة قبل النبوة ولذلك ظهرت بعض بوادر الضعف ولو كانت المعركة بعد النبوة ما كان الضعف وجد. وهل نفس ضعيفة مؤهلة لحمل الأمانة الثقيلة العظيمة؟ بل انها ما اكرمت بالنبوة إلا لأنها عظيمة قبل النبوة وعظيمة بعدها.

ثم أين هذه التفصيلات التي غرق فيها مقال الاستاذ والوصف والمبالغة في عرض موقف الضعف من النص القرآني العظيم المجمل الموجز الموحي الذي كان يشير من بعيد، والاستاذ يريدنا أن نتذوق التذوق الجمالي العالي للبيان القرآني فكان الحري الوقوف عند النهج القرآني العظيم لا نعدوه قيد شعرة.. والا فإنه التيه.

وأما برهانُ ربه، فأيضاً مما تفنّن في اختراع التصورات الغريبة له المخترعون. فمن قائل ان السقف تصدع أو الجدار تداعى، أو نزل عليه جبريل، أو برق له برق من السماء، أو ظهر له صوت يعقوب وصورته عاضاً على اصبعه محذراً قائلاً لا تكن كالطير ينتف ريشه، وتأمل حتى التفصيلات يضيفونها لأساطيرهم لتبدو واقعية، وكل ذلك نأباه كل إباء، وان أقل الناس لو رأى هذه المعجزات لأقلع وما وجد في نفسه دافعاً لشيء على الاطلاق، فهل يحتاج نبي كريم إلى مثل هذه الآية التي تلوي الاعناق حتى يقلع عن تلك الفعلة؟ والشاعر يقول:

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة

ألم أقل لك: ان كثيراً من الروايات ينقلها الناس دون أن تمر على نقطة تفتيش العقل، ونحن الامةَ العظيمة التي تحترم العقل وأحكامَ العقل المهتدية بهدى الشرع طبعاً، ونحن الذين أنزل الله لنا في الآية الثانية من نفس هذه السورة: انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. انكم لستم بحاجة أن تستعينوا بأصحاب لسان آخر على فهم لسانكم يا مسلمون. هذا قرآن ربي سبحانه، اكرم

وأعظم، وزدنا فيه ربنا حباً وبه تعلقاً وله تلاوة وعليه حرصاً وله دعوة ودونه منافحة، واجعله شفيعنا يوم الزحام.

برهان ربه إذاً نور الايمان واستقرار اليقين في القلب هو البرهان، ألم يطلق القرآن على نفسه البرهان، ألم يسمّ القرآن الحجة برهاناً؟ وأما الرؤية فرؤية علمية بصيرية وليست رؤية بصرية حسية.

وما أجمل قول القائل نستعيره لحال يوسف وحال كل متعفف عن كل دنيّة:

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكنّ من كفّ طرْفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

وبعد أن ذكر الطوسي أقوال الرواة في البرهان وما نقلوه وتقولوه قال:
«وهذا الذي ذكروه كله غير صحيح، لأن ذلك يقتضي الالجاء وزوال التكليف، ولو كان ذلك لما استحق يوسف على امتناعه من الفاحشة مدحاً ولا ثواباً، وذلك ينافي ما وصفه الله تعالى به، من أنه صرف عنه السوء والفحشاء وانه من المخلصين.»

ثم قال: «ويحتمل ان يكون البرهان لطفاً لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها، اختار عنده الامتناع من المعاصي، وهو الذي اقتضى كونه معصوماً، ويجوز أن تكون الرؤية بمعنىٰ العلم..»[1]

قال القشيري:
«وفي تعيين ذلك البرهان، ما الذي كان؟، تكلف غير محمود اذ لا سبيل اليه الا بالخبر المقطوع به.

وفي الجملة كان البرهان تعريفاً من الحق اياه بآية من آيات صنعه، ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[2]

(١) التبيان جـ ٦ ص ١٢٤
(٢) اللطائف جـ ٣ ص ١٧٨



آية ٢٥ :استبقا: «أي طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز السبق إلى الباب، والسبق تقدم الشيء لصاحبه في مجيئه.

وقوله: وقدت قميصه من دبر، أي شقّته طولاً، والقد شق الشيء طولاً، ومنه قد الاديم يقده قداً، فهو مقدود، اذا كان ذاهباً في جهة الطول على استواء.

من دبر: أي من جهة الخلف، والقبل جهة القدام.

ما جزاء: ما في مقابلة من أراد بأهلك سوءاً، والجزاء مقابلة العمل بما هو حقه من خير أو شر، يقال: جازاه يجازيه مجازاة، وجزاءاً.

الا أن يسجن: معناه ان ليس مقابلته الا سجنه أو يعذب على فعله عذاباً مؤلماً موجعاً.»(١)

والفيا: «والالفاء: وجدان شيء على حالة خاصة من غير سعي لوجدانه، فالاكثر ان يكون مفاجئاً، أو حاصلاً عن جهل بأول حصوله.

وابتدرته بالكلام امعاناً في البهتان بحيث لم تتلعثم، تخيل له أنها على الحق، وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ طابع القانون، وليكون قاعدة، لا يعرف المقصود منها، فلا يسع المخاطب الا الاقرار لها. ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف مانعة له من عقابه، فأفرغت كلامها في قالب كلي، وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيدها، وأن تخيف يوسف عليه السلام من كيدها لئلا يمتنع منها مرة أخرى.

ومخالفة التعبير بين أن يسجن أو عذاب دون أن يقول: الا السجن او عذاب لأن لفظ السجن يطلق على المكان الذي يوضع فيه المسجون، فقوله ان يسجن أوضحُ في تسلط معنى الفعل عليه.»(٢)

قال القشيري:

«استبقا، هذا ليهرب، وهذه للفعلة التي كانت تطلب.

(١) التبيان جـ٦ ص ١٢٥

(٢) التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧



ولم يضر يوسف عليه السلام أن قدت قميصه وهو لباس دنياه بعدما صح عليه لباس تقواه.

ويقال لم تقصد قدّ القميص وانما تعلقت به لتحبسه على نفسها، وكان قصدها بقاء يوسف عليه السلام معها، ولكن صار فعلها وبالاً على نفسها، فكان بلاؤها من حيث طلبت راحتها وشفاءها.» أ. هـ.[1]

الآية ٢٥:

﴿واستبقا الباب، وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الا ان يسجن أو عذاب أليم﴾

ما أصدق في هذه المرأة قول القائل: ضربني وبكى وسبقني واشتكى، ثم انتهى حالها معاً إلى قول القائل: اذا كان غريمك القاضي فلمن تشتكي.

لما لم يُجْد النصح الذي قدمه يوسف، ولا الاباء الذي أظهره في زجر هذه المرأة، لم يجدْ مناصاً من النَّجاء بدينه، والفرار بقيمه، ولكنها أيضاً لحقت به وتعلقت بثيابه تحاول أن تجذبه وتثقل من خطوه المتسارع نحو الخروج من البيت. وتأمل أنه مع كونه فتى وهي امرأة قد وصلا معاً إلى الباب لتعرف كم كانت هذه المرأة مضطرمة المشاعر، وكم كان هو عظيم الايمان.

ويشاء الله أن يجعل ليوسف شاهد براءة في ذلك الموقف الحرج الذي لا شهيد فيه الا الله، وكفى بالله شهيداً. ويشاء الله أن يأتي هذا الحكيم العادل مع الزوج، ويشاء الله الا أن يعود السيد في غير موعد عودته، استنتجنا هذا بالبديهة البسيطة، اذ هل يعقل أن تقع المراودة من المرأة في وقت عودة الزوج أو قرب تلك العودة.. المعتادة؟!

ألم أقل لك، ان الله يبتلي لكنه سبحانه لطيف في ابتلائه، فله الحمد.

وألفيا وجدا، وسيدها زوجها، وفي هذا بيان منزلةالزوج من المرأة.

ليست المرأة أمةً ولا عبدةً حتى لا يسيء الفهمَ بعضهم، وهل وجود سيد

---

(١) اللطائف ٣/١٧٩



يأمر فيطاع وينهى فينزجر الناس، هل وجوده استعباد، أم تنظيم لحياة العباد؟ هذه منزلة الزوج، فلا يسيئن استخدام صلاحياته ولا يتعسفن و يظن نفسه إلهاً جباراً في الارض، وظالماً جلاداً لهذه المرأة، وليس كذلك إمعة لا يحرك ساكناً، ينقاد لاهواء وشهوات زوجته ومطالبها ومطامحها التي لا تنتهي، حتى لو قطعت صلته بالله أو بأرحامه، ولو جرته إلى حافة الافلاس. . .

إن الحياة الزوجية شركة بين عاقلين متزنين ملتزمين بأحكام الدين، ومدير هذه المؤسسة الرجل، والمنفذ الفعلي المرأة، وليست الحياة الزوجية حلبة صراع، ومناكفة بين ندّين متربصٍ كل منهما بالآخر، انها ساعتئذ الجحيمُ بعينه.

وقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً، لاحظ كيفية السؤال، والاثارة المتضمنة في السؤال لتحريك المشاعر وإلهاب النفس، ما جزاء؟ وهي لم تحدد من، ولكنها تسأل في صورة وفي صيغة قاعدة عامة، ما جزاء من؟

ثم لاحظ لفظ بأهلك، وما تحمل من استجاشة، ثم تنكير سوءاً وما فيه من ابهام وتهويل. . ثم هي توحي بالعقوبة في صورة حصر وقصر الا أن يسجن أو عذاب أليم. ليس لهذا المعتدي جزاءٌ الا الذي قيل.

وأما قول سيد رحمه الله(١) بأنها لم تشر إلى القتل لأنها لا زالت متعلقةً به، فمما لا نسلمه له، فإنه لم يأت يوسف بجريمة حتى في اتهامها له تستحق القتل. ثم هل مثل هذا الزوج قليل الغيرة يتوقع منه أن تصل العقوبة عنده لأي أحد كائناً من كان، وليس الفتى الذي يعتبره كابنه، هل تصل إلى عقوبة الموت؟ وهل هذا المجتمع في مثل أحواله فيه عقوبة الموت على مثل تلك الحالات؟ الذي نراه أن لا.

قال في اللطائف: قالت ما جزاء من فعل هذا الا السجن، فإن لم ترضَ بذلك وستزيد، فالعذاب الاليم أي الضرب المبرّح. كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدريج.

---

(١) قول سيد في الظلال يشبه قول القشيري في اللطائف فقد قال: «لقنته حديث السجن أو العذاب الأليم لئلا يقصد قتله، ففي عين ما سعت به نظرت له وأبقت عليه.»



وذكر الأهل في قولها بأهلك غاية تهييج الحمية وتذكير بالانفة...»[1]

«رفعت لزوجها الشكوى، وأصدرت الحكم على يوسف، وفي هذا دليل على وثوقها بأن زوجها لا يخالف لها أمراً، ولا يعارض لها رغبة، فاتهمت يوسف بأنه اراد بها سوءاً، أي فاحشة، وطلبت معاقبته بالسجن أو تعذيبه عذاباً يؤلمه، وكأنها خافت أن يبيعه سيده أو يقتله[2]، فحددت نوع الجزاء حرصاً على الابقاء على حياته، ودليلاً تقدمه نفسها عن غير وعي على أنها ما زالت تحبه، وما زالت تطمع فيه، وسجنه أو تعذيبه قد يخضعه لها.»[3]

﴿قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وان كان قميصه قد من دبر فصدقت وهو من الكاذبين﴾ الآية ٢٦ ـ ٢٧

لقد كان وجود السيد بالباب لها حرجاً وكان ليوسف عليه السلامُ فرجاً. مهما تكن النتيجة بعد. وإن منطق كل من الشاب والمرأة وقرائن الاحوال كان مغنياً في الوصول إلى الحكم الحق، ولكن لا بأس من تدعيم ذلك بما يقطع الشك باليقين، ومن هنا كانت شهادة الشاهد.

ولقد قالت بعض التفاسير ان الشاهد غلام صغير أنطقه الله معجزة، ونسأل اين كان هذا الغلام؟ أفي بيت العزيز، ومن أين جاء؟ ثم ما الحاجة إلى معجزة صارخة مثل هذه المعجزة في أمر بيّن أوضح من الشمس؟ ولو كان صغيراً تكلم فهل يحتاج بعد هذا إلى قضية منطقية؟ ثم انه لا يسمى الصغير شاهداً.

ومسألة أخرى ما الذي جلب ذكر القميص هنا دون سابق ذكر له فيما مضى

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٨٠

(٢) كرر الكاتب ما قال صاحب الظلال، ولا داعي لأن نكرر ما قلناه في تعليقنا على ما قال الظلال.

(٣) نظرات في التفسير ص ٥٧



من الكلام؟ يبدو والله أعلم أن يوسف عليه السلام قال ضمن مرافعته عن نفسه هي راودتني عن نفسي وقدت قميصي، لكن السياق اختصر، فتلقف الشاهد الذكي المحنّك المجرب ذو السن والخبرة والتجارب وسرعة البديهة، تلقف هذا القول وبنى عليه قضية منطقية وأصدر حكمه بناء على ذلك.

وهل كان يوسف لا زال يلبس قميصه المقدود؟ ذلك ممكن والاوضح منه أن يكون نزعه عنه ليتخلص منها وبقي بما تبقى عليه من ازار وغيره. . وانما قلنا هذا لأنه لو كان يلبس القميص لما احتاجت القضية إلى عرضها في صورتها الافتراضية التي عرضت بها: ان كان وان كان.

ولاحظ أن الشاهد رجلٌ عادل حكيم لكن هواه مع المرأة، بدليل أنه قدم احتمال صدقها على احتمال صدقه فقال: ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وان كان. . . الخ.

وكما قيل: «ان قدّ القميص من دبر دليل الادبار وقدّه من قبل دليلُ الاقبال»

قال في اللطائف: «افصح يوسف عليه السلام بجرمها، اذ ليس للفاسق حرمة يجب حفظها.»[1] أ. هـ.

قال هي راودتني: «لم يسبقها يوسف بالكلام لأن الكريم لا يسرع بكشف أستار الناس، ولكنه لما اتهمته زوراً وبهتاناً اضطر إلى الدفاع عن نفسه إظهاراً للحقيقة.

ادعت المرأة على يوسف، ودفع يوسف هذه الدعوى باتهام المرأة، وكلا القولين ليس فيه دليل على ما يثبته، ولا ما يميز الحق من الباطل، لكن الحق أبلغ وابلج، ولا بد أن يقيض الله له من يؤيده.

لقد أراد الله أن يوجد دليلاً مادياً يؤيد حق يوسف، ويقذف به على باطل المرأة فيدمغه، ويثبت أنها هي الباغية، وهذا الدليل هو تمزيق القميص.

---

(١) اللطائف ٣: ١٨١



ولقد قيض الله ليوسف رجلاً عاقلاً حكيماً مجرباً، لا يقبل الكلام على علاته، بل لا بد أن يزنه بميزان العقل والحكمة، فيعاين ويستنتج ثم يحكم بالحق، ومع أنه كان من أقارب هذه المرأة في صحبة العزيز، الا أنه لم يحاب قريبته، ولم يجامل زوجته، بل كان هدفه هو الوصول إلى الحق من حيث انه الحق.»[1]

ويرى الاستاذ الخطيب أن الشاهد هو الزوج نفسه ثم يبرر قوله بقوله:

«والذي جعلنا نقول ان الشاهد الذي شهد على امرأة العزيز، هو العزيز نفسه، وليس أحداً غيره، هو ما يشهد به واقع الحال، وهو أن العزيز، وهو صاحب هذا المقام في قومه، ما كان له أن يفضح نفسه وأهله، وان يستدعي من يحتكم اليه في أمر شهده بنفسه، واطلع عليه من غير أن يدله عليه أحد.. وانه لمن السفاهة والحمق بل والعجز أن يعرض العزيز مكانته وشرفه، وشرف أهله لهذه الفضيحة على الملأ، وأن يطلب إلى غيره الكشف عن براءة البريء وادانة المذنب فيصبح هو وزوجه على ألسنة الناس، فكان من الحكمة أن يتدبر هذا الأمر، وأن يتولاه بنفسه، وأن يحصره في أضيق حدوده، وأن يحسمه هذا الحسم الرشيد، في غير صخب أو ضجيج.. فكان حكمه في هذه القضية حكماً حاسماً باتاً، لكل ذيول تعلق بها..

ثم انتهى الأمر عند هذا الحد.. ولكن إلى حين.. فلقد دبر العزيز في نفسه أمراً..»[2] وظاهر النص بخلاف ما قال الاستاذ.. فلم لا يكون الشاهد حضر مع العزيز.. ولم لا يستشير بعض أهلها الذين لا يخشى منهم الفضيحة كأخيها أو أبيها أو عمها..؟

قال في أضواء البيان:

«يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين وكذب الآخر، لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال

---

(١) يوسف عليه السلام ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) قصتا آدم ويوسف ص ٨٤ ـ ٨٥ والقصص القرآني ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥



بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن ذلك الحكم حق وصواب، لأن كون القميص مشقوقاً من جهة دبره دليل واضح على أنه هارب منها، وهي تنوشه من خلفه، ولكنه تعالى بين في موضع آخر أن محل العمل بالقرينة ما لم تعارضها قرينة أقوى منها، فإن عارضتها قرينة أخرى أقوى منها أبطلتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال بل سولت لكم انفسكم امراً..﴾ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات اذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة، ولا خلاف في الحكم بها كما قال ابن العربي.»(1)

قال أبو جعفر النحاس في اعراب القرآن في الشاهد الذي شهد هذه الشهادة:

«قد ذكرنا فيه اختلافاً. والاشبه بالمعنى، والله أعلم، أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك!! فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف عليه السلام تغني أن يأتي بدليل من العادة، لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة.»(2)

﴿فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم﴾الآية٢٨:

لما تجلّت لهم جميعاً براءة يوسف وفق المقياس الذي اقترحوه، وجه إلى المرأة هذا العتاب في صيغة العموم: «إنه من كيدكن».. ثم وصف هذا الكيد بأنه عظيم.

---

(1) الشنقيطي: أضواء البيان جـ٣ ص ٦١ ـ ٦٢ وارجع إلى احكام القرآن لابن العربي والى تفسير القرطبي جـ٩ ص ١٥٠ عند تفسير قوله تعالى: وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل...

(2) اعراب القرآن للنحاس جـ٢ ص ١٣٦ تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، بغداد: مطبعة العاني ١٩٧٩ ولاحظ غلط النحاس رحمه الله اذ قال شاوره الملك، والذي شاور انما هو العزيز، وهذا غير الملك.. ولكن كثيراً من الناس يخلطون ومن اولئك في هذه القضية: الشيخ محمد حسين فضل الله في كتابه: الحوار في القرآن ص ٣٢٠ حيث قال: واجه يوسف التهم التي الصقت به من قبل عائلة الملك. أ.هـ



والضعيف يعوض ضعفه بحيلته وذكائه وكيده حتى يغدو قوياً . .

وهل المرأة هي المختصة بالكيد؟ ليس كذلك طبعاً، فاخوان يوسف كادوه، وها هي المرأة تكيده أيضاً . . لكن ربما كانت كما قلنا تتسلح بهذا السلاح تقوياً به وتعويضاً عن ضعف بنيتها بالنسبة إلى الرجل.

ووصف الكيد بأنه عظيم هل هو حقيقة يسجلها القرآن ويقررها ويقرها؟ أم إنه من قول الشاهد وليس بالضرورة أن يكون كذلك؟

والذي نراه أن القرآن طالما ذكر هذه القولة ولم يعلق عليها بنقض أو تعديل فهي حقيقة، ومن عادة القرآن انه ان قال قولة لا يقرها أعقبها أو أسبقها بما يعدلها أو ينقضها.

ثم ورد في القرآن أن كيد الشيطان ضعيف، ومن هنا يتردد على كثير من الألسنة أن كيد المرأة أعظم من كيد الشيطان ظانين أن ذلك هو حكم القرآن وتقريره، وليس كذلك، فإن كيد الشيطان ضعيف نسبياً وكيد النساء عظيم نسبياً، فكيد الشيطان إلى كيد الله وتدبيره وإلى قوة أولياء الله وجنده كيد ضعيف وكيد المرأة هذه بالنسبة إلى شاب يافع بريء ليس متمرساً بأساليب الختل والدوران، أقول هذا كيد بالنسبة له عظيم.

فكيد الشيطان ولا شك أعظم من كيد المرأة، كيف لا وهو الذي خدعها وزوجها في أول الخليقة حتى ذاقا الشجرة وبدت لهما سوءاتهما. ثم إن كيده يجري من ابن آدم مجرى الدم، ثم إنه يستغرق البشرية، فأين من ذلك كيد المرأة؟![1]

---

(١) قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: هذه الآية الكريمة اذا ضم لها آية أخرى جعل بذلك بيان أن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان. ثم نقل الشيخ عن القرطبي عن مقاتل ما يؤيد قوله، ثم نقل بيت الحسن الشنقيطي: اضواء البيان جـ٣ ص٦٣

ما استعظم الاله كيدهنه   الا لأنهن هن هنه

قلت: وليس القول على ما قال العلامة رحمه الله، ولعل ما ارتأيناه، يكون أقرب إلى الحق إن شاء الله.



«إن عقوبة الفتى لو ثبت أنه أراد سوءاً بالمرأة هي السجن أو عذاب اليم، أما وقد ثبت أن المرأة هي الخاطئة فنزل حكم الشاهد بارداً، مجرد قول يشبه المثل الشائع يجمع فيه النساء جميعاً وليس امرأة العزيز وحدها: ﴿انه من كيدكن ان كيدكن عظيم﴾ وماذا يفعل يوسف بهذه العبارة وذلك الحكم؟!»[1]

الآية ٢٩:

﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين﴾

لما تيقن العزيز والشاهد كل اليقين من براءة يوسف مما حاولت ـ ظلماً ـ أن تلصقه به تلك المرأة، صدر هذا الكلام يرد الاعتبار ليوسف، ويطلب منه ستر الامر والاغضاء عنه وكتمه وتجاوزه.

وهو يذكر يوسف بالاسم اكراماً، وأما المرأة فلا يسميها وانما يقـول: واستغفري لذنبك، أقلعي عنه وانتهي عن صَبَواتِك، فقد ارتكبت خطأ جعلك في عداد الموصوفين بأنهم من الخاطئين.

والملاحظ أن العزيز لم يحرك ساكناً في تغيير الاسباب التي أدت إلى هذا المآل الذي أدت وآلت إليه.

وكأن النصيحة تصل إلى قلب مشغول بمعصيته مصرّ على فاحشته!، وكان الحزم والكياسة يقتضيان غير هذا.

قال في اللطائف:

«ليس كل أحد أهلاً للبلاء، لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأما غيرهم فيتجاوز عنهم ويخلى سبيلهم، لا لكرامة محلهم، ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريء الساحة، وظهرت للكل سلامة جانبه وابتلي

---

(١) البقري، أحمد ماهر محمود: يوسف في القرآن ص ٢٩، الاسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية ١٣٩١ - ١٩٧١



بالسجن، وامرأة العزيز في سوء فعلها حيث قال: انه من كيدكن»، وقال لها: «واستغفري لذنبك»، ثم لم تنزل بها شظية من البلاء.»[1]

﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها..﴾

«ذكرهن لها بالوصف «امرأة العزيز» دون الاسم، صريح في استعظامهن هذا الأمر منها، وأنه أقبح ممن لا زوج لها، لا سيما وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها والذي تراوده مملوكها وفتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها.

وقد تضمن وصف النسوة لها هذا الوصف أنها لم تقتصد في حبها ولا في طلبها، أما الحب فقولهن: «قد شغفها حباً» أي وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو الغشاء المحيط به، وغاص في سويدائه، كما قال الشاعر:

يعلم الله أن حبك مني ... في سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الطلب المفرط فقولهن: تراود فتاها، والمراودة الطلب مرة بعد مرة كما تقتضيه صيغة المضارع، فنسبنها إلى الاسراف في الأمرين جميعاً.»[2]

وقال في اللطائف:

«ان الهوى لا ينكتم، ولا تكون المحبة الا وأتيح لها لسان عذول، فلما تحققت محبتها ليوسف بسطت النسوة فيها لسان الملامة.»[3]

(١) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٨١

(٢) تفسير سورة يوسف، مقدمة بهجة البيطار ص٣ للجزء الثاني عشر من تفسير المنار

(٣) اللطائف جـ٣ ص١٨٢



﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين﴾ - ٣٠ -

أما كيف وصل للنسوة الخبر؟ فهذا مما يحتاج إلى نظر، لأنه لم يطلع على الحادثة أحد، اذ لا يتصور أن تفعل المرأة الذي فعلت الا في خلوة تامة من كل خدم أو كل أحد أو بشر.

يبدو والله أعلم أن الخبر وصل النسوة نقلاً وهمساً من مشاهدات النساء اللاتي زرن قصر العزيز، ورأين شغف امرأة العزيز به، فأشعن ما أشعن وقلن الذي قلن.

وفي التفاسير أن هذه النسوة هي امرأة السائس والخباز والساقي وهو كلام أولاً لا حاجة إليه لكونه من التفصيلات التي لا قيمة لها، ثم ثانياً هل يعقل أن تدعو امرأة العزيز نساء الساقي والخباز ثم ان خبر الكبراء يتناقله الكبراء ولا يصل إلى الفقراء.

شغفها حباً: وصل حبه شغاف وسويداء قلبها.

وهذا الذي يقلنه لا يدل على أخلاقية وشرف، فقد يروي الناس مثل هذه الاخبار مع تمنيها أن يتاح لهم مثلها، وقد يكون كلامهن من باب الغيرة أو حب الانتقام..

ووصفهن للمرأة بأنها في ضلال مبين لا يدل أيضاً على أنهن على هدى، فمفهومهن للضلال غير المفهوم الذي نعرف، وحتى لو كان الذي نعرف، فإن التغني بالشعارات والمباديء والفضائل والمثل شيء والتطبيق شيء آخر.

والاستاذ كحيل يتصور وصول الخبر الذي تناقلته النسوة عن هذا الطريق:

«.. والبيت فيه خدم وحشم، وجوار ووصيفات، وهؤلاء يتصلون بأمثالهم في بيوت الطبقة العليا، فلا بد والحال هذه أن يشاع الخبر سريعاً فحرص العزيز، واعراض يوسف لم يغنيا شيئاً البتة، فقد وقع ما كان يخشاه العزيز...

ونساء هذه الطبقة ليس عندهن من الأعمال ما يشغلهن عن التحسس عن



أحوال بعضهن بخلاف نساء الطبقتين الوسطى والدنيا، فنساء الطبقة الوسطى مشغولات في الغالب والكثير بتدبير المنزل، وتربية الاولاد، ونساء الطبقة الدنيا مكدودات لمشاركتهن الازواج في العمل على تحصيل القوت، أما نساء الطبقة العليا فلا يجدن ما يشغلهن في أوقات فراغهن، فاذا عثرت احداهن على عيب أو نقص في غيرها أصبح حديث ربات القصور.

والنساء اللاتي اغتبن امرأة العزيز لسن أحسن حالاً منها، ولكنهن وجدن الفرصة سانحة للنيل منها، والتشهير بها، قاصدات من وراء ذلك إلى غرضين: الاول: أن يظهرنها بمظهر النقص حتى لا تتعالى عليهن بصفة كونها امرأة العزيز.

والثاني: أن يصل اليها ما قلنه فيها فترسل اليهن لتعتب عليهن، فيتمكنّ من رؤية هذا الفتى المملوك الذي سحر سيدته (وملك سيدته)، لذلك قلن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، أي تخادع فتاها عن نفسه.

قد شغفها حباً: أي قد أحاط حبه بقلبها كما يحيط به الشغاف، فلم يترك به منفذاً ليصل منه حب غيره.

انا لنراها في ضلال مبين: أي إنا لندرك ادراكاً تاماً أنها في بُعد عن الصواب لتعلقها بمن ليس أهلاً لهذا الحب، وهو غلامها ومملوكها.»[1]

قال ابن القيم في تفسيره القيم لهذه الآية:
«هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

١ ـ قولهن امرأة العزيز، ولم يسمينها باسمها، بل ذكرنها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

٢ ـ أن زوجها عزيز مصر، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

٣ ـ أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

---

(١) عبد الحميد كحيل: يوسف عليه السلام ص٦٣ ـ ٦٤





٤ ـ أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت.

٥ ـ أنها هي المراودة الطالبة.

٦ ـ أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ حتى وصل حبها إلى شغاف قلبها.

٧ ـ في ضمن هذا أنه اعف منها وأبر، وأوفى حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفافاً وكرماً وحياء، وهذا غاية الذم لها.

٨ ـ أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها. وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقري الضيف ويطعم الطعام. فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

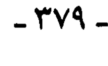
٩ ـ قولهن انا لنراها في ضلال مبين، أي انا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، فنسبن الاستقباح اليهن، ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى، ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الامور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

١٠ ـ أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها.

أما العشق فقولهن: قد شغفها حباً أي وصل حبه إلى شغاف قلبها، وأما الطلب المفرط فقولهن: تراود فتاها، والمراودة الطلب مرة بعد مرة، فنسبنها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة.»[1]

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٣١٤ ـ ٣١٥





﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ واتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن، فلما رأينه اكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم﴾ آية ٣١.

قالت فذلكن الذي لمتنني فيه

قال في اللطائف: «أرادت أن يغلب عليهن استحقاق الملامة، وتنفي عن نفسها أن تكون لها أهلاً، ففعلت بهن ما عملت، فلما رأينه تغيرن وتحيرن ونطقن بخلاف التمييز، فقلن: ما هذا بشرا، وقد كان بشراً، وقلن ان هذا الا ملك كريم، ولم يكن ملكاً.

قوله: فذلكن الذي لمتنني فيه، أثّرت رؤيتهن له فيهن فقطّعن أيديهن، ولم يشعرن، وضعفن بذلك عندها، فقالت: ألم أقل لكن؟ أنتن لم تتمالكن حتى قطعتن أيديكن، فكيف بي وهو في منزلي؟!.

وانما أثرت رؤيته فيهن ولم تؤثر في امرأة العزيز بحيث تفعل من التقطيع ما فعلن لأن «التغيير صفة اهل الابتداء في الأمر، كما قال القشيري، فإذا دام المعنى زال التغير ـ أي التأثر ـ، قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الاسلام: هكذا كنا حتى قست القلوب.»[1]

قال النحاس: «فلما سمعت بمكرهن»: أي بعيبهن اياها واحتيالهن في ذمها، أرسلت اليهن، وفي الكلام حذف، أي أرسلت اليهن تدعوهن لتوقعهن فيما وقعت فيه، «وأعتدت»: من العتاد، وهو كل شيء جعلته عدة لشيء.

متكأ: أصح ما قيل فيه مجلساً.»[2]

قال القاسمي: «وانما نفين عنه البشرية لغرابة جماله، وأثبتن له الملكية، على نهج القصر، بناء على ما ركز في الطباع ألاّ أحسن من الملك، كما ركز فيها ألا أقبح من الشيطان، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما.»[3]

---

(١) اللطائف للقشيري جـ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣

(٢) اعراب القرآن للنحاس جـ٢ ص ١٣٧

(٣) محاسن التأويل جـ٩ ص ٣٥٣٦



قال ابن القيم في معنى قوله تعالى فلما سمعت بمكرهن:

«فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكراً أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت اليهن، فجمعتهن، وخبّأت يوسف عليه السلام عنهن، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن الا وأحسن خلق الله وأجمله قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهي، وفي أيديهن مدى، فدهشن حتى قطعن أيديهن أي جرحنها وهن لا يشعرن، لدهشتهن بما رأين.

فقابلت مكرهن القولي، بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر.»[1]

«لقد حاربت امرأة العزيز الكيد بكيد مثله بعدما تطاير لها ما يقوله النسوة..

فلما اطمأنت امرأة العزيز إلى أنه سلب عقول النسوة وأن لغطهن من قبل لم يكن جاداً اذ كان الدافع لهن حب الاستطلاع أو اسقاط جرائمهن وظهورهن بمظهر البراءة ولهذا سمى القرآن تصرفهن مكراً، تشجعت على أن تطرح ما في نفسها من رغبات.»[2]

﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾ آية ٣٢.

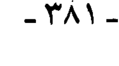
قول امرأة العزيز كما قال القائل:

ليقل من شاء ما شاء فاني لا أبالي

قالت امرأة العزيز للنسوة المدعوات اللاتي فعلن بأنفسهن ما فعلن من جرح الايدي، قالت وهي مفعمة بشعور الانتصار عليهن، وتحقيق المراد منهن، ونجاح الكيد والتدبير في ايصالهن الى النتيجة التي وصلن لها. قالت: ذلك هو الشخص

(١) ابن القيم: اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ص ٣٨٣، والتفسير القيم ص ٣١٥

(٢) يوسف في القرآن ص ٣١





الذي تلمنني على محبته والاستغراق في هواه. والآن تعترف لهن بالمراودة، ولم تكن تصرح بها من قبل، لأنهن صرن جميعاً سواء في التأثر بحسنه.. وتعترف بابائه في قولها: عن نفسه، وقولها فاستعصم، وقولها: ما آمره.

ثم تخبر عن ترتيبها المستقبلي وتهديدها المتوعد لهذا الفتى الطهور فتقول انه ان لم ينفذ ما أطلبه منه لأجعلنه نكالاً بالايقاع به في السجن وجعله من الاذلين المحقّرين الصاغرين بعد العز والجاه والشأن الكبير.

وغاب عنها أشياء كثيرة وقيم أساس مهمة: أن الصغار والذل كله في معصية الله وأن العزة كلها والحرية بتمامها في تمام العبودية له سبحانه.. ولو كان صاحب هذه العبودية ملقى به في قعر سجن، أو بئر طوي أو قعر دوي..

والآية فيها قَسَمان: ولقد، ولئن، واجتماعهما في قول امرأة العزيز ينبيء عن تصميمها على ما هي ماضية فيه من نية فاسدة ومكر سيىء.

﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن﴾

قال في سيكولوجية القصة في القرآن:

«يدل تهديدها اياه على ثقتها بسلطانها على زوجها رغم علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، شأنه في ذلك شأن المترفين العاجزين عن صد زوجاتهم، وان لنساء الاكابر في الامصار التي أفسدتها الحضارة كيداً وخداعاً.

كما أن هذه المشاهد تلقي الاضواء على نفسية المرأة المترفة ذات المنصب الرفيع، وما لجمالها من سلطان تفرضه على زوجها، حتى لتملك منه القياد في المواطن التي تتأجج في مثلها قلوب الرجال غيرة وحمية»

فقد كان جواب العزيز بعد أن تبين له حسب شهادة شاهد من أهلها أنها هي التي راودته:

«يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين.»[1]

(1) د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة ص ٤٠٤ - ٤٠٥، وارجع الى تفسير المنار جـ١٢ ص ٢٩٩



﴿قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين﴾ الآيـة (٣٣).

«لما رجع الى الله بصدق الاستغاثة تداركه الله سبحانه بوشيك الاغاثة.. كذلك ما اغبر لأحد في الله تعالى قدم الا روّحه بكرمه وتولاه بنعمه، انه هو السميع لاقوال السائلين العليم بأحوالهم.»(١)

قال ابو السعود: «وهذا فزع منه عليه السلام والتجاء إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سنن الانبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله تعالى، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم مبالغة في استدعاء لطفه في صرف كيدهن بإظهار أنه لا طاقة له بالمدافعة، كقول المستغيث: أدركني والا هلكت.»(٢)

السجن أحب الي:

«لقد فاضل الشاب بين السجن والصبوة ففضل لديه السجن على ما فيه من عذاب لأن السجن عذاب بدني، والوقوع في الفاحشة عذاب نفسي. والأول موقوت والثاني ندم يلح على نفسه ما بقي فيه نفس. وهو في السجن مظلوم وفي المعصية يكون ظالماً، والسجن مجال لتذكر الله، وهو في السجن سيد نفسه، وخارجه يدعى ليكون عبد شهواته.»(٣)

وفي التعليق على صيغة أفعل التفضيل أحب، قال ابو حيان في بحره المحيط: «وأحب ليست على بابها من التفضيل لأنه لم يجبب اليه ما يدعونه اليه قط، وانما هذان شران فآثر أحدهما على الآخر، وان كان في أحدهما مشقة، وفي الآخر لذة.»(٤)

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٨٤

(٢) الفتوحات جـ٢ ص ٤٥١ وارشاد العقل السليم جـ ٤ ص ٢٧٤

(٣) يوسف في القرآن ص ٣٢

(٤) حاشية الجمل جـ٢ ص ٤٥١ والبحر المحيط جـ ٥ ص ٣٠٦



أصب اليهن: الصبوة الميل ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل اليها، وفي المصباح: صبا صبوا وصبوة مال.[1]

والا تصرف عني:

خبر مستعمل في الدعاء ولذلك فرّع عنه جملة «فاستجاب له ربه.» وعطف جملة فاستجاب بفاء التعقيب إشارة إلى أن الله عجل إجابة دعائه. واستجاب مبالغة في أجاب.

وجملة انه هو السميع العليم في موضع العلة لـ استجاب المعطوف بفاء التعقيب. أي أجاب دعاءه بدون مهلة لأنه سريع الاجابة وعليم بالضمائر المخلصة، فالسمع مستعمل في اجابة المطلوب، وتأكيده بضمير الفعل «هو» لتحقيق ذلك المعنى»[2].

الآيـة ٣٤:

﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾

أجيبت استغاثة يوسف سريعاً وعبّر عن الاسراع بنجدته بالفاء الدالة على التعقيب.. وهذا هو قانون الله تعالى وسنته في أصفيائه أن يسارع في إجابة مطلبهم لأنهم يسارعون في عبادته وطاعته وفعل الخيرات والاحسان: «انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين.» ولا يفهم من السياق الكريم أن الاستجابة كانت بإدخال يوسف السجن، ولكن الاستجابة كانت بصرف السوء والكيد ومحاولات الاستمالة. ولذلك فإن النص الكريم فصل بين هذه الآية وتاليتها بثم المفيدة للتراخي لا في الزمن فقط، وانما التراخي المهم لسلامة فهمنا للنصوص حتى لا نقع في الخلط.

فيوسف لم يدع ربه أن يُدخله السجن، وبالتالي فإن الاستجابة من جنس الدعاء..

(١) المصباح المنير ص ٤٥٤ ط٦ القاهرة: المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٦
(٢) التحرير حـ ١٢ ص ٢٦٦



وصرف كيدهن معزول عن إدخاله السجن، وانما صرف الكيد بنزع وساوس الشيطان، وقمع أهواء النفس، والعصمة من تأثر المشاعر بالمحاولات المتكررة.

وختمت الآية الكريمة بهذا التعقيب المناسب لما تضمنته وسابقتها من دعاء واستجابة: انه هو السميع لدعاء أحبابه واصفيائه العليم بأحوالهم واحتياجاتهم.

﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ (٣٥)

«لو كان السجن قائماً على منطق يحترم أو العقوبة محددة معينة لقالوا السجن مثلاً ثلاث سنوات أو أربعاً، أما كلمة حين فهي غير محدودة الزمن طال أم قصر أم كان بين بين، وواضح أن تفضيلهم لادخاله السجن كان يقصد به قطع ألسنة الناس وابطال لغطهم فترة من الزمن حتى ينسى الناس القصة..»[١]

وقد قاس الشيخ الباليساني قياساً غريباً عجباً حين شبّه سجن يوسف عليه السلام بنفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصر بن حجاج من المدينة المنورة إلى البصرة لأنه كان جميل الصورة جداً حتى لا تفتن به النساء.. فقال:

«فلا مجال للحيلولة دونهن ودون يوسف وحفظ يوسف من مراودتهن ومنعهن من المراودة الا ابعاد يوسف، وحفظ يوسف واخفاؤه عنهن بالحبس وإدخاله في السجن، وهذا المعنى هو الحق لأن يعول عليه. وقد صدر مثل هذا الحكم في الاسلام من عمر رضي الله عنه.. ثم ذكر القصة..»[٢]

وما أنصف الشيخ.. وما سدد وما قارب.. فأين النفي إلى البصرة أرض الرباط والجهاد وقتذاك ليكون المنفي بين المجاهدين بدل البقاء في المدينة.. واين الحبس في السجن مع المجرمين؟!

(١) يوسف في القرآن ص ٣٣
(٢) القول المنصف في تفسير سورة يوسف ص ٩٧ - ٩٨





ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين. .

«ثم هنا للترتيب الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فان ما بدا لهم أعجب بعدما تحققت براءته.»(١)

قال في الفتوحات الالهية: «ثم بدا لهم للعزيز وأصحابه المشاركين له في الرأي. وذلك أنهم لما أرادوا لأم الحال وتسكين هذه الاشاعة، فظهر لهم سجنه لما فيه من المصلحة بحسب رأيهم مع علمهم ببراءته ونزاهته.

وبدا: فعل ماض وفاعله محذوف تقديره سجنه.

ليسجننه: اللام لام قسم محذوف، وذلك القسم وجوابه معمول لقول مضمر، وذلك القول المضمر في محل نصب على الحال. أي ظهر لهم سجنه قائلين: والله ليسجننه.»(٢)

﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما اني اراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله، انا نراك من المحسنين﴾ آية ٣٦.

هذه هي الرؤيا الثانية في القصة، ولها دورها في تحريك الاحداث، فمن خلالها وبتقدير من الله تم تعريف الساقي بيوسف، وكانت هذه المعرفة وسيلة يوسف للوصول إلى الملك.

ولاحظ كيف أن النصّ نصّ عى دخول الفتيين السجن مع يوسف، وهو أيضاً لون من ألوان اللطف في الابتلاء، اذ ان دخولهما معه جعل بينهم نوعاً من

---

(١) التحرير جـ١٢ ص ٢٦٧

(٢) الفتوحات الالهية جـ٢ ص ٤٥١، وانظر الخازن جـ٣ ص ٢٨١ المطبوع مع البغوي ط٢ سنة ١٩٥٥ مصطفى البابي الحلبي



المودة ونوعاً من الرابطة.

ويشاء الله أن يرى كل منهما رؤيا، لا ندري أكانتا في وقت واحد أم في أوقات متقاربة، المهم أنهما شعرا بأهمية الذي رأياه، فقاما يعرضانه على يوسف. ويبدو أن الرؤيا من قديم الزمان وهي تملك على الانسان نفسه، بل الذي يبدو أنها كانت في ذلك الزمان أملك للنفوس.

والرمز في الرؤيين قريب لكنه يحتاج إلى «وَصْلة» حتى يغدو جلياً واضحاً معروف المآل والنهاية.

قال القشيري:

«لصحبة السجن أثر يظهر ولو بعد حين، فان يوسف عليه السلام لما قال لصاحبه: اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فبقي يوسف في السجن زماناً، ثم ان خلاصه كان على لسانه حيث قال: «فأرسلون.» وقال: «يوسف أيها الصديق أفتنا..» فالصحبة تعطي بركاتها وان كانت تبطي.

وقول السجينين انا نراك من المحسنين فيه أن الشهادة بالاحسان للمحسن ذريعة، بها يتوسل إلى استجلاب احسانه.»(١)

ودخل معه السجن فتيان:

«شاء الله ليوسف فدخل السجن، وكانت هذه المحنة هي آخر المحن التي ابتلاه بها، ولكنها كانت خيراً وبركة، فقد هجر مواطن الفتنة، واعتزل عشراء السوء، وانقطع اتصاله بالخلق، وقوي أنسه بربه، وكمل اتصاله به، وصار السجن من وقت دخوله دار حكمة، ومحراب عبادة، وحلقة للدرس والارشاد.»

ثم علق الكاتب على رؤيا السجينين فقال:

«هاتان صورتان من الرؤى المنامية، الأولى منهما صريحة، فقد صورت ما

---

(١) لطائف الاشارات جـ٣ ص ١٨٤



سيقع في الخارج بصورته التي سيتحقق عليها من غير اختلاف، والثانية مثالية، فقد مثلت فيها الرأس بالخبز، والانسان لا يعرف ان كانت الرؤيا صريحة أو مثالية الا بتأويلها أو وقوعها.»[1]

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بـالآخرة هم كافرون﴾ آية ٣٧.

قبل التفسير تبشير حتى تتهيأ النفوس للتفسير، ثم دلالة للفتيين على حقيقته حتى يأخذوا كلامه مأخذ القبول ويكون لقوله تأثير، وما به حاجة أن يعرفوه، ولكن ليقدروا دعوة الله التي يبلغهم اياها. وكما قال القشيري: «قدم على الجواب ما اقترحه عليهما من كلمة التوحيد.»[2]

وما أشبه المعجزة التي اكرم بها يوسف بمعجزة عيسى اذ كان ينبيء الناس بما كانوا يأكلون ويدخرون في بيوتهم.

والمقصود بقوله: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة أو تريانه في المنام الا أخبرتكما به قبل أن يحدث ويقع ويصل إليكما.. وليس هذا من علم العرافين. «وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم، والوحي الذي أوحاه الله اليه، وفي هذا تعريض وتلميح إلى طلب الايمان منهما، ثم قوى التعريض والتلميح بقوله: اني تركت ملة قوم ثم صرح بالدعاء إلى الايمان بقوله يا صاحبي السجن،.. ففي هذا كله حث على ايمانهما حيث أعلمهما بما خصه الله به من النبوة وأن ما يقوله بوحي من الله لا من جهة الكهانة. والترك عبارة عن عدم التلبس بالشيء من أول الأمر وعدم الالتفات اليه بالكلية.»[3]

---

(١) نظرات في التفسير ص ٧١ ـ ٧٢

(٢) اللطائف ٣/١٨٥

(٣) الفتوحات الالهية بتصرف يسير جـ٢ ص٤٥٣



«والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن. وتأويله ذكر ما هو. بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت، فيجدانه كذلك. وحقيقة التأويل تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد.»(١)

«فاطلاق التأويل على تعيين ما سيأتي من الطعام، اما بطريق الاستعارة، فإن ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل، بالنظر إلى ما رئي في المنام، وشبيه له، واما بطريق المشاكلة، حسبما وقع في عبارتهما من قولهما: نبئنا بتأويله ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الامور المترقبة قبل وقوعها. وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً في ذلك، بحسب الحال»(٢).

﴿واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون﴾ آية ٣٨.

بعد ذكر التخلي عن الشرك وترك اتباع ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة، ذكر يوسف التحلي بالتوحيد الذي هو دين آبائه وملة ابراهيم واسحق ويعقوب.

ويبدو أنهم كانوا مشهورين في مصر معروفين لدى المصريين.

واتباع يوسف عليه السلام لملة آبائه عليهم السلام ليس لمجرد كونهم آباء هو يفتخر بهم، ولكن لأنهم على الدين الحق والملة السواء.

فهو الاتباع المستقل الواعي البصير، وليس ذاك النوع من الاتباع الذي نعاه القرآن الكريم والذي هو الاتباع الانمياعي غير المتبصر ولا الواعي.

وقوله: ما كان لنا: يعني أنه لا يصح لنا ولا يجوز لا ديناً ولا عقلاً أن نشرك بالله من شيء بشراً كان أو غير ذلك.

---

(١) المحاسن جـ ٩ ص ٣٥٣٩

(٢) ارشاد العقل السليم جـ ٤ ص ٢٧٦



والمراد أنه تعالى طهره وطهر آباءه عن الكفر.

وذلك التطهير من الشرك من فضل الله علينا بالوحي، وعلى الناس ببعثتنا لارشادهم. أو المعنى: ذلك من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإقامة البينات وانزال الآيات، ولكن اكثر الناس لا يشكر فضل الله بإرسال الرسل ولا يقدرون نعمته بالنبوة وكذلك لا ينظرون في الآيات ولا يستدلون بها.. ولا يستخدمون عقولهم لفهم آيات الله وللاستدلال بالكون وآياته على الله.

قال القاسمي في المحاسن: «هذه الجملة اما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحي والالهام، أي خصني بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائي المرسلين. أو كلام مستأنف، ذكر تمهيداً للدعوة، واظهار أنه من بيت النبوة، لتقوى رغبتهما في الاستماع اليه، والوثوق به، ما كان لنا: ما صح ولا استقام ذلك لنا، فضلاً عن الوقوع.

وزيادة (من) في المفعول، أعني (من شيء) لتأكيد العموم، أي لا نشرك به شيئاً من الاشياء، قليلاً أو حقيراً..»[1]

﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ آية ٣٩.

نداء متلطف لصاحبي السجن يسألهما يوسف فيه سؤالاً تقريرياً مفاده: هل الأرباب الحاكمة لمربوبيها وهي متناقضة عديدة متشاكسة خير واكثر تحقيقاً للسلام النفسي والتوحد الفكري والمنهجي أم المربوبية لله الواحد بلا شريك، القهار النافذ الكلمة والأمر.

ومدار إقناع يوسف ومحور حجته عليه السلام قائم على بدهية عقلية ونفسية وواقعية: أن الارباب العديدة العاجزة المتنازعة لا يمكن أن تحقق الاستقرار والأمن والسعادة واجتماع النفس والفكر، بل على النقيض إنها تقضي على عبّادها وإنسانيتهم وتدسّي من كرامتهم وكينونتهم.

(١) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٤٠



ومن جواهر الظلال في تفسير هذه الآية قوله:

«لقد رسم يوسف عليه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة، كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة - كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزاً شديداً عنيفاً. . «يا صاحبي السجن»: ان يتخذ منهما صاحبين، ويتحبب اليهما بهذه الصفة المؤنسة، ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجوهر العقيدة. . وهو لا يدعوهما اليها دعوة مباشرة، انما يعرضها قضية موضوعية: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ وهو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً. . ان الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً ففيم اذاً تعدد الأرباب؟ ان الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار. ومتى توحد الاله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعاً لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس. وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد، وانه هو القاهر، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله رباً. . ان الرب لا بد أن يكون إلهاً يملك أمر هذا الكون ويسيّره. ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله رباً للناس يقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره.

والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للارباب المتفرقة الاهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب - كالشأن في كل الارباب الا الله -

وما شقيت البشرية بشيء قط ما شقيت شقاءها بتعدد الارباب وتفرقهم، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم. . فهذه الأرباب الارضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته، أو يعطيها الجاهلون هذا السلطان تحت تأثير الوهم والخرافة والاسطورة، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدعاية!

هذه الارباب الارضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها، ومن حرصها على ذواتها وبقائها، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويته، وفي تدمير كل القوى والطاقات التي تهدد ذلك السلطان من قريب أو من بعيد، وفي



تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزمر والنفخ فيها كي لا تذبل.

والله الواحد القهار في غنى عن العالمين، فهو سبحانه لا يريد منهم الا التقوى والصلاح والعمل والعمارة، وفق منهجه، فيعد لهم هذا كله عبادة.

وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم انما يريد بها اصلاح قلوبهم ومشاعرهم لإصلاح حياتهم وواقعهم.. والا فما أغناه سبحانه عن عباده أجمعين!!»(١)

قال في المحاسن: «أأرباب شتى تستعبد الناس خير لهم أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغالب.

دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد، جاء هادياً لوجه الحسن فيه. وذلك أن هذه الآية تشير اشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم. وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه اليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى. أما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام اخوتهم، وهي قاعدة سعادتهم، فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته حسنة في نفسها..»(٢)

قال الزمخشري: «لما استعبراه ووصفاه بالاحسان، افترص - بالصاد - ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الاخبار بالغيب، وانه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام، وجعل ذلك تخلصاً - أي توصلاً - إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الايمان، ويزينه لهما، ويقبّح اليهما الشرك بالله. وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة اذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم لهما الهداية والارشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به، وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك.

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٨٩ - ١٩٩٠ شروق وطبعة احياء التراث: ٤/٧٢٣ و٧٢٤

(٢) المحاسن جـ ٩ ص ٣٥٤١



وفيه أن العالم اذا جهلت منزلته في العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضُه أن يقتبس منه، وينتفع به في الدين، لم يكن من باب التزكية.»[1]

﴿ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾

قال ابن القيم:

«انما عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، فانهم سموها آلهة وعبدوها، لاعتقادهم حقيقة الالهية لها، وليس لها من الالهية الا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى - فما عبدوا الا أسماء، لا حقائق لمسمياتها - وهذا كمن سمى قشور البصل لحماً، وأكلها، فيقال ما أكلت من اللحم الا اسمه لا مسماه، بل هذا النفي أبلغ آلهتهم، فانه لا حقيقة لالهيتها بوجه، وما الحكمة ثَم الا مجرد الاسم.»[2]

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما:﴾ الآية ٤١

قال القشيري:

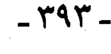
«اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآل، واحد صُلب، وواحد قرّب ووهب.. فمن مرفوع فوق السماك مطلعه، ومن مدفون تحت التراب مضجعه.»[3]

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر..﴾

وقال للذي ظن أنه ناج منهما...

قال في الظلال: «ولم يعين من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيىء تلطفاً وتحرجاً من المواجهة بالشر والسوء، ولكنه اكد لهما الأمر واثقاً من

(١) الكشاف للزمخشري جـ٢ ص ٣٢٠ دار المعرفة
(٢) بدائع الفوائد جـ١ ص ١٩ ط مصورة عن ط منير الدمشقي والتفسير القيم ص ٣١٦
(٣) اللطائف جـ٣ ص ١٨٦





العلم الذي وهبه الله له: «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.» وانتهى فهو كائن كما قضاه الله.

وأحب يوسفُ السجينُ البريءُ، الذي سجن[1] دون تحر وبحث، أحب أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر: «وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك.» اذكر حالي ووضعي وحقيقتي عند سيدك وحاكمك الذي تدين بشرعه وتخضع لحكمه، فهو بهذا ربك. فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع.. وفي هذا توكيد لمعنى الربوبية في المصطلح الاسلامي.

وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق، وأن الأمر قد قضي على ما أوله يوسف. ويترك هنا فجوة نعرف منها أن هذا كله قد كان. ولكن الذي ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلاً لم ينفذ الوصية، ذلك انه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف ونسي ذكر ربه في زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد اليها، فنسي يوسف وأمره كله.. «فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين.» والضمير الاخير في لبث عائد على يوسف ـ وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الاسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه واكرامه.

إن عباد الله المخلصين ينبغي أن يخلصوا له سبحانه، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له سبحانه تنقيل خطاهم. وحين يعجزون في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه (لو قال فيلزمهم) حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحباً وشوقاً، فيتم عليهم فضله بهذا كله...»[2]

تستفتيان: «الاستفتاء مصدر استفتى اذا طلب الافتاء. وهو الاخبار بإزالة

---

(١) قال في الظلال في أصل النص: «الذي أمر الملك بسجنه دون تحر..» والصحيح الذي نراه أنه ما سجن بعلم الملك وانما سجن بأمر العزيز، وسجن مواطن لا يحتاج إلى أمر الملك شخصياً، والذي يتصور أن العزيز ما كان ليطلع الملك على القضية برمتها.

(٢) في ظلال القرآن جـ ٤ ص ١٩٩٢ ط دار الشروق العاشرة سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م



مشكل، أو ارشاد إلى ازالة حيرة. وفعله أفتى ملازم للهمز، ولم يسمع له فعل مجرد، فدل ذلك على أن همزه في الاصل مجتلب لمعنى، قالوا: أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب، فكأن الذي يفتيه يقوي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فتياً أي قوياً. واسم الخبر الصادر من المفتى: فتوى، بفتح الفاء وبضمها.»[1]

وأما الآخر فيصلب: «فقد كان الصلب اذاً عقوبة الاعدام عند القوم، فتأكل الطير من رأسه تكملة وسيلة الاعدام بأن يترك للطير تنهشه لعله أن يكون عبرة لغيره

قضي الأمر: يعبر الفعل قضي عن ثقة يوسف بتفسيره للرؤيا فليتقبل كل منهما الأمر كواقع لا يستطاع تبديله.[2]

﴿وقال للذي ظن ان ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين.﴾ آية ٤٢ وقال للذي ظن: وقال يوسف للساقي الذي ظن أنه سينجو منهما: اذكرني واذكر قضيتي وكوني مسجوناً بالظلم، اذكر هذا في مجلسك عند سيدك، عسى الله أن يسوق على يديك خيراً لي. فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه.

والسؤال الذي يرد هل يجوز أن ينسي الشيطان نبياً من الانبياء؟ والجواب نعم، وهذا ليس من السلطان المنفي عن الانبياء.

ولقد نسي آدم بفعل إغواء الشيطان: ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي..

وما الذي نسيه يوسف؟ هل نسي ذكر ربه بمعنى الانصراف عن ذكر الله عز وجل؟ ليس كذلك وإنما نسيان يوسف مما يجوز في حق غيره، وليس يجوز في حقه.

وكيف يستعين يوسف بالاسباب مع أن الله عز وجل هو الذي جاء به إلى هنا بناء على طلبه هو، وكذلك، ألستَ يا يوسف قد نقّلْتُك من أول أمرك خطوةً خطوة، وأخرجتك من كل أزمة وضائقة، فأنا أخرجتك من الجب، وانقذتك من اتهامك امام العزيز، وأنجيتك من كيد النسوة.. فكيف تستعين الآن بالاسباب وأنا مسببها.. وفي مقابل هذا النسيان الذي هو من باب خلاف الأولى لبث

(١) التحرير جـ ١٢ ص ٢٧٨

(٢) يوسف في القرآن ص ٣٩ ـ ٤٠



يوسف في السجن بضع سنين حتى يتم تطهير قلبه من كل التعلقات بكل أحد . .

وبعض المفسرين يرون أن الذي نسي الساقي فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولسنا نرتضي هذا التفسير، لأنه لا وجه لترتب لُبث يوسف في السجن على نسيان الساقي، ثم لماذا ينسى الساقي؟ ما الحكمة؟ ان النسيان على فولهم يبدو مجرداً من الحكمة، ولكن على القول الذي نراه تبدو حكمة النسيان أنه تهذيب ليوسف. .

قال القشيري: «لما استعان بالمخلوق طال مكثه في السجن، كذلك يجازي الحق سبحانه من يعلق قلبه بمخلوق.»[1]

وقال للذي ظن: «القائل يوسف والظان الفتى الساقي، وانما كان الفتى ظاناً بالنجاة، وليس موقناً، لأنه وان صدق يوسف في تأويله، ووثق بما أخبره به، إلّا أن شأنه شأن كل متهم أودع السجن رهن التحقيق، فمهما ظهرت له الأدلة القوية على براءته من تهمته فهو لا يزال خائفاً متوجساً غير قاطع بالبراءة، وقصارى أمله أن يظن البراءة إلى حين أن يصدر الحكم ببراءته وينجو فعلاً.»

وتفسير الاستاذ كحيل هذا لا يأباه السياق، وان كان ليس متبادراً منه، ولعله بهذا التفسير انما أراد أن يفر من نسبة الظن إلى يوسف، اذ هو عليه السلام قاطع من تأويله، والظن كما هو معلوم في اللغة يفيد اليقين، وبهذا ورد العديد من الآيات منها:

﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة. . .﴾

﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون.﴾

ثم يواصل الاستاذ كحيل تفسيره للآية فيقول:

«قال له يوسف: اذكرني عند سيدك الملك بما عرفته عني، ولم يكن يوسف حين أوصاه هذه الوصية متبرماً بالسجن، ولا ضجراً من هذه المحنة، ولا مستعيناً بالمخلوق دون الخالق، ولم يكن قد نفد صبره، ولا ترك الجهاد، ولا أنه يستغيث

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٨٦

بالملك ليخرج من السجن. . لم يقصد شيئاً من هذا كله، بل انه رسول كلف بتبليغ الرسالة، فلا بد أن يسعى ويجد في تبليغها، والتبليغ اما مباشرة واما بواسطة وقد بلّغ الفتيين هذه الرسالة، فلما علم أن أحدهما سيكون ساقياً للملك أوصاه أن يذكره له، وما جاء به من دين يخالف دين الملك. .

لكن الشيطان شغل الساقي وأنساه ذكر الملك بمناسبة وصية يوسف، فامتدت بسبب ذلك محنة يوسف فمكث بسبب نسيان الساقي عدة سنين.»

وما قاله الاستاذ، وان كان فيه تبرئة ساحة يوسف عليه السلام من كل شبهة استعانة بالبشر أو نسيان لذكر الله، الا أن فيه بعداً عن المعنى المتبادر من السياق، وتأمل النص مرة أخرى: فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين» هل الذي ألبث يوسف في السجن بضع سنين مجرد نسيان الساقي أن يذكر قضية يوسف لدى ربه الملك؟ إن الأمر أخطر من ذلك وأعظم. ويوسف الذي ينقّله الله تعالى على عينه كما يريد لا يكون لبثه في السجن متسبباً عن غفلة ونسيان الساقي. ثم أليس نسيان الساقي قدراً مقدوراً؟ فما الحكمة وما السبب وراء هذا القدر بإنساء الساقي ذكر الخبر الذي ليس من شأنه أن ينسى بل شأنه أن يذكر؟ الذي يبدو لنا غير ما قاله الاستاذ. . والله أعلم.

ثم قال الاستاذ في تفسير الآية:

«وهذا هو الالقاء الذي يلقيه الشيطان في أمنية الرسل والانبياء، بأن يوسوس للناس بما يحول بينهم وبين وصول هذه الدعوة إليهم، أو قبولهم لها، ولكن الله تعالى لا يمكن الشيطان من بغيته، بل انه ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته، ويمكن رسله من تبليغ الدعوة إلى الناس، ونفوذها إلى قلوبهم.

فامتداد المحنة ليس ليوسف أي سبب فيه، وانما سببه أن القى الشيطان في أمنيته ووسوس للساقي، فنسي أن يذكر ربه، وبهذا يعلم أن بقاء يوسف في السجن بضع سنين ليس عقاباً له من الله لأنه استعان بمخلوق ولم يستعن بالله، أو أنه هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه، أي ذكر الله سبحانه وتعالى كما قال ذلك من اعتادوا التخبط في تفسير كلام الله تعالى، ودأبوا على أن ينسبوا للانبياء ما لا يليق



بهم، وحاش لله أن ينسى رسوله ذكره، أو يتسلط الشيطان على أنبيائه.»[1]

وكلام الاستاذ هنا أيضاً لا يخلو من وجاهة وان كان بخلاف ما نعتقد أنه الاليق بالسياق،

أما إنساء الشيطان الرسل بعض الأمور فوارد، والا لما كان القرآن قال للنبي ﷺ: ﴿واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.﴾

ولما كان قال له: ﴿واذكر ربك اذا نسيت﴾. ولما كان قال أيضاً: ﴿واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله...﴾ ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ وفتى موسى قال: «وما أنسانيه الا الشيطان.» والآيات في هذا المعنى عديدة ولسنا بصدد استقصائها.

وبنحو الذي قلنا في معنى الظن قال صاحب تفسير التحرير والتنوير:

«الظن هنا مستعمل في القريب من القطع لأنه لا يشك في صحة تعبيره الرؤيا. وضميرا فأنساه، وربه، يحتملان العود إلى الذي، أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه، فالذكر الثاني هو الذكر الاول.

ويحتمل أن يعود الضميران إلى ما عاد إليه ضمير وقال أي يوسف عليه السلام، أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الاول.

ولعل كلا الاحتمالين مراد، وهو من بديع الايجاز وذلك أن نسيان يوسف أن يسأل الله الهام الملك تذكر شأنه كان من القاء الشيطان في أمنيته، وكان ذلك سبباً إلهياً في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتاباً الهياً ليوسف عليه السلام على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه.

ولعل في ايراد هذا الكلام على هذا التوجيه تلطفاً في الخبر عن يوسف عليه السلام، لأن الكلام الموجه في المعاني الموجهة ألطف من الصريح.

ومما حكاه القرآن عن حال سجنهم ما ينبيء أن السجن لم يكن مضبوطاً

(١) عبد الحميد داود: يوسف عليه السلام ص ٨٢ - ص ٨٥



بسجل يذكر فيه أسماء المساجين، وأسباب سجنهم، والمدة المسجون اليها، ولا كان من وَزعة السجون ولا ممن فوقهم من يتعهد أسباب السجن ويفتقد أمر المساجين، ويرفع إلى الملك في يوم من الاسبوع أو من العام. وهذا من الاهمال والتهاون بحقوق الناس، وقد أبطله الاسلام، فان من الشريعة أن ينظر القاضي أول ما ينظر فيه كل يوم أمر المساجين.»[1]

قال في المنار في تفسير الآية:

«وقال للذي ظن أنه ناج منهما: وهو الذي أول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمراً، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية، وقال جمهور المفسرين ان الظن هنا بمعنى العلم، وفي هذه الدعوى نظر.

اذكرني عند ربك: أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن، وهذا الذكر يشمل دعوته اياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكر به كلما قدم للملك شرابه.

فأنساه الشيطان ذكر ربه: أي أنسى الساقي تذكر ربه، وهو أن يذكر يوسف عنده، على حد: «وما أنسانيه الا الشيطان ان أذكره» فلبث في السجن بضع سنين: منسياً مظلوماً، والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق، والجاري على نظام الاسباب، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريباً **﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد امة﴾** أي تذكر، الا أن هذا الاستعمال يحتاج إلى حذف وتقدير. ووجهوه بأنه أضاف المصدر اليه لملابسته له، أو أنه على تقدير: ذكر اخبار ربه، فحذف المضاف، وهو كثير، كما أن الاضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم.

وقيل ان المعنى انسى الشيطان يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بابقائه في السجن بضع سنين، وهو خلاف الظاهر من وجوه:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩



١ـ عطف الانساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه، ومفهومه أنه كان ذاكراً لله تعالى قبله إلى أن قاله فلو كان ذنباً عوقب عليه لوجب أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال: وقد أنساه الشيطان ذكر ربه، أي في تلك الحال، فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه، فاستحق عقابه تعالى بإطالة مكثه، على خلاف ما أراده من ملك مصر.

٢ ـ أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك الا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات، كما وقع بالفعل، فاذا كان قد وصاه بذلك ملاحظاً أنه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه.

٣ ـ خلاصة ما قال المنار في الوجه الثالث أن نسيان يوسف اما ان يكون لحظة قصيرة من الزمن فلا تستحق هذه العقوبة الطويلة، واما أن يكون استمر طيلة سجنه وهذا غير لائق به.

٤ ـ التذكر بعد النسيان القليل من شأن أهل التقوى: «ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا . .»

٥ ـ النسيان ليس ذنباً يعاقب الله عليه.

٦ ـ خلاصة هذه النقطة أيضاً أن المفسرين القائلين بهذا القول معتمدون على حديث باطل.»

ومع وجاهة ما قال المنار وقدرته على إثبات وجهة نظره بحشد الادلة[1] الكثيف، الا أن الذي نختار بخلاف ما في المنار.

والرد على نقاطه باختصار أن الفاء في هذا الموطن لا يلزم منها ما قال الشيخ.

والثاني أن مراعاة السنن والاخذ بالاسباب لا غضاضة فيه لكن الله تعالى كان يريد لنبيه الاكمل لا الكمال والافضل لا الفاضل.

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٣١٣ ـ ص ٣١٥



وأما طول العقوبة على قلة النسيان فهذه بدهية اذ ما من معصية الا وتستغرق زمناً يسيراً ولا يعقل أن يكون عقابها بقدرها . . أي في المدة .

واما الرابعة فالتذكر بعد النسيان شأن المتقين، هو كذلك .

والنسيان الذي لا يعاقب عليه كما في الخامسة غير هذا النسيان ولقد سمى الله تعالى اكل آدم من الشجرة نسياناً : **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾** . فهل هذا النسيان خطأ أو لا؟

وأما قوله في السادسة ان اعتماد التفسير على الأثر المرفوع فليس بالضرورة، اذ اللغة والسياق يفيد هذا، أو يحتمله على الاقل، بقطع النظر عن ورود أثر صح أو لم يصح .

قال في ظلال القرآن :

«والآن نحن في مجلس الملك، وقد رأى رؤيا أهمته، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة . .

طلب الملك تأويل رؤياه فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها، أو أحسوا انها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية في اظهار كل ما يسر واخفاء ما يزعجهم، وصرف الحديث عنه . فقالوا : انها اضغاث احلام أي أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل . وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين . . اذا كانت أضغاثاً مختلطة لا تشير إلى شيء .

هنا تذكر أحد صاحبيه في السجن، الذي نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه وذكر يوسف في دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب، هنا تذكر الرجل الذي أوّل له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التأويل . . »[1]

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٣ ط١٠ شروق، وطبعة التراث السابعة : ٤/٧٢٩



﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات، يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون﴾ الآيــة ٤٣

وهذه هي الرؤيا الثالثة في السورة الكريمة تعرضها الآية الثالثة والاربعون، وكل رؤى القصة صادقة وقد تحققت،

والرؤيا الصادقة كما نرى قد تأتي عن طريق كافر. أما للمؤمن فهي كرامة، وللكافر تنبيه وانذار.

«وهذه رؤيا مثالية، مثلت فيها الصور الخارجية بغير صورها الحقيقية، لذلك كانت محتاجة إلى تعبير وتأويل.»[١]

والرؤيا غريبة كما ترى ومن هنا اهتم لها الملك، وفي تلك الفترة كان الناس يحسبون حساباً كبيراً للرؤى والنبوءات ويخشى صاحب السلطان على سلطانه وقد يتطير من مظاهر بسيطة.

وقد يخطر بالبال سؤال: أما كان يكفي أن تكون الرؤيا مشتملة على أحد الصنفين فقط السبع بقرات أو السبع سنبلات، والجواب والله أعلم أن هذا التعدد اما للتأكيد، واما ان الاشارة بالسبع بقرات إلى الثروة الحيوانية، وبالسبع سنبلات الى الثروة الزراعية، ومعلوم مقدار ارتباط الثروة الزراعية بالثروة الحيوانية خاصة في تلك المجتمعات في ذلك الزمن.

ولقد عرض الملك رؤياه على مستشاريه وقد يكون من بينهم عرافون وكهنة وسحرة وكان هؤلاء يشكلون مجلس الملوك، يستشيرونهم اذا حزبت الامور واكفهرت، ومن الطبيعي أن يهرع الملك إلى الملأ الذين هم حاشيته وبطانته وكهنته يعرض عليهم رؤياه حتى يعبروها له.

---

(١) يوسف عليه السلام ص ٨٦



﴿قالوا اضغاث احلام. . .﴾

ويكون جواب الملأ إن هذه الرؤيا مجرد أخلاط لا أساس لها من الصحة، والضغث هو النبات الضعيف الذي لا ساق له، فكأن هذه الرؤيا لعدم استنادها على ساق من الحقيقة كأنها أضغاث ما لها من كيان ولا قوام.

ولا ندري أكان جواب هؤلاء الملأ عن عجز وجهل لكنهم لجهلهم قالوا ان هذه الرؤيا لا مصداق لها، وقد سمّوها حُلُما، لأن الحلم هو الذي لا مصداق له ولا تأويل. وقد يكونون عرفوا تأويلها لكنهم خشوا أن يقولوا الحقيقة وأرادوا أن يطمئنوا الملك ولو طمأنة خادعة على حساب الحقيقة ومصلحة الملك ومصلحة الأمة. وقولهم ما نحن بتأويل الاحلام بعالمين، أي أنهم يعلمون تأويل الرؤيا أما الاحلام فلا يعلمون تأويلها.

وهنا نقول ان البطانة لكل حاكم دورها مهم خطير جداً أن تكون ناصحة جريئة في قول ما تعتقد أنه الحق ولا تخشى، ولا تقول الذي يرضي عنها الحاكم مؤقتاً معجلاً ولو جنت على الأمة وعليه وعلى نفسها. .

قال القشيري: «حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير، فان القوم حكموا بأن رؤياه أضغاث أحلام فلم يضره ذلك، ولم يؤثر في صحة تأويلها.»[1]

ومما استدل به الملأ على أن الرؤيا أضغاث أحلام أي أخلاط وأباطيل أن هذه الرؤيا «قد جمعت صوراً مختلفة، وانواعاً متباينة من البقر والسنبلات، وان اكل السبع البقرات العجاف للسبع السمان، صورة شاذة لم يشاهد وقوعها في الخارج من اول الدنيا. . وكل هذا يدل على أنها لا حقيقة لها، وعلى فرض صحة هذه الرؤيا وأنها سيكون لها صورة في الخارج فنحن ليس لنا علم ولا ادراك البتة بتأويل الاحلام كلها، وفهم ما يؤول اليه أمرها. .»[2]

«كان ابتداء بلاء يوسف عليه السلام بسبب رؤيا رآها، وكان سبب نجاته

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٨٧

(٢) نظرات في التفسير ص ٨٨



أيضاً رؤيا رآها الملك، ليعلم أن الله يفعل ما يريد، فكما جعل بلاءه في رؤيا جعل نجاته في رؤيا، ليعلم الكافة أن الامر بيد الله يفعل ما يشاء.»[1]

ومن لطائف هذه الآية ومعانيها ما أفاده أبو السعود حيث قال:

«أضغاث أحلام أي تخاليطها جمع ضغث وهو في الاصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس الشيطان وتراها في المنام. والاحلام جمع حلم وهي الرؤيا الكاذبة التي لا حقيقة لها، والاضافة على معنى من. أي هي أضغاث من أحلام، أخرجوها من جنس الرؤيا التي لها عاقبة تؤول اليها ويعتنىٰ بأمرها. وجمعوها (أضغاث أحلام) وهي رؤيا واحدة مبالغة في وصفها بالبطلان، أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات والسنابل. ثم قال ابو السعود: فتأمل حسن موقع الأضغاث مع السنابل، فلله در شأن التنزيل.»[2]

قال المنار في معنى تعبرون:

«أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى، فاللام في «للرؤيا» للبيان والتقوية. فعبْرها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الاخبار بمآلها الذي يقع بعد.»[3]

ومن احسن ما قيل في تفسير الآية ما أفاده صاحب محاسن التأويل:

«قالوا أي الملأ للملك أضغاث أحلام أي تخاليطها.

والأحلام جمع حلم، وهو ما يراه النائم، فهو مرادف للرؤيا، الا أنها غلبت في رؤيا الخير، والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث الذي

(١) لطائف الاشارات جـ ٣ ص ١٨٧
(٢) ارشاد العقل السليم جـ ٤ ص ٢٨١ وانظر الفتوحات الالهية جـ ٢ ص ٤٥٦
(٣) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣١٧



يرويه البخاري: الرؤيا من الله والحلم من الشيطان.

والحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا. والتفريق بين الاصطلاحات التي سنها الشارع للفصل بين الحق والباطل، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله، وما كان من الشيطان باسم واحد، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها، لما في الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان، لأن أصل الكلمة لم يستعمل الا فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة، مما لا حقيقة له. «وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم.»

والمراد بالجمع في الاحلام ما فوق الواحد، لأنهما حلمان، وفهم بعضهم أنه حلم واحد، فالتمس للجمع نكتة فقال: إما المبالغة في وصفه بالبطلان أو تضمنه أشياء مختلفة. وأما قوله: وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين. فيحتمل: وما نحن بتأويل المنامات الباطلة خاصة بعالمين. أي ليس لها تأويل عندنا، وانما التأويل للرؤيا الصادقة.

ويحتمل أنهم يعترفون بقصور علمهم، وأنهم ليسوا في التعبير بنحارير. وقول الملك ان كنتم.. دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور مطابقاً لشك الملك.»[1]

﴿وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمَّةٍ انا أنبئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ الآية ٤٦.

.. وعندما يأذن الله تعالى بانفراج الازمة عن عبده، بعد هذه السنوات التي شاء الله أن يربيه فيها على تحمل المشقات والصعاب وعلى الاحساس بآلام الأمة ومعاناة أصحاب المعاناة، حتى اذا استلم الدفة كان شاعراً بهم مدركاً

(١) المحاسن جـ ٩ ص ٣٥٤٦ - ٣٥٤٧ وقول القاسمي «بعضهم» واضح أنه يعني أبا السعود رحمه الله تعالى.



لآلامهم عاملاً على تخفيف معاناتهم . .

أقول عندما أذن الله بالفرج هيأ الأسباب حيث حركت رؤيا الملك ذاكرة الساقي، وما كان لموضوع مثل هذا الموضوع، ولا لحادثة مثل حادثة الساقي مع يوسف، ما كان لها أن تنسى لولا الحكمة العظيمة، واذا كان نسي والعهد قريب، أفيذكر الآن والعهد بعيد؟ أيضاً . . انها الحكمة.

لقد أثارت الرؤيا ما كان دفن من عهد بيوسف، فهتف الساقي كمن دبّت فيه حياة بعد موت: أنا أنبئكم بتأويله، وتأمل الثقة: أنا أنبئكم، فهو قاطع جازم بأنه سيعود بالتفسير، فقط أرسلوه، ويطوي السياق الزمن والمسافة واذ بنا من بلاط الملك ننتقل إلى حيث يوسف يقبع في السجن كل هذه السنين، وما نالت السنون من معنوياته شيئاً.

ويهتف به الساقي لهفاً: يوسف أيها الصديق، ولاحظ أولاً أنه سماه باسمه وفي الرؤيا الأولى لم يصرِّح باسمه، لقد غدا ليوسف عليه السلام بعلمه وتأويله اسم في المجتمع، ثم لاحظ وصف الصديق، وما يحمل من مبالغة في وصفه بالصدق هو لها أهل. ثم يعرض عليه حاجته بعد هذا المدخل الموفق، والادب الرفيع في الخطاب، وحسن التأتي.

أفتنا في سبع بقرات، ويعيد عليه الرؤيا بحروفها وحَذَافيرها وترتيبها، مما يدلك أنه كان يعطيها اهتماماً وعناية ويتوقع لها شأناً وخطراً.

ثم لاحظ مشاعره ونفسيته من خلال تذييل الآية لعلّي أرجع إلى الناس ثم إلى أداة الترجي لعل فقال: لعلهم يعلمون،

وترداد الترجي منه ينبئك عن حالته النفسية وتعلقه بيوسف وتعليقه عليه الآمال في تعبير هذه الرؤيا، ولم يكن الساقي يتوقع من يوسف المحسن أن ينتقم لنفسه فيكتم علماً أكرمه الله به، أو يرد ملهوفاً وقت حاجة انتقاماً للذات أو تصفية لحسابات.

ان الأمر يتعلق بحياة شعب، ولا يجوز أن تطغى الامور الشخصيّة على



القضايا التي تمس المصالح العامة..

قال في الظلال: «والساقي يلقب يوسف بالصديق، أي الصادق الكثير الصدق، وهذا ما جرَّبه في شأنه من قبل..

ونقل الساقي الفاظ الملك التي قالها كاملة، لأنه يطلب تأويلها فكان دقيقاً في نقلها، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولاً، وليجيء تأويلها ملاصقاً في السياق لذكرها.»[1]

وقال الاستاذ كحيل في معنى: لعلهم يعلمون: «أرجو أن يعلموا بما تفيدني من مضمون الرؤيا فيعلموا فضلك وعلمك وصدقك، فتعظم في نظرهم، وتسمو مكانتك عندهم، ويكون هذا سبباً لانتهاء محنتك، وإزالة ما لحقك من ظلم.»[2]

وكلام الاستاذ طيب لكن الأهم والظاهر لعلهم يعلمون تأويل هذه الرؤيا فيعدون لها أهبتها، ويحذرون الحذر المطلوب. ويوسف عليه السلام سيفسر الرؤيا سواء أعلم الناس به فكافأوه أم لم يعلموا به فيتنكروا له.

وقفات مع الآية:

١ ـ ذكر يوسف باسمه هنا، ولم يذكر في المرة الاولى باسمه عندما طلب منه السجينان تفسير رؤييهما أول مرة.

وفي هذا لفتة أن يوسف عليه السلام قد شق لنفسه بذلك التأويل، وبعقلة السديد ورأيه الراجح، شق له طريقاً إلى قلوب الناس واحترامهم.

٢ ـ وصف يوسف بالصديق الذي انطلق من لسان الساقي صار من الأوصاف الملازمة لاسم يوسف عليه السلام، فلا يترجم له في الغالب الا مقترناً الاسم والوصف: يوسف الصديق. وانما حاز هذا الوصف من صدقه البالغ وتأويله الصحيح لرؤيا السجينين.

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٣/ط التراث السابعة ٤/٧٣٠

(٢) يوسف عليه السلام ص ٩١



٣ ـ عبر الساقي هنا بقوله: أفتنا، وأول مرة قال له الفتيان: نبئنا بتأويله، وفي قوله أفتنا مزيد من التكريم والاحترام ليوسف عليه السلام اذ فيه نعت له بوصف الافتاء الذي هو يتضمن الانباء وزيادة نعت للمتصف له بالكرم، اذ مادة الفتيا والفتوة تلتقيان. والفتوة النجدة والكرم.

ووصف في المرة الاولى بمجرد الانباء دون الافتاء، لأنهم ظنوا فيه العلم وتوسموه فيه، وصدق ما توسموه وزيادة، فزادوا على وصفه بالانباء فوصفوه بالافتاء.

٤ ـ قوله أفتنا، وفي آخر الطلب لعلي أرجع إلى الناس، ولم يقل أفت الملك، ولعلي أرجع إلى الملك، يحتمل اكثر من تفسير، فمع احسان الظن بالساقي فهي تحتمل أن قضية الرؤيا التي قصها على يوسف اكبر من أن تكون مسألة شخصية. تخص الملك وانما هي كما تنبأ الساقي تعم الشعب وتتعلق بمستقبله ومصالحه ولذلك عمم فقال لعلي أرجع إلى الناس.

وعلى تقدير أن الساقي يخطط لمآربه الخاصة، أي على عدم احسان الظن، فإن اخفاء شخصية الرائي يتعلق بنية الساقي أن ينال الحظوة عند الملك حين يكون هو الذي يفسر الرؤيا أو ينقل تفسيرها إلى الملك دون سواه. ومن هنا قال: أنا أنبئكم بتأويله... [1] ولعل الأول هو المترجح.

٥ ـ تبدو الرؤيا سهلة واضحة لا تحتاج إلى شديد إعمال ذهن، ولكن الله عز وجل ادخر تفهيمها لعبده يوسف حتى تكون هذه المسألة سبباً ظاهراً في خروج يوسف.

﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلاً مما تأكلون﴾ الآية (٤٧).

وبادر يوسف لا يفسر الرؤيا وحسب ولكن يرسم خطة عملية تستغرق

---

(١) يقول البقري في تعليقه على هذه الآية: لم يقل إلى الملك اخفاء لاخبار الملك من جهة، ورغبة كامنة في الشهرة من جهة أخرى. انظر يوسف في القرآن ص ٤٤.



القطر كله والشعب المصري كله: **تزرعون**، وتستغرق سنين بطولها: سبع سنين، والسؤال الذي قد ينشأ عند سماع كلامه: أليس الشعب المصري يزرع، **فما** الجديد في كلام يوسف؟ إن الجديد في مقدار التعبئة وتجنيد الطاقات وحشد القوى، ثم فرق آخر في نسبة تشغيل طاقة كل فرد.(١)

وإن في كل فرد فينا طاقات ضخمة لو يكتشفها، ثم ينظمها ويجندها لقضية من القضايا، ضمن خطة عامة تستغرق الأمة بكاملها. ونذكر كيف أن النبي ﷺ وصحابته الكرام أنجزوا حفر الخندق على طول المدينة وباتساع ما لا يقل عن ثلاثة أمتار وبعمق مناسب لا نتصوره يقل عن مترين. كل ذلك في غضون أيام لم تصل اسبوعين.

هذا هو التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة وهذا الذي كان يخطط له يوسف وعبر عنه بكلمة تزرعون.

وإن الذي يخطط له يوسف باختصار هو مضاعفة الانتاج وتقليل الاستهلاك لأن الازمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولئن كان سلوك الناس في الازمات عين سلوكهم في الظروف العادية: استرخاء وبطالة، فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج.. ومعالج خبير.

ولاحظ أن الآية التي يشير فيها يوسف بزراعة سبع السنين هي الآية السابعة والأربعون.

قال المنار: «قال يوسف مبينا للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ما تدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي وهذا ضرب من بلاغة الاسلوب والايجاز، لا تجد له ضرباً في غير القرآن، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الآمر للمأمور الحاضر،

(١) من طرائف ما نشر بعد كتابة هذه الاسطر بعدة سنوات، ما نشر في شهر ٦ سنة ٨٧ عن إحصائية لساعات العمل في عديد من أقطار العالم فكانت نسبة عمل العامل في مصر نصف ساعة فقط بينما بلغت في اليابان مثلاً ثماني ساعات وزيادة.



فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمراً، كما قال تعالى: **﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾**. سبع سنين بلا انقطاع. قال الزمخشري: تزرعون: خبر في معنى الأمر كقوله تعالى: **﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾**، وانما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في ايجاب المأمور به، فيجعل كانه يوجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الامر قوله: فما حصدتم فذروه في سنبله، أي فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه اي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة اليه: الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب.

الا قليلاً مما تأكلون: في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع.»[1]

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٣١٩.

خطة طويلة

تحت هذا العنوان قال الدكتور عبد العزيز كامل:

«عندما يتذكر ساقي الملك صحبة السجن، ويخبر الملك بأمر يوسف يفسر يوسف الرؤيا ويقسمها إلى ثلاث مراحل:

١ ـ تزرعون سبع سنين دأبا...

٢ ـ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد...

٣ ـ ثم يأتي من بعد ذلك عام...

وأول ما نلاحظه على هذه الخطة الطويلة التي تستغرق خمسة عشر عاماً أن رؤيا الملك فيها تقتصر على المرحلتين الأولى والثانية، ومدتهما معاً أربعة عشر عاماً. وأن المرحلة الثالثة لم ترد في رؤيا الملك، ولذلك كانت من مقام النبوة. وكذلك تفاصيل العمل في المرحلتين الاولى والثانيـة.

ولنعرض ملامح هذه الخطة الطويلة:

١ ـ الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو: الانتاج والادخار مع استهلاك محدود. فيوسف حدد خط الانتاج بالزراعة وحدد استمرار الانتاج الزراعي بسبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع، ومع هذا الجهد الكبير في الانتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: الا قليلاً مما تأكلون، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي «فذروه في سنبله» والسنبلة كما نعلم عند طحنها توجه إلى ثلاثة أبواب رئيسة: الاولى طعام للانسان، والثاني طعام للحيوان، ويمكن الاستفادة من قشرها أيضاً في صناعة الطوب اللبن. فكأن تنظيم الخطة هنا شمل أكثر من جانب من جوانب الحياة فضلاً عما في حفظ السنبلة كاملة من صيانة.

٢ ـ فإذا ما انتهت سنوات الانتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الاقوات سبع سنوات عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الانتاج والجهد الدائب في المرحلة الاولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

٣ ـ ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغي ألا تأتي السنوات العجاف على كل المدخرات وانما كان يوسف واضحاً في قوله الا قليلاً مما تحصنون، فكأن هذا الجزء المدخر هو «الخميرة» التي تستطيع بها الامة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف. . اي اعادة استثمار المدخرات. .

أما اذا جاءت السنة المرتقبة بفيضانها المرتفع فلم نجد بذوراً، فماذا تنبت الارض؟ ولهذا لا يمكن أن يتحقق الغوث المنتظر في المرحلة الثالثة وتتوافر الغلات التي يعصرونها، الا اذا كانت الخطة قد استعدت لهذا كله.

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب: الاول الانتاج، والثاني الاستهلاك، والثالث الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات.

ومن طبيعة التطور أن تختلف «تفاصيل الصورة» ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وتراثنا.»[1]

---

(١) مواقف اسلامية ص ٨٣ ـ ص ٨٦.

الانتاجية

الانتاجية هي الوصول إلى أعلى مستوى من الاداء باستخدام أقل ما يمكن من الموارد. ومن هنا فإنها مزاوجة بين الفعالية والكفاية. والانتاجية هي العلاقة المباشرة بين عنصر أو اكثر من عناصر الانتاج من ناحية، والسلع أو الخدمات الناجمة عنها في ظروف معينة، ووقت معين من ناحية أخرى. وهي بعبارة أخرى تعبير عن العلاقة بين الواقع والامكانات في ظل ظروف معينة.

والتنظيم الذي يسعى نحو أهداف معينة ويمارس العاملون فيه مهام وأنشطة لتحقيق تلك الاهداف، وتتفاعل فيه القوى البشرية والعناصر المادية في علاقات يحددها هيكل تنظيمي ما، ويتفاعل مع البيئة الخارجية بكل أنظمتها، هذا التنظيم تلعب فيه القوى البشرية دوراً أساسياً في تحقيق أهدافه.

والانتاجية فيه تتضمن مفهوم الفعالية التي ترمي إلى تحقيق نتائج ملموسة، ومفهوم الكفاية التي ترمي إلى استخدام موارده بأقل النفقات.

الانتاجية اذاً مؤشر مهم من مؤشرات حيويته، ومعيار لتحقيق أهدافه، ومقياس لنجاحه في تفاعله مع بيئته الخارجية. ومن ناحية أخرى فإن أولى مهام الادارة العليا في أية مؤسسة ان ترفع انتاجية العاملين فيها عن طريق تنمية قدراتهم ومهاراتهم وتقوية دافعيتهم للعمل والانتاج.

أما عن أهمية الانتاجية لأي مجتمع فإنها عامل أساس في التنمية الشاملة، والمصدر الحقيقي لرفع مستوى المعيشة في أي بلد.[1]

---

(١) د. عبد الباري درة: العامل البشري والانتاجية في المؤسسات العامة ص ٢٧ - ص ٢٩، ط ١ عمان: دار الفرقان سنة ١٤٠٢ - ١٩٨٢.



وقد ألمحنا أن الخطة اليوسفية في الديار المصرية قد راعت هذا كله، فزادت الانتاجية إلى ما نستطيع تقديره بنسبة ٤٠٠٪، وأولت اهتماماً ولا شك كبيراً للعوامل البشرية وزادت الفعّالية وقوّت الدافعية والا فكيف استطاعت أن تنجز كل هذه المنجزات العظيمة والرائعة في هذه المدة القياسية والخطة الخمس عشرية؟!

أقول: بعد كل هذا تأمل كيف زاد يوسف نسبة التشغيل والفعالية حتى استغرقت الطاقة كل قادر على بذل أي مجهود.. تمثل ذلك في قوله: تزرعون.. ثم كيف زاد الانتاج الكلي لمصر أضعافاً.. وهذا هو سبيل التنمية. إلى الباحثين عن السبيل.

التخطيط والادارة في كلمات يوسف

«يعتبر التخطيط وظيفة أساسية من وظائف الادارة التي لا يمكن لها أن تكون فعّالة بدونها.

والتخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما التنبؤ والاهداف، وأما العناصر فهي السياسات والوسائل والادوات (الموارد المادية والبشرية)، والاجراءات، والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية (التقديرية).»[1]

بعد أن قرأنا خطة يوسف نقرأ الفقرة السابقة من كتب علم الادارة فماذا نرى؟ يقول النص أولاً إنه لا ادارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق. وهذا عين الذي زاوله يوسف. لقد جاء الحكم يوم جاء وبرنامجه الاصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والاعلامي والزراعي.. كل ذلك في ذهنه قد أعد اعداداً كاملاً دقيقاً.

ثم يقول النص ان دعامتا التخطيط: التنبؤ.. والأهداف.

أما التنبؤ فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان من يوسف.. بما علمه الله تعالى.. ثم نجده أيضاً قد حدد الاهداف في مضاعفة الانتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام.. وهذا يقتضي خطة تفصيلية لأن الهدف العام الكبير ليس شيئاً ان لم يقترن بخططه التفصيلية.. وهنا يأتي دور السياسات والوسائل والادوات والموارد البشرية والاجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية...

(١) د. جمال عبده: دور المنهج الاسلامي في تنمية الموارد البشرية ص ٢١ دار الفرقان: عمان ١٩٨٤ نقلاً عن د. محمود عساف: أصول الادارة ص ١٥١ ـ ١٥٢.



هذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الادارة الحديث.

وانه وان كان القرآن حصر كلام يوسف عليه السلام في هذه الجملة الجامعة الوجيزة ولم يشر إلى تنمية الانسان لكنها متضمنة قطعاً ضمن الخطة. لأن القرآن علمنا أن الانسان انما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه.. لا ظروفه الخارجية. وان تغيير الخارج من غير تغيير الداخل لا يغير نقيراً..

تنمية الموارد البشرية

«المورد البشري هو كل انسان يكون مصدراً للنفع، أو مكاناً للنفع، أو طريقاً إليه، أو يمكن أن يكون كذلك.

ويطلق أحد الكتاب لفظ الموارد البشرية، على الجزء المنتج من البشر، الموجود في مجتمع من المجتمعات.

ثم ينقل الباحث جمال عبده عن الدكتور الخولي هذه الارقام:
«بالاطلاع على الارقام الخاصة بتعداد السكان في مصر سنة ١٩٦٠ يتبين أن مجموع تعداد السكان البالغ حينذاك نحو ٢٥ مليون نسمة تمثل الموارد البشرية ما يقرب من ١٥ مليون منها نحو ٦,٥ مليون نسمة تسهم في انتاج السلع والخدمات بينما لا يسهم الشطر المتبقي من تلك الموارد والبالغ حوالي ٨,٥ مليون نسمة في أي نشاط انتاجي.»[1]

نقول: بعد تقدم البحث العلمي وأساليبه وفهم الفعالية الشعبية، وتطور البحوث في الادارة.. الخ تبلغ نسبة التشغيل للطاقة الانسانية حسب الاحصاءات الرسمية (!!) حوالي الخمس. وهذا الخمس لا تدري ما نسبة تشغيل كل فرد فيه، فقد تكون الخمس أيضاً. ثم لا تدري نسبة التشغيل في مُعامل الزمن.. والموارد المادية.. ثم لا تدري ما نسبة الأمانة في حراسة مقدرات الأمة..

---

(١) د. جمال عبده: تنمية الموارد البشرية ص ٤٥ ـ ٤٦ نقلاً عن د. عثمان أحمد الخولي: أثر التنمية البشرية الرأسية في تحقيق واستمرار النمو الاقتصادي والاجتماعي في تنمية الموارد البشرية في المجتمعات المستحدثة ص ٦٩، منشور في ملحق الاهرام الاقتصادي سنة ١٩٧٤.



التنمية الداخلية للانسان

ضمان للاصلاح الخارجي الاقتصادي والسياسي

لقد وضع يوسف في تفسيره للرؤيا خطة لتطوير مصر والنهوض بها نهوضاً شاملاً وليس من ناحية اقتصادية أو زراعية فحسب لأنه لا تنجح خطة كما قلنا غير مرة ليس وراءها الانسان الذي ينفذها. ومن هنا فانا نتصور أن يوسف وضع عنصر الانسان نصب عينه في خطته التي ترسم. وموقفه من السجينين في دعوتهما الى التوحيد يشكل دستوره في الارتقاء بالانسان عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع والخطط والقائم بالتطوير.

«إن حل مشكلة البعد الخارجي للانسان وتأمين ضرورات حياته يؤثر على البعد الداخلي، ولكن ليس تأثيراً حاسماً..

وان اصلاح النظام يساعد على إصلاح الانسان، واصلاح الانسان يساعد على اصلاح النظام، وان هناك تفاعلاً متبادلاً بينهما ولكن بشكلين متفاوتين.. فلا بد من اصلاحهما معاً، ولكن تغيير الخارج يحتاج إلى انسان يحمل مسؤولية التغيير.. انسان ملتزم بالتغيير.. مارس التغيير الروحي قبل أن يجسده عملاً في الخارج. ان عملية التغيير لا بد أن يقودها الانسان، فالانسان هو المحور، ان فائدة التغيير الخارجي تزول اذا لم يكن هناك انسان أمين على منجزات التغيير الخارجي.. ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، صحته، وصدقه، وامانته..

إن التغيير يجب أن يمارسه الانسان في المحتوى النفسي، فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل، ثم يجسد محتواه النفسي تغييراً خارجياً، ويحوله الى ممارسة وتطبيق

وتحقيق، لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير الا اذا تغير محتوى الانسان، وما هو عليه من الحق أو الباطل هذا هو منطق القرآن والحياة: «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» لكي ترسي نظاماً لا بد أن تهيىء له إنساناً أولاً.

فلا بد من البدء بالانسان. فلا بد من البدء بالانسان.

اذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الانسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الانسان إلى النظام فيقوضه اكثر مما يتسرب الاصلاح من النظام إلى الانسان فيصلحه. . لأن الانانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والانظمة ما لم تهذبها التربية الداخلية العميقة والاخلاق الكريمة.

والانسان المشوه المتخلف اذا أعطي قانوناً متحضراً متطوراً فسوف يكبو في حمل مسؤوليته وينوء تحت وطأته وسرعان ما يدس من خلاله تفسيراته المشوهة واهواءه السيئة ويسقط عليه أنانياته المنحرفة، فيحرفه شكلاً ومضموناً أو تطبيقاً.

الانسان المشوه روحياً والبعيد عن تقوى الله سرعان ما يشوه عدالة القانون والمباديء، وصدق التقدم ونقاء المؤسسات وطهرها، ويحور كل ذلك ويتهرب منه في العلن، ويتجاوزه عند أول فرصة سانحة.»[1]

---

(١) عبد اللطيف بري: الانماء الروحي والاصلاح الاجتماعي ص ٤٦ ـ ص ٤٨ ط١: بيروت: دار التعارف للمطبوعات سنة ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.



العنصر البشري في الخطة

قال الدكتور عبد العزيز كامل أيضاً تحت هذا العنوان:

«ولقد أشارت الآيات الكريمة إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة رتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة.

١ ـ الجانب الاول يتعلق بيوسف نفسه، وفي هذا الجانب نرى أمرين:

أولهما: أنه لم يرض ـ ابتداء ـ أن يعمل في هذا الأمر وظلال الشك من حوله. فحينما طلبه الملك قال للرسول: ارجع إلى ربك فاسأله..

ودار تحقيق جديد بدت فيه براءة يوسف. وعندما بدت هذه البراءة وتجلى نقاء يوسف قال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي..

هنا نجد تطبيقاً سليماً لقاعدة «الرجل الصالح في المكان الصالح» واذا كان يوسف قد طلب اظهار براءته، فقد كان لهذا أثره العملي في توافر الثقة فيه، والاطمئنان إلى أخلاقه، وأنه لن يستغل مكانه الذي يسيطر فيه على الأقوات.

ولو كان يوسف قد قبل العمل دون إظهار هذه الحقيقة، لكان من الممكن أن يحاول من حول الملك الطعن فيه، مستغلين الغموض الذي أحاط بالحادث في قصر العزيز. ومن هنا يبدو التكامل القوي بين الخطة والمخططين. بين حساب الارقام وحساب الاخلاق.. بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع.. بين الدين والحياة.

٢ ـ الجانب الثاني يتجلى في اختيار المعاونين الذين ساعدوه في عمله. فكان من رجال يوسف العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء ـ تجلى هذا في

مخططه مع اخوته ـ فهنا نجد انعكاس أخلاق يوسف عليهم، وضرورة العامل البشري على مستوى القيادة والمستوى الشعبي في نجاح الخطة بعد التأكد من صحة أسسها المادية.

وما أجمل الربط بين الدنيا والآخرة في القصة بعد الربط بين الأسس المادية والروحية فيها. «وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولاجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون.»

هذه قصة تخطيط أنزلها الله على رسوله، استطاع بها يوسف أن يحل نمطاً من أنماط المعادلة الصعبة، موازناً بين جوانب الانتاج والاستهلاك بما يحقق الخير، معتنياً بكل من الاسس المادية للخطة وجوانبها البشرية، مثيراً حوافز العمل المادي، مع صيانته بضوابط من القيم الروحية التي تعمل من أجل اغناء الحياة ناظرة إلى ما بعد الحياة.»[1]

(١) مواقف اسلامية ص ٨٦ ـ ص ٨٩.

الفعّالية

«ان البشر يمكنهم باستخدام السنن المتعلقة بتغيير النفس، رفع أو خفض مستوى الافراد والمجتمعات حسب الهدف الذي يرمي اليه الانسان الذي يقوم بهذه المهمة.

والفعالية هي قدرة الانسان على إستعمال وسائله الأولية، واستخراج اقصى ما يمكن ان يستخرج من النتائج.

فالساعة من الوقت والقدر من المال كل ذلك يمكن استخدامه استخداماً أقصى واستثماره. فالمال ليس مصدر الفعالية للانسان، ولكن الانسان الفعال هو الذي يجعل المال فعالاً.

وكل من الانسان الفعال والكَلّ اللافعال يطبع صورته على الارض التي يعيش عليها، فأرض الانسان الفعال عليها نضارة الحياة بخضرتها وتنسيقها وترتيبها، وارض الانسان الكل تراها مواتاً لا تنبض بحياة ولا تشاهد فيها نظاماً، ولا تجني ثمراً.

والمجتمع الفعال هو الذي نظّم نفسه وتمكن من القضاء على المشاكل الاساسية فلا يتعرض لمجاعة، ولا تجتاحه الاوبئة، ولا ترى أميين فيه، كما لا يتعرض للاستعمار، ولا لتقسيمه..

وفعالية المجتمعات عرضة للتغيرات والتقلبات، فقد يتحول مجتمع متخلف إلى مجتمع فعال، كما يحصل العكس،

والانسان حين يفقد شيئاً يستحق ان يبذل نفسه من أجله فقد أساس الفعالية وغرق في الكلالة والوهن والغثائية.

وأهم شروط الفعالية هي الاستخدام الصحيح للعقل في تأمل أحداث الكون لاستخراج سننها. . ثم تقريب المواضيع التي لم تخضع بعد سنن تسخيرها للانسان، بمقارنتها بأمثلة خضعت سنن تسخيرها للانسان.

ثم تنمية وتزكية القدرات الكامنة في الانسان وتحويلها إلى طاقات كائنة بالفعل، ثم ارتباط الانسان بمثل عليا وانطلاقه منها وانطباق السلوك على هذه المثل. ولا يمكن لأي مجتمع أن يعيش بغير مثل، وتفاوت المجتمعات يكون على قدر ما في مثلها من صواب وعلى قدر ما تبذل من جهود لتحقيق ذلك. فمثل أعلى صحيح زائد طريقة صحيحة لبناء الانسان وفق المثل الاعلى يساوي حياة صحيحة راقية ربانية (فلنحيينه حياة طيبة)

يقول ابن تيمية في كتابه الحسبة في الاسلام:

«وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة الا باجتماع. . على أمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، وأمور يفعلونها ـ لما فيها من المصلحة ـ ويطيعون للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد. .

فبنو آدم لا بد لهم من طاعة آمر وناه، فمن لم يكن من أهل الدين والكتاب فانهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود عليهم بمصالح دنياهم مصيبين تارة ومخطئين تارة أخرى. .

وأهل الكتاب والدين متفقون على الجزاء بعد الموت. ولكن جزاء الدنيا متفق عليه من أهل الارض لا يتنازعون أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا يروى: أن الله ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وان كانت مؤمنة. .»

ومن شروط الفعالية فهم أحداث التاريخ فهماً إيجابياً يبين دور الانسان وايجابية هذا الدور، مثل هذا الفهم يساهم مساهمة كبيرة في ايجاد شرط أساسي من شروط الفعالية، وذلك لان هذه النظرة إلى احداث التاريخ لا تؤدي إلى نتائج نظرية فحسب، بل تتدخل في تكييف سلوك الانسان أمام الاحداث وتضع



الانسان في المكان المناسب في هذا الكون. وتشعره بكرامته حيث سخر الله له هذا الكون.

يقول جلال الدين الرومي مخاطباً الانسان: «ان خدمتك مفروضة على جميع الكائنات. هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الانسان الغالي ويمنّي نفسه بشرائه؟ يا مَن مِن عبيده العقل والحكمة والمقدرة، لا محل للمساومة، فقد تمت الصفقة: «ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم» والشيء لا يباع مرتين.»

وان من شروط الفعالية حدوث شعور للانسان أنه يملك شيئاً يمكن أن يقدمه للآخرين، وهم بحاجة اليه. فحدوث هذا الشعور عنده يكون سبباً لفعاليته ونشاطه.

يقول مالك بن نبي: ان صنع التاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى الكلمة والواجبات الخاصة بكل يوم وبكل ساعة.»[1]

قال في الظلال:

«كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه، وهذا اكمل.

دأبا: أي متوالية متتابعة. وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

فذروه في سنبله: أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

الا قليلاً مما تأكلون: فجردوه من سنابله، واحتفظوا بالبقية للسنوات الاخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف.»[2]

---

(١) جودت سعيد: الانسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً ص ٥ ـ ص ٤٧ بتصرف واختصار ط ٣ دمشق سنة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م مطبعة زيد بن ثابت.

(٢) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٤، ٤/٧٣٠



وقد جعل الاستاذ أبوحمدة الرقم «٧» البطل الثالث في قصة يوسف اذ قال في تعقيبه على سبع سنين: «والرقم ٧ قد قام بدوره ببطولة هامشية في تطوير الاحداث..»

ثم يستنتج الكاتب أن كل ما لم يحدد من الارقام هو كذلك سبعة اذ قال: «وحتى تكتمل عناصر «البطولة» للعدد ٧ في هذه القصة التاريخية، فان المتذوق لأساليب النسق القرآني ليحس احساساً «راجحاً» أن الأعداد التي قصد تعميتها انما هي «سبعة». ويذكر الكاتب من ذلك: الثمن البخس، والابواب التي غلقت، والنسوة، والسنين التي قضاها يوسف في السجن، والابواب المتفرقة،

ثم يعلق الكاتب على استنتاجه فيقول:

«ان الدراسة الاسلوب لأنساق القرآن الكريم لتمنحنا مفاتيح في الرؤية تمكننا من كنوز التذوق الجمالي...»[1]

ولسنا مع الاستاذ في كل ما ذهب إليه وحتى لو ثبت أن سني السجن كما قال وان ثمن بيع يوسف كما ذكر فما الوجه الجمالي في كل هذا؟
ثم ما البطولة الهامشية أو الرئيسة التي قام بها الرقم ٧ المذكور صراحة أو المتضمن ضمناً؟

لا نرى أي داع لاجتهاد الاستاذ في هذا الباب الذي ولجه، ولا نرى مكامن للجمال في تحميل النص فوق الاحتمال.. وانطاقه بما سكت عنه ثم القول بأن هذا هو الاسلوب لأنساق القرآن.

وقفات مع الآية:

١ ـ من الموافقات أن الآية المتحدثة عن سبع سني الخصب وسبع سني الشدة جاء رقمها ٤٧، وكانت الآية المتحدثة عن إخبار الملك برؤياه هي الآية رقم

---

(١) في التذوق الجمالي ص ٤١ ـ ص ٤٣.



٤٣ وهي الرؤيا الثالثة في القصة، وقد تكرر فيها العدد ٧ ثلاث مرات: سبع بقرات سمان، سبع عجاف، سبع سنبلات خضر.

٢ - قوله تزرعون خبر يراد به الأمر، وهذا في القرآن كثير، ومن مراميه أنه يريد الناس أن يتحركوا بانبعاث ذاتي لا بأمر خارجي.

٣ - السنون والاعوام، السنة في اللغة العربية تستخدم للتعبير عن حالة الشدة والحاجة، فتقول العرب: أصابتنا سنة وتريد مجاعة وحاجة، وأما العام فما فيه الخير والغدق والعطاء، ومن هذا الوادي قوله تعالى: **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾**.

ومنه أيضاً ما في هذه السورة الكريمة سورة يوسف: «ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.» «فلبث في السجن بضع سنين.»

والسؤال هنا لم استخدم السياق الكريم لفظ السنين في الحديث عن سنوات الخصب في قوله: تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم.. الخ..

والجواب إما لأن هذه الاعوام الخصبة لشدة الجهد المبذول فيها والنصب شبهت بالسنين، واما لأنها سنوات رخاء تعقبها شدة تنسخ ما فيها من رغد وتستهلك ما نتج فيها من ثمر وصفت بالسنين، واما ثالثاً أنها استخدمت في العدد فحسب بقطع النظر عن ملحظ الخصب والشدة.

٤ - لم يقدم الدعوة إلى الله تعالى على تعبير هذه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى، لأن هذا السائل هو الذي دعاه في المرة الاولى. فاما أنه قد قبل واما أنه لم يقبل، فلا داعي للاعادة. وصاحب الرؤيا الثانية كان الملك، وكان غائباً، والوعظ والدعاء لا يكون الا في المشاهدة دون المغايبة،

ويحتمل أن يكون تفرس في الفتيين قبول التوحيد، فإن الشباب ألين قلباً، أما في هذا الموضع فقد كان الملك أصلب قلباً وأفظ جانباً كما قال القشيري، فلذلك لم يدعه إلى التوحيد لما تفرس فيه من الغلظة.» ولسنا مع القشيري.



﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون﴾ الآية ٤٨.

ومن معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات يقينية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع. ومن هنا صارح يوسف الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد من الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة.

والسبع التي تلي سبع الرخاء، ستكون مجدبة لا تعطي بل تأخذ وتأكل، فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً.

«ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد - لا زرع فيهن - يأكلن ما قدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها! الا قليلاً مما تحصنون. أي الا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها. ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب تنقضي ويعقبها عام رخاء، يغاث الناس فيه بالزرع والماء، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً، وسمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتاً.

وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو اذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد.»[1]

الآية ٤٩:

﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾

ان بعد الشدة التي أشار اليها يوسف انفراجاً، ورخاء، وتعود الأمور سيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مبارك الخير غير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكأن الخير لتدفقه سيفيض بغير جهد، فهو عام فيه يغاث الناس.

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٤ الشروق. والتراث ٤/٧٣١



ولاحظ تقديم الظرف فيه على يغاث،

ويغاث الناس أي يسقون الغيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث. وكل ذلك متلازم.

وفيه يعصرون إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار الا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الاساسية وهي الأكل.

لا بد من الأمل والتفاؤل في أي خطة، والا فان كان لا أمل فما الـداعي إلى العمل؟! والخوف في الانسان قد يحرك دافع العمل لكن اليأس يقعد عن العمل.

ولقد حرك يوسف دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شـدة سنوات القحط، ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل.

قال ابو السعود: والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم في الحبوب، اما لأن استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب، اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مياه أخر غير المطر.

واما لمراعاة جانب المستفتي باعتبار حالته الخاصة به، بشارة له.وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع.»[1]

واللفظ بعموم معناه يشمله، لأن الحلب فيه عصر الضرع. كما قـال القاسمي.

قال السيوطي في (الاكليل): هذه الآية من أصول التعبير. وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار، ولا بأس في التعبير بالزيادة على ما وقع السؤال عنه.[2]

«من بعد ذلك: من بعد الذي ذكر وهو السبع الشداد.

عام فيه يغاث الناس: أي فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الاغاثة

---

(١) تفسير ابي السعود جـ ٤ ص ٢٨٣.

(٢) محاسن التأويل جـ ٩ ص ٣٥٤٩ ـ ص ٣٥٥٠ وارجع الى الاكليل للسيوطي.



وأوسعها، وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة، يقال: غاثه يغوثه غوثاً وغواثاً بالفتح، وأغاثه إغاثة إذا أعانه ونجاه، وغوّث الرجل قال: واغوثاه، واستغاث ربه استنصر وسأله الغوث، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر إذ يقال: غاث الله البلاد غيثاً وغياثا إذا أنزل فيها المطر، والأول أعم وهو المتبادر هنا.

وفيه يعصرون: ما شأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون، والمراد أن هذا العام عظيم الخصب والاقبال.

والانباء بهذا العام زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الاول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف الا بوحي من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك، ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل.

وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كتزرعون وتحصنون، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس، وفائدة القراءتين بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه، وحاضر مخاطب بما يكون منه.»[1]

﴿وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم﴾ الآية ٥٠.

هذه هي الآية الخمسون في السورة، وتأمل هذه الظاهرة أن هذه الآية تأتي في منتصف قصة يوسف بالضبط فإن القصة استغرقت مائة آية، وكأن حياته مقسومة إلى قسمين قسم الشدة تعرضت له الخمسون آية الأولى، وقسم الرخاء والانفراج تعرضت له الخمسون الأخيرة من الآن فصاعداً.

وفي هذه الآية نرى أنه ما ان سمع الملك تأويل الرؤيا ينقلها الساقي إليه عن يوسف حتى قال:

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣٢٠.



ان هذا الذي عنده هذا العلم والذي قدّم إلينا هذا الاحسان يستحق أن نكافئه، أو أن أكافئه بنفسي، فأتوني به». ويبدو أن الأمر في ذهنه لم يكن يعدو أن يكون أمر جزاء على خدمة قدمها يوسف ينتهي بوسام ينعم به عليه أو نحو ذلك.

فلما جاء الرسول وعرض عليه طلب الملك رده قائلاً انه لن يخرج حتى يفتح ملف قضيته من جديد ويحقق في موضوعه فيعرف الجاني من البريء. ويا لها من مفاجأة

أية شخصية هذه: أن يطلب للملك لينعم عليه فلا يجيب؟ وأية ثقة في النفس هذه الثقة: إن الرجال معادن فعلاً.. انه لا يريد أن يخرج بمنة أحد ولكن يريد أن يخرج ببراءته وبحقه.

ولذلك طلب يوسف أن يسأل الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن ولم يذكر امرأة العزيز وفاءً كما قلنا لمن عاش في بيته سنين، ثم ان ذكره تقطيع الايدي فيه من الاثارة للملك وفيه حافز جديد يجعله يهتم بالموضوع بالاضافة إلى ما تكوّن عنده من حوافز سابقة.

ان طريقة كلامه ورفضه الخروج ليلقي في النفس ابتداءأنه بريء، ولكن لا بد من تحقيق.

قال في الظلال:

«ينتقل السياق إلى المشهد التالي.. تاركاً فجوة بين المشهدين يكمل التصور ما ثم فيها من حركة، ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك، ويحذف السياق ما نقله الساقي من تأويل الرؤيا وما تحدث به عن يوسف الذي أولها، وعن سجنه وأسبابه والحال التي هو فيها.. كل أولئك يحذفه السياق من المشهد لنسمع نتيجته من رغبة الملك في رؤية يوسف، وأمره أن يأتوه به «وقال الملك اتوني به».

ومرة ثالثة في المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية في تنفيذ الأمر. ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذي لا نعرف: ان كان هو الساقي الذي جاءه أول مرة. أو رسولاً تنفيذياً مكلفاً بمثل هذا الشأن. نجد يوسف السجين الذي



طال عليه السجن لا يستعجل الخروج حتى تحقق قضيته، ويتبين الحق واضحاً في موقفه، وتعلن براءته على الأشهاد من الوشايات والدسائس والغمز في الظلام. . لقد رباه ربه وأدبه. ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة فلم يعد معجلاً ولا عجولاً! إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح في الفارق بين الموقفين: الموقف الذي يقول فيه يوسف للفتى: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول له فيه: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، والفارق بين الموقفين بعيد.

ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة «رب» بمدلولها الكامل، بالقياس اليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه، فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه، والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه.

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهن، والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يلي. . .»[1]

ما بال النسوة: «ما حقيقة أمرهن معي، والبال الأمر الذي يهتم به ويبحث عنه»

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف وعقله وأدبه في سؤاله منها: دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي ما لقي من الشدائد أن يكون صبوراً حليماً، فكيف اذا كان نبياً وارثاً لابراهيم الذي وصفه الله بالأوّاه الحليم؟ ومنها عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهماً بالباطل حتى يظهر براءته ونزاهته.

ومنها: وجوب الدفاع عن النفس وابطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها.

ومنها: مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة وترك

(١) الظلال جـ ٤ ص١٩٩٤ - ١٩٩٥، ٧٣١/٤، ٧٣٢



أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر ما يجبن به.

ومنها: أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها»[1]

من الفوائد التي أفادها صاحب مؤتمر تفسير سورة يوسف في تفسيره لهذه الآية:

١ ـ «العلماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن العلماء بالملك، ثم استشهد بقول الشاعر:

إن الاكابر يحكمون على الورى وعلى الاكابر تحكم العلماء

٢ ـ جعل يوسف براءته في المقام الاول وخروجه من السجن في المقام الثاني، فلم يكن طلب الملك والافراج عنه ليهمه بمقدار ما يهمه براءة ساحته مما الصق به من العار.

٣ ـ لم يقل يوسف ما بال امرأة العزيز بل قال ما بال النسوة تأدبا معها وحفظاً للمعروف واكرام المثوى.

٤ ـ لم يخش يوسف من النسوة أن يكتمن الحقيقة عندما قال ما بال النسوة لأنه رأى الحالة لا تساعد على انكار الواقع، وكان يستأنس بكون هؤلاء النسوة قد سمعن بآذانهن اعتراف امرأة العزيز بأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم، ولأن يوسف يعلم أن كل من توجهت عليه أنظار الملوك هابه الناس وأعظمته الرعية، واكبره الموظفون الذين هم تحت أمر ذلك السلطان، فصار يوسف بذلك أميناً مكر هؤلاء السيدات.

٥ ـ لا ريب أن العزيز وذويه كانوا أرادوا بسجن يوسف القضاء على تهمة المرأة بتوجيه التهمة اليه، ولكن نتيجة السجن خرجت معكوسة، وفي المثل السائر على الباغي تدور الدوائر.»[2]

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢

(٢) هذه بعض فوائد من ضمن ثماني عشرة فائدة أفادها العلمي، انظر المؤتمر جـ٢ ص ٨٣٦ ـ ص ٨٤٥.



قال القشيري: «أراد عليه السلام ألا يلاحظه الملك بعين الخيانة فيسقطه عيبه من قلبه، فلا يؤثر فيه قوله، فلذلك توقف حتى يظهر أمره للملك وتنكشف براءة ساحته.»[1]

وليبين لنا النبي الكريم ﷺ منزلة أخيه الكريم يوسف عليه الصلاة والتسليم قال: «لو كنتُ مكان أخي يوسف لأجبت الداعي.»[2]

وهذا من نبينا ﷺ ثناء على أخيه وتواضع منه لله رب العالمين.. والا فهو سيد الحكماء والصابرين.

ما المقصود بقول يوسف عليه السلام «ربي» في قوله: ان ربي بكيدهن عليم؟

قال الشيخ العلمي في المؤتمر: أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه الا الله لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنهن كذنه وأنه بريء مما قُرِف به، أو أراد الوعيد لهن، أي هو عليم بكيدهن فمجازيهن عليه.

أو أراد بربه عزيز مصر، كما ذكره احتمالاً كل من ابن جرير والسيد صديق حسن وغيرهما، على حسب اصطلاح المصريين والعبرانيين وغيرهما من تسمية الملك رباً بمعنى السيد.

ثم قال العلمي رحمه الله: وعندنا أن هذا الاحتمال الثاني أحسن، فهو يشير بذلك إلى سابق قول العزيز: إنه من كيدكن ان كيدكن عظيم». فكأن يوسف يقول: اسألوا سيدي عزيز مصر الذي سبق منه أنه حكم على زوجته بالكيد ووصفها به فاني أقبله شاهداً عليّ وأحتج به وبعلمه الحقيقة على كيدهن لي. فعلى

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٨٨ وسيكولوجية القصة ص ٤٢٨

(٢) متفق عليه عند البخاري ومسلم، وهو في المسند كذلك.

البخاري في كتاب الانبياء، باب ١١، رقم الحديث ٣٣٧٢: وهو جزء من حديث،فتح الباري ٤١٩/٦ وهذا الجزء هو: «ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي». ورواه كذلك في الباب التاسع عشر، وفي كتاب التفسير عند تفسير سورة يوسف.

رواه مسلم في كتاب الايمان ورقم الحديث ٢٣٨، والترمذي عند تفسير سورة يوسف.



هذا الاحتمال الثاني يكون قد استشهد على أنهن كواذب بعزيز مصر، وما يعلمه فيهن، وهذا ممكن، وفيه فائدة عاجلة وتقوم به الحجة، وأما على الأول الذي جرى عليه جمهور المفسرين فيكون قد استشهد بالله وعلمه بكيدهن، وهذا لا فائدة فيه ليوسف في الدنيا، ولا يدفع عنه المؤاخذة عند رجال المحكمة وفي نظر الشعب، ولا يبريء ساحته من الجزاء الدنيوي، لأنه من يعرف علم الله فيهن؟[1] أ. هـ.

وترجيح الشيخ كما ترى يستند إلى حجة ومنطق، ولا تعارضه اللغة، ولا الاعتقاد، ولا تنقصه الوجاهة، ولكنا مع هذا لا نراه ولا نرجحه لا لأنه لا يجوز لغة وسياقاً واعتقاداً ولكن من جهة أن الأولى والأليق بيوسف عليه السلام وبكلامه أن نحمله على الأولى به والاوجه، وأن نميزه عن القوم الذين كان فيهم ممن كانوا يستخدمون الكلمة كلمة رب ويقصدون بها الملوك فحيث ذكرها يوسف متصلة به فهو يقصد المولى الجليل سبحانه، ويعزو إليه الفضل والعلم، فحين قال للمرأة في أول قصته في مصر: انه ربي أحسن مثواي»، يصح أن نحملها على ما قال الشيخ هنا، ولكن الأفضل أن نفسر كلام النبي الكريم على أنه يقصد الفضل الحقيقي لا الفضل الظاهر القريب، فالله هو الذي هيأ له هذا الفضل وتلك المنزلة والمثوى. وهنا كذلك ان ربي العليم الذي يعلم خائنة الاعين وما هو مخفي في الضمائر يعلم بحقيقة الأمر. ثم ان النص لم يذكر العزيز في مقام الشهادة. فما رجح الشيخ تفسير النص لأجله ـ وهو شهادة العزيز ـ لم يذكره القرآن ولم يشر إليه من قريب أو بعيد.

الآية ٥١:

﴿قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه..﴾

ويطوي القرآن الزمن والتفصيلات لنجد أننا في محضر تحقيق يديره الملك بنفسه وقد جمع فيه امرأة العزيز والنسوة، وهذا قطعاً اقتضى منه تحريات واستفساراً وجهداً حتى أمسك بخيوط القضية كلها ثم حضرت النسوة بين يديه

(١) جـ٢ ص ٨٤٤ ـ ٨٤٥ مؤتمر تفسير سورة يوسف.



للمحاكمة، ويبدو الملك مقتنعاً ببراءة يوسف، ويبدو أنه درس الملف وفهم الحيثيات فهو يلقي بالتهمة مباشرة، وكذلك فإن أفضل طريقة تجعل فيها المجرم يستسلم ويعترف أن تواجهه بالحقائق الدامغة وأن تحاصره بالتهمة حتى لا يزوغ ولا يروغ.

ومن هنا يقول: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه..

والخطب لا يستعمل إلا في الأمر الجلل «والشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث»، ومن هنا قال موسى للفتاتين لما رآهما مُزْوَرَّتَيْن عن السقيا: قال ما خطبكما وكما قال هو نفسه: فما خطبك يا سامري. وكما قال ابراهيم: فما خطبكم أيها المرسلون.

ولم يكن ثمة مجال لمراوغة، وقد ابتدأت النسوة بالكلام لأنهن أقوى موقفاً من امرأة العزيز لأنهن لم يفعلن شيئاً يجرّم.. مثلَها. ولقد كنا نجد امرأة العزيز متقدمة في كل أمر، ولكنها الآن تأخرت. لقد خفضت المعصية رأسها، ونكّست جبينها وهامتها.. وأخرتها.

وصدق الله: من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، ان الكلمة الطيبة والعمل الصالح هما طريق العزة في الدنيا والآخرة.

والكلمة القبيحة الشائنة والفعل الشائن هما طريق الذلة في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: اياك وما يعتذر منه..

ان الانسان يكون في عافية ما لم يُزلق قدمه بنفسه في الوحل فيمرغ نفسه وكان نقياً.. وكان في بحبوحة وعافية وشموخ.

وتعيد النساء نفس الكلمة التي قيلت قبل سنوات امام امرأة العزيز فيقلن: حاش لله ثم يشهدن صراحة ببراءته دون أن يتهمن امرأة العزيز صراحة فيقلن: ما علمنا عليه من سوء وتأمل تأكيد نفي السوء بمن وتنكير السوء المفيد لنفي قليله وكثيره. ويبدو من جوابهن على سؤال الملك أن سؤاله كان يتضمن الاستفسار عن شأن يوسف كأن يقول مثلاً: هل رأيتنّ منه ما يطمع بمراودتكن له؟ ولكن القرآن

يختصر اذ مبناه على الأيجاز الذي هو من أهم أبواب الاعجاز، والاختصار هنا له اكثر من ملحظ اذ لا يريد أن يسجل سؤالاً عن يوسف لأنه ليس موضع تهمة أو سؤال.

والموقف الآن لا يزال يحتاج إلى حسم، وكأن كلام النسوة دعوةً غير مباشرة لامرأة العزيز أن تتكلم، لقد حوصرت فعلاً، وكلنا ترقب ننتظر ماذا تقول، أتستمر في جهالتها وظلمها الذي دفعها إلى الالقاء ببريء في غيابة السجن؟ أم ترى تدين نفسها وتقول الحق؟ أتُنَاور قبل قول الحق أم تقول مباشرة؟

أسئلة حسمت الاجابة عنها امرأةُ العزيز حين انطلقت تتحدث بتفصيل واسهاب يزيد على الحاجة المطلوبة للشهادة التي نُدبت لها، قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين.

وقف عند قولها: الآن. وكأنها تقول لقد طال الانتظار للّحْظة التي أرتاح فيها من حمل هذه الامانة والرزوح تحت هذا العبء ـ ومثلها: ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم، أي ألم يحن الوقت بعد كل هذا الزمن أن تخشع القلوب، وقوله تعالى الآن خفف الله عنكم، أي بعد كل هذا الوقت من أخذكم بالعزيمة جاء وقت التخفيف.. الخ الآيات.

والمعنى يصور تبلج الحق وسطوع براءة يوسف.

أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين.

إنه الاعتراف الكامل. لقد تغلب حب انصاف المظلوم في نفسها على تبرئة الذات، لقد انتصرت اذن في الصراع النفسي وحُسِمت المعركة النفسية الدائرة في داخلها لصالح الفضيلة والخير.

ثم تأمل التذييل الذي يؤكد براءة يوسف بعدة مؤكدات:

وانه لمن الصادقين.

قال ما خطبكن..



قال الجمل: «الخطب الأمر والشأن الذي فيه خطر وهو في الأصل خطب يخطب وانما يخطب في الامور العظام.»[1]

وقال في الظلال: «والخطب الأمر الجلل والمصاب. فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الاحوال، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه - فهو يواجههن مقرراً الاتهام، ومشيراً إلى أمر لهن جلل أو شأن لهن خطير: «ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه.»

ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف وما لمحن به وأشرن إليه، من الاغراء الذي يبلغ درجة المراودة. ومن هذا نتخيل صورة لهذه الاوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ. فالجاهلية دائماً هي الجاهلية. انه حيثما كان الترف، كان التخلخل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الارستقراطية!

وبفعل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك، يبدو أنه لم يكن هناك مجال للانكار. «قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء.»

وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها، ولو من مثل هؤلاء النسوة فقد كان أمر يوسف اذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال.»[2]

حصحص الحق: «أي بان الحق، يقال حصحص الأمر وحصحص الحق، أي حصل على أمكن وجوهه، وأصله حص من قولهم حص شعره اذا استأصل قطعة منه، والحصة أي القطعة من الشيء، فمعنى: حصحص الحق انقطع عن الباطل بظهوره، ومثله كبوا وكبكبوا، وكف الدمع وكفكفه، فهو زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق، ذكره الزجاج. واصله من حصحص البعير ثفناته في الارض اذا برك حتى يستبين آثاره فيها.»[3]

---

(1) الفتوحات الالهية جـ٢ ص ٤٥٩

(2) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٥ شروق وط التراث ٤/٧٣٢، ٧٣٣.

(3) التبيان جـ ٦ ص ١٥٣ - ١٥٤ وارجع إلى مفردات الراغب ص١٢٠ فهو قريب مما قال الطوسي.

قال في تفسير المنار:

«حصحص: ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة (بالكسر)، وهي النصيب لكل شريك في شيء، مثل كبكب وكفكف الشيء اذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول ان الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فإن كان النسوة شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات.

وانه لمن الصادقين: فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الاسمى لمن اكرم مثواه وأحسن اليه على السكوت عنه إلى الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الاحسان وقد أقر الخصم وارتفع النزاع.»[1]

قال الشيخ العلمي في تفسيرها: وانه لمن الصادقين في قوله منذ سنين: هي راودتني عن نفسي، فهو لم يلوث لسانه بالكذب والفرية قط، وانه لمن الصادقين في العمل حيث أبى علي، وامتنع عن النزول على ارادتي.»[2]

قلت ولم يشر الشيخ إلى احتمال آخر أقرب وهو أنها تعني وانه لمن الصادقين فيما أخبركم به من تبرئة نفسه واتهامنا له بالمراودة، وتكون استنتجت ذلك من طريقة السؤال، ومن فتح القضية، فعلمت أن يوسف قد تكلم قبلها وأدلى بحجته فهو من الصادقين فيما أفاد وقال على مسامعكم.

قال في الظلال معلقاً على اعتراف امرأة العزيز:

«هذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر، كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجمل في التعبير.

وهو شهادة كاملة بنظافة يوسف وبراءته وصدقه، لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي.

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ٣٢٣

(٢) المؤتمر جـ٢ ص ٨٤٦.



والسياق يشي بحرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذي لم يعبأ بفتنتها أن يحترمها تقديراً لايمانها ولصدقها وأمانتها في حقه عند غيبته. ويشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن.

وهكذا يتجلى العنصر الانساني في القصة، التي لم تسق لمجرد الفن، انما سيقت للعبرة والعظة. وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة. ويرسم التعبير الفني فيها خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً رفيقاً شفيفاً. في واقعية كاملة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعيات في مثل هذه النفوس، في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك.

وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام، وتسير الحياة بيوسف رخاء، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة.»(١)

وقولها: وانه لمن الصادقين.

يفسر الشيخ العلمي هذا القول منها فيقول:

«وكأنها خافت أن تثبت عليها التهمة ببعض البراهين اذ رأت أن السماء تنذر بتقلب الجو، فسبقت إلى الاعتراف على حد قول القائل: «بيدي لا بيد عمرو».(٢)

وأقول ان قول الشيخ يصح لو كان كلامها مجرد اعتراف بالجريرة والجريمة، ولكنه اكثر من مجرد اعتراف، إنه توبة، وتبرئة ليوسف، ودرس في الايمان، ولوم النفس، مما يدل على تحول في النفسية والشخصية لا على مجرد طلاء خارجي، أو انهيار مجرم حوصر بالادلة،

وذكر الشيخ رحمه الله ثلاثة دواع لاعتراف امرأة العزيز:

١ ـ ان النسوة قد أجبن المستنطق (المحقق) بقولهن ما علمنا عليه من سوء، فكانت هذه الجملة هي الطعنة النجلاء التي أثبتت المراودة، وقطعت قول

(١) الظلال جـ ٤ ص ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦، ٤/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤

(٢) المؤتمر جـ ٢ ص ٨٤٦



كل خطيب، فعند ذلك رأت من الحكمة والتعقل أن تعترف بالواقع. [1]

والشيخ بهذا القول يؤكد ما قاله قبل قليل.

ثم ذكر الداعيين التاليين فكان مؤيداً مؤكداً ما نذهب إليه من وجهة نظر، ومعارضاً ما يراه هو رحمه الله، ولو جعلها احتمالات بدل الدواعي لكان الاولى، لأن الاحتمالات قد تتخالف، ولا كذلك الدواعي. قال:

٢ ـ مهما بلغ الحقد بالقلب الانساني، وغلبت الشهوة شعوره ووجدانه، فلا بد أن تهب عليه من حين إلى حين نفحة من نفحات الفطرة الالهية، تنعشه وتوقظ شعوره، فيستطيع أن يعود إلى طهره وصلاحه، وما انطوى عليه من صدق وأمانة.

وكأنه قد صار الحال بحيث يخيل إليك أن هناك سيدتين، واحدة ابتلعتها نار الذنوب والتهتك، والأخرى ولدتها التوبة والاخلاص.

٣ ـ أما الداعي الثالث فيقول فيه الشيخ ان المرأة جعلت تراجع فهرس حياتها الماضية، وتقلب صفحاتها، فشعرت بالخطأ الذي كان صَدَرَ منها، فحكمت بنفسها على نفسها، وأنها لم تستفد من كل ما عملت سوى سوء السمعة، وانحطاط المنزلة، وأنها لم تسيء إلى فتاها بمقدار ما أساءت لنفسها باحباط شرفها، وكأن حياتها الحاضرة ـ حياة الشيخوخة قد أنستها حياتها الماضية ـ حياة الشباب ـ فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة، كما لا أثر فيه للعشق والغرام، فلذلك قررت أن تعترف بالصحيح فلفظت كلمتها الأخيرة.

فسلسلة هذه الاسباب هي التي خلقت هذه الاعجوبة، وأتت بهذه الخارقة» [2]

---

(١) ص ٨٤٩ جـ٢ السابق.

(٢) المؤتمر ص ٨٥٠ ـ ٨٥١ جـ٢.



الآية ٥٢:

﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾

ذلك الاعتراف مني ليعلم يوسف حين يصله موقفي هذا وتبلغه شهادتي هذه، ليعلم أني لم أخنه، ولم أشوّه سمعته ظلماً وزوراً وهو غائب كما فعلت ذلك وهو حاضر، لن اكرر خطيئتي في حقه مرة أخرى.

إن هذا لشيء عجيب!

إن العادة أن الناس تسيء في الغياب وتحسن في الحضور والشهادة، أما هذه المرأة التي طهر الله سريرتها ونوّر بصيرتها بعد كثافة الظلمات التي كانت غارقة فيها، فإنها قلبت الموازين وعكست الآية، وضربت الرقم القياسي في شهادة الحق والقول بالحق والاعتراف بالحق. عجيب حال الانسان. وكم هي قابلياته واسعة وقابلة للزيادة والنقص، للتزكية والتدسية.

ثم إني أيقنت بعد جهل وشرود وعَمَاية، أيقنت أن الله لا يهدي ولا يوفق ولا يوصل كيد الخائنين إلى هدفه وغايته وبغيته. وما تغير في هذه الحقيقة شيء، فهي حقيقة أزلية، لكنّ الذي تغير رؤية هذه المرأة لتلك الحقيقة.

ومن هنا فإنه يطلب إلى الانسان أن يزيح الغِشاوات عن عينيه حتى يرى الحقائق كما هي.

ولقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية من كلمات يوسف عليه السلام، يقصد ليعلم العزيز أني لم أخنه في غيابه. ولا أدري كيف خطر لهم هذا، وكيف يمكن أن نحشر كلام يوسف في هذا السياق ومن أين جاء يوسف في مشهد التحقيق، ولماذا نقطع أوصال النص؟ إن الذي حملهم على قولهم الذي قالوه ليس إلا استغرابهم أن يصدر هذا الكلام من امرأةٍ رأوها قبل صفحة فقط شيطاناً مريداً، فما الذي حولها إلى حَمَل وديع ومخلوق طاهر وحكيمة رزان عاقلة موزونة؟

واستغرابهم ليس في محله بعد الذي عرفنا من العوامل التي غيرت شخصية امرأة العزيز.



ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب:

قال ابن القيم: هذا من تمام كلامها، والضمائر كلها في نسق واحد مما يشهد بأنه من كلامها، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر: ما علمنا عليه من سوء، أنا راودته عن نفسه، . . الخ، ثم اتصل بها: ذلك ليعلم. . فلا شيء يفصل الكلام من نظمه، ويضمر فيه قول لا دليل عليه.

فإن قيل: فما معنى قولها هذا؟

قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت ذلك. أي قولي هذا واقراري ببراءته: ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته وان خنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم اني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: وما أبريء نفسي، ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبريء نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة، أقرت بالحق واعتذرت عن محبوبها وختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه ان لم يرحم عبده والا فهو عرضة للشر فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى. وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرون بالرب سبحانه وبحقه، وان أشركوا معه غيره. ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: «واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين.»[1]

قال المنار: «وفيها وجه آخر وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب، فاستعصم فبقي عرض الزوج مصوناً، وشرفه محفوظاً، ولئن برأت يوسف من الاثم فما أبريء منه نفسي. .»[2]

(١) العلامة شمس الدين محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية: روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٣١٩ بيروت: دار الكتب العلمية والتفسير القيم لابن القيم كذلك ص ٣١٨.

(٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٣٢٣.



﴿وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾ الآية ٥٣:

ولست أدري أهي لا تبرىء نفسها عما مضى، فذلك أمر لا خلاف فيه، أم انها حتى بعد توبتها تقول هذا تواضعاً كما يقول كل مؤمن ملتزم انه لا يبرىء نفسه،

وان كان قولها عن الماضي فلست أرى له وجهاً فقد أثبتت على نفسها التهمة في الآية السابقة حين قالت أنا راودته عن نفسه، فكيف تعود هنا لتقول وما أبرىء نفسي،

كأني بها ـ والله أعلم ـ تريد أن تقول، إني قد أقلعت عن ذاك الماضي الأغبر، وتركت تلك النزوات السوداء، ومع هذا فإني مهما أبذل أبقى مقصرة في جنب ربي، وتبقى النفس الانسانية جموحةً أمارة بالسوء، الا نفساً زكاها الله تعالى مثلَ نفس هذا الطاهر العفيف يوسف، وكأنها بهذا الاستثناء تعود لتشهد له من جديد.

ثم تختم الآيةُ بقول امرأة العزيز: إن ربي غفور رحيم.

مما يدل على ثقة بالله وظن حسن به سبحانه، وايمان صادق، وتحول عميق.

وهذا الذي جعل بعض المفسرين الذين ذكرناهم في الآية السابقة جعلهم يستهجنون أن يكون هذا الكلام من قول امرأة العزيز، وليس قولهم مرضياً، فهل يوسف يقول انه لا يبرىء نفسه، وأن نفسه امارة بالسوء.. معاذ الله. ومعنى أمّارة شديدة الأمر، وكثيرة الأمر، ولقد خلق الله عز وجل النفس فيها شيء من الجموح والشموس حتى يبتلي الانسان بترويضها: قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها.. ومن أراد أن يلزم نفسه الجادة، فانه قادر بإذن الله، ومن لم يرد فلا يلومن الا نفسه، ولا يقولن إني قد خلقت هكذا تغلبني نفسي ولا طاقة لي بها.

لقد خَلَقنا الله قادرين على أنفسنا.

فلنبادر بفطامها عن غيها، ولنبادر بأخذها من خطامها، فهي كالحصان



الجامح اما أن تلقي بك أرضاً طريحاً، واما أن تقتحم حمى الناس وتسيء إليك وإليهم، وإما أن توردك موارد الهلكة. . واما أن تكون مركبك إلى الجنة ان زكيتها. .

والنفس كالطفل ان تتركه شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

﴿وما أبرىء نفسي:﴾

قال ابن القيم:

ان هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام، لوجوه:

١ ـ أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها: الآن حصحص الحق. . ومن جعله من قول يوسف فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه ما. والقول في مثل هذا لا يحذف، لئلا يوقع في اللبس. فإن غايته أن يحتمل الأمرين. فالكلام الاول أولى به قطعاً.

٢ ـ ان يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه بل كان في السجن لما تكلمت بقولها، والسياق صحيح صريح في ذلك.

فإنه لما أرسل إليه الملك يدعوه قال للرسول ارجع إلى ربك، فأرسل اليهن الملك وأحضرهن وسألهن فشهدن به ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يمكنهن الا قول الحق فقال النسوة: حاش لله ما علمنا عليه من سوء وقالت امرأة العزيز: «أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين.»[1]

---

(١) ابن القيم: روضة المحبين ص ٣٤٢ والتفسير القيم ص ٣١٧، وقد وجدت ان ابن القيم وقع في خطأ لا يتصور وقوعه من مثله اللهم الا أن يكون سهواً منه أو من النساخ، وذلك قوله في العبارة التي نقلنا منها أعلاه: فأرسل اليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته فشهدن ببراءته.

فظاهر من العبارة أنه يعني أن امرأة الملك كانت محققاً معها وقد يقول قائل: لم لم ترجع الضمير إلى العزيز؟ فأقول انه في السياق لم يرد له ذكر يرجع اليه الضمير.



وما أبريء نفسي

قال في التحرير والتنوير:

«ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية اقرارها فقالت: وما أبريء نفسي. وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة، فقالت: وما أبريء نفسي. أي ما أبريء نفسي من محاولة هذا الاثم لأن النفس أمّارة بالسوء، وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع.

وجملة ان النفس لأمّارة بالسوء تعليل لجملة وما أبريء نفسي - أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، لأن النفس كثيرة الأمر بالسوء.

والاستثناء في «الا ما رحم ربي» استثناء من عموم الازمان، أي أزمان وقوع السوء، بناء على أن أمر النفس به ينعث على ارتكابه في كل الاوقات الا وقت رحمة الله عبده، أي رحمته بأن يقيض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائلاً بينه وبين فعل السوء، كما جعل إباية يوسف عليه السلام من اجابتها حائلاً بينها وبين التورط في هذا الاثم، وذلك لطف من الله بهما.

ولذلك ذيلته بجملة «ان ربي غفور رحيم» ثناء على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده اذا أراد صرفه عن الذنب.»(١)

ويرى الاستاذ الخطيب أن هذا من قول يوسف إذ يقول:

«فهو يقول معتذراً من هذا الطلب أي أنه طلبه ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله منتهزاً غيبته واشتغاله بالحكم... ثم يعود يوسف إلى نفسه، فيذكر أنه هم بامرأة العزيز، بعد أن همت به يذكر يوسف هذا فيعترف على نفسه بهذا الهم الذي كان منه.. وأن النفس من شأنها أن تميل مع الهوى...»(٢)

---

(١) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٥ - ٦.

قال الشيخ شلبي: ان الكلام من قول يوسف لما ظهرت براءته أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكياً أو بها معجباً ومفتخراً.. ص ١٠٣ ولا وجه لقوله ولا يقوم على ساق ولا قدم لما بيناه. وفات الشيخ أن لكل مقام مقالاً.. فمقام اثبات البراءة ليس مقام اتهام الذات.

(٢) قصتا آدم ويوسف ص ١٠٤ والقصص القرآني ص ٤٥٣ - ٤٥٤.



وهذا من غرائب الاستاذ فكيف يطلب التحقيق في الموضوع وهو مذنب كالمرأة تماماً. . ثم كيف يتناقض مع نفسه اذ يقول انه لم يخن سيده. . ثم يتذكر أنه خانه؟ ما هذا الاغراب يا أستاذ؟ ولماذا؟

يرى الاستاذ حسن باجودة أن قوله تعالى: وما أبريء نفسي انما قاله يوسف، فقد قال تحت عنوان دروس قصة يوسف: الدرس ٢١ وهو الدرس الأخير: شكر لله وتواضع:

بعد أن ثبتت براءة يوسف عليه السلام كان كلامه شكراً لله وتواضعاً، قال تعالى على لسانه: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبريء نفسي. . .﴾[1].

***

﴿وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ الآية ٥٤.

لا تزال أسهم يوسف ترتفع في نظر الملك مرة بعد مرة وفي موقف بعد موقف، أولاً بتفسير رؤياه، وثانياً برفضه الخروج، وثالثاً بهذه الشهادة التي أدانت بها النسوة أنفسَهنّ وشهدن له شهادة ما قيلت في أحد من العالمين، والآن موقف رابع جديد أهم من كل ما سبق أن يجلس إلى يوسف مباشرة ويستمع إلى هذا المنطق السديد، والفكر الثاقب الخصيب. .

ويرسل الملك بعد سماع هذه الشهادة رسوله مرة ثانية إلى يوسف لا ليأتيه به فقط، وإنما ليستخلصه لنفسه وليقتطعه من بين الناس ليكون مستشاره والعقل المفكر إلى جواره، فأحرى بمثل هذا العقل والخلق أن يكون صاحبهما أقرب المقربين إلى الملك.

وإن هذا الموقف من الملك ليدل على خلق نبيل عند الملك أيضاً، فإنه لا يعجب بالامانة الا أمين ولا بالرجولة الا رجل ولا بالشجاعة الا شجاع ولو كان ذا

(١) الوحدة الموضوعية ص ٥١٠ ط ٢ جدة: تهامة للنشر سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.



نفس أنانية صغيرة لحسد يوسف ولخشي أن تغطي شخصيته على شخصيته ولكان أبعده، وخسر طاقة ضخمة تستطيع أن تقود سفينة أمة إلى بر السلامة.

لكن هذا الموقف بجوار أنه شهادة ليوسف فهو شهادة للملك نفسه.

فلما جاء يوسفُ الآن بعد أن لم يعد مانع يمنع من خروجه، ولن تشير إليه الاصابع والعيون الآن همزاً ولمزاً وغمزاً، ولن تطلق من حوله الشائعات، بعد أن أعلن على الملأ نقاء صفحته يستطيع الآن أن يخرج مرفوع الرأس.. فان تسلّم مركزاً تسلمه بهذا الرصيد من الثقة الشعبية، وبهذا الرصيد من الاخلاقية.

وان الرصيد الاخلاقي للمسؤول من أهم عوامل نجاحه ومن قرأ كتابات كبار العسكريين الغربيين مثل مونتجمري يجد أنه يقول ان من أهم أسباب نجاح القائد العسكري السمعة الاخلاقية الطيبة، والرصيد الايماني..

أولسنا أحرى بهذا الكلام من مونتجمري...[١]

ومعنى مكين أمين: ممكن لك في الأرض، مسلّم من السلطات، ومخوّل من الصلاحيات ما يجعلُك على نفوذ وتمكن.

ومن هذا الوادي قوله تعالى: ﴿وليمكنن لهم دينَهم الذي ارتضى لهم﴾ «ونمكنَ لهم في الارض.» اشارة إلى قوم موسى.

وأما أمين فمؤتمن غير مخوّن ولا رقابة عليك ولا متابع ولا معقب لما تقول..

إن الملك يعرض جزاءً وجائزة على يوسف اكراماً لكل الذي بدر منه وتكفيراً عن كل الحيف الذي لحق به...

إنه يعرض عليه المركز والنفوذ، ولم يطلب يوسف المركز ولا النفوذ.

«لما اتضحت للملك طهارة فعله ونزاهة حاله استحضره لاستصفائه

(١) يقول في كتابه السبيل إلى القيادة: انني لا أدري كيف يستطيع امرؤ أن يكون قائداً، ان لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات. وانه ان لم تكن حياته فوق الشبهات لم يحترمه الذين يقودهم، ويسحبون ثقتهم منه. واذا ما حدث ذلك فستفقد قيادته تأثيرها. انني اعتقد أن الاستقامة في القضايا المعنوية الكبرى وفي الفضائل الدينية، أمر ضروري لنجاح القائد.



لنفسه، فلما كلّمه وسمع بيانه رفع محله ومكانه، وضمنه بره واحسانه، فقال: انك اليوم لدينا مكين أمين.»[1]

السين والتاء في استخلصه للمبالغة. والمعنى اجعله خالصاً لنفسي، أي خاصاً بي لا يشاركني فيه أحد. وهذا كناية عن شدة اتصاله به والعمل معه. وقد دل الملك على استحقاق يوسف عليه السلام تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه، وصبره على تحمل المشاق، وحسن خلقه، ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.

فلما كلم يوسف الملك أعجب الملك بما فيه من حكمة وادب قال ما قال، فجملة انك اليوم جواب لما.

والمكين: صفة مشبهة من مكن، بضم الكاف، إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

والامين: فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على شيء، أي موثوق به في حفظه.

وترتب هذا القول على تكليمه إياه دال على أن يوسف عليه السلام كلم الملك كلام حكيم أديب فلما رأى حسن منطقه وبلاغة قوله وأصالة رأيه رآه أهلاً لثقته وتقريبه منه.»[2]

قال في الظلال:

«لقد تبيّنت للملك براءة يوسف، وتبين له معها علمه في تفسير الرؤيا، وحكمته في طلب تمحيص أمر النسوة، وكذلك تبينت له كرامته وإباؤه، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن، ولا يتهافت على لقاء الملك. ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ويطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٩٠

(٢) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٧.



قبل أن يطلب الحظوة عند الملك.

كل أولئك أوقع في نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال: «ائتوني به أستخلصه لنفسي.»

فهو لا يأتي به من السجن ليطلق سراحه، ولا ليرى هذا الذي يفسر الرؤيا، ولا ليسمعه كلمة «الرضاء الملكي السامي» فيطير بها فرحاً.. كلا! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ويجعله بمكان المستشار والنجي والصديق..

فيا ليت رجالاً يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام، وهم أبرياء مطلقو السراح، فيضعوا النير في أعناقهم بأيديهم، ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الاصفياء.. يا ليت رجالاً من هؤلاء يقرأون هذا القرآن، ويقرأون قصة يوسف، ليعرفوا ان الكرامة والاباء والاعتزاز تدر من الربح، حتى المادي، أضعاف ما يدره التمرغ والتزلف والانحناء!»[1]

(١) في ظلال القرآن جـ ٥ ص ١٠ الطبعة السابعة، دار احياء التراث العربي.

آية ٥٥

﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾.

يرى كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام في هذه الآية يطلب الإمارة من الملك.

والذي أراه أن يوسف عليه السلام لم يطلب المنصب وإنما هو جاء إليه وعُرض عليه.. على حد قول ابي العتاهية:

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها.

وهذا الأليق بالنبي الكريم ألا يطلب شيئاً بل يأتيه.

والأليق بالمِلك أن يكرِم قبل أن يُطلب منه.

ورحم الله صاحب الظلال فقد أنشأ قضية من لا قضية حين تكلم عما أسماه فقه الأوراق وأجاب عن أسئلة تخطر بالبال: كيف رشّح يوسف نفسه وزكاها، وطلبَ المنصبَ، وطلبُ الولاية لا يجوز؟ واعتذر عن ذلك بأن المجتمع غير مسلم وهذه الأحكام إنما شرعت للمجتمع المسلم. -[1]

وكلامه طيب،

لكن لسنا نرى - أصلاً - أن يوسف طلب الولاية حتى نطرح القضية.

(١) أنظر الظلال حـ ٥ ص ١٢ وما بعدها ط/دار احياء التراث.

ولم يذلّ يوسف نفسه وانما بينّ مؤهلاته، كما تقدم الشهادات التي تحملها حين تتقدم لدائرة أعلنت عن وظيفة ما بمؤهلات ما، فتبرز مستنداتك، إن هذا ليس من تزكية النفس، إن الملك قد عرض عليه الوزارة، ويوسف عينّ الحقيبة الوزارية فقط. والذي أشرف عليه يوسف ما يمكن أن يوازي اليوم هذه الوزارات: التخطيط، التموين، الزراعة، المالية، الاقتصاد، العمل، الثروة الحيوانية ووزارة القوى البشرية. . والتربية والتعليم، والإعلام.

قال القشيري في لطائفه عن طلب يوسف الملك: «إنما سأل ذلك ليضع الحق موضعه، وليصل نصيب الفقراء إليهم، فطلب حق الله تعالى في ذلك، ولم يطلب نصيباً لنفسه. . »[1]

ولطيفة القشيري لطيفة مع ملاحظة أن يوسف عليه السلام لم يطلب المنصب وإنما المنصب تطلّب يوسف.

وأما المؤهلات لشغل هذا المركز الذي ندب نفسه لشغله فهي: الحفظ والعلم، وقد علمنا أن الحفظ يقابل الأمانة، والعلم يقابل القوة، كما في قصة موسى: ان خير من استأجرت القوي الأمين. والعلم قوة قطعاً والغربيون يقولون: Knowledge is power: المعرفة قوة. ونحن أحق بهذه الكلمة منهم.

وأما الحفظ أو الأمانة فصفة نفسية وهبية أخلاقية توفيقية. . وكسبية.

وأما العلم فصفة مكتسبة وخبرة إضافية. . «أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً» وأما في قصة طالوت فقد ذكر القرآن المؤهلات وأنها: البسطة في العلم والجسم: «إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم. » وذكرت بسطة الجسم في قصة طالوت لأنه بصَدَد قيادة عسكرية، وليس قيادة سياسية.

وإن الذي نذر يوسف نفسه له ليس طلب منصب ولا تزكية نفس، كما أكدنا قبل قليل، وإنما هو استعداد لحمل أعباء شعب، واستعداد لصلة الليل بالنهار جهداً ونصباً حتى يجتاز المحنة والأزمة.

(١) لطائف الإشارات جـ ٣ ص ١٩٠



مثله كمثل من ندبه الناس ليجتاز نهراً مغرقاً أو يطفيء ناراً محرقة، أو يقاتل عدواً شرساً، فقال: إني لها!، أهذا يزكي نفسه؟! إن التواضع في مثل هذه المنازل، وإخفاء الذات في مثل هذه المواطن.. من الجهل المميت.

ومنذ هذا المشهد لم يعد الملك يظهر على مسرح الأحداث، ولهذا دلالته، فكأن يوسف صار كل شيء في إدارة الدفة، وصار الملك مثل رؤساء بعض الدول التي كل الصلاحيات فيها لرئيس الوزراء.

قال في الظلال في معنى ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾:

«طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة التي أوّل بها رؤيا الملك، خيراً مما ينهض بها أحد في البلاد، وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحاً من الموت وبلاداً من الخراب، ومجتمعاً من الفتنة ـ فتنة الجوع ـ فكان قوياً في إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته.»

﴿إني حفيظ عليم﴾:

ثم قال في الظلال: «والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها.. وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدبِ على السواء.. ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها، وأن وراءها خيراً كبيراً لشعب مصر وللشعوب المجاورة».

ثم قال بعد استطراد طويل في موضوع نفيس سماه الكاتب: فقه الحركة وفقه الأوراق، ملخصه أن المجتمع المسلم لا ينشأ من فراغ ولا تنشئه الأحكام الفقهية، قال بعد ذلك:

«والسياق لا يثبت أن الملك وافق، فكأنما يقول: إن الطلب تضمن الموافقة، زيادة في تكريم يوسف، وإظهار مكانته عند الملك. فيكفي أن يقول ليجاب، بل يكون قوله هو الجواب.. ومن ثم يحذف رد الملك، ويدع القاريء يفهم أنه



أصبح في المكان الذي طلبه.»[1].

قال الأستاذ جودت سعيد في كتابه القيم: العمل قدرة وإرادة:

«وبما أنه عرض نفسه للقيام بخدمة، فقد قرن هذا العرض ـ وهو أن يجعل على خزائن الأرض ـ بمؤهلات من يناط به أمر الخدمة، وهما الحفظ والعلم. فالحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص، والعلم فيه جانب الصواب والكفاءة والاقتدار، وقد كان عليه السلام كذلك عند التطبيق العملي.»[2].

قال في فن القيادة: «على الرئيس أن يظهر تفوقه وامكاناته بكل مناسبة، فحقه في القيادة ناجم عن هذه الإمكانات..».[3]

ثم بيّن الأستاذ جودت سعيد أهمية اجتماع عنصري القدرة والإرادة أو الحفظ والعلم ـ في القيادة أو المرشح للقيادة ـ فقال: «ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى: **﴿أولي الأيدي والأبصار﴾**، فالأيدي تعني: القدرة المادية، والأبصار، تعني: العلم والفهم.

ومنه قوله تعالى: **﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾**، **﴿وإني عليه لقوي أمين.﴾** والقوة تعني القوة المادية، وقد تعني قوة الفهم، وقد تعنيهما معاً. وفي هذا أيضاً يقول الله تعالى: **﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾**. وقد جعل بسطة العلم مقابل بسطة الجسم ومقدماً عليه، وتبرز أهمية العلم على مر الزمن، والقوة المادية تعود تابعة لقوة العلم.»[4]

«إن الصفة المطلوبة من أجل أن يكون الفرد بها قادراً على أداء حقوق كل من له حقوق عليه هي الأمانة ـ وبذا فإن الصفة الأولى في الموارد البشرية الفاعلة هي الأمانة قال تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها.﴾** فما دامت

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٥ ص ١١، ص ٢٤، ص ٢٥ ط/دار احياء التراث.

(٢) العمل قدرة وإرادة ص ٣٣: أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع. دمشق: دار الثقافة للجميع ط ١ سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م

(٣) كورتوا: لمحات في فن القيادة ص ١٤ ترجمة هيثم أيوبي ط ٢ سنة ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٤) العمل قدرة وإرادة ص ٣١ ـ ص ٣٢



هناك حقوق أو أمانات يجب تأديتها إلى أصحابها، فلا بدّ من أن يكون من يؤديها أميناً، وكثيراً ما يطلق القرآن على من يطلب منه أداء الحق: الأمين، «إني لكم رسول أمين»، «نزل به الروحُ الأمين» والآيات كثيرة في هذا المجال.

ولذا لا بد أن تؤخذ هذه الصفة في الاعتبار في مجال الإدارة عند تطبيق سياسة الاختيار والتعيين كما تفيد الآية السابقة، وينطبق ذلك على جميع المستويات في المنشأة والقطاع والمجتمع.»(١)

* * *

ولكن من أين ليوسف عليه السلام الخبرة بشؤون مصر وإداريات مصر وأحوال مصر؟

«كان يوسف قد خبر شؤون البلاد ونُظُمها، وطرائق عيشها وأساليب أهلها فيها. وذلك بحكم إقامته بها في خدمة العزيز مدبراً أمور بيته محتملاً ما يسند إليه من وظائف وأعباء، وكان في أثناء ذلك، وهو الغريب النازح يدرس ما يجري أمام عينيه فاحصاً متأملاً مستقصياً أمور البلاد والعباد، متعرفاً ما يتّبعون من عادة، مستمعاً إلى ما يروون من عيون الأخبار، ومن تاريخهم، وتاريخ ملوكهم وحكامهم، وكانوا بالرواية والتاريخ شغوفين.

وخرج من السجن ليتولى في الدولة منصباً من أكبر مناصبها وأشدها في ذلك الزمان خطراً...»(٢).

* * *

ويقارن المرحوم الأستاذ البهي الخولي بين طلب يوسف عليه السلام للملك وطلب سليمان عليه السلام.. ثم يبين جواز طلب الملك من البشر. على أن يكون صادراً عن رغبة في الله لا غير.

ثم يقول عن موقف يوسف في طلبه الملك من البشر: «انك لا ترى إلا العزة

(١) د. جمال عبده: تنمية الموارد البشرية ص ٢٦٠.

(٢) مصر في القرآن والسنة ص ٦٣ ـ ص ٦٤



الكاملة في الطلب، عزة من يطلب لغيره لا لنفسه، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب والإنقاذ من خطر يوشك أن ينزل، وان روح العزة ليطالعك في صيغة الأمر من قوله عليه السلام: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ بينما يتأدب سليمان مع الله في الطلب: «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي.»

ولعل لنا في قصةيوسف عليه السلام درساً يعلمنا الدستور الذي تطلب به الوظائف والمناصب، فهي تطلب بالعزة لا بالذلة، وتطلب لأداء واجب وسداد ثغرة، لا حشراً بدون موجب؛ وإسرافاً في المال العام، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء.

ألا تراه عليه السلام يقول إثباتاً لكفاءته في غير زهو طبعاً: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾.

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك، فدفع الله به شدة عن الناس، وكشف غماً وكروباً كثيرة، فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة.. أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يعْلق الترف بذرّة من قلبه، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان: «رب قد آتيتني من الملك...»[1]

* * *

وفي بيان كون هاتين الخصلتين: الحفظ والعلم جامعتين للمؤهلات الكفيلة بنجاح من يتصدى لأمانة المسؤولية قال ابن عاشور: «هذه صيغة جامعة لكل ما يحتاج إليه ولي الأمر من الخصال، لأن المكانة تقتضي العلم والقدرة، إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل مايبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يؤثر الأفعال الصالحة، ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق الى أهلها.

(١) البهي الخولي: تذكرة الدعاة ص ٢٤٤ ـ ص ٢٤٥، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ط٣ ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، دار القرآن الكريم ـ بيروت.



وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه ـ من الملك ـ تعريض بأنه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأنه يقترح عليه ما يرجو من خير، فلذلك أجابه بقوله: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض**﴾ وجملة: قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ حكاية جوابه لكلام الملك.

«على»: للإستعلاء المجازي، وهو التصرف والتمكن، أي اجعلني متصرفاً في خزائن الأرض.

واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عرضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالها.

وعلل طلبه ذلك بقوله: ﴿**إني حفيظ عليم**﴾ المفيد تعليل ما قبلها لوقوع «إنَّ» في صدر الجملة، فانه علم أنه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بل كلتيهما، وهما: الحفظ لما يلي، والعلم بتدبير ما يتولاه، ليعلم الملك أن مكانته لديه، وائتمانه إياه قد صادفا محلهما وأهلهما، وأنه حقيق بهما لأنه متصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة.

وشبه ابن عطية بمقام يوسف عليه السلام هذا مقام أبي بكر رضي الله عنه في دخوله في الخلافة مع نهيه المستشير له من الأنصار من أن يتأمر على اثنين. قلت: وهو تشبيه رشيق، إذ كلاهما صدّيق.

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره، لأن ذلك من النصح للأمة، وخاصة إذا لم يكن ممن يتهم على ايثار منفعة نفسه على مصلحة الأمة. وقد علم يوسف عليه السلام أنه أفضل الناس هنالك لأنه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فلا يعارض هذا ما جاء في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها.» لأن عبد الرحمن بن سمرة لم يكن منفرداً

بالفضل من بين أمثاله، ولا راجحاً على جميعهم.

قال عياض في كتاب الإمارة من شرح صحيح مسلم ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة.[1]

آية ٥٦ و٥٧

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾.

﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولا نحتاج أن نعيد القول في «كذلك»، فقد قلنا مراراً ما تعني، وقد كثرت في هذه السورة لتدل على صنيع الله تعالى بعبده يوسف، فكل مرات «وكذلك» الواردة في هذه السورة تقريباً هي في حق يوسف.

والتمكين في الأرض أعم من التمكين السابق في بيت العزيز، لقد صارت صلاحياته الآن تستغرق القطر المصري كله، وتشمل الديار المصرية برمتها، والمقدرات المصرية جميعاً. وإن يوسف لما لم يجعل للشهوات على نفسه تمكناً مكّنه الله من ملك مصر.

لقد أخذ القوس باريها، فلتقري يا مصر عيناً..

أما قوله تعالى: ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ فيُشير إلى تقلبه فيها معززاً، ويُشير إلى متابعته الأحوال المصرية على الطبيعة، والزيارات الميدانية للأقاليم، لأنا بالتجربة البشرية نرى وبالمشاهدة ندرك، أنه لا تنفع خطة ليس وراءها متابعة ولا شخصية متابِعة.

ومركزية القيادة شيء والمتابعة شيء آخر.

ثم هذه الإشارة إلى أن الذي يصنع الأحداث في الحقيقة هو الله عز وجل: «نصيب برحمتنا من نشاء»، وهذا هو التفسير الإيماني للأحداث: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء

(١) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ٨ ـ ص ١٠.



بيدك الخير انك على كل شيء قدير.» ـ آل عمران ـ ٢٦

«. . تربع يوسف على خزائن الأرض في مصر، وأصبح العزيز والأمير، وبلغ رسالة ربه، وآتاه الله من الملك وعلمه، فأصبح من بعد جده إسحق العليم، هو العليم. . وخطط في مصر للزراعة، والإنتاج، والتوزيع والتدبير، وضمن عدالة التوزيع، والكفاية بلا تقتير ولا تبذير، وطبق أعمق قواعد العلم وأيسرها لحفظ الحبوب من التسويس والتفريغ والتدمير، طوال خمسة عشر عاماً، فأنقذ العالم كله من الهلاك، مع الاحتفاظ بفائض كاف من الحبوب طوال ثمانية أعوام يصلح بعدها للانبات والإكثار والتثمير.»(١)

و«التبوؤ: اتخاذ المكان للبوء، أي الرجوع، فمعنى التبوؤ النزول والإقامة.

وقوله تعالى: ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر.

وجملة﴿نصيب برحمتنا من نشاء.﴾، تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف عليه السلام من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطي من النعم جزاء لها ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي، وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن الإيمان حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان.»(٢)

ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون.

يعلق القرآن الكريم على الذي أصاب يوسف من فضل ورحمة وإحسان بأن الذي عند الله عز وجل من أجر في الدار الآخرة خير وأعظم له ولكل مؤمن بالله. .

---

(١) د. محمد بن فتح الله بدران: الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ص ٣٨٤ ط، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٦٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٠ ـ ص ١١.



وإبراز قيمة الآخرة على الدنيا مهما أوتي الإنسان في هذه الدنيا من أعطيات ودرجات، هذا الإبراز حفل به القرآن الكريم في عهديه المكي والمدني، لأنه من القيم الثابتة البارزة في القرآن.

آية ٥٨

﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾.

إن الله الذي يمسك بأزمّة الأمور وأعنّتها يريد أن تمشي الأمور في المسار الذي قدّر ليظهر عبدُه الفاضلُ يوسفُ على اخوانه، وليظهر من خلال هؤلاء الأشخاص قيمة الفضيلة والخير والإحسان وكيف أنها سيظهرها الله تعالى ويعلي أصحابها.

من هنا كانت تلك الأزمة الاقتصادية، وذلك القحط ليجيء إخوة يوسف مرغمين إلى مصر يبحثون عن الطعام ذاهلين غافلين عن أخيهم حتى بعد أن رأوه لم تحرك رؤيته فيهم أي احتمال بأنه ربما كان أخاهم.

أقول جاء الله بهم ليربيهم وليظهر نعمة الله على عباده المؤمنين، وليظهر لذلك الجيل وكل قبيل يأتي من بعد، **ان الله** سبحانه هو المتصرف بخلقه وبكونه ولا ينازع سلطانه ولا قدره وتدبيره أحد.

وجاء إخوة يوسف.

ودونما حاجة إلى شرح ومقدمات عن أحوال البلاد المجاورة لمصر، علمنا فور رؤيتنا لهؤلاء الإخوة أن فاقة أتت بهم، وجائحة نزلت ببلادهم، وأرزاقهم في فلسطين.

وإن جلوس يوسف للناس ليعني أكثر من مسألة، منها أنه يتابع في مصر كل الأمور، وخاصة ما يتعلق بضرورات الناس الحياتية وعدالة توزيع معايشهم.(١)

---

(١) قال كورتوا في فن القيادة: على الرئيس أن يكون حاضراً في كل زمان ومكان، فالحضور ميزة لا تعادلها ميزة. ص ٢١.



وثانياً فتحَ أبوابه للناس حتى يتمكن كـل أحد من الـوصول إليـه والدخـول عليه.

ثـالثاً لعله بتعليم الله لـه علم أن إخوتـه سيجيئون بحثـاً عن الطعـام، فهو جالس يتفقد كل قافلة ينتظر أن يرى إخوانه.

وأما معرفته لهم فطبيعية، فهم لم يتغيروا كثيراً لكن هو لأنـه فارقهم صغيـراً فقـد طرأ عليـه تغير كبـير، ثم إنه لا يخـطر ببال أحـد أن يكون الـذي فارق أهله طـريداً قـد أصبح عـزيزاً عـلى مصر، أمّا شَبَـه الصورة فـإن في الحيـاة مـوافقـات ومفارقات لا يعد هذا التشابه بالنسبة لها شيئاً كبيراً.

«. . ودخولهم عليه يدل على أنه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأن بها حياة الأمة.

فعرفهم: عرف يوسف إخوتـه بعد مضي السنـين، وهم له منكـرون. وقع الإخبار عنهم بالجملة الاسمية للدلالة على أن عدم معرفتهم بـه أمر ثـابت متمكن فيهم، وكان الإخبار عن معرفته إياهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد للدلالة عـلى أن معرفته إياهم حصلت بحدثان رؤيته إياهم دون توسم وتأمل.

وقرن مفعول منكرون الذي هو ضمير يوسف عليه السلام بلام التقـوية ولم يقل وهم منكرونه لزيادة تقوية جهلهم بمعرفته.

وتقديم المجرور بلام التقوية في له منكرون للاهتـمام بتعلق نكرتهم إيـاه. . مـع أن شـمائـل يـوسف ليست ممـا شـأنـه أن يجهـل وينسى، ليقضي الله أمــراً. . والجهاز، بفتح الجيم وكسرهـا، ما يحتـاج إليه المسـافر، وأوّلـه ما سـافر لأجله من الأحمال. والتجهيز: إعطاء الجهاز.»[1]

---

(١) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ١٢.



«. . ودارت عجلة الزمن. وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء. فلم يذكر كيف كان الخصب، وكيف زرع الناس. وكيف أدار يوسف جهاز الدولة وكيف نظم ودبر وادخر. كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله: ﴿إني حفيظ عليم﴾.

وكذلك لم يذكر مقدم سني الجدب، وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاقت الأرزاق. . لأن هذا كله ملحوظ في رؤيا الملك وتأويلها:

كذلك لم يبرز السياق الملك، ولا أحداً من رجاله بعد ذلك في السورة كلها. كأن الأمر كله قد صار ليوسف الذي اضطلع بالعبء في الأزمة الخانقة الرهيبة. . وأبرز يوسف وحده على مسرح الأحداث، وسلط عليه كل الأضواء، وهذه حقيقة واقعية استخدمها السياق استخداماً فنياً كاملاً في الأداء.

أما فعل الجدبِ فقد أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف، يجيئون من البدو، من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر. ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر بتدبير يوسف منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها.

وفي الوقت ذاته تمضي قصة يوسف في مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهي سمة فنية تحقق هدفاً دينياً في السياق.

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان وما حولها، فاتجه اخوة يوسف فيمن يتجهون إلى مصر، وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات الثمان. ويدخلون على يوسف، وهم لا يعلمون، إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيراً. أمايوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذاك.

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه. فلا بد من دروس يتلقونها.[1]

---

(١) الظلال حـ ٥ ص ٢٦ ـ ص ٢٧



كيف لم يشتهر اسم يوسف في الآفاق ولم يصل إلى إخوته؟

الـذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن المصريـين قد سمـوا يوسف بـاسم من أسـماء البيئة المصرية المتداولة، ومن هنا لم يذكر ولم يشتهر بالتالي اسمه الأصلي. ومن هنـا لم يبلغ إخوانه اسمه ولم يعرفوه.

ولو كان بقي ينادى باسمه الأصلي لتداوله النـاس ولوصـل اسمه إلى البـلاد المجاورة. هذا احتمال.

واحتمال آخر للإجابة على هذا السؤال أن منصبه كان هو الـذي يذكـر دون أن يشتهر اسمه.

أو أن اسمه اشتهر لكن الإخوة لم يتوقعـوا أن يكون هـو يوسف الـذي رموه صغيراً في البئر، وهذا القول يقتضي أن الأسـماء في البيئتين تلتقي وهـذا يحتاج إلى دليل.

والذي يبدو راجحاً من بين هذه الاحتمالات، الأول وقد يقول هنا قائل لقد نـودي يوسف في أكـثر من مرة عـلى لسـان شخصيـات مصريـة بـاسم يـوسف.. فـالشاهـد قال لـه: يوسف أعـرض عن هذا.. والسـاقي قال لـه: يـوسف أيهـا الصـديق.. ونقول: لعله والله أعلم أن يكـون القرآن ذكـره باسمـه الأصلي وإن كان هو نودي بغير اسمه.. وليس في هذا أدنى ذرة من مخـالفة الحقيقـة، الشأن في ذلك كالأسماء التي نقلها لنا القرآن مثل موسى وعيسى وإبـراهيم ويعقوب ويحيى، هـل هي في لسان أصحـابها هكـذا: موسى، إنها في العـبرية مـوشيـه، وابـرام أو أبراهام، ويسوع، ويوحنـا، لكن القرآن عـرّبها وجعلهـا على أوزان العـرب، ولم تتغير الحقيقة شيئاً..

كما ننقل خـطاب شخص تكلم بالانكليـزية فنقـول صرح فلان عن مـدينة القـدس وقال كيت وكيت، مـع أنه لم يقـل القدس وإنمـا قال Jerusalem، فهـل نعتبر خالفنا الحقيقة حين لم نقل نحن أيضاً Jerusalem.. أبداً..



آية ٥٩ و٦٠

﴿ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين. فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾.

والجهاز ما يجهز به وهو هنا الطعام.

ولقد أسلفنا القول في ما تصورناه طريقة من يوسف في استدراج الإخوة واستنطاقهم ليصرحوا بتخليف أخ لهم من أبيهم وراءهم.

وأما إصراره هذا الإصرار على استقدامه فيستطيع أن يغلفه تغليفاً يبعد من نفوسهم أي اشتباه في أن هذا يوسف أو أن له نية مبيتة، كأن يقول لهم مثلاً، إن عدم إحضاركم لأخيكم من أبيكم مع أنكم جئتم جماعةً كبيرة يدل على أنكم تستأثرون بالخير دونه، وتضمرون الشر له، وما دمتم كذلك فلا كيل لكم عندي ولا تقربون، حتى تثبتوا حسن نواياكم من جهة أخيكم وذلك بإحضاره معكم في رحلتكم المقبلة.

وسبحان المنعم، فبينما كان يوسف قبل آيات يُطلب من قبل الملك بقوله: ائتوني به، نراه الآن هو يطلب بقوله: **﴿ائتوني بأخ لكم....﴾**

ثم هذا التطمين لإخوانه أنه ما كلمهم إلا بعد أن جهزهم بجهازهم، ثم طمأنة أخرى في قوله لهم: **﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾** أي لمن يأتيني. ثم جمع مع الترغيب والترحيب جمع التخويف والترهيب **﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾**.

وخطة يوسف كانت تقتضي أنه لا بد أن يحضر الشخص بنفسه حتى يصرف له حمل بعير، وذلك لتقنين الإنفاق والصرف، وربما كان هذا الصنيع عن خطة لاستقدام الأخ.

﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم..﴾

«وقوله هذا **﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم..﴾** يقتضي وقوع حديث منهم عن أن لهم أخاً من أبيهم لم يحضر معهم وإلا لكان إنباء يوسف عليه السلام لهم



بهذا يشعرهم أنه يكلمهم عارفاً بهم، وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم.

من أبيكم، حال من أخ لكم، أي أخوته من جهة أبيكم، وهذا من مفهوم الاقتصار الدال على عدم إرادة غيره، أي من أبيكم وليس من أمكم، أي ليس بشقيق.

والعدول عن أن يقال: ائتوني بأخيكم من أبيكم ، لأن المراد حكاية ما اشتمل عليه كلام يوسف عليه السلام من إظهار عدم معرفته بأخيهم إلا من ذكرهم إياه عنده، فعدل عن الإضافة المقتضية المعرفة إلى التنكير تنابها في التظاهر بجهله به.

ألا ترون أني أوفي الكيل:

ترغيب لهم في العود إليه، وقد علم أنهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم.

ودل قوله ﴿**وأنا خير المنزلين**﴾ على أنه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة. والمنزل: المضيف. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم. والكيل في الموضعين مراد منه المصدر. أي لا يكال لكم، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.[1]

«ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلاً طيباً. ونفهم من النص أنه تركهم يأنسون إليه، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل، وأن لهم أخاً أصغر، من أبيهم، لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه، فلما جهزهم بحاجات الرحلة قال لهم: إنه يريد أن يرى أخاهم هذا.

ثم قال لهم: وقد رأيتم أنني أوفي الكيل للمشترين فسأوفيكم نصيبكم حين يجيء معكم، ورأيتم أنني أكرم النزلاء، فلا خوف عليه بل سيلقى مني

---

(١) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ١٢ ـ ص ١٣



الإكرام المعهود.

ولما كانوا يعلمون كيف يعنى أبوهم بأخيهم الأصغر ـ وبخاصة بعد ذهاب يوسف ـ فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسوراً، وإنما في طريقه عقبات من ممانعة أبيهم، وأنهم سيحاولون إقناعه، مع توكيد عزمهم ـ على الرغم من هذه العقبات ـ على إحضاره معهم حين يعودون. [١]

ويتصور صاحب كتاب «نظرات في التفسير» استخراج خبر الأخ قد تم على النحو التالي: طَلَب الإخوة من يوسف «مقادير من الطعام أزيد من عددهم، فأخبروه أن لهم أباً وأخاً من أبيهم لم يحضر معهم، فلم يمنع منهم ما طلبوه من الطعام. ولما أعد لهم ما يحتاجون من زاد ومتاع فضلاً عما طلبوه من مقادير الطعام قال أحضروا معكم في المرة القادمة أخاً لكم من أبيكم ليكون دليل صدق لكم على طلب الزيادة له ولأبيكم فإن أحضرتموه كنتم صادقين، وجزاؤكم عندي أن أديم إحساني في نزلكم، فإن لم تحضروه معكم ليكون دليلاً على صدقكم فيكون جزاؤكم أن أمنع الكيل عنكم مستقبلاً ولا أسمح بصرف اي مقدار لكم بعد هذه المرة..»[٢]

قال الدكتور باجودة في الوحدة الموضوعية معلقاً على قول يوسف: بأخ لكم:

«وتأمل صيغة تنكير لفظة «أخ» التي تعمدها الألمعي يوسف، أنه لم يأت بها معرّفة، فلم يأت على لسانه مثلاً: قال **ائتوني بأخيكم من أبيكم** فإن التنكير في هذه الحال أبلغ، لأنه يدل على أنه ليس هناك شيء من علم عند العزيز بأخيهم من أبيهم. وهذا مسعف للهدف الذي يرمي إليه يوسف من عدم الكشف عن شخصيته لإخوته، بينما التعريف بطبيعته يوهم بشيء من العهد بين المتكلم والمخاطب.

---

(١) الظلال جـ ٥ ص ٢٧

(٢) يوسف عليه السلام ص ١٠٩ ـ ص ١١٠



وكما قال أبو حيان: «فالتعريف يفيد نوع عهد بينك وبين المخاطب، والتنكير لا عهد فيه البتة.»[1]

آية ٦١

﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾.

إن لهم في المراودة مع أبيهم خبرة مضى عليها الآن أعوامٌ وأعوام، وإنَّ تجرُّعَ الموت أسهلُ عليهم من أن يعودوا لتلك الخبرة، ولكنّ الأمر يتعلق بحياة أولادهم وأسرهم.. ومن هنا وجدوا أنفسهم مضطرين للوقوف أمام أبيهم.. وختام الآية تأكيد أنهم سيفعلون: ﴿وإنا لفاعلون﴾، اما شعوراً منهم بأهمية ذلك لهم، أو دفاعاً عن أنفسهم أمام العزيز.

قال الأستاذ كحيل في معنى الآية:

«قال إخوة يوسف له: سنتحايل على أبيه ونخادعه لننزعه منه، لأنه يعز عليه فراقه، وانا لباذلون الجهد مع أبينا حتى نحضر أخانا معنا تلبية لرغبتك، ودليلاً على صدقنا معك»[2].

قولهم سنراود «وعْد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى سنراود عنه أباه: سنحاول أن لا يشح به.

وجملة وإنا لفاعلون عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، فهو فعل ما أمرهم به، وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد.[3]»

آية ٦٢:

﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون﴾.

---

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ص ١٨٦ - ص ١٨٧، وارجع إلى البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٢٦

(٢) يوسف عليه السلام ص ١١٠

(٣) التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٤



قال القشيري: «جعل بضاعتهم في رحالهم - في باب الكرم - أتم من أنه لو وهبها لهم جهراً.»[1]

هذا تدبير من يوسف سيكون له أثر كبير.. وكما رسم خطة بعيدة الأجل لإنقاذ مصر، فهُو بصدد رسم خطة بعيدة أيضاً لاستقدام أخيه من فلسطين واستنقاذه من المأْسَدَة، ومن هذا الوسط. والحلقة الأولى في مخططه الذي خطط شرحتها الآية السابقة، والحلقة الثانية ما تشرحه هذه الآية. فما الذي فعله بالضبط؟ لقد وضع الثمن الذي جاء به الأخوة حين جاءوا مصر، وضعه دون علمهم في رحال إخوانه، فيكونون قد امتاروا ورجعوا بالطعام مجاناً دون مقابل.. وفي هذا إغراء لهم بالعودة وتشجيع لهم عليها. ولعله خشي أن كلامه معهم: فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون.. خشي أن يكون قد قطع الحماس للعودة في نفوسهم، فأراد أن يقدم لهم ما يعيد رغبة العودة الذي كان في نفوسهم إلى نفوسهم عن طريق هذه اللفتة الكريمة.

وقوله ﴿لعلهم يعرفونها﴾. ما الذي يعنيه؟ يعرفون ماذا؟ أيعرفون بضاعتهم؟ بالطبع لا.. ولكن يعرفون هذه الإشارة والالغاز مني فيعرفون أني لا أضمر لهم شراً فيتشجعون على المجيء إلي.. إني أريدهم أن يعودوا. وقريب مما قلنا قال صاحب نظرات في التفسير: «ليتذكروا إحساننا إليهم وإكرامنا لهم فيحفزهم هذا على رجوعهم إلينا لأخذ ما يحتاجون من طعام.»[2]

ولعل قوله ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون﴾ من الكلام النفسي الذي لم يتفوه به، فهذا التعليل لأفعاله لا يحتاج أن يقدمه لفتيانه.. وربما كان من الكلام المسموع ولست أرجحه. والقرآن يطلق على الكلام النفسي، والكلام المصرّح به بل وعلى العمل يطلق على كل ذلك: «قال».

ومن الكلام النفسي قول يوسف بعد قليل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً. ومن الفعل قول بني إسرائيل سمعنا وعصينا، إن

(١) اللطائف جـ ٣ ص ١٩٢

(٢) ص ١١١ نظرات في التفسير



بني إسرائيل أجبن من أن يجاهروا بالعصيان ولكن معرفتنا بأخلاقهم تجعلنا نقول أنهم قالوا بأعمالهم ولسان حالهم. . كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿**فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم**﴾ بعد قوله لهم ﴿**ادخلوا الباب سجداً**﴾ فدخلوا زحفاً. . فهم بدلوا عملاً وفعلاً.

وما أشبه حال يوسف بحال والدٍ مع أولاده في البيت، يرتكب ابنه مخالفة تزعج الوالد، فيتهدده ويشدد عليه، ثم يرسل مع والدة الولد قطعة حلوى تفهمه أنه يحبه، وأن هذا الزجر ليس لأنه يكرهه بل لأنه يريد مصلحته. . إنه يريد أن يكون حازماً. . ولا يريد أن يميّع الموقف في نفس الوقت.

«والفتى: من كان في مبدأ الشباب، ويطلق على الخادم تلطفاً.

والبضاعة: المال أو المتاع المعد للتجارة.

والرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب، ولذا سمي البعير راحلة. لعلهم يعرفونها أي يعرفون أنها وضعت هنالك قصداً عطية من عزيز مصر.

لعلهم يرجعون: جواب للأمر في قوله اجعلوا بضاعتهم في رحالهم، لأنه لما أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا بها الميرة لأنه رأى مخايل الفقر عليهم.»(1)

﴿**لعلهم يعرفونها**﴾

قال الطوسي في معناها:

«وإنما جعل بضاعتهم في رحالهم ليقوي دواعيهم في الرجوع إليه إذا رأوا إكرامه إياهم، ورد بضاعتهم إليهم مع جدوب الزمان وشدته.

ويجوز أن يكون جعلها في رحالهم ليرجعوا إليه متعرفين عن سبب ردها.

وقال قوم معناه: ليعلموا أني لست أطلب أخاهم للرغبة في مالهم.

وانما قال «لعل» لأنه جوز أن تشتبه عليهم. . (2)

(1) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ١٤ - ص ١٥

(2) التبيان حـ ٦ ص ١٦٢





آية ٦٣

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾.

تطوي الآية الزمن والمسافة وتسقط التفصيلات التي ليس وراءها فائدة وتنقلنا مباشرة من مصر إلى فلسطين، ومن مواجهة يوسف إلى مواجهة يعقوب عليهما السلام..

وانظر وتأمل أنهم بدأوا أباهم من حين عودتهم والحديد ساخن، بدأوه بإخباره الخبر الذي عندهم من منع الكيل، ولقد أخبروا بالخبر قبل أن يفتحوا متاعهم من شدة اهتمامهم بإيصال الخبر..

ولاحظ الصيغة التي أخرجوا بها الكلام.. ان القرآن ببعض الإشارات اللغوية يحلل نفسيات شخصيات قصصه، وبشيء من التقديم والتأخير وشيء من الحروف يستطيع وهو كلام الخبير أن يصور لك العالم النفسي أدق تصوير، ويأتيك به منكشفاً أتم انكشاف.. ظاهراً كل الظهور.

أقول لاحظ الصيغة كيف جاءت باتّة قاطعة: منع منا الكيل، ولم يخرجوا الكلام بصورة جواب شرط متأخر مثلاً: إن لم ترسل معنا أخانا فسيمنع منا الكيل بعد هذه المرة.. إن الكلام الأخير يدل على نفس هادئة تنقل قضيتها في بحبوحة وسعة.. ولكن كلام القرآن يصور نفوساً حرّى تتلظى بين نارين.. نار عدم القدرة على العودة إلى مصر إلا بأخيهم.. ونار نبش الماضي بطلب أخيهم من والدهم. أرأيت كيف نقل لك القرآن الكريم العالم النفسي في كلمات.. ولو غَيْر القرآن ينقل لنا هذه القصة لاحتاجت إلى مجلدات.. وما كانت وفت ولا أغنت.. وهيهات.. ثم لاحظ «فلما» وهي في النصف الثاني من السورة متكررة تكاد لا تخطئها عينك في كل بضعة أسطر، وهي تفيد التحديد الزمني الذي يشير إلى انتهاء ما قبله وابتداء ما بعده.. في أول لحظات هذا الابتداء، مثل: فأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم: فلما جاء السحرة قالوا.. فهم في أول لحظة وصولهم بعد أن انتهى تجميعهم من الأقاليم قالوا. وهنا، بعد وصول

الأخوة كان أول عملٍ مواجهة أبيهم.. فلما رجعوا قالوا.. أي أول شيء فعلوه بعد الرجوع.

لكن الذي نكأ الجرح قولهم: ﴿وإنا له لحافظون﴾.. نفسُ الألفاظ التي تعهدوا بها أمام أبيهم عندما أخذوا يوسف..

﴿منع منا الكيل﴾ «أخبروه بأن الكيل منع منهم فعلاً، وقصدهم بذلك انه سيمنع منهم مستقبلاً إن لم يأخذوا أخاهم معهم، وهذا مبالغة منهم في أمر المنع الموعود به، وتهويل لشأنه، ليخادعوا أباهم ويحتالوا عليه بهذا التهويل، فيتأثر بما أخبروه به؛ ويسهل عليهم ذهاب أخيهم معهم.»(1)

ولسنا نوافق الكاتب الفاضل قوله ليخادعوا، لأنهم ليسوا بهذا الصدد.

﴿منع منا الكيل﴾: حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأن رجوعهم بالطعام المعبر عنه بالجهاز قرينة أن المنع من الكيل يقع في المستقبل. أي منع منا ذلك إلا إذا وفينا بما وعدنا من إحضار أخينا. ولذلك صح تفريع «فأرسل معنا أخانا» عليه، فصار تقدير الكلام: منعنا من أن نطلب الكيل إلا إذا حضر معنا أخونا، وجملة وانا له لحافظون عطف على جملة فأرسل. وأكدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.»(2)

ويرى صاحب الظلال أن يوسف عزيز مصر منع إخوته من الكيل، وأن صيغة منع منا الكيل تعني المنع في الماضي، وهذا ما لا يتصور لعدة وجوه: منها رحمة يوسف بأهله وإخوته وهذا يجعله لا يعيدهم محرومين وهو يعلم حاجتهم وحاجة أولادهم وحاجة والديه.

ومنها كذلك أن الأخوة لا يمكن أن يكونوا قد حمّلوا بضاعتهم ولم يحملوا قمحاً وهم يظنون أنهم يحملون قمحاً حتى فتحوا متاعهم ليجدوا بضاعتهم فقط هي التي على ظهور جمالهم أو رحالهم. هذا ما لا يتصور.

---

(1) نظرات في التفسير ص ١١٣

(2) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ١٥ ـ ص ١٦



وكذلك قول يوسف لهم: ﴿ألا تـرون أني أوفي الكيل﴾، فكيف يـرون أنه يوفي الكيل وهم قد عادوا صفر اليدين؟!

وهل من الانزال الطيب الخيّر أن يعودوا خالي الوفاض؟!

خلاصة القول أن قولهم: منع منا الكيل، هذا للمستقبل، ولكنهم أخرجـوه بصيغة الماضي ليؤكدوا المنع لأبيهم.

يقول صاحب الظلال:

«وبعد الاستقرار من المشوار، والراحة من السفر فتحـوا أوعيتهم ليخرجـوا مـا فيها من غـلال. فإذا هم يجـدون فيها بضـاعتهـم التي ذهبوا يشـترون بهـا، ولم يجدوا في رحالهم غلالا.

إن يوسف لم يعطهم قمحاً، إنما وضع لهم بضاعتهم في رحـالهم. فلما عادوا قالوا: يا أبانـا منع منا الكيـل، وفتحوا رحـالهم فوجـدوا بضاعتهم. وكـان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم، وكان هذا بعض الدرس الذي عليهم أن يأخذوه.

على أية حال لقد اتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليـلاً على أنهم غـير باغـين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين». [1]

«قرأ «يكتل» بالياء حمزة والكسائي. والباقون بالنون.

والاكتيال هو الكيل للنفس، وهو افتعال من الكيل.

منع منا الكيل أي إن لم نأت بأخينا.

وقـال قوم: معنـاه أنه لمـا كال لهم كـال لكل واحـد كيل بعـير ومنعهم تمام الكيل الذي أرادوه.» [2] أي كأنهم طلبوا لأخيهم فمنعوا.. هكذا يفهم من قـول الطوسي.. وليس هو الظاهر.

---

(١) في ظلال القرآن حـ ٥ ص ٢٩

(٢) التبيان حـ ٦ ص ١٦٣



آية ٦٤

﴿قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

ولقد جاء الرد من أبيهم ساخناً متوقعاً على شكل استفهام استهجاني تعجبي، ولم يقل لهم هل سيكون فعلكم معه إلا كفعلكم مع أخيه من قبل، ولكن هو ينفي ما قبل هذا، انه ينفي الخطوة الأولى أصلاً: **﴿هل آمنكم..﴾** إن الائتمان غير وارد، وبالتالي الاقتدار على الفعل غير وارد من باب أولى.

وإن لكلماته لوقع السياط على ظهورهم، وهم لذلك أهل.. والذي يعذبهم أكثر أنهم الآن صادقون ولا يستطيعون إقناع أبيهم بصدقهم، مثلهم كمثل الذي كذب مرة حين أخبر عن ذئب عدا على غنمه، فلما عدا الذئب حقيقة فاستصرخ الناسَ لم يصدقوه.

وقول يعقوب **﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾**، هل يعني أنه يريد أن يقول: ان ارسله معكم فالله خير حافظاً، يهيأ والله اعلم أنه يريد أن يقول: فالله خير حافظاً لابني من مكائدكم هذا قبل الإرسال له معكم، اذ الإرسال غير وارد..

إن الله خير حافظ له ولست أنا الحافظ بحرصي وتدبيري ومنعي إياه، ولكن الله هو الذي يحفظه..

والله ربي أرحم بي من أن يفجعني بهذا الولد الثاني فجيعة أخرى.

وهذا الأمل لا يعني أنه إن وقعت مصيبة سيكون سخط أو اهتزاز للأمل أو للرضا.. معاذ الله.. فنحن نأمل أن يحفظ الله من نحبّ.. فإن وقع أي شيء غير الذي نأمل تلقيناه من ربنا بالرضا والقبول.. هذا شأن المؤمنين.

وتأمل أن يعقوب عليه السلام لم يقل: فالله خيرا من يرده إلي، لأنه حتى الآن ليس عازماً على إرساله.

فلما سمع الإخوة هذا الجواب تمنوا لو لم يتفوهوا بكلمة.. وانقلبوا إلى رحالهم يفتحونها..



(قال هل آمنكم): «جواب أبيهم كلام موجه يحتمل أن يكون معنـاه: إني آمنكم عليه كما أمنتكم على أخيه، وأن يكون معناه: ماذا أفاد ائتـمانكم على أخيـه من قبل حتى آمنكم عليه.

والاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم ﴿وإنا له لحـافظون﴾. والمقصـود من الجملة على احتـماليها هـو التفريـع الذي في قوله: ﴿فالله خير حـافظاً﴾، أي خـير حفظاً منكم، فـان حفظه الله سلم، وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه.»

ثم قال الشيخ ابن عاشور: «وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنه مـرسل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.»[1]

والظاهر أن الأمر بخلاف ما قال الشيخ، فعدم مراجعة الأولاد لأبيهم يشتم منه رائحة المنع من إرساله لا العكس.

ولكن عـاودهم الحماس للحـديث والطلب أنهم لمـا فتحوا متـاعهم ووجدوا البضاعة فتحوا الحديث مرة أخرى مما يوحي بما قلنا والله أعلم.

آية ٦٥

﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم. قالـوا يا أبـانا مـا نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾.

يـالدقـة تخطيط يـوسف عليه السـلام الـذي يصيب المحزّ والمفصـل وبؤرة الهدف. ويالدقة اللقطات القرآنية النفسية.. ودقة التصوير.

وإني لأتخيل الإخوة بعدما فتحوا المتاع ووجدوا بضاعتهم قد طاروا فرحاً.. ولا تنس ما قلناه لك عن فلما.. ولما.. من مسارعة..

وليست الفرحة بذات البضاعة فحسب، ولكن لما ترمز له من مودة العـزيز ودعوة للعودة إلى مصر، هذه الفرحة.

---

(١) التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٦



واقرأ الكلمات وغصْ في النفسيات وتصور انطلاق الإخوة وما دب فيهم من نشاط، وحماس وارتفاع معنويات . .

وقولهم: ما نبغي؟ أي ما الذي نريده أكثر. . ثم صاروا يعددون هذا الذي لا مزيد عليه ولا أكثر. . هذه بضاعتنا ردت إلينا، ونمير أهلنا: نمونهم بالمجان، ونحفظ أخانا: هذه التي تخرج من الصدر بصعوبة، لكنها في زحمة وسيل الكلمات الأخرى المتدفقة خرجت ولذلك جعلوها بين غيرها لتجيء في السياق لا أولاً ولا آخراً. . وان لها من أفواههم هذه المرة طعم الصدق. .

وإن ما اعتراهم من فرح الأطفال ليوحي فعلاً بالبراءة، وكثيراً ما يكون الحال وتقاطيع الوجه أقوى دليل في نفوسنا على صدق دعوى الذي يدعي . .

فلئن سألْنا أحد أبنائنا عن شيء فعله فنفى بحرارة وانهمرت الدموع من عينيه وجلس جانباً. . قطعنا فعلاً أنه بريء. . اللهم إلا إن كان تعلم التمثيل. . لكثرة ما يرى من المسلسلات. .

لقد قدموا من الإغراءات. . وأهم مما قدموه كلاماً حرارةُ الكلام. . وانها والله لأقوى من ذات الكلام. .

وكأني بهم قد أحاطوا بوالدهم جذلين مستبشرين جازمين بأنه مرسله معهم، وهم يتمنون لو افتر ثغر أبيهم عن ابتسامة أو ضمهم إلى صدره ونسي الماضي، وكأنهم يقولون: افعلها يا أبانا إنا والله لفي شوق إليها حتى تهدأ النار التي تمور في صدورنا.ولكن الجرح عميق. .

البَلاغة:

«أصل المتاع ما يتمتع به من العروض والثياب. وإطلاقه هنا من تسمية الشيء باسم الحالّ فيه.

وجملة قالوا يا أبانا مستأنفة استئنافاً بيانياً لترقب السامع مع أنه يعلم ماذا صدر منهم حين فجأهم وجدان بضاعتهم في ضمن متاعهم لأنها مفاجأة غريبة،

ولهذه النكتة لم يعطف بالفاء.

و«ما» في قوله «ما نبغي» يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، أي ماذا نطلب بعد هذا. ويجوز كون ما نافية، والمعنى واحد لأن الاستفهام الإنكاري في معْنى النفي.

وجملة هذه بضاعتنا ردت إلينا مبينة لجملة ما نبغي على الاحتمالين.

وجملة ونمير أهلنا معطوفة على جملة هذه بضاعتنا ردت إلينا، لأنها في قوة هذا ثمن ما نحتاجه من الميرة صار إلينا ونمير به أهلنا، أي نأتيهم بالميرة.

والميرة هي الطعام المجلوب.

وجملة ونحفظ أخانا معطوفة على جملة نمير أهلنا، لأن المير يقتضي ارتحالاً للجلب، وكانوا سألوا أباهم أن يكون أخوهم رفيقاً لهم في الارتحال المذكور، فكانت المناسبة بين جملة نمير أهلنا، وجملة ونحفظ أخانا لهذا الاعتبار، فذكروا ذلك تطمينا لخاطر أبيهم.

وجملة ونزداد كيل بعير زيادة في اظهار حرصهم على سلامة أخيهم لأن في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير، لأن يوسف عليه السلام لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عداد الأخوة. وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها.

وهذه الجمل مرتبة ترتيباً بديعاً لأن بعضها متولد عن بعض.[1]

قال الشيخ العلمي في مؤتمره لتفسير سورة يوسف:

«لما وقفوا على بضاعتهم، وجدوها تساعدهم على مطلوبهم، وتصدق كلامهم، فتقووا وتشجعوا في طلب أخيهم كرة أخرى، وظنوا أنهم بهذا السبب يستطيعون أن يتسلطوا على أفكار أبيهم ويقنعوه مبرهنين على صحة كلامهم بما يصدق قولهم .

(١) التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ١٧ ـ ص ١٨



فإرسال أخينا معنا أربح لنا وأجدى علينا، وما يكال لنا قليل لا يقوم بأودنا فنريد أن نضم إليه ما يكال لأخينا. .»[1]

ويفسر الأستاذ الفاضل عبد الحميد داود الآية على النفي لا على الاستفهام فيقول: ﴿يا أبانا ما نبغي﴾: ما نكذب فيما أخبرناك به.

ويفسر الكيل اليسير بقلة الطعام فيقول:

«ذلك الطعام الذي عدنا به من مصر هذه المرة كيل يسير قليل لا يكفينا، ونحن محتاجون إلى المزيد من الطعام، فلا بد من ذهابه معنا.»[2]

أما قوله الأول فإنه وإن يكن محتملاً إلا أنه غير المتبادر، والاستفهام أبلغ من النفي فيما أرى. . وأوقع. .

وأما تفسيره لليسير بالقليل، وهو تفسير الشيخ العلمي أيضاً، فلا أراه كذلك الأوْلى فهم لا يستقلون الطعام الذي رجعوا به، وليس السياق مناسباً لمثل هذا المعنى ولا الظرف الاقتصادي التمويني الذي هم فيه أيضاً، وإنما المعنى أن زيادة كيل بعير أمر يسير هين بذهاب أخينا معنا. .

آية ٦٦

﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتُنَّني به إلا ان يحاط بكم فلما اتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾.

ولم يقل يعقوب لهم سأرسله معكم شريطة أن تعطوني موثقاً، وإنما قال ﴿لن أرسله معكم حتى﴾. . وإنه لفرق هائل بين حالين ومقالين. . ان «لن» أوشكت أن تبخّر فرحتهم حتى سمعوا «حتى». وما الذي يطلبه ثمناً لرضاه وقبوله وموافقته، إنه مجرد موثق. . ولذلك سارعوا بإعطاء الموثق لا لأنهم يستخفّون به، ولكن لأنهم يعلمون من أنفسهم الصدق والبراءة. ما أجمل الحياة بالصدق والبساطة والعفوية والبراءة وعدم الضغن، وعدم طيّ الصدر على المشاعر

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف جـ ٢ ص ٩٦٧ ـ ٩٦٨.

(٢) يوسف عليه السلام ص ١١٤



السوداء! إن أي بقع سوداء على ملابسنا تؤذي مشاعرنا وتنغص يومنا حتى ننضو عنا هذا التشويه الذي لحقنا، أفلا ننتبه إلى بقع . . وأكثر، من الغل والضغن تفسد علينا مودّاتِنا وحياتنا وعلاقاتنا. ويبحث الناس عن السعادة! وهي منهم لا على مد البصر، ولكن مُلْتَقَطَ الأصابع ومد اليد. . فتناولوها أُسعدتم! ولا يفسدنّ بعضنا دنيا بعض. . إن في الأرض مراغماً كثيراً وسَعَة للجميع، فلا داعي للاحتكاكات والحزازات والحساسيات والمكر والكيد والخديعة والحسد والتقاطعات.

كلنا على هذه الأرض في ضيافة الكريم فلا تخطفن من أمام أخيك شيئاً خصه الله به، بل إن استطعت فخذ من أمامك لتضع أمامه. . يزدك الكريم. اللهم ربنا طهر قلوبنا من الغل والحقد والحسد والضغن على أحد من المسلمين والمؤمنين. .

وطهرنا من أدران الطمع والغش والأنانية والأثرة وكل ما يردينا ولا يرضيك عنا.

﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل. .﴾

عدنا إلى فلما. . وإنا سامعوها في السياق الكريم الحبيب مرات بعد الآن، فلما سمع أبوهم هذه المواثيق يقطعها الأخوة على أنفسهم مشهدين الله متخذينه وكيلاً وكفيلاً. . استبشر خيراً بفتح صفحة جديدة. . وقال: الله على ما نقول وكيل. . فهو الذي يقدر على الذي نعجز عنه نحن، فهو حسبنا ونعم الوكيل. .

البَلاغة:

﴿تؤتون موثقاً﴾: اشتهر الإيتاء والإعطاء وما يراد بهما في إنشاء الحلف ليطمئن المحلوف له بصدق الحالف.

كما أطلق فعل الأخذ على تلقي المحلوف له للحلف، قال تعالى: **﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾** و **﴿قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾**.



ولعل سبب إطلاق فعل الإعطاء أن الحالف كان في العصور القديمة يعطي للمحلوف له شيئاً تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه، أو أنهم كانوا يضعون عند صاحب الحق ضماناً يكون رهينة عنده. وكانت الحمالة طريقة للتوثق فشبه اليمين بالحمالة. وأثبت له الإعطاء والأخذ على طريقة الاستعارة المكنية. وقد اشتهر ضد ذلك في إبطال التوثق، يقال: رد عليه حَلِفه..

والموثق: أصله مصدر ميمي للتوثق، أطلق هنا على المفعول وهو ما به التوثق، يعني اليمين.

و«من الله» صفة لـ «موثقاً»، و«من» للابتداء، أي موثقاً صادراً من الله تعالى. ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهداً عليهم فيما وعدوا به بأن يحلفوا بالله فتصير شهادة الله عليهم كتوثيق صادر من الله تعالى بهذا الاعتبار. وذلك أن يقولوا: لك ميثاق الله، أو عهد الله، أو نحو ذلك، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأن الحالف استودع الله ما به التوثق للمحلوف له. وجملة ﴿لتأتنني به﴾ جواب لقسم محذوف دل عليه موثقاً. وهو حكاية لقول يقوله أبناؤه المطلوب منهم إيقاعه حكاية بالمعنى على طريقة حكاية الأقوال لأنهم لو نطقوا بالقسم لقالوا: لنأتينك به، فلما حكاه هو ركّب الحكاية بالجملة التي هي كلامهم وبالضمائر المناسبة لكلامه بخطابه إياهم.

ومن هذا النوع قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾.

ومعنى ﴿يحاط بكم﴾ يحيط بكم محيط. والإحاطة: الأخذ بأسرٍ أو هلاك مما هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب، فاستعمل مجازاً في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها.

والاستثناء في إلا أن يحاط بكم استثناء من عموم أحوال، فالمصدر المنسبك من أن مع الفعل في موضع الحال، وهو كالإخبار بالمصدر، فتأويله: إلا محاطاً بكم.



وقـوله ﴿الله عـلى ما نقـول وكيل﴾ تـذكير لهم بـأن الله رقيب على مـا وقع بينهم. وهذا توكيد للحلف. والوكيل فعيل بمعنى مفعول، أي موكول إليه.(١)

ومما يؤخذ من الآية من فوائد ودروس:

«١ ـ الاحتياط والتحفظ لازمان بجانب المقدر.

٢ ـ سمح يعقوب بإنفاذ شقيق يـوسف مع بـاقي إخوتـه لعدة أمـور منها أنه تفرس فيهم الصدق والإخلاص، وثانيها أنه ذهب عنهم نزق الشباب، وثالثها أنه ليس بينهم وبين هذا الأخ ما بينهم وبين يوسف، ورابعها ضرورة القحط أحـوجته وسهّلت ما كان صعباً، وخامسها أنهم حلفوا بالله والحالف بـالله قد كفّـل الله على نفسه.

٣ ـ حس يعقوب بما سيجري لأولاده قبل أوانه في قوله إلا أن يحاط بكم.

٤ ـ وجوب التعلم من دروس الماضي، وذلك من خلال تحوط يعقوب عليـه السلام في هذه المرة وتشدده مع أولاده استفادة من درس يوسف.

وللماضي دروس تعلم الإنسـان أموراً لم يكن في البـال أن يتمسك بهـا، هو بهذه الدروس يدرس ما في جعبة الدهر..»(٢)

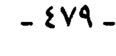
آية ٦٧

﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله، عليـه تـوكـلت، وعليـه فـليتـوكـل المتوكلون﴾.

إن الإيمان يقوي من إيجابية الإنسان في الحياة ومن تشغيل الإنسان لطاقاته وقدراته وذكائه وليس الإيمان إطفاءً للشعلة الإنسانية والـطاقة البشريـة كما يتـوهم المنطفئون. ولقد استعمل يعقوب المؤمن طاقته واحتياطه وأخذه بالأسباب كـأقصى ما يمكن، مع أنه في الإيمان واصلٌ القمة والذروة.. لا تناقض.

(١) التحرير والتنوير حـ ١٣ ص ١٨ ـ ص ٢٠

(٢) المؤتمر حـ٢ ص ٩٧٣ ـ ص ٩٧٦ بتصرف واختصار





ومن أخْذه بالأسباب وصيته لأولاده أن لا يدخلوا مصر جميعاً من باب واحد، بل يوزعوا أنفسهم على أبواب متعددة متفرقة، لعدة اعتبارات نستطيع تخمينها.. والله أعلم بحقيقتها من ذلك أن لا يثير أي تحفظ نحو أبنائه من أي أحد في مصر، اذا رأوا هذا الجيش من الرجال مجتمعين.

ثم ثانياً ليبحث كل منهم في الوجه والباب الذي يمضي منه لعله يصادف ضالة يعقوب، ولعل إحساساً داخلياً يهتف به في أعماقه أن ابنه يوسف في هذا الوجه من الدنيا، ولذلك قال لأبنائه بعد قليل: اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، مع أنهم عائدون إلى مصر، فهو يرجح بثاقب فكره وبعميق إحساسه أن ابنه ربما كان في مصر.

قال القشيري: «يحتمل أن يكون أراد تفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف، فإن لم يره أحدهم قد يراه الآخر[1]» ولا يفوته أن يفوض الأمر إلى الله، ولا يعتمد على الأسباب، هو يتخذ الأسباب، ويعتمد على الله ويتوكل عليه. فإني وأسبابي وتحوطاتي إن وقع قدر ربي الذي قدّره لا تنفع شيئاً ولا أغنيكم فتيلاً ولا نقيراً، ولا شيئاً على الإطلاق، ولاحظ كلماته مرة أخرى: وما أغني عنكم من الله من شيء، ومن شيء تعني مطلق أي شيء، فإن من إذا دخلت على منكّر أفادت تأكيداً فريداً في بابه، فإن كانت نفياً نفت بإطلاق وإن كانت إثباتاً أحاطت بكل أفراد الجنس وأحصتهم وعدتهم عداً، كما تقول الآية: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾، فكأن من هذه مرت على شجر الأرض شجرة شجرة لتحصيه فلا يخرج من تعدادها شجرة واحدة أو كل ما يدخل تحت جنس الشجر.

إذاً وما أغني عنكم من الله من شيء نفي مطلق لأدنى إغناء..

ثم فوض أمر الحكم فينا وفي كل شيء إلى الله فقال: ﴿إن الحكم إلا لله﴾، وكلامه أيضاً جاء مؤكداً في صورة الحصر والقصر.

(١) اللطائف حـ ٣ ص ١٩٤ وقال المحقق في الحاشية: ربما كان الأمر بتفريقهم مرده إلى أنه في الجماعة تختفي المسؤولية الفردية اذ تذوب في الكيان الجماعي، بينما يكبر الشعور بالمسؤولية إذا كانوا آحاداً.



ثم ختم بإعلان توكله على الله الذي لا يغني منه أحد شيئاً، والذي لا حكم إلا له، فمن البدهي إذن أن يكون توكله عليه، كما أن كل متوكل لا ينبغي أن يكون له توكل إلا عليه، وعليه فليتوكل المتوكلون.

وهي حقيقة في صورة طلب ودعوة. ولو قال وعليه يتوكل المتوكلون لأفاد خبراً يثبت حقيقة، ولكن بالصورة التي قالها زاد معنى الدعوة لكل متوكل أن يجعل توكله على الله. وقد يقال لماذا اقتصر على المتوكلين؟ وأقول ان كل أحد متوكلٌ، ولكن من الناس من يتوكل توكلاً حقاً على الله، ومن الناس من يتوكل توكلاً باطلاً على سلطان مثل فرعون أو على ماله مثل الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده والذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً، أو يتوكل على ذكائه وجده وتحصيله مثل قارون الذي قال إنما أوتيته على علم عندي. . أو يتوكل على الناس يظنهم ينفعون أو يضرون.والفريق المؤمن هو الذي يتوكل على الله.

وإن يعقوب عليه السلام يدعو كل المتوكلين يعني الناس أجمعين أن يتوكلوا على الله. وهذا معنى يُحرص عليه إن شاء الله.

قال العلمي رحمه الله في هذا المعنى:

«إن سر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرةُ الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفع الإنسان قوله توكلت على الله مع اعتماده على غيره، وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء آخر.

وكلام يعقوب مع أولاده يشير إلى أنه لا منافاة بين الأخذ بالأسباب والتوكل.

ثم يذكر الشيخ أن من أسباب نجاح الغربيين وتأخر الشرقيين موقف كل منهم من القضاء والقدر.

ثم قال ان هذا الأمر قد تأصل في عقولنا وتشبعت منه افكارنا، فتيبسنا وجمدنا.

وذكر بعد ذلك أن الناس في عقيدة القدر ثلاثة أنواع: متسبب صرف قصر

نظره على السبب، واتكالي صرف، وواثق بالله مع الأخذ بالأسباب وهذا ما جرى عليه يعقوب.

ثم حمل على الجهلة الذين لا يفهمون التوكل إلا معاداة الأسباب، ثم قال:

التوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الجوارح والأعضاء، والإنسان مسوق للعمل بمقتضى فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكل من خالف ذلك فهو فاسد الفطرة مبدل لخلق الله.

وبالجملة ضل اثنان: الأول لا يريد أن يعرف النواميس والثاني يريد أن لا يعرف سواها، فيا قاتل الله الإفراط والتفريط..

وليس معنى أن الله فعال لما يريد أنه ليس للعبد كسب واختيار. كلا. لأن هذا المعنى مناف للعدل الإلهي، ومناقض لحكمة التشريع السماوي، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها، من أن العبد له إرادة واختيار، هما مناط التكليف والمؤاخذة، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصوص فالعبد مختار حر مريد، ولكنه إنما يختار لنفسه ما وافق استعداده، وجرته إليه ملته وإرادته وتربيته ومزاجه ووراثته، وعوامل المحيط الذي يعيش فيه، كالعقيدة والعادة والحكم والأسرة والمدرسة والمجتمع والمناخ، والتعامل مع الناس، وإلى غير ذلك من العوامل التي تجره إلى السعادة أو الشقاء.

وأما قضاء الله وقدره فينا، فهما خفيان عنا معشر البشر، وإنما يظهران لنا ويقعان تحت أعيننا، ماثلين في سننه الكونية، ونواميسه الاجتماعية، التي بثها في هذا العالم وركب بناءه عليها، وهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا، بل هي المرايا الصقيلة التي ينعكس عنها إلى أبصارنا ما في اللوح السماوي من حكم الله وإرادته ومشيئته، في تدبير هذه الكائنات، وفي سعادة البشر وشقاوتهم.

وإذا تقرر هذا فيعقوب عليه السلام، متمسك بما عساه أن يكون سبباً في النجاة، وتجنب ما عساه أن يكون سبباً في الهلاك، وهو عليه السلام يعتقد أنه في

كلتا الحالتين بالغ هو وأولاده ما قضاه الله وقدره عليه وعليهم. . . [1]

البَلاغة:

وقال يا بني: إعادة فعل «قال» للإشارة إلى اختلاف زمن القولين، وإن كانا معاً مسبَّبَين على إيتاء موثقهم، لأنه اطمأن لرعايتهم ابنه وظهرت له المصلحة في سفرهم للامتيار، فقوله: ﴿**يا بني لا تدخلوا من باب واحد**﴾ صادر في وقت إزماعهم الرحيل.

والأبواب أبواب المدينة. وهذا يدل على عظم المدينة لأنها ذات أبواب.

والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

وجملة وما أغني عنكم من الله من شيء، معترضة في آخر الكلام، أي وما أغني عنكم بوصيتي هذه شيئاً. و«من الله» متعلق بـ «أغني»، أي لا يكون ما أمرتكم به مغنيا غناء مبتدئا من عند الله بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط.

وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدباً مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها.

وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليه قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

قال الله تعالى: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً**﴾. ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبباتها، وقد يتخلف ذلك بمعارضة أسباب أخرى مضادة لتلك الأسباب حاصلة في وقت

(1) مؤتمر تفسير سورةيوسف حـ٢ ص ٩٨١ - ٩٨٩ بتصرف واختصار



واحـد، أو لكون السبب الـواحد قـد يكـون سبباً لأشيـاء متضـادة بـاعتبـارات، فيخـطىء تعـاطي السبب في مصـادفـة المسبّب المقصـود، ولـولا نـظام الأسبـاب ومراعاتها لصار المجتمع البشري هملاً وهمجاً.

والإغناء مشتق من الغَناء، بفتح الغين، وهو الإجزاء والاضـطلاع وكفايـة المهم، وأصله مرادف الغنى، بالكسر والقصر، وهما معاً ـ أي الغَناء والغنى ـ ضد الفقر، وكثر استعمال الغناء في الاجزاء والكفايـة على سبيـل المجاز المـرسل لأن من أجـزأ وكفى فقد أذهب عن نفسه الحاجة وأذهب عمّن أجزأ عنه الاحتياج أيضـاً، وشاع هذا الاستعمال المجازي حتى غلب على هذا الفعـل، فلذلك كـثر في الكلام تخصيص الغنـاء بهذا المعنى، وتخصيص الغنى في معنى ضـد الفقـر. وهي تفـرقـة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات.

ومعنى لا أغني عنكم عـلى هـذا: لا أجزيء عنكم، أي لا أكفي بـدلاً عن إجزائكم لأنفسكم، يقولـون: أغنى فلان عن فـلان قام مقـامه، وحـرْف عن فيه للبدلية، وهي المجاوزة المجازية، جعل الشيء البدل عن الشيء مجاوزاً له لأنه حل محله في حال غيبته، فكأنه جاوزه فسموا هذه المجاوزة بدلية، وقالوا: ان عن تجيء للبدلية، كما تجيء لها الباء.

من شيء أي شيئاً، وزيدت من لتوكيد عموم شيء في سياق النفي.

وجملة إن الحكم إلا لله في موضع التعليل لمضمون **﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾** والحكم هنا بمعنى التصريف والتقديـر، ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا مـا أراده الله: «إن الله بـالغ أمـره» وليس للعبد أن ينـازع مراد الله ولكن واجبـه أن يتـطلب الأمور من أسبـابها لأن الله أمـر بذلـك، وقد جمع هذين المعنيـين قولـه: **﴿وادخلوا من أبـواب متفرقـة ومـا أغني عنكم من الله من شيء.﴾** وجملة **﴿عليـه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾** في موضـع البيان لجملة **﴿ومـا أغني عنكم من الله من شيء﴾** ليبين لهم أن وصيته بأخذ الأسباب مع التنبيـه على الاعتـماد على الله هو معنى التوكل الذي يضل في فهمه كثير من الناس اقتصاراً وإنكاراً، ولـذلك أتى بجملة وعليه فليتوكـل المتوكلون أمـراً لهم ولغيرهم، فهـو واجب كل مؤمن كـامل

الإيمان لا يخلط إيمانه بأخطاء الجاهليات. (١)

﴿إن الحكم إلا لله﴾ واضح من سياق القول أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك، وقضاءه الإلهي الذي يجري به قدره فلا يملك الناس فيه لأنفسهم شيئاً وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره.

وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار. . وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضى منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي. . وهذا كذلك لا يكون إلا لله. شأنه شأن حكمه القدري باختلاف واحد: هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه. فيترتب على هذا أو ذاك نتائجه وعواقبه في حياتهم في الدنيا وفي جزائهم في الآخرة. ولكن الناس لا يكونون مسلمين ـ حق الإسلام ـ حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلاً راضين. (٢)

آية ٦٨

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

والآية الثامنة والستون تؤكد ما نصّت عليه سابقتها، فتلك كانت تعرض عقيدة يعقوب في أنه لا يغني عن أولاده من الله من شيء، وهذه تعرض ليس عقيدة يعقوب فقط وإنما الحقيقة المطلقة كما هي في الواقع خارج دائرة ذاتية يعقوب حتى لا يتوهم متوهم أن المسألة فردية ذاتية.

لقد التزم الأولاد وصية أبيهم مما يوحي لنا بأنهم فعلاً حريصون على الطاعة المطلقة. فتلك التحوطات اليعقوبية لم تكن لتغني عنهم من الله أي شيء ولكن كانت حاجةً في نفس يعقوب قضاها بتوجيههم على النحو الذي ساروا عليه. .

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٠ ـ ص ٢٤

(٢) الظلال جـ٥ ص ٣٠



ولقد حاولنا التعرف على تلك الحاجة، وأنها في أهم ما نتصوره البحثُ عن يوسف.

ثم أثنت الآية على يعقوب الذي كان يعلمنا في الآية السابقة حقائق إيمانية هائلة القيمة، فقالت ان هذا الذي صدر منه كلاماً والذي ترجمته حياته كلها مواقف وفعالاً إن هذا مما مننا عليه من تعليم: وإنه لذو علم لما علمناه، والمتعلم ينبغي أن يكون فطناً لقناً حتى يستطيع أن يحصّل أغلى وأعلى ما يمكن تحصيله من الذي يتلقاه، وما بالك والمتعلم رسولٌ مجتبىً من الله عز وجل والرسل كلهم في الذروة عقلاً وذكاء وسرعة بديهة. فهو إذن ذو علم وتحصيل ويقين لما علمناه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وكم تكرر في هذه السورة ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لعلها استأثرت بهذه العبارة بثلث ما في القرآن من هذه الصيغة.. وهذه الحقيقة. وهي مهمة جداً حتى يسلم تصورنا حينما نرى غالب الناس لا يعتقدون هذا الذي يعرضه علينا يعقوب عليه السلام ويقرره رب العالمين ويعرضه القرآن، قد تهتز القيم في نفوسنا إذ نقول: إذا كانت هذه حقائق فلماذا لا يراها الناس كذلك، أليسوا يرون الشمس عندما تطلع فلا يكابر فيها أحد، ونقول إن الحقائق الإيمانية ليست حسية مادية كالشمس والأرض، ولكنها حقائق عقلية علمية ويقين قلبي، وأكثر الناس يرعون في الأرض كالأنعام لا يشغّلون هذه الملكات فلا تغترن بكثرتهم.. فهل إذا سارت غنم في شعب تبعتها..

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ «أغنت هذه الجملة عن جمل كثيرة. وهي أنهم ارتحلوا ودخلوا..

ولما دخلوا من حيث أمرهم سلموا مما كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدر الله أن يحاط بهم. فالكلام إيجاز. ومعنى ما كان يغني عنهم من الله من شيء أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم.

والاستثناء في قوله إلّا حاجة منقطع لأن الحاجة التي في نفس يعقوب عليه



السلام ليست بعضاً من الشيء المنفي إغناؤه عنهم من الله، فالتقدير: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها. والقضاء الإنفاذ. أي أنفذ ما أضمره في نفسه، أي نصيحة لأبنائه أداها ولم يدخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئاً يظنه نافعاً لهم إلا أبلغه إليهم.

والحاجة: الأمر المرغوب فيه، سمي حاجة لأنه محتاج إليه، فهي من التسمية باسم المصدر. والحاجة التي في نفس يعقوب هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد، وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله.

وجملة وإنه لذو علم معترضة بين جملة ولما دخلوا وجملة ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وهو ثناء على يعقوب بالعلم والتدبير، وأن ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوة.

وقوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، استدراك نشأ عن جملة ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، والمعنى أن الله أمر يعقوب عليه السلام بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم، فإن مراد الله تعالى خفي عن الناس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة، وعلم يعقوب ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلّب الأمرين فيهملون أحدهما، فمنهم من يهمل معرفة أن الأسباب الظاهرية لا تدفع أمراً قدّره الله وعلم أنه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

وقد دل قوله وإنه لذو علم لما علمناه بصريحه على أن يعقوب عليه السلام علم بما علمه الله. ودل قوله **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** بتعريضه على أن يعقوب من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب عليه السلام باستفادته من الكلام مرتين: مرة بالصراحة، ومرة بالاستدراك.

والمعنى أن أكثر الناس في جهالة عن وضع هاته الحقائق مـوْضعها ولا يخْلون



عن مضيّع لاحداهما. ويفسر هذا المعنى قول عمر رضي الله عنه لما أمر المسلمين بالقفول من عمواس لما بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ألسنا نفر من قدر الله إلى قدر الله؟ (١)

قال في المؤتمر:

«لما دخلوا هكذا ما عتموا أن وقعوا فيما قدّر عليهم وخاصة على أخيهم وما كان ذلك الرأي ودخولهم متفرقين يغني أي يدفع عنهم من قدر الله من شيء، لأن الإنسان وديعة غيب، لا يعلم ما يطرأ عليه، بل ذهب ذلك التحفظ أدراج الرياح، وغلب التقدير التدبير، حيث أصابهم ما ساءهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم، ولكن عدم إغنائه من الله من شيء، لا يقلل شيئاً من قيمة الأخذ بالأسباب وسلوك سبيل الاحتياط والتحفظ».

﴿إلّا حاجة﴾ أي غاية في نفس يعقوب قضاها.

وهي على ما فهمه العلّامة الزمخشري شفقته عليهم وإظهارهم بما قاله لهم ووصاهم به. أو هي على ما يفهمه هذا الحقير أن لا تبقى في نفسه حسرة، إذا حدث لولده ما يخشاه، كما بقيت في نفسه حسرة في حادثة يوسف، حيثما سلمه دون ميثاق، مع أنه كان يخاف منهم عليه. وأما اليوم، فلم يرد أن يترك أخذ العهد المغلظ عليهم، لئلا يتوهم أنه سلمه إلى المهالك بيده، فيحزن عليه حزن النادم المتفجع لأنه لا قصور منه ولا تقصير ابتداء، ولا حول ولا حيلة انتهاء، فهو إذ عمل بالواجب قد يهون عليه الأمر ويسهل في نظره المصاب.

﴿وإنه لذو علم﴾ أي فهم ومعرفة لما علمناه أي يفهم الذي علمناه إياه، ومنه أمره لأولاده بالحذر والأخذ بالأسباب.

أو معنى قوله: ﴿ذو علم﴾: ذو عمل، لأن العلم التصديقي الإذعاني

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٢٤ ـ ص ٢٦





المتعلق بالمنافع والمضار يوجب العمل، ونقل البخاري عن قتادة أن العلم هنا العمل، ولذلك فسره بقوله: عامل بما علم، ووجهه أن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه، وخالط لحمه ودمه، ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له بداً من العمل به، رضي أم أبى، ولذلك قالوا: آية فهم المعلوم تأثر العالم به وظهوره في حركاته وسكناته وترقرقه في شمائله. والعلم علمان نظريات وعمليات ولايتحقق أو لايتأكد إلا بالعمليات[1].

﴿إلّا حاجة في نفس يعقوب﴾

يرى الأستاذ عبد الحميد كحيل في كتابه عن سورة يوسف أن الحاجة التي كانت في نفس يعقوب هي إحساسه أن عزيز مصر هو يوسف، وأنه أي يعقوب عليه السلام أمر أبناءه بدخول مصر من أبواب متفرقة حتى يتمكن يوسف من لقيا شقيقه في غيبة عن الرقباء. يقول:

«فلما عاد أبناؤه من مصر أنبأوه بأن عزيز مصر خصهم بالإكرام، وحسن الضيافة وأنه طلب منهم أن يحضروا معهم أخاهم من أبيهم، ثم وجد بضاعتهم ردت إليهم، وأن العزيز قد أعطاهم الطعام دون مقابل أحس قلبه أنهذا العزيز لا بد أن يكون هو يوسف، فأمرهم بالدخول متفرقين ليتمكن يوسف من لقيا أخيه بعيداً عنهم، ويعرفه بنفسه فيتم الاتصال بين الأخوين، لأن وصولهم مجتمعين مع عدم رغبة يوسف في إظهار نفسه لإخوته سيحول بينه وبين الاتصال بأخيه وفعلاً تم التقاء يوسف بأخيه، وتعريفه أنه هو يوسف. . وهذا اللقاء هو الحاجة التي كانت في نفس يعقوب ولم يظهرها لأبنائه، والتي من أجلها أمرهم بالدخول من أبواب متفرقة، والتي قضاها وحققها يعقوب بوصيته لأبنائه، ولذلك قال الله تعالى في يعقوب: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ أي وإن يعقوب لذو علم بأن يوسف لا يزال حياً، وأنه سيلتقي به لا محالة، وهذا العلم قد حدث عنده لتعليمنا إياه بذلك. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، أي يجهلون أن يعقوب كان يعلم من الله بطريق الوحي أن يوسف لايزال حياً. . .

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف جـ٢ ص ٩٩١ ـ ص ٩٩٣



ويعلق الأستاذ على قوله تعالى: ﴿آوى إليه أخاه﴾ فيقول:

«نجحت خطة يعقوب التي رسمها في نفسه لتلاقي ابنيه الشقيقين يوسف وأخيه.» ثم يؤكد مقولته هذه بقوله: «فالمعنى الذي يناسب المقام هو ما ذهبنا إليه.»[1]

والذي نراه أن هذا المعنى بعيد ولا يناسب المقام لأن قوله تعالى: ﴿إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ جاء في إثْر: ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ فالحاجة إذاً متصلة بهذا الأمر ليس من المقبول أن تكون الحاجة في واد والسياق في واد آخر.

ثم كيف اتهم يعقوب أبناءه بأنهم سوّلت لهم أنفسهم أمراً عندما لم يرجع ابنه وهو الذي خطط لجمعه بيوسف ونجحت خطته على حد تعبير الكاتب؟!

ولم ابيضت عيناه من الحزن وقد تحقق مناه؟!

قال ابن حزم في «الفصل في الملل والأهواء والنحل»:

«كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة، إشفاقاً عليهم، إما من إصابة العين، وإما من تعرض عدو، أو مستريب بإجماعهم، أو ببعض ما يخوفه عليهم وهو معترف ان فعله ذلك، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك، لا يغني عنهم من الله شيئاً يريده عز وجل بهم. ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية في يعقوب عليه السلام، وفي سائر الأنبياء عليهم السلام كما قال تعالى حاكياً عن الرسل أنهم قالوا: إن نحن إلا بشر مثلكم، حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزعها وتوقها إلى سلامة من تحب، وإن كان ذلك لا يغني شيئاً، كما كان عليه السلام يحب الفأل الحسن.»[2] أخرجه البخاري.

قال السيوطي في الإكليل: في هذه الآية أن العين حق[3]، وأن الحذر لا يرد القدر. ومع ذلك لا بد من مراعاة الأسباب.

نقل القاسمي فوائد أخرى منها: استحباب البعد عن مضار العباد، والحذر

---

(١) يوسف عليه السلام: نظرات في التفسير ص ١١٩ ـ ص ١٢٢

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل. ونقله القاسمي في المحاسن

(٣) نص حديث رواه البخاري في كتاب الطب باب العين حق حديث ٢٢٦٣ عن أبي هريرة.



منها، فأما فعل الله فلا يغني الحذر منه. ثم قال القاسمي عن جماعة من المتكلمين انهم ينكرون الضرر بالعين. ثم استعرض الآراء في كيفية إيقاع الضرر بالعين.

ثم ذكر رد ابن القيم في زاد المعاد على من رد أمر العين إذ قال:
«أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل، أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجاباً وأكثفهم طباعاً، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها. وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره، وإن اختلفوا في سبب وجهة تأثير العين..

ثم قال عن المنكرين: وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب وخالفوا العقلاء أجمعين..

ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام فإنه أمر مشاهد محسوس.

وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية والتأثير غير موقوف على الاتصال.. بل يكون تارة بالاتصال، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح، وتارة بالأدعية والرقى، وتارة بالتخيل..

وقال الله لنبيه: ﴿وإن يكاد الذي كفروا ليزلقونك بأبصارهم..﴾ ﴿ومن شر حاسد إذا حسد.﴾

ثم شبّه ابن القيم ما ترمي به النفوس والأرواح الآخرين بالسهام ورميها فقال: وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمعين، تصيبه العين تارة، وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه، ولا بد.

وإن صادفته حذراً شاكي السلاح، لا منفذ فيه للسهام، لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس



والأرواح وهذا من الأجسام والأشباح»[1].

آية ٦٩

﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾

ونقول في ﴿لما﴾ ما قلنا من قبل انها تعني أن يوسف بمجرد أن دخل اخوانه ـ وفيهم شقيقه ـ عليه أوحى إليه أنه أخوه، ولا يتصورن متصور أنه أظهر للأخوة عواطفه حتى تفسد عليه خطته لا، وإنما بطريقته الذكية الحكيمة ودون أن يحس الأخوة أعلمه أنه أخوه، وهدّأ من خواطره، وواساه عما كان يلقاه من أذى إخوته وهذا الأذى إما أن يوسف توقعه وقاسه على ما قاساه هو واستشفه مما عملوه معه، وإما أن يوسف سمع منه ما جعله يقول له هذا: **﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾**.

وبلقاء يوسف بأخيه قرت عينه في حين ابيضت عين يعقوب من الحزن على أولاده، وكذا الأمر: لا تغرب الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين.

وما أقرب شبه لقاء يوسف بأخيه واجتماع شمله به بقول القائل:

كأنك لم توتر من الدهر مرة   إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه[2]

﴿وَلَمَّا دَخَلوا على يوسف آوى إليه أخاه..﴾ الإيواء: الإرجاع. وأطلق هنا مجازاً على الإدناء والتقريب كأنه إرجاع إلى مأوى، وإنما أدناه ليتمكّن من الاسرار إليه بقوله: أنا أخوك.

جملة **﴿قال إني أنا أخوك﴾** بدل اشتمال من جملة **﴿آوى إليه أخاه﴾**. وكلمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنه هو أخوه الذي ظنه أكله الذئب، فأكد الخبر بأن

---

(١) محاسن التأويل حـ٩ ص ٣٥٦٨ ـ ص ٣٥٧١

وارجع إلى زاد المعاد لابن القيم حـ٤ ص ١٦٥ ـ ص ١٦٧، الطبعة المحققة، بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثامنة، ١٩٨٥ مؤسسة الرسالة.

(٢) هذا البيت كان يستشهد به الفاروق كثيراً.



وبالجملة الاسمية وبالقصر الذي أفاده ضمير الفصل، أي أنا مقصور على الكون أخاك لا أجنبي عنك، فهو قصر قلب لاعتقاده أن الذي كلمه لا قرابة بينه وبينه.

وفرّع على هذا الخبر ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾. والابتئاس مطاوعة الإبئاس، أي جعل أحد بائساً، أي صاحب بؤس. والبؤس هو الحزن والكدر. وأراد بذلك ما كان يجده أخوه من الحزن لهلاك أخيه الشقيق وفظاظة إخوته وغيرتهم منه.

والنهي عن الابتئاس مقتض الكف عنه، أي أزل عنك الحزن، واعتض عنه بالسرور. وصوغ ﴿يعملون﴾ بصيغة المضارع لإفادة أنه أعمال متكررة من الأذى، وفي هذا تهيئة لنفس أخيه لتلقي حادث الصواع باطمئنان حتى لا يخشى أن يكون بمحل الريبة من يوسف عليه السلام.(1)

وتأمل هذه اللفتة الظلالية البديعة..

«السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى، وإطلاعه على أنه هو أخوه ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى ما فعله إخوته به من قبل، وهي ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كما علمها من البيت الذي كان يعيش فيه.

[كما تلاحظ فإن الظلال لم يشر إلى معاناة الأخ نفسه مع إخوانه بل قصر الحديث على معاناة يوسف.]

ثم يتابع الظلال: يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم عليه، وعند رؤيته لأخيه، بعد الفراق الطويل. ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر. وهذه من دقائق التعبير في هذاالكتاب العجيب».(2)

آية ٧٠

﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٢٦ ـ ص ٢٧

(٢) الظلال حـ٥ ص ٣١ ـ ص٣٢



أي بعد أن انتهى من تجهيزهم واطمأن أولئك الرجال وبدأت تداعبهم الآمال دس في رحل أخيه السقاية والصواع الذي يكيل به للناس. . وتركهم يسيرون مسافة. دلنا على ذلك: ثم أذن مؤذن، ولو سارعهم بهذا الاذان لربما فطنوا أن في الأمر لعبة ما، ولكن تركهم يسيرون وقد يكون تركهم حتى توغلوا في الناس وتوسطوا السوق حتى يضغط عليهم ليستخرج من جراحهم ما كان تكوّن فيها من عفونات، ولا تنظّف الجراح إلا باعتصارها، وإما أنه تركهم حتى خرجوا من المدينة ستراً عليهم ويكفيهم أذى ـ أصلاً ـ أن يتهموا بهذا الاتهام ولو أمام واحد. .

المهم أن هناك تراخياً أوحت لنا به ﴿ثم﴾. .

لقد لحق بهم صوت من خلفهم يناديهم، ويا لغرابة الذي يسمعون: ﴿أيتها العير﴾ وليس يا أيها الناس أو الرجال، ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾، بالتأكيد بأن واللام.

و«السقاية إناء كبير يسقى به الماء والخمر. والصواع لغة في الصاع وهو وعاء للكيل. وكانوا يشربون الخمر بالمقدار، يقدر كل شارب لنفسه ما اعتاد أنه لا يصرعه، ويجعلون آنية الخمر مقدرة بمقادير مختلفة.

فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صواعاً جارية على ذلك.

وتعريف السقاية تعريف العهد الذهني، أي سقاية معروفة لا يخلو عن مثلها مجلس العظيم.

وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته

والتأذين: النداء المكرر.

والعير: اسم للحمولة ـ بالفتح ـ من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة. .

وتأنيث اسم الإشارة أيتها لتأويل العير بمعنى الجماعة، لأن الركاب هم الأهم.[1]»

---

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٢٧ ـ ص ٢٨.



السقاية . . والصواع

قال الرازي في مختار الصحاح: «والصواع لغة في الصاع، وقيل هو إناء يشرب فيه»[1]

«وليس في الآية ما يدل على أن هذه السقاية كانت تستعمل في كيل الطعام كما ذهب إليه كثير من المفسرين. . وقول الله تعالى: ﴿**قالوا: نفقد صواع الملك**﴾ يدل على انه إناء كان يشرب فيه **الملك**.[2]

كيف جَوّز يوسف لنفسه أن يعمل على إخوته حيلة تسريق أخيه ليأخذه بها؟

قال صاحب المؤتمر إجابة على هذا السؤال:

«يوسف عليه السلام كان يعرف أنهم أصحاب عرامة، وذوو شراسة، فأراد أن يخضد شوكتهم ويفت في عضدهم، تنزيلاً لنفوسهم المتكبرة، وإضعافاً لقوتهم المتحكمة، فأتى هذه الحيلة المزعزعة لأفكارهم، إذ يوسف كان لا يزال في تخوف من شر إخوته ونزقهم، فرأى أن يعمل معهم عملاً يخفف جانباً من قوتهم، ويشذب بعضاً من حماسهم، ويطامن من نخوتهم، ويكسرمن زهوهم ويقمع من طغيانهم تهذيباً وترويضاً، فهو فعل ذلك اضطراراً لا اختياراً.[3]

* * *

آية ٧١

﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾.

رد الأخوة والثقة تملأ نفوسهم ولذلك تكلموا بملء الفم والرئتين ومقبلين بكليتهم على المؤذن ومن معه: ﴿**ماذا تفقدون؟**﴾. والواو في ﴿**واقبلوا عليهم**﴾ واو الحال أي قالوا وهم مقبلون عليهم ماذا تفقدون حتى تتهمونا بالسرقة؟

---

(١) مختار الصحاح ص ٣٧٣ دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٢

(٢) كحيل: ص ١٢٤

(٣) المؤتمر حـ٢ ص ١٠٠٨ - ص ١٠٠٩



والأمر كله مفاجأة للأخوة هدت عزائمهم وبخّرت الآمال التي كانت تجمعت في نفوسهم حتى ملأتها. . إنه لموقف شديد. . ولكن. . أليس إلقاء الولد في الجب شديداً. . أليست فجيعة أب بابنه شديدة. . ؟ بلى. وإن الذي يصنعه يوسف بهم إنما هو بأمر الله وليس شهوة انتقام. إنه يربيهم وينظف جرحهم الملتهب وإن آلمهم بعض الشيء فهو في النهاية لعافيتهم، ولو أرادوا ألا يتألموا وألا تصيبهم هذه المصيبة ما كانوا زرعوا الحنظل، ولو زرعوا عنباً لحصدوا عنباً، فمن يزرع الشوك لا يجوز أن يتأمل جني العنب، «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم. . » «وما أصابك من سيئة فمن نفسك. »

آية ٧٢

﴿قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾.

إن الذي نفقده الصواع الذي نكيل به للناس وتأمل أنهم نسبوا الصواع للملك على عادة الناس في نسبة كل شيء إلى المسؤول الأول، وهذا هو الذكر الوحيد للملك في القصة بعد آخر مشهد رأيناه فيه، وهو ذكر دون بروز على المسرح. .

ولا نقول ان يوسف صار ملك مصر، لا ولكن القرآن يقص علينا ما نحن بصدده من الموضوع، ثم ثانياً لأن يوسف صار هو المتنفذ الحقيقي.

ولقد اطمأن الأخوة أن المفقود صواع الملك، هذه مسألة سهلة، ومن يفكر أصلاً أن يسرق صواع الملك، ونحن لم نمسه أصلاً فإن موظفي الدولة هم الذين يتولون هذه العملية.

وحتى تبدو العملية طبيعية تماماً يعلن المؤذن عن جائزة للذي يعترف على الصواع أو يدل على من رآه عنده. . أو يعين في الكشف عنه.

ولمن جاء به ـ اعترافاً أو دلالة ـ حمل بعير، ويظهر لنا من هذه الجائزة أهمية حمل البعير حتى جعله العزيز جائزة باسمه. .

ثم ضمن هذا الوعد بقوله وأنا بهذا الذي أعلنت فيكم زعيم: **﴿وأنا به زعيم﴾.**



آية ٧٣

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾.

لقد تكلموا بما يعلمون من أنفسهم من براءة فجاءت كلماتهم واثقة فيها نبرة التحدي، فما قالوا لسنا سارقين، لا، وإنما قالوا: ﴿تالله﴾، ولقد كثر القسم بهذه الصورة في السورة، ثم قالوا بعد القسم ﴿لقد علمتم﴾ أي أنكم أنتم في قرارة أنفسكم من خلال ما رأيتم من أمانتنا عبر أكثر من موقف، أنتم بأنفسكم موقنون أنا برآء.

وهذا أبلغ في اعتقاد البراءة وفي تأكيدها من أن تنفي عن نفسك التهمة فقط، ولكن بأن تقول لمن يتهم: أنا لن أرد عليك. أنت في قرارة نفسك تعلم فساد الدعوى التي تدعي.

إن في نبرة الرجال هؤلاء لثقة، جعلتهم يستعملون هذه المؤكدات ويخرجون كلامهم هذا الإخراج، ولقد نفوا عن أنفسهم بالإضافة إلى ما قلناه لا مجرد السرقة وإنما أيضاً أي إفساد في الأرض.

﴿قالوا تالله لقد علمتم﴾..

«التاء في تالله حرف قسم على المختار، ويختص بالدخول على اسم الله تعالى، وعلى لفظ رب، ويختص أيضاً بالمقسم عليه العجيب.

والأخوة قد نفوا عن أنفسهم الاتصاف بالسرقة بأبلغ مما نفوا به الإفساد عنهم، وذلك بنفي الكون سارقين دون أن يقولوا: وما جئنا لنسرق.

وعلل الشيخ ابن عاشور ذلك بأن السرقة وصف يتعير به، وأما الإفساد الذي نفوه، أي التجسس فهو مما يقصده العدو على عدوه فلا يكون عاراً، ولكنه اعتداء في نظر العدو.[1]»

والملاحظ على هذا الكلام أن تهمة التجسس لم ترد إلا في التوراة، فالشيخ رحمه الله اعتمد في هذا رواية التوراة بل جعلها مسلمة بنى عليها.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٢٩



والذي يبدو أنهم أكدوا الأصل والعموم بنفي الإفساد عن أنفسهم والذي من ضمنه السرقة. ثم خصوا السرقة بالنفي بعد العموم لأنها التهمة الموجهة إليهم.

وقولهم: ﴿**وما كنا سارقين**﴾ مؤكد بنفي الكون الذي يفيد المضي الذي يفيد الرسوخ في وصف عدم السرقة، ثم أكدوه باسمية الجملة.

آية ٧٤

﴿**قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين**﴾.

لقد قابلوا ثقة الأخوة في نفي التهمة بثقة أخرى في اثبات التهمة وكأنهم مستيقنون منها، قالوا ﴿**فما جزاؤه إن كنتم كاذبين؟**﴾ أي فما جزاء السارق سواء كان فرداً منكم أو كان بالتواطؤ فيما بينكم، ما جزاؤه إن ثبت كذبكم بالدليل المحسوس والبيّنة القاطعة؟!

والجزاء هو نتيجة العمل.

﴿**قالوا فما جزاؤه..**﴾

و«قول الفتيان هذا تحكيم، لأنهم لا يسعهم - أي الأخوة - إلا أن يعينوا جزاء يؤخذون به، فهذا تحكيم المرء في ذنبه».

قالوا جزاؤه: أي عقابه. والمعنى أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة، أي ذاته هي جزاء السرقة، فالمعنى أن ذاته تكون عوضاً عن هذه الجريمة. وقد حكم إخوة يوسف عليه السلام على أنفسهم بذلك وتراضوا عليه فلزمهم ما التزموه.

ويظهر أن ذلك كان حكماً مشهوراً بين الأمم أن يسترق السارق. وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال.

والإشارة بـ «كذلك» إلى الجزاء المأخوذ من نجزي، أي نجزي الظالمين جزاء كذلك الجزاء*(١)

---

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٣٠ - ص ٣١



آية ٧٥

﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾.

أفاد الأخوة إجابة عن السؤال الموجه إليهم أن جزاء الذي تثبت البينة سرقته أن يؤخذ، ولا بينة بطبيعةالحال إلا أن يكون المسروق في الرحال، ومن هنا قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه، وهذا الذي قلناه هو شريعتنا التي نحكم بها في ديننا. . هكذا نفعل بالظالمين السارقين ونجازيهم. لقد تفوهتم بالمطلوب بأنفسكم بحيث لا يمكن التراجع عنه بعدما أعلنتم أنه مبدؤكم ودينكم الذي تدينون.

آية ٧٦

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه، كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾.

ولمزيد من عدم إثارة انتباههم إلى أن الأمر مرتب بدأ بتفتيش رحال الأخوة قبل رحل المعنيّ أصلاً بالتفتيش. . ثم وبعد أن انتهى منهم جميعاً استخرجها من وعاء أخيه، وما أقرب فعل يوسف مع أخيه من قول القائل:

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعَله فيحسن منك ذاكا

وعلق النص على هذا الصنيع بأنه من تدبير الله تعالى ليوسف، إما بتعليمه عموماً وإعطائه الذكاء والحكمة التي بها يخطط فمرد الأمر إلى الله، وإما بالوحي المباشر، وكل ذلك محتمل.

ثم بين أن شرعة الملك وقانون الملك لا يقضي بنفس ما نطق به الأخوة من شريعة يعقوب.

ولاحظ أولاً أنه سمّى القانون ديناً، ويغيب عن كثيرين أن الدين هو المنهج الشامل للحياة الذي ينظم كل شؤون الحياة، ولئن تُرك القانون للناس ينظمونه فإنهم يستطيعون أن ينتهكوا أحكام الدين. فالدين كل متكامل، فإذا أعطيت



أحداً حقاً خارج هذا النطاق فقد يمتد عدوانه إلى ما داخل إطار أخص خصوصيات الدين.

ولماذا يُعطى غير الله حقَّ التشريع والتقنين؟ ألِنقصٍ في دين الله، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟!.

ثم لاحظ ثانياً أن شريعة الملك لا زالت سارية على مصر على الرغم من كون يوسف هو العزيز ويبدو أنه مضى في التغيير وفق خطة متدرجة.. وهنا وقفة ولفتة في فقه الدعوة تحتاج إلى بيان وتفصيل...

ثم ذيلت الآية بالثناء على يوسف وما أوتي من فضل الله، وأنه رفعه في المنزلة والفضل والعلم درجات، ولكن مهما أوتي العبد من العلم فإنه **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾**.

﴿فَبَدأ بأوعيتهم..﴾

«أوعية جمع وعاء، وهو الظرف، مشتق من الوعي وهو الحفظ.

والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود من أول الأمر.

وتأنيث ضمير استخرجها للسقاية. وهذا التأنيث في تمام الرشاقة، إذ كانت الحقيقة أنها سقاية جعلت صواعاً.

والكيد: فعل يتوصل بظاهره إلى مقصد خفي. والكيد هنا هو إلهام يوسف هذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه وإلهام أخوته إلى ذلك الحكم.

وأسند الكيد إلى الله **﴿كدنا﴾** لأنه ملهمه فهو مسببه. وجعل الكيد لأجل يوسف عليه السلام لأنه لفائدته.

وجملة **﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾** بيان للكيد باعتبار جميع ما فيه من وضع السقاية ومن حكم إخوته على أنفسهم بما يلائم مرغوب يوسف من ابقاء أخيه عنده، ولولا ذلك لما كانت شريعة القبط تخوله ذلك.



وعن مجاهد: في دين الملك، أي حكمه وهو استرقاق السراق.
أي لولا حيلة وضع الصواع في متاع أخيه ما كان ليأخذ أخاه.

وجملة نرفع درجات من نشاء تذييل لقصة أخذ يوسف عليه السلام أخاه لأن فيها رفع درجة يوسف في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله. ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه. ورفع درجات أخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوه عليهم.

فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول.
وجملة وفوق كل ذي علم عليم، تذييل ثان لجملة كذلك كدْنا ليوسف - وفيها شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس.

والفوقية مجاز في شرف الحال، لأن الشرف يشبه بالارتفاع.
وظاهر تنكير عليم أن يراد به الجنس فيعم كل موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى. فعموم هذا الحكم بالنسبة إلى المخلوقات لا اشكال فيه. ويتعين تخصيص هذا العموم بالنسبة إلى الله تعالى بدليل العقل إذ ليس فوق الله عليم.[1]

قال الرازي تعليقاً على قوله تعالى: ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾.
«واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الفكرة مدحه لأجل ذلك فقال ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾، وأيضاً وصف إبراهيم عليه السلام بقوله: نرفع درجات من نشاء عند إيراده ذكر دلائل التوحيد[2]».

﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾
استوقف التعبير القرآني هذا، صاحب الظلال وقفة ركز فيها النظر على

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٣١ - ص ٣٣
(٢) التفسير الكبير حـ١٨ ص ١٨٢



مفهوم الدين، وكيف أن هذا «المصطلح» كما يقول المودودي رحمه الله في كتابه المصطلحات الأربعة، قد تراجع وانكمش في تصورات الناس، يقول في الظلال:

«إن هذا النص يحدد مدلول كلمة «الدين» ـ في هذا الموضع ـ تحديداً دقيقاً ـ فقد عبر القرآن الكريم عن النظام والشريعة بأنها «الدين».

هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً.

إنهم يقصرون مدلول الدين على الاعتقاد والشعائر. . ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

لقد كان يعني دائماً: الدينونة لله وحده، بالتزام ما شرعه، ورفض ما يشرعه غيره. وافراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل افراده» بالألوهية في السماء، وتقرير ربوبيته وحده للناس: أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأوامره[1]».

* * *

آية ٧٧

﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾.

موقف عجيب من الأخوة. . لقد كانوا قبل قليل في حالة معنوية عالية وفي ثقة كاملة، وعزة نفس، حتى اكتشفت السقاية في رحل الأخ. . لقد صاروا كمن طوحت به في الهواء من برج عال. لقد نووا على الخير نحو أخيهم، وإذ بهذا الأخ يحطم كبرياءهم وشرفهم أمام الناس في بلاد الغربة، وسيتسبب لهم ليس في الفضيحة التي واجهوها فقط، وإنما ينتظرهم الآن مصيبة أمام أبيهم، ولذلك صاروا كمن فقد التركيز والاتزان يتكلمون بغير وعي ولا روية فقالوا عن يوسف الذي قالوا: **﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾**.

---

(١) الظلال حـ٥ ص ٣٥ ـ ص ٣٧ باختصار



إنه الاندفاع لا زالت فيهم حدته. صحيح أن المفاجأة تعْقد الألسنة، لكن كان يمكن ضبط النفس لو كانوا يملكون الرويّة والأناة.. لقد أصيبت صحوة الخير فيهم بانتكاسة لكنها لم تنته، إنها انحناءة في خط بياني صاعد.

وما الذي جدّد سيرة يوسف على ألسنتكم حتى توجهوا له هذه التهمة، لا شيء سوى أن هذا هو شقيق يوسف..

ولكن التفاسير التي أولعت بنقل الإسرائيليات التي لا يقبلها نقل ولا عقل سارعت هي الأخرى تبحث في الملفات عن سرقة ارتكبها يوسف ثم جاءتنا بعد التنبيش في الإسرائيليات بأخبار ما أنزل الله بها من سلطان، من مثل أن يوسف كان وهو صغير قد سرق صنما من ذهب كانت تعبده عمته، أو نحو ذلك من الروايات التي لا نحِبّ أن نذكرها حتى ولو من باب الرد عليها..

وتكلف البعض فقالوا إنه سرق قلب أبيه.

ولماذا التكلف؟.. إن الأمر جدُّ يسير، إنها المفاجأة تنطق الإنسان بأي كلام والسلام. ولا حاجة إلى البحث عن تفسير لهذه الكلمة وكأنها حقيقة ثابتة..

إنها بقايا الحسد.. ما زالت عالقة في أغوار النفس حتى إذا هبت اي ريح ثوّرتها، قال الرازي: ظاهر الآية يقتضي أنهم قالوا ان هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام أنا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى. أ. هـ[1]

أما عن رد فعل يوسف ازاء موقف إخوته العجيب هذا، فقد كان موقفهم أشد تأثيراً في قلبه من الجفاء الأول.

وأما يوسف عليه السلام الذي تعود مواجهة كل شيء بالضبط والربط والحلم والاناة والهدوء والسيطرة، أما يوسف فكأنه ما سمع شيئاً، بل كتمها في نفسه ولم يظهر انفعاله أو تأثره بما قالوا.. وقال في نفسه: أنتم أسوأ مما تفترون على يوسف حتى لو كان كما تقولون، والله هو الذي يعلم حقيقة الحال، وأنه لا

---

(١) التفسير الكبير حـ١٨ ص ١٨٣



مصداق لكل الذي تفترون. أمّا ﴿**تصفون**﴾ فقد مر بنا في كلام يعقوب، وقلنا وقتها إنها بالاستقراء تعني الاختلاق والكذب..

قال الطوسي في التبيان: «قال البلخي: كذبوا في قولهم: ﴿**سرق أخ له من قبل**﴾، والله أعلم بما يعنون في ذلك وانه كذب..».[1]

﴿**قالوا إن يسرق**﴾

«لما بهتوا بوجود الصواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزههم عن السرقة، إذ قالوا وما كنا سارقين، عذراً بأن أخاهم قد تسربت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أن أخاه كان قد سرق من قبل، فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم أخويهم وهي زوجة أبيهم.

وإنما قالوا قد سرق أخ له من قبل بهتاناً ونفياً للمعرة عن أنفسهم. وليس ليوسف عليه السلام سرقة من قبل.

فأسرها يوسف: يبدو أن هذا الكلام كان بمسمع من يوسف، فأسر يوسف المقالة في نفسه فتحملها ولم يظهر غضباً منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه.

ويجوز أن يكون ضمير أسرها عائداً على الكلمة التالية: ﴿**أنتم شر مكاناً**﴾.

ولم يبدها لهم توكيد لجملة فأسرها. وشأن التوكيد ألا يعطف، ووجه عطفها ما فيها من المغايرة التي قبلها بزيادة قيد لهم.

وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة، والحالة هي السرقة، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع. ومنه قوله تعالى: ﴿**قل يا قوم اعملوا على مكانتكم**﴾، وهو تشبيه الاتصاف بوصف ما بالحلول في مكان.

والمعنى أنهم لما عللوا سرقة أخيهم بأن أخاه من قبل قد سرق، فإذا كانت سرقة سابقة من أخ أعْدت أخاه الآخر للسرقة، فهم وقد سبقهم أَخَوان بالسرقة

---

(١) التبيان حـ٦ ص ١٧٦



أجدر بأن يكونوا سارقين من الذي سبقه أخ واحد.

والكلام قابل للحمل على معنى أنتم شر حالة من أخيكم هذا والذي قبله لأنهما بريئان مما رميتموهما به، وأنتم مجرمون عليهما إذ قذفتم أولهما في الجب، وأيدتم تهمة ثانيهما بالسرقة.

ثم ختم الآية بجملة ﴿والله أعلم بما تصفون﴾، وهو كلام جامع، أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم، والمراد أنه يعلم كذبهم، وهو أعلم بحال ما تصفون»[1].

آية ٧٨

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾.

لقد نقلنا السياق إلى مواجهة مرة أخرى مع يوسف، ولكن لعملية استعطاف ومساومة لاستبدال أي واحد مكان هذا الأخ الموقوف على ذمة قضية الصواع..

ودعوى تبديل الحكم هي أن والد هذا الأخ شيخ كبير، هل تعنون إذن أن فجيعته فيه غير فجيعته فيكم، ولماذا؟ المهم أنهم يعرضون عليه أي واحد بدله، وأنهم صادقون في الاستعداد بالتضحية بأنفسهم بدل أخيهم حرصاً على أبيهم طبعاً وليس إكراماً لهذا الأخ، وعلى كل حال فهو مؤشر خير.. وخطوة في طريق الصعود.. ثم استعطفوه بالثناء على أخلاقه إنا نراك من المحسنين..

ولو دروا أنهم شتموه قبل قليل في قولهم فقد سرق أخ له من قبل لاستحيوا من أنفسهم حتى الاضمحلال.

خلاصة الموقف أنهم كما قال القشيري «لم تنفعهم كثرة التنصل، وما راموا به من ذكر أبيهم ابتغاء التوسل، ولم ينفعهم ما قيل منهم حين عرضوا عليه أن

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٣٤ ـ ص ٣٦



يأخذ أحدهم في البدل إذ كل مطالب بفعل نفسه ولا تزر وازرة وزر أخرى. . »[1]

﴿قالوا يا أيها العزيز إنَّ له أبا شَيْخاً﴾.

«وصفوا أباهم بصفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه. فالأوصاف مسوقة للحث على اطلاق سراح الابن لا لأصل الفائدة لأنهم قد كانوا أخبروا يوسف عليه السلام بخبر أبيهم.

وجملة إنا نراك من المحسنين تعليل للإجابة، والتقدير: فلا ترد سؤالنا لأنا نراك من المحسنين، فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخاً كبيراً.

مكانه: المكان أصله محل الكون، أي ما يستقر فيه الجسم، وهو هنا مجاز في العوض لأن العوض يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه[2]».

آية ٧٩

﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون﴾.

لكل شخصية قاموسها من الألفاظ كما رأينا في هذه القصة العجيبة العظيمة. . ﴿معاذ الله﴾ تتردد مرة ثانية على لسان يوسف كما ترددت حاش لله مرتين على لسان النسوة كما تردد أنا راودته مرتين على لسان امرأة العزيز، كما ترددت بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل مرتين على لسان يعقوب، كما ترددت إيتوني به مرتين على لسان الملك.

المهم أن يوسف يرفض بشدة أن يأخذ الا من ضبطت عنده السقاية، فانه إن غيّر الحكم بأخْذ البريء يكون هذا الفعل ظلماً ويكون فاعله من الظالمين.

وهذا من المعاريض التي ليست من الكذب قطعاً. . لاحظ ﴿إلّا من وجدنا متاعنا عنده. .﴾ فعلاً إن الأمر كما قال. . والمنادي الذي نادى إنكم لسارقون. . إن يوسف لم يقل له ـ بما نجزم وهو أمر عقيدي ـ لم يقل له إنهم سارقون، وإنما أمر

(١) اللطائف حـ٣ ص ١٩٧

(٢) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٣٦ ـ ص ٣٧



واحداً أن يدس السقاية، ثم سأل غيره اين السقاية، ثم تركهم يستنتجون أنه ربما كانت مع آخرٍ من كيل لهم. . فهم إذاً سارقون. . فقام يؤذن بالسرقة. وإلا فإن نبي الله لا يخبر بالكذب أبداً. .

والمعاريض فيها مندوحة عن الكذب، كما سئل أبو بكر رضي الله عنه والنبي معه، من أين أنتم قال من ماء، وقيل له في مرة أخرى: هذا أنت أبو بكر فمن معك؟ قال هاد يهديني الطريق. .

إن التصريح بالحقيقة أحياناً قد يكون غفلة مميتة، فالناس تبحث عن النبي فهل يقول الصديق لكل عابر سبيل سائل عن النبي ﷺ إنه هذا هو؟. . .

«معاذ: مصدر ميمي اسم للعوذ، وهو اللجَأ إلى مكان للتحصن.

وتقدير الكلام أعوذ بالله معاذاً، فلما حذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلاً بالمصدر بطريق الإضافة فقيل: معاذ الله. أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حقّ لنا في أخذه، أي أن يعصمنا من الظلم، لأن أخذ من وجد المتاع عنده صار حقاً عليه بحكمه على نفسه. وأما أخذ غيره فلا يجوز ولايسوغ إذ ليس لأحد أن يسترق نفسه بغير حكم، ولذلك علل الامتناع من ذلك بأنه لو فعله لكان ذلك ظلماً». [1]

قال أبو السعود في بيان أثر هذه الكلمة من يوسف على أخوته:

«وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس، لما شاهدوه من عوذه بالله لما طلبوه، الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة، وأنه مما يجب أن يحترز عنه، ويعاذ بالله عز وجل، ومن تسميته ظلماً بقوله: ﴿إنا إذاً لظالمون.﴾[2]

آية ٨٠

﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً، قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾.

(١) التحرير حـ١٣ ص ٣٧ ـ ص ٣٨

(٢) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٧٨، وانظر تفسير أبي السعود جـ٤ ص ٢٩٩.



لم تجدِ المحاولات شيئاً، ولم يتزحزح يوسف شعرة عن موقفه، هو في نفسه لاعتبار معين، وهم في أنفسهم يفهمون اعتباراً آخر. .

فلما بلغوا منه حد اليأس، ولاحظ التعبير استيأسوا أي يئسوا يأساً لا زيادة فيه لمستزيد، ولا مجال فيه لمزيد.

خلصوا نجياً: خرجوا من عنده يناجي بعضهم بعضاً ويناجي كل منهم نفسه، لقد فُتح عليهم من الحرج والغم باب سيدخل عليهم منه طوفان من الهموم لم يكن لهم بحسبان.

قال كبيرهم، ولأول مرة يبرز السياق واحداً منهم بعينه، والمرة يكون المتكلم أعقَلَهم وأكبرهم، وشيء طبيعي أن يكون الأكبر هو الذي يتكلم الآن لأنه الذي يتحمل المسؤولية أمام أبيه بالدرجة الأولى، وان غيابه مع ذاك الأخ يخفف من مصيبته، ويقنع الوالد ولو احتمالاً أن الأمر ليس تدبيراً كيدياً سيئاً أعده الأخوة، فهذا واحد من البقية قد فقد.

قال كبيرهم: ألستم تعلمون أن والدكم واثقكم بالله ولم يصرح بماذا أخذ عليهم موثقاً ولاحظ طريقة القرآن في الاختصار وتأمل النص: قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف[1]. كأنه يريد أن يقول: أخذ عليكم موثقاً من الله ألا تفرطوا فيه فهل تفرطون فيه كالذي فرطتم في يوسف وتعودون إلى أبيكم دونه كما رجعتم دون يوسف. أما أنا فإني لن أغادر موقعي حتى يأتيني إذن من أبي أن أعود وأدخل عليه، وإلا فإني مقيم ما شاء الله أن أقيم، أو يحكم الله بحكم بأن يخرج الولد مثلاً فأعود به، أو أي أمر آخر تخبئه المقادير. .

والله سبحانه خير الحاكمين في قضيتنا وفي كل قضية.

﴿فلما استيأسوا منه﴾

«استيأسوا بمعنى يئسوا، فالسين والتاء للتأكيد، ومثلها «فاستجاب» و«فاستعصم»

(١) قال الشيخ عبد الحميد كحيل في معناها: ومن قبل ذلك تفريطكم في يوسف ثابت وواضح ومعلوم لأبيكم ومستقر في ذاكرته. ص ١٣٥



واليأس منه: اليأس من إطلاقه أخاهم، فهو من تعليق الحكم بالـذات، والمراد بعض أحوالها بقرينة المقام، للمبالغة.

خلصوا: بمعنى اعتزلـوا وانفردوا. وأصله من الخلوص، وهـو الصفـاء من الأخلاط.

والنجي: اسم من المناجاة. والمعنى انفـردوا تناجيـاً. والتنـاجي المحـادثـة سراً، أي متناجين.

وجملة قـال كبيـرهم بـدل من جملة خلصـوا نجيـاً، وهـو بـدل اشتمال، والاستفهـام في ألم تعلمـوا تقـريـري مستعمـل في التـذكـير بعـدم اطمئنـان أبيهم بحفظهم لابنه.

وجملة ومن قبل ما فـرطتم جملة معترضـة، وما مصـدرية، أي تفـريطكم في يوسف عليه السلام، كان قبل الموثق، أي فهـو غير مصـدقكم فيما تخـبرون به من أخذ هذا الأخ في سرقة الصواع. وفرّع عليه الكبير أنه يبقى في مصر ليكـون بقاؤه علامة عند يعقوب عليه السلام يعرف بها صـدقهم في سبب تخلف بنيامـين، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريباً لولا خوفه من أبيه، وقوله أو يحكم الله لي ترديد بين ما رسمه هو لنفسه وبين ما عسى أن يكون الله قدره له مما لا قبل لـه بدفعـه، فحذف متعلق يحكم المجرور بالباءلتنزيل فعل يحكم منزلة ما لا يطلب متعلقاً.

لي أيْ بما فيه نفعي. والمراد بالحكم التقدير.

خير الحاكمين فهو الذي حكمه لاجور فيه، ولا يستطيع أحد نقضه»[1]

«خلصوا: أي اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم.

نجياً: ذوي نجوى، أو فوجاً نجياً أي مناجياً، لمناجاة بعضهم بعضاً.

وأحسن منـه ما يمكن أن يقـال إنهم تمحّضوا تنـاجيـاً لاستجـماعهم لـذلـك وإفـاضتهم فيه، بجـد واهتمام كـأنهم في أنفسهم صورة التنـاجي وحقيقته، فعلوا

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٣٩ ـ ص ٤٠



ذلك لكي يتفاوضوا في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم.

لقد وقع الأخوة في حيص بيص، وفي قريب مما كان فيه يوسف أيام الجب، وكما تدين تدان:

فأصبحوا ولسان الحال ينشدهم   هذا بذاك ولا عتب على الزمن»

والنجي والنجوى والتناجي مصادر بمعنى المسارّة في الحديث، وأصله من النجوة وهي المكان المرتفع عما حوله، بحيث ينفرد من فيه عمن حوله، أو من النجاة كأنه نجا بسره ممن يحذر اطلاعهم عليه.

والغالب في التناجي أن يكون خيراً للمتناجين، وشراً لغيرهم، أو مؤذياً لهم ولو من بعض الوجوه، كأسرار الحرب والسياسة التي يتوخى بها أهلها نفع أنفسهم وضرر غيرهم، فيكتمون أخبارها، ويجعلونها نجياً بينهم، لئلا تصل إلى خصومهم، وعدوهم الذي يضره ما ينفعهم، وينفعه ما يحبط عملهم ويبطل كيدهم.

فالنجوى تكون في الخير، ولكن الأكثر أن تكون في الشر، ولذلك كانت النجوى مظنة الإثم والشر، والحكمة في كون النجوى مظنة الشر في الأكثر، هي أن العادة الغالبة وسنة الفطرة المتبعة هي استحباب إظهار الخير والتحدث به في الملأ، وأن الشر والإثم هو الذي يخفى، ويذكر في السر والنجوى، ولهذا قال الله تعالى: **﴿لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف، أو إصلاح بين الناس.﴾** والنجوى ههنا هي من قبيل هذا النوع الثالث وهو الإصلاح لأنهم يتناجون لما فيه صالح أخيهم، أو لصالحهم جميعاً فيما بينهم وبين عزيز مصر، أو فيما بينهم وبين أبيهم إذا رجعوا إليه ماذا يقولون له في شأن أخيهم.[1]

﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً..﴾

«اليأس ضد الطمع، يقال: يئس يأساً واستيأس استيئاساً، فهو يائس، ومستيئس، وآيس.

(١) المؤتمر جـ٢ ص ١٠٦١ - ص ١٠٦٦



وقوله: ﴿خلصوا نجيّاً﴾: أي انفردوا من غير أن يكون معهم غيرهم ممن ليس منهم، وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة لأنه بقوله: خلصوا دل على ما قلناه من الكلام الطويل.

وأصل الخلوص حصول الشيء من غير شائب فيه من غيره، كخلوص الذهب.

والنجي مصدر يدل على القليل والكثير، والواحد والجمع. والنجوى مثله. قال تعالى في الواحد: ﴿وقربناه نجيّاً﴾ وفي الجمع ﴿خلصوا نجيّاً﴾.

والمناجاة رفع المعنى من كل واحد إلى صاحبه على وجه خفي ـ وأصل النجو الارتفاع من الأرض. والمناجاة المسارّة. ونجي جمعه أنجية، وهم يتناجون.[1]

آية ٨١

﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين﴾.

إني ماكث فارجعوا بالخبر إلى أبيكم فقولوا له الذي رأيتم من سرقة ابنه، وهذا الأمر، قولوا لأبيكم: أنكم ما علمتموه وما عاينتموه، لكن ما الذي في الغيب مخبأ من الحقيقة، هل هي تطابق الذي عايناه أو لا تطابقه، هذا ما لا نعلمه. نحن نعلم الذي شاهدناه من أمر هذا الأخ..

أو قد يكون معنى وما كنا للغيب حافظين، أنك يا أبانا واثقتنا ألا نفرط فيه وألا نقصر لكنا لم نكن نحسب حساب ما يخبىء الغيب من أن الولد سيسرق فيؤخذ فنعود دونه، هذا غيب لم نكن نحسب له حساباً فلسنا بالتالي مقصرين.

وقد يخطر بالبال سؤال: ألم يكن من الأوفق أن لا يحتجز يوسف أخاه عنده حتى لا يسبب لأبيه من الألم ما يسبب؟

والجواب أيضاً لا. إن العملية الجراحية مؤلمة، لكنها لوجود المرض تكون

(١) التبيان حـ٦ ص ١٧٨



نعمة. . وإن احتجاز الأخ مؤلم ليعقوب، لكن كيف الوصول إلى الولد من بين هؤلاء الإخوة الذين لو علموا أنه سيصير إلى جوار أخيه معززاً لربما قتلوه قبل أن يصل إلى هذا النعيم.

وقد وجدت ابن حزم بعد كتابة الأسطر السابقة بسنوات قد قال رحمه الله تعالى في الملل و النحل: «أما أخذه أخاه وإيحاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه، ولعلهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم، ولا سبب إلى أن يظن برسول الله ﷺ الذي أوتي العلم والمعرفة بالتأويل إلا أحسن الوجوه، ولا يحل أن يظن بمسلم فاضل عقوق أبيه، فكيف برسول الله صلوات الله عليه؟ وأما ظنهم أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل، فهذا جهل شديد ممن ظن هذا. . .»(1)

﴿ارجعوا إلى أبيكم. .﴾

«لقنهم كبيرهم ما يقولون لأبيهم. .

وقوله: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾: احتراس من تحقق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه.

والغيب: الأحوال الغائبة عن المرء. والحفظ بمعنى العلم.

وسؤال القرية مجاز عن سؤال أهلها. والمراد بها مدينة مصر. والمدينة والقرية مترادفتان. وقد خصت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة.

والمراد بالعير التي كانوا فيها رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان. فأما سؤال العير فسهل وأما سؤال القرية فيكون بالإرسال أو المراسلة أو الذهاب بنفسه إن أراد الاستثبات.»(2)

---

(1) الملل والنحل حـ ٤ ص ٣٨ ط صبيح
والقاسمي حـ٩ ص ٣٦٣٣ - ص ٣٦٣٤

(2) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٤٠ - ص ٤١

آية ٨٢

﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾.

ولا ندري هذا الكلام من تمام الوصية التي قالها الكبير للإخوة، أم هو من كلام الأولاد لأبيهم مباشرة، المهم أن السياق يطوي الزمان والمكان ليقفنا أمام يعقوب، وهذه الجملة تدوي في مجلسه تنتظر جوابه.

واسأل القرية التي كنا فيها، أي قرية؟ أتريدون أن يسأل مصر وكيف الوصول والسبيل، وكيف سموها قرية؟ القرية في اللغة العربية هي مجتمع الناس، لكن الاصطلاح اليوم يجعلها بمفهوم معين هو ما دون المدينة. والقرآن اعتبر كل مجتمع قرية ﴿وان من قرية الا خلا فيها نذير﴾. ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾. وهي في الاستعمال القرآني مرادفة للمدينة: وقال نسوة في المدينة..

واسأل كذلك، واسأل بدل ذلك إن شئت القافلة التي جئنا فيها، ولا نخبرك إلا بالصدق، وإنا لصادقون بهذه الصيغة المؤكدة. ولاحظ الفرق بين هذه الكلمة وكلمتهم في أول السورة: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾.

أرأيت كيف تفصح الكلمات عن مكنون الصدور من مشاعر كل إفصاح، وكيف إذا كان الذي ينقل هذه الكلمات القرآن الكريم كلام رب العالمين.

ولهذا المعنى، معنى تعبير الكلام عن المكنون قال القائل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا.

وإن الأخوة «ما ازدادوا إقامة حجة إلا ازداد يعقوب عليه السلام في قولهم شبهة.»(١)

آية ٨٣

﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم.﴾

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ١٩٨



نفس الكلمة يقولها يعقوب للفعْلة المشابهة لفعلتهم الأولى، ولكنّ الوضع في هذه المرة مختلف جداً . .

ولاحظ الثبات في هذه الشخصية يتجلى من خلال ثبات الكلمات، ولاحظ الثقة في الله تعالى والأمل في فرج الله، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً . .

لقد كان يعقوب بمصيبة فصار الآن بثلاث مصائب، فإذا تأزمت الأمور آذنت بفرج، وإنه لم يكن يوماً متأملاً كما هو اليوم:

اشتدي أزمة تنفرجي   قد آذن ليلك بالبلج

فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا.

وكما قال القائل:

رب أمر تتقيه فيه أمر تبتغيه   خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

ولربما نثر الجمان تعمداً   ليعاد أحسن في النظام وأكملا

إن الله سبحانه عليم بحالي، وحالهم وحال خلْقه، حكيم في أفعاله سبحانه، فلست أشك ولا أشكو.

وفي اللطائف: «أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه الصبر بقوله: ﴿فصبر جميل﴾، ثم لم يمسِ حتى قال: يا أسفا على يوسف. ليعلم أن عزم الأحباب على الصبر منقوض. .»[1]

وقال في المؤتمر:

«نقرأ في كتاب الله آية، فنجدها كأنها فصلت ثوباً سابغاً ليعقوب عليه السلام: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين.﴾[2].

قال: ﴿بل سوّلت . .﴾

«جعلت جملة ﴿بل سوّلت﴾ في صورة الجواب عن الكلام الذي لقنه أخوهم لهم على طريقة الإيجاز.

---

(١) لطائف الإشارات حـ٣ ص ١٩٩

(٢) المؤتمر حـ٢ ص ١٠٨٠



والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقنه إياهم أخوهم، قال أبوهم: ﴿بل سوّلت. . .﴾

وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف عليه السلام أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم. قال ابن عطية: ظن بهم سوءاً فصدق ظنه في زعمهم في يوسف عليه السلام، ولم يتحقق ما ظنه في أمر ابنه الثاني شقيق يوسف، أي أخطأ ما ظنه بهم في هذا، ومستنده في هذا الظن علمه أن ابنه لا يسرق، فعلم أن في دعوى السرقة مكيدة، فظنُه صادق على الجملة لا على التفصيل. وأما تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالأوا على أخيهم فهو ظن مستند إلى القياس على ماسبق من أمرهم في قضية يوسف فانه كان قال لهم: «هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل.» ويجوز على النبي الخطأ في الظن في أمور العادات.

ولعله اتهم الكبير أن يكون قد اختفى لترويج دعوى إخوته.

وضمير «بهم» ليوسف وشقيقه والكبير، وهذا كشف منه عليه السلام، اذ لم ييأس من حياة يوسف عليه السلام.

وجملة ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾: تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة، حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق.»[1]

ووصف الله تعالى نفسه ﴿بالعليم الحكيم﴾ في هذه الآية هو الثاني والأوسط من بين مرات ثلاث وصف تعالى نفسه فيها بهذين الوصفين والاسمين الجليلين مجتمعين. أما وصفه سبحانه بالعلم فتكرر مرات في هذه السورة. .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في إعجاز القرآن:

«الاسم الكريم: العليم ورد في مئة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم، مفرداً ومع غيره من الأسماء الحسنى، مقدماً على بعضها، ومتأخراً عن بعضها الآخر. وقد اجتمع اسم العليم مع حكيم، وسميع، وحليم وواسع، وخبير، وقدير، وعزيز، وفتاح، وخلاق، وشاكر. .

(١) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٤١.



وأكثر حالات اجتماعه مع الاسمين الكريمين: سميع، وحكيم.. وفي اجتماعه مع سميع كان يتأخر عنه، أما في اجتماعه مع حكيم فإنه يتقدم عليه في أكثر المواضع..

وقد ورد السميع مع العليم في ثلاثين موضعاً، كما ورد العليم أيضاً مع الحكيم في ثلاثين موضعاً كذلك في القرآن الكريم..

وهناك مواضع يقدم فيها الحكيم على العليم.. فيقدم العليم على الحكيم حين تكون الحال داعية للعلم أولاً وللحكمة ثانياً، ويقدم الحكيم مع العليم حين يكون المطلوب الحكمة أولاً. ثم العلم ثانياً...

ففي قصة آدم قال الملائكة حين عجزوا عن أن يجيبوا: ﴿**إنك أنت العليم الحكيم**﴾ أقروا بأنهم لا يعلمون شيئاً إلا أنْ يعلمهم الله إياه.. فهم يطلبون علم الله، وعلم الله يصيب من يشاء بحسب ما تقضي به حكمته..

وفي قوله تعالى: ﴿**وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم**﴾ قدم حكيم على عليم لأن نزول القرآن على النبي الكريم واصطفاءه لهذه الرسالة لحكمة يعلمها الله..»[1]

«أما ﴿**الحكيم**﴾ وقد ذكر في القرآن ٩٧ مرة، فإنه لم يطلق إلا على الله ٩٢ مرة وعلى القرآن ٤ مرات، وعلى أمر الله الذي يفرق في ليلة مباركة أنزل الله فيها القرآن مرة واحدة فقط.

فالحكيم هو الله سبحانه لا غير.. والحكيم أيضاً كلام الحكيم وآيات الحكيم المنزلة في القرآن الحكيم وفق أمر الله الحكيم في الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم[2].»

آية ٨٤

﴿**وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾.

---

(١) عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن حـ٢ ص ٢٥٨ ـ ص ٢٦١ باختصار. ط١: دار الفكر العربي: القاهرة ١٩٦٤.

(٢) د. محمد بن فتح الله بدران: الفلسفة الحديثة في الميزان ص ١٧٤ ـ ص ١٧٦ بتصرف يسير.



لقد هجر الناس واعتزل، أو انصرف عنهم، تاركاً قولهم وتأكيداتهم، خالياً إلى نفسه، ممتلئاً حزناً، قائلاً: ﴿يا أسفى على يوسف﴾، ويا لها من كلمة تقطر حزناً ومرارة، وحرقة ولهفة، وهذه الكلمة ومثيلاتها في اللغة العربية مثل يا حسرتى، يا ويلتى، لا يقصد بها حقيقة النداء، وإنما هي مجاز كأنه ينادي الأسف أن يسعفه.

والأسف هو الحزن والأسى: فلعلك باخع نفسك على اثارهم إن لم يؤمنوا بهذاالحديث أسفاً. وإذا كانت مشاعر الحزن أو غيره أقوى من تحمل الحواس فقد تعطل وظيفة بعض هذه الحواس.. وأحياناً يشتد الحزن إلى درجة يجفف معها الدموع فيتحول الحزن إلى احتراق داخلي قد يؤذي الإنسان عضوياً وقد يفقده بصره..

ومن هنا كان وصية علي رضي الله عنه: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك يوماً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

التوازن العاطفي مطلوب، ولا يستهلك الإنسان في هوى شيء ولا في بغض شيء. المهم أن عيني يعقوب عليه السلام ابيضت من شدة الحزن.. وجف دمعه فهو مكظوم، يملؤه الحزن فيأكل من أعصابه وكبده..

والمصيبة الداهية أنه يعتقد أنه لا فائدة من أولاده، وهذه مصيبة فوق مصيبة الفقد. بل هذا فقد معنوي أشد. فهو فاقد من غاب، وفاقد من حضر..

والمهم أن يعقوب مع المصيبة الجديدة ذكر يوسف وما أشار إلى المصيبة الجديدة فهو يقول: ﴿يا أسفى على يوسف﴾.

وفعلاً ان الشجا يبعث الشجا، والأسى يحيي الأسى.

إن وقع الجرح على الجرح مؤلم جداً، كما قال القائل:

متى يستريح القلب والقلب متعب ... بين على بين وهجر على هجر

وكما قال القائل:

فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال



إن يعقوب لما لم يجد معيناً من أولاده في بلواه تولى عن الجميع، وانفرد بإظهار أسفه:

وكقول القائل:

فريد عن الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد.

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك القلب بالسر خالياً

قال في المحاسن:

«الأسف أشد الحزن والحسرة على ما فات. وإنما تأسف على يوسف دون أخويه والحادث الرزء فيهما. والرزء الأحدث أشد على النفس، وأظهر أثراً، لأن الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده، فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ولأنه لم يزل عن فكره، فكان غضاً طرياً عنده، كما قيل:

نعى الركبُ (أوفى) حين آبت ركابهم لعمري لقد جاءوا بشرّ فأوجعوا

نعوا باسق الأخلاق لا يخْلُفونه تكاد الجبال الصم منه تَصَدَّع

فعزيت عن (أوفى) بـ (غَيلان) بَعده عزاءً، وجفن العين بالماء مترع

ولم تنسني (أوفى) المصيباتُ بَعده ولكن نكء القرح بالقرح أوجع»[1]

وفي التعبير بابيضاض العين دون التعبير بالعمى ما فيه من التلطف بيعقوب عليه السلام.

وكان يعقوب في غيبة يوسف يتسلى عنه نوعاً برؤية أخيه، أما وقد غابا جميعاً فصار حال يعقوب كقول الشاعر:

لما تيقنت أني لست أبصركم أغمضت عيني فلم أنظر إلى أحد

(١) محاسن التأويل للقاسمي جـ ٩ ص ٣٥٨٢ والابيات قائلها هشام، أخو ذي الرمة، وغيلان هو ذو الرمة، وارجع الى الكامل للمبرد، حـ ١ ص ٢٢٣، ط الحلبي.

قال في المؤتمر:

«الأسف أشد الحزن والحسرة، يقال أسف كتعب: حزن وتلهف، فهو أسف مثل تعب. والألف بدل من ياء الإضافة.

وإنما أسف هنا على يوسف، مع أن المقام مقام أسف على أخيه أو أخويه، والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثراً لأن أسفه على يوسف كان متمادياً لم ينقطع قط، فكأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً طرياً، ولأنه لم يقع حادث عنده موقعه.

ثم بين الشيخ العلمي رحمه الله أن ابيضاض عيني يعقوب لا يعني العمى، بل ضعف رؤية وإدراك الأشياء، إذ العمى لا يجوز على أنبياء الله لأنه منفر. وقوله تعالى ﴿فهو كظيم﴾: أي مملوء من الغيظ لأجل أولاده، ولا يظهر ما يسوؤهم وفعيل بمعنى مفعول، أي فهو مكظوم، من كظم السقاء: إذا شدّ على ملئه، والكظَم بفتح الظاء مخرج النفس، يقال: أخذ بأكظامه.

ثم سأل الشيخ ليجيب: كيف بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه مع أنه وعد أن يصبر صبراً جميلاً؟ فقال: ليس مطلق بكاء هو من نوع منافيات الصبر ومجرد البكاء ولو كان كثيراً لا يسمى جزعاً، ثم استشهد بحديث: إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا بفراقك لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وعن الحسن أنه بكى على ولده أو غيره فقيل له في ذلك، فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب».

وفي الختام نعلم من هذه السورة الشريفة أن حياة يعقوب عليه السلام كانت مفعمة بحوادث الأحزان والكروب النادرة في التاريخ، مما لا يطيق مثله إلا مثله عليه السلام.[1][2]

---

(١) المؤتمر حـ٢ ص ١٠٨١ ؛ ص ١٠٨٤

(٢) من طريف شأن قصة يوسف أنها قصة مليئة بمواقف الحزن، والطريف أن العلامة الرازي وجدته يقول: انه ختم تفسيرها وهو مغموم محزون جداً لوفاة ولده محمد.



قال الرازي:

«واعلم أن يعقوب لما ضاق صدره بسبب الكلام الذي سمعه من أبنائه عظم أسفه على يوسف عليه السلام، وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

١ ـ أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن. والقرح إذا وقع على القرح كان أوجع. قال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه إذا رأى قبراً فتجدد حزنه على أخيه مالك.

٢ ـ أن يوسف وأخاه كانا من أم واحدة، وربما كانت المشابهة بينهما في الصورة والصفة أكمل، فكان يعقوب يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف، فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السُّلوة فعظم الألم والوجد.

٣ ـ أن المصيبة في يوسف كانت أصل مصائبه كلها التي عليها ترتب سائر المصائب، والرزايا، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

٤ ـ أن المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التي يمكن معرفتها والبحث عنها، أضف إلى أن مكان من فقد مؤخراً معلوم، أما يوسف فما يعلم يعقوب له مكاناً، ولا للمصيبة فيه كيفية». [1]

﴿يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه..﴾

أي يا حزني الشديد على يوسف احضر فهذا أوانك.

وإنما ذكر يوسف لأن فراقه أول ابتلائه.

وابيضت عيناه من الحزن: وقد أثر الحزن عليه حتى أحدث بياضاً في عينيه

---

(١) الرازي: التفسير الكبير حـ١٨ ص ١٩٣ بتصرف.



غشى سوادهما، وهذا البياض يزول إذا زال الحزن ويعود سواد العينين كما كان، وهو لا يحدث العمى وإن كان يضعف النظر ما دام الحزن باقياً.

فهو كظيم: أي مليء بالحزن ولكنه يكتمه في نفسه ولا ينشره للناس، والحزن والبكاء من الأمور التي تعتري النفوس وتغلب عليها دون أن يكون للإنسان اختيار في جلبها دون أن يستطيع دفعها عنه. وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون.[1]

﴿وَتَوَلَّىٰ عنهم..﴾

«انتقال إلى حكاية يعقوب عليه السلام في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولي حاصل عقب المحاورة. وتولى: انصرف، وهو انصراف غضب.

ولما كان التولي يقتضي الاختلاء بنفسه ذكر من أحواله تجدد أسفه على يوسف عليه السلام، فقال:

يا أسفا على يوسف. والأسف:أشد الحزن، أسف كحزن.

ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزل من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك، وأضاف الأسف إلى ضمير نفسه لأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف.

والألف عوض عن ياء المتكلم فإنها في النداء تبدل ألفا.

وابيضاض العينين: ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال. ولذلك عبر بابيضت عيناه دون عميت عيناه.

في قوله من الحزن سببية. والحزن سبب البكاء الكثير الذي هو سبب ابيضاض العينين.

وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار.

(١) نظرات في التفسير ص ١٣٨



وإن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر، فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الابصار.

والكظيم: مبالغة للكاظم، والكظم: الإمساك النفساني، أي كاظم للحزن لا يظهره بين الناس، ويبكي في خلوته، أو هو فعيل بمعنى مفعول، أي محزون كقوله: ﴿وهو مكظوم﴾(١).

آية ٨٥

﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين.﴾

والقسم بهذه الصيغة قلنا انه تكرر في هذه السورة ما لم يتكرر في القرآن كله.

والمعنى: والله لا تزال تذكر يوسف لا تنقطع عن ذلك حتى تقارب الهلاك أو تكون في عداد الهالكين..

ولاحظ سيطرة حرف التاء على جرس كلمات الآية تالله تفتأ تذكر، حتى تكون، أو تكون.. مما يوحي بجو التعنيف..

قال في المؤتمر:

«وهذه التاء في تالله حرف قسم كالباء والواو، ولكن فيها زيادة معنى التعجب كأنهم تعجبوا من قوله: ﴿يا أسفا على يوسف﴾.

تفتأ: أي لا تفتأ، أي لا تزال، وحذف حرف النفي، لأنه لا يلتبس بالإثبات.
ونحوه: فقلت يمين الله أبرح قاعداً.

حرضاً: مشفياً على الهلاك مرضاً، يقال أحرضه المرض، فهو حرِض وحرَض، بالكسر والفتح وكلام الأبناء مع يعقوب نصيحة منهم له، وإشفاق عليه، يمازجه شيء من اللوم والتعنيف.»(٢)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٤٢ ـ ص ٤٣

(٢) المؤتمر حـ٢ ص ١٠٩٧ ـ ص ١٠٩٨



﴿حرضاً﴾

«الحرض ذو المرض والبلى، وأصل الحرض فساد العقل والجسم للحزن والحب. قال العرجي:

إني أمرؤ لج بي حب فأحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم

ولا يثنى حرض ولا يجمع لأنه مصدر، يقال حرضه على فلان أي أفسده عليه بما يغريه.

وإنما قالوا هذا القول إشفاقاً عليه وكفّاً له عن البكاء، أي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه، لأنه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه. أو تموت بالغم. والهلاك ذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب أين هو، فالميت هالك لهذا المعنى».

ثم سأل الطوسي عن صنيع يوسف هذا، وما جلبه لأبيه من الغم وأجاب عن حكمة ذلك بقوله: إن في هذا الفعل وجوهاً من الحكمة:

«منها اغمام أبيه بالأمر اليسير ليزيل عنه الغم العَظيم، وتأتيه البشرى بسلامتها على أجمل حال يتمنى لهما، وذلك يحسن ولا يقبح.»[1]

قال في التحرير والتنوير:

«التاء حرف قسم وهي عوض عن واو القسم، قال في الكشاف: «التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب.» وفسر الطيبي قوله بأن المقسم عليه بالتاء يكون نادر الوقوع لأن الشيء المتعجب منه لا يكثر وقوعه ومن ثم قل استعمال التاء إلا مع اسم الجلالة لأن القسم باسم الجلالة أقوى القسم.

وجواب القسم هو تفتأ تذكر يوسف باعتبار ما بعده من الغاية، لأن المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف عليه السلام، وليس المقصود تحقيق أنه لا ينقطع عن تذكر يوسف.

وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدر، بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد

(١) التبيان حـ٦ ص ١٨٣ ـ ص ١٨٥



لأنه لو كان مثبتاً لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

ومعنى تفتأ: تفتر. يقال: فتِئ إذا فتر عن الشيء. والمعنى لا تفتر في حال كونك تذكر يوسف. ولملازمة النفي لهذا الفعل، ولزوم حالٍ يعقب فاعله صار شبيهاً بالأفعال الناقصة.

حرضاً: مصدر هو شدة المشفي على الهلاك، وهو وصف بالمصدر، أي حتى تكون حرضاً أي بالياً لا شعور لك. ومقصودهم الإنكار عليه صداً له عن مداومة ذكر يوسف على لسانه لان ذكره باللسان يفضي إلى دوام حضُوره في ذهنه.

وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأن يذكر أمراً لا طمع في تداركه، فأجابهم بأن ذكره يوسف موجه إلى الله دعاء بأن يرده عليه.

فقوله: ﴿يا أسفا على يوسف﴾ تعريض بدعاء الله أن يزيل أسفه برد يوسف عليه السلام إليه لأنه كان يعلم أن يوسف لم يهلك.

فجملة ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ مفيدة قصر شكواه على التعلق باسم الله، أي يشكو إلى الله لا إلى نفسه ليجدد الحزن، فصارت الشكوى بهذا القصد ضراعة وهي عبادة لأن الدعاء عبادة.[1]

آية ٨٦

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

قال لست أشكو لكم، فلا تراجعوني في حالتي، كأنه يقول: ما لكم ومالي.

إنما أشكو إلى الله ما أجد في أحشائي من حزن وألم يبث، ولكنّ الحزن شيء والاطمئنان إلى الله شيء آخر، فإني أعلم من الله ما لا تعلمون.

إنما الحزن على الفراق لا على ظن الموت، فهو يعلم من الله يقيناً أنهم أحياء.

كل هذا الحزن وهو يعلم أنهم مضمونون مكفولون أحياء.. فكيف لو لم يكن يعلم هذا؟.

---

(١) التحرير حـ١٣ ص ٤٣ ـ ص ٤٤



ربما قيل انه كان استراح. . وأقول إن المشاعر البشرية ليست على شاكلة واحدة، فهذا ممكن، ونقيضه ممكن.

إن الإنسان ليس كيمياء. . إنه كتلة مشاعر مرهفة حساسة، ولكل طبيعته وهل نلوم يعقوب ان كان رقيق القلب، وهل نلومه ان كان بحراً في المشاعر غزير العواطف. .

وهل كل ولد يوسف؟!. . لا تنسوا هذه أيضاً. .

قال في اللطائف: «شكا إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ولما شكا إلى الله وجد الخَلَف من الله.

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة   تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا[1]

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾

«البث: الهم الشديد. وهو التفكير في الشيء المسيء. والحزن الأسف على فائت. فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب لأنه كان مهتماً بالتفكير في مصير يوسف، وما كان يعترضه من الكرب في غربته، وكان آسفاً على فراقه.

وقد أعقب كلامه بقوله: «وأعلم من الله ما لا تعلمون» لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه، أي أنا أعلم علماً من عند الله علمنيه لا تعلمونه وهو علم النبوة.

وفي هذا تعريفهم برد تعرضّهم بأنه يطمع في المحال بأن ما يحسبونه محالاً سيقع. ثم صرح لهم بشيء مما يعلمه وكاشفهم بمايحقق كذبهم ادعاء ائتكال الذئب يوسف حين اذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى فقال: **﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾** [2].

---

(١) اللطائف حـ٣ ص ٢٠٠ ـ ص ٢٠١

(٢) التحرير حـ١٣ ص ٤٥



آية ٨٧

﴿يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

إن الذي يعلمه من الله ولا يعلمونه أن يوسف حي، فاذهبوا فتحسسوا وتحروا وابحثوا عن أخبار يوسف وأخيه، ولم يذكر الكبير، لأنه ليس له مشكلة أصلاً، ويملأ نفوسهم بالإيمان فيقول: ولا تيأسوا من روح الله، من رحمة الله، فإنه يا بني لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون بالله الذين لا يعرفون الله ولا سعة رحمته. . وقد يقال: ما دام الله عز وجل قد أعلمه أن ابنه بخير، أو أنه حي، فلماذا لا يعطيه الله المعلومات التفصيلية؟

والسؤال يدل على عدم علم بطريقة التربية الإلهية، ولا بسنة الله الجارية في خلقه. إن الابتلاء جد لا هزل. . ولكنه ابتلاء برفق ولطف. . ولا تناقض. . لو أن الله عز وجل فتح الحجب وطوى الزمان بين يعقوب ويوسف، وهو سبحانه يستطيع، فيصبح كأي ولد في الدراسة أو العمل اتصل به يومياً بالهاتف، أسأله أحواله وأسمع صوته ثم آوي إلى سريري قرير العين. . فرحاً مغتبطاً بأنه اجتاز مرحلة دراسية أو حصّل درجات. . أو ما شاكل. . أين البلاء في هذا؟!

الخلاصة أن الابتلاء جد. . لا لعب.

والغريب أن الأخوة لم يردوا على أبيهم حين سمعوا منه قوله: **﴿فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾**، لم يقولوا له: يوسف من؟ لقد أكله الذئب ورحم الله فتى كان اسمه يوسف. لقد سكتوا فهم قد اعترفوا ضمنياً بل وبصراحة بأنهم كاذبون في دعوى الذئب، وهذا يدل على أنهم لا يريدون فعلاً إعنات أبيهم فهم لا يحتملون أن يهزوه هزة جديدة، أو هم داخلياً يرون أنه آن أوان الصدق. . فسكتوا لقد بقي بينهم وبين النبع ضربة فأس. .

قال في لطائف الإشارات:

«كان يعقوب يبعث بنيه في طلب يوسف، وكان الأخوة يخرجون بطلب الميرة، وفي اعتقادهم هلاك يوسف. . وكل إنسان وهمُّه.



وقوله: ﴿فتحسسوا﴾ أمر بطلب يوسف بجميع حواسهم، بالبصر لعلهم تقع عليه أعينهم، وبالسمع لعلهم يسمعون ذكره، وبالشم لعلهم يجدون ريحه، وقد توهم يعقوب أنهم مثله في إرادة الوقوف على شأنه.

ويقال: لم يكن ليعقوب أحد من الأولاد بمكان يوسف، فظهر من قلة الصبر عليه ما ظهر، وآثر غيبة الباقين من الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده.. فشتان بين حاله معهم وبين حاله مع يوسف. واحدٌ ابيضت عيناه من الحزن لغيبته، وآخرون أمرهم باختياره بغيبتهم عنه». [1]

وقال في المؤتمر:

«التحسس طلب الشيء بالحاسة، وهو قريب من التجسس، وهو تعرف الشيء بواسطة الجس، أو التحسس في الخير، ومنه الحاسوس، والتجسس في الشر، ومنه الجاسوس، وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس، وكذلك الجوس. وهو طلب الشيء بالاستقصاء والتردد والطوف.

ويقال: التحسس، الاستماع لحديث القوم، والتجسس التفتيش عن بواطن الأمور، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير، وأحس يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي..

وروح الله فرجه أو هو فضيلة الرجاء ونعمة الأمل». [2]

﴿يَا بني اذهبوا...﴾

هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن في قوله وأعلم من الله ما لا تعلمون، ما يثير في أنفسهم ترقب مكاشفته على كذبهم، فإن صاحب الكيد كثير الظنون.

والتحسس شدة التطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس، فهو التطلب مع اختفاء وتستر.

والروح بفتح الراء النفس بفتح الفاء، استعير لكشف الكرب لأن الكرب

---

(١) لطائف الإشارات جـ٣ ص ٢٠١

(٢) المؤتمر جـ٢ ص ١١١٣ ـ ١١١٤



والهم يطلق عليهما الغم وضيق النفَس وضيق الصدر، وكذلك يطلق التنفس والتروح على ضد ذلك، ومنه استعارة قولهم: تنفس الصبح إذا زالت ظلمة الليل.

يا بني: وفي خطابهم بوصف البنوة ترقيق لهم وتلطف ليكون أبعث على الامتثال.

وجملة: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾، تعليل للنهي عن اليأس، فموقع إن التعليل.

والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف عليه السلام، معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة. فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن أن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك، فحقه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها(١)

آية ٨٨

﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين﴾.

هنا أكثر من موقف، أولاً: إن يعقوب لعلى احساس داخلي بأن يوسف في مصر، وهم على نفس الإحساس، ولذلك لم يذهبوا إلا إلى مصر.. يحققون فيها مطلب أبيهم بالتحري عن يوسف..

ثانياً: طوى السياق ما الذي حصل للكبير.. هل كشف له يوسف عن نفسه وآواه أيضاً.. جائز..

ثالثاً: هم جاءوا يبحثون عن الأولاد، ولكنا نراهم حين دخلوا على العزيز ما بحثوا إلا قضية الطعام.. فما القضية؟

لقد راجعوا يوسف في شأن أخيهم حتى ليعتبرون الآن أن من التجاوز أن

---

(١) تفسير التحرير ج/١٣ ص ٤٥ ـ ص ٤٦



يراجعوه فيه مرة أخرى وإلا أثاروا سخطه. . ولذلك هم قدّموا شرح حالهم في هذا «العرضحال» الذي قدموه، تمهيداً إن رأوا فيه رقة لهم أن ينتقلوا إلى الموضوع الأصيل. .

وإنه لموقف يمكن أن نستنتج منه منتهى الحرج أو الحياء أوالحكمة، أو ذلك جميعاً. .

يا أيها العزيز لحقنا وأولادنا وأهلنا الفاقة والضرر والجوع، ولسنا نملك ما ندفع ثمناً للقمح الذي نريد أن تتصدق علينا به، اللهم إلا هذه البضاعة التي لا قيمة لها جئنا بها معنا من فلسطين، لكن الأمل في كرمك بعد الله لا في الثمن الذي نملك، فأعطنا ما عودتنا من كيل وافٍ كنت تكيله لنا، وتصدق علينا في ذلك الكيل أو زد لنا إن الله يثيب المتصدقين ويجزيهم ما الله يعلمه من جزاء حسن عظيم، وقد تركوا الفعل يجزي بدون مفعول. . لتذهب النفس في تقديره كل مذهب. وما أشبه استعطاف الأخوة ليوسف باستعطاف ذلك الضَّبيّ لعبد الملك بن مروان إذ قال:

والله ما ندري إذا ما فاتنا	طلب إليك من الذي نتطلب؟
فقد ضربنا في البلاد فلم نجد	أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنا التي عوّدتنا	أو، لا، فأرشدنا إلى من نذهب.

﴿مسنا وأهلنا الضر﴾

«مسنا: أصابنا.

المزجاة: القليلة التي لا يرغب فيها، فكأن صاحبها يزجيها، أي يدفعها بكلفة ليقبلها المدفوعة إليه. والمراد بها مال قليل للامتيار، ولذلك فرّع عليه فأوف لنا الكيل. وطلبوا التصدق منه تعريضاً بإطلاق أخيهم لأن ذلك فضل منه. . إذ صار مملوكاً له.

وجملة: إن الله يجزي المتصدقين تعليل لاستدعائهم التصدق عليهم»[1].

---

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٤٦ ـ ص ٤٧

قال القاسمي: «وأصل معنى التزجية الدفع والرمي فكنوا به عن القليل الذي يدفع رغبة عنه. ثم ذكر القاسمي من فوائد الآية أن فيها الإرشاد إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام المآرب، فإنها أنجح لها.

ويؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها»(1)

قال القشيري:

«لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضر، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام وما لأجله وجههم أبوهم.

فهم استلطفوه بقولهم مسنا وأهلنا الضر ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

وكأنهم قالوا: إن لم نستوجب معاملة البيع والشراء، فقد استحققنا بذل العطاء..(2)

آية ٨٩

﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾.

لقد هيئت النفوس الآن للمصارحة، بعد هذه المواقف المربّية التي مروا بها أو جعلهم الله يمرون بها.

وإنّ قشّة لو أزيلت عن النفوس والعيون لعرفوا أنه أخوهم لكنه لم يشأ أن يزيحها إلا في الوقت المناسب..

ومن هنا ودون أن يقول لهم انه يوسف، لمجرد أنه يذكر اسم يوسف أو بالسؤال عن يوسف، أو لذكر أي خيطٍ صلة بيوسف سيعلمون أنه يوسف..

انهم مع الشبه الأكيد بأخيهم.. كانوا لا يتوقفون ولا لمحة عند هذا الشبه لأنهم يعتبرون أن من قلة العقل الوقوف عند هذه الظاهرة، فهذا مصري.. أولاً. وعزيز ثانياً.. ويرون من المحال الذي لا يخطر لهم ببال أن يكون أخوهم

---

(1) محاسن التأويل حـ٩ ص ٣٥٨٥ ـ ص ٣٥٨٦

(2) لطائف الإشارات حـ٣ ص ٢٠٢



وصل إلى هذا الحال. . ولذلك كان الشبه لا يستوقفهم.

أما وأنه يذكر اسم يوسف. . ومع وجود الشبه. . فهو قطعاً يوسف.

وقوله اذ أنتم جاهلون:

جهلهم هنا ليس المقصود به قلة العلم لا، وإنما قلة الالتزام بالدين والعلم، أو قلة الأخلاق والحلم. لأن الجهل ضد العلم وهو أيضاً نقيض الحلم.

قال المعري:

والجهل داء قد تقادم عهده في العالمين ولا يزال عضالاً

وقول يوسف عليه السلام هذا الذي قاله لهم فيه العتاب من أكثر من وجه، فكأنهقال لهم: أنهيتم كلامكم، وأكثرتم خطابكم، فما كان في حديثكم إلا ذكر ضرورتكم. . أفلا يخطر ببالكم حديث أخيكم يوسف؟! وذلك في باب العتاب أعظم من كل عقوبة.

ثم هذا الافراد بذكر أخوّة الأخ ليوسف دون اخوّتهم: ﴿بيوسف وأخيه﴾. ثم وصفهم بالجهل. وفي الآية التالية عتاب آخر أحرّ وأمرّ إذ قال لهم: أنا يوسف وهذا أخي، فكأنه قال: إني أخ لمثل هذا لا لمثلكم، وهل ما عاملتموني به فعل الأخوة؟

وبعد أن بلغ العتاب منتهاه جاء طرح التثريب. .

والملاحظ أن يوسف عليه السلام ذكر فعل الأخوة به وبأخيه ولم يذكر ما فعلوه بأبيهم ولم يشر إلى ما حمّلوه إياه من الأذى، فقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، وذلك فيما أرى أنهم وإن كانوا آذوا أباهم إلا أنهم لم يكونوا يقصدون إيقاع الأذى عليه، بل على العكس كانوا يحرصون على اكتساب مودته، أما ما أوقعوه بيوسف فمقصود، وما عاملوا به أخاه من الجفاء مقصود كذلك.

قال في الظلال:

«وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة



شخصيته. فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله:

قال: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف..﴾

ورن في آذانهم صوتٌ لعلهم يذكرون شيئاً من نبراته. ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه في سمْت عزيز مصر وأبهته..[1]

﴿هل علمتم﴾: «الاستفهام مستعمل في التوبيخ.

وهل مفيدة للتحقيق لأنها بمعنى قد في الاستفهام، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققاً من أفعالهم مع يوسف عليه السلام وأخيه، أي أفعالهم الذميمة بقرينة التوبيخ، وهي بالنسبة ليوسف واضحة...

وقوله إذ أنتم جاهلون، جعل الزمن الذي فعلوا فيه ما فعلوا زمن جهالتهم وفيه تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد، وذلك إما بوحي من الله، أو بالفراسة لأنه لما رآهم حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء شقيق يوسف حين أخذ في تهمة السرقة وفي طلب سراحه في هذا الموقف مع الإلحاح في ذلك، وكان يعرف منهم معاكسة أبيهم في شأن أخيهم، علم أنهم ثابوا إلى الصلاح.

وإنما كاشفهم بحاله الآن لأن الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكن بأرض ولايته، وذلك كان متوقفاً على أشياء لعلها لم تتهيأ إلا حينئذٍ.

ونقل القاسمي عن المهايمي مناسبة بديعة في قول يوسف هل علمتم، اثر قولهم: إن الله يجزي المتصدقين، مفادها، أنهم أرادوا بقولهم الذي قالوا أن الله يعطي في الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوي، فأشار يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل، بوعد الأجر الآجل، ولا تدفعون عن أنفسكم الضرر الآجل، هل علمتم ما فعلتم بيوسف؟

(١) الظلال حـ٥ ص ٤٤ ـ ص ٤٥



ثم ذكر فائدة ثانية فقال: قيل: من تلطفه بهم قوله: إذ أنتم جاهلون، كالاعتذار عنهم، لان فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم. وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلفوا عذراً كهذا.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم بافراده عن أخيه، وجفاؤهم به.(١)

* * *

آية ٩٠

﴿قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

وسؤالهم فيه معنى التقرير أكثر من الاستفهام. ويكون الجواب أنا يوسف وهذا أخي. ولا ندري أين كان أخوه فأظهره فجأة، لربما كان أخفاه عن أعينهم حين علم بمجيئهم ولربما كان الأخ الأكبر أيضاً قد ضمه يوسف إلى حاشيته بعد أن تغير حاله وتبدل وضعه..

وقوله وهذا أخي يحمل من المعاني ما يحمل ومن الملام والتذكير بأسى الماضي ما يحمل، أنا يوسف وهذا أخي، نحن الذين تحملنا من بلائكم وسوء صنيعكم معنا ما لا يحتمل وكان صنيعكم معنا صنيع الأعداء لا صنيع الأخوة.. وقول يوسف هذا تعريض بأخوته وأخوّتهم كقول القائل:

وليس أخي إلا الصحيح وداده   ومن هو في وصلي وقربي راغب

قد منّ الله علينا كما ترون.. وهذه سنة الله في خلقه، وهذا ناموسه في

(١) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٨٧ وانظر الكشاف للزمخشري حـ٢ ص ٣٤١ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.



العباد: إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. . ولعل هذه الآية تلخص محور السورة ولب معانيها. . وحكمتها الكبرى.

«إن الاستفهام والتوكيد المتجاورين في مطلع الآية يكشفان عن حقيقة نفسية عميقة في طبيعة الإنسان، ويرسمان صورة بارعة لموقف إنساني واقعي في مثل هذه الحالة. لقد استرجعوا الصورة التي مرت عليها سنوات عديدة في لحظة واحدة، ولكنهم ما زالوا مبهوتين مترددين بين الشك واليقين. ويستطيع كل قارىء أن يتمثل في حياته الواقعية مثل هذا الموقف عندما يلتقي بإنسان فجأة بعد غياب استمر السنوات الطوال.

إن هذه الآية توضح أثر النبر والتنغيم في الدهشة التي تنطق بها الآية. وتوضح أثر العلاقات النحوية في ترتيب الكلمات لتؤدي المعنى المقصود، وأثر الصرف كذلك في اختيار الأفعال والحروف والضمائر التي تتكون منها تلك الآية، أو ذلك الجزء الأول منها، ويدل كل ذلك على دور السياق في بيان الدلالة.»(1)

﴿أإنك لأنت يوسف. .﴾

«قولهم هذا يدل على أنهم استشعروا من كلامه ثم من ملامحه، ثم من تفهم قول أبيهم لهم وأعلم من الله ما لا تعلمون، إذ قد اتضح لهم المعنى التعريضي من كلامه فعرفوا أنه يتكلم مريداً نفسه.

وتأكيد الجملة بانّ، ولام الابتداء، وضمير الفصل لشدة تحققهم أنه يوسف عليه السلام.

وأدخل الاستفهام التقريري على الجملة المؤكدة لأنهم تطلبوا تأييده لعلمهم به.

وجاء جوابه مجرداً عن التأكيد ﴿أنا يوسف﴾ لأنهم كانوا متحققين ذلك فلم يبق إلا تأييده لذلك.

وقوله: ﴿وهذا أخي﴾ خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة، فجملة قد من الله علينا بيان للمقصود من جملة وهذا أخي.

وجملة إنه من يتق ويصبر تعليل لجملة من الله علينا أراد يوسف تعليمهم

---

(1) التطور الدلالي، ص ٨٢.



وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى،وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على ما توهموه من إيثار أبيهم إيّاهما.

وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

وذكر المحسنين وضع للظاهر موضع المضمر، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم، فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه.

ثم إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء لأنه من التبليغ[1].»

آية ٩١.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾.

يحلفون له ويقسمون أمامه مكتشفين الحقيقة التي كانت مخفية عن أعينهم لأنهم كانوا يتعامون عنها وتحجبهم عنها أحقادهم الصغيرة وحسد قلوبهم. يقسمون أن الله فضله وآثره عليهم لخصائصه ومزاياه وأخلاقه وعدم استحقاقهم هم لشيء من ذلك لأنهم كانوا خاطئين.

وإن كنا لخاطئين.. ولقد أكدوا خطأهم بعدة مؤكدات اعترافاً.. وندماً..

وهبنا أسأنا نحو شخصك عامداً فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل

فإن لم نكن للعفو عندك بالذي أتينا به اهلاً فأنت له أهل

قال القشيري:

«اعترفوا بالفضل ليوسف عليه السلام حيث قالوا: لقد آثرك الله علينا، وأكدوا إقرارهم بالقسم وذلك بعد ما جحدوا فضله بقولهم: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين فلما اعترفوا وأقروا بما اتصفوا به من جرمهم بقولهم وإن كنا لخاطئين وجدوا التجاوز عنهم.»[2]

(١) التحرير حـ١٣ ص ٤٨ - ص ٤٩

(٢) اللطائف حـ٣ ص ٢٠٤



لقد حسد إخوة يوسف يـوسف لما لم يكن ثمـة ما يـوجب حسداً، أمـا الآن وقد أصبح يوسف في سدة الحكم عـزيزاً، وتـوفرت أسبـاب الحسد الجـوهريـة فما عساهم يصنعون؟

«الإيثـار: التفضيل بـالعطاء. وصيغـة اليمين المستعملة في لازم الفـائـدة، وهي علمهم ويقينهم بأن ما نـاله هـو تفضيل من الله وأنهم عـرفوا مـرتبته، وليس المقصود إفادة تحصيل ذلك لأن يوسف عليه السلام يعلمه.

والمراد: الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من النعم.

واعترفوا بذنبهم إذ قالوا: وإن كنا لخـاطئين. والخـاطيء فاعل الخطيئة، أي الجريمة، فنفعت فيهم الموعظة.

ولـذلك أعلمهم بـأن الذنب قـد غفر فـرفع عنهم الـذم فقـال: لا تـثريب عليكم.»[1]

آية ٩٢

﴿قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾.

والتثريب الملام والعتب. أما من جهتي فلا عتب عليكم ولا ملام. ثم يدعو لهم بالمغفرة من الله عز وجل.

فقد تنازل لهم عن حقه الشخصي، وأما تقصيرهم في جنب الله، فهو يـدعو الله لهم، ولئن كان البشر يغفر ويصفح، فلن يكون أكرم من الله عز وجل..

فهو سبحانه أرحم الراحمين..

قال في المؤتمر تعليقاً على قوله: **﴿يغفر الله لكم﴾**.

«هم لم يقولوا لأخيهم: استغفر لنا ذنوبنا، كما سيأتي أن يقولوا لأبيهم ولكنه هو بادر بطلب المغفرة لهم من الله قبل أن يطلبوا منه ذلك، وأما أبوهم فمع كونهم ابتـدأوا وطلبوا منـه استغفاره لهم ذنـوبهم، فلم يبـادر بـطلبتهم وقـد علل الشيخ العلمي ذلك بعلل منها: أن الوالد محب لخير بنيه بالطبع، فلم يحتج أن يبرهن لهم عـلى ذلك بنحـو مبادرتـه بالاستغفـار لهم، بخـلاف يـوسف، فهـو أخ، لا أب،

(١) التحرير حـ١٣ ص ٥٠



فلذلك احتاج ان يبرهن لهم على حنانه بسرعة استغفاره.

فأبوهم لم يكن أقل مغفرة لهم وعطفاً من أخيهم عليهم، بل هو أكثر مغفرة ورحمة، ولكن اختلف الحال.

وكذلك، فإن يوسف يرغب في أن يأتوا بأهلهم ليعولهم، فأعطاهم من نفسه هذا الكرم.

أضف إلى أنه في موقع القوة وهم في موضع الضعف، وقد قيل: «إن الحلم والعفو في الحكام من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم.»[1]

قال في المنار في معنى لا تثريب:

«أي لا محل لأي شيء من اللوم والتعنيف عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته، فإنني أعدّه يوم عفو وسماح، ودخول في عصر جديد، قال في المصباح: ثرب عليه من باب ضرب: عتب ولام، وثرّب بالتشديد مبالغة وتكثير. قال ابن الأنباري: قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب.»[2]

قال الشريف المرتضى في أماليه:

«لم خص ﴿اليوم﴾ بالقول، وإنما أراد العفو عنهم في جميع مستقبل أوقاتهم؟ الجواب، قلنا: في هذه الآية وجوه أربعة:

أولها: أنه لما كان هذا الوقت الذي أشار إليه هو أول أوقاته التي كشف فيها نفسه، وأطلعهم على ما كان يستره عنهم من أمره، أشار إلى الوقت الذي لو أراد الانتقام لابتدأ به فيه، والذي متى عفا فيه عنهم لم يراجع الانتقام.

وثانيها: أن يوسف عليه السلام لما قدم توبيخهم، وعدد عليهم قبيح ما فعلوه، وعظيم ما ارتكبوه، وهو مع ذلك يستر عليهم نفسه، ولا يفصح لهم بحاله قال لهم عند تبين أمرهم، ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ أي قد انقطع عنكم توبيخي، ومضى عذْلي ولائمتي عند اعترافكم بالذنب، وكان ذكر ﴿اليوم﴾ دلالة

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف حـ٢ ص ١١٧٣ - ص ١١٧٤

(٢) تفسير المنار حـ١٢ ص ١١٦



على انقطاع المعاقبة والتوبيخ، وعلى أن الأوقات المتصلة باليوم تجري مجراه في زوال الغضب، وتمام العفو، وسقوط المواقفة لهم على ما سلف منهم.

وثالثها: ان ذكر اليوم المراد به الزمان والحين، فوضع ﴿**اليوم**﴾ موضع الزمان كله المشتمل على الليالي والأيام والشهور والسنين.

كما تقول: لقد كنت تقصّر في الجواب عن فنون العلم، فاليوم ما تعجزك مسألة، ولا تتوقف عن مشكلة، يريد باليوم باقي الزمان كله. ومثله قول الشاعر:

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعاً

ورابعها: أن يكون المراد: لا تثريب عليكم البتة، ثم قال: ﴿**اليوم يغفر الله لكم**﴾ فتعلق اليوم بالغفران وكان المعنى: غفر الله لكم اليوم.

وقد ضعّف قوم هذا الجواب..

فأما التثريب فإن أبا عبيدة قال: معناه لا شغب ولا معاقبة ولا إفساد. وقال الشاعر:

فعفوت عنهم عفو غير مثرّب وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وقال أبو العباس ثعلب: يقال: ثرب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه»[1]

آية ٩٣

﴿**إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً، وأتوني بأهلكم أجمعين..**﴾

هذه معجزة خارقة للسنة الجارية، وكل أحداث القصة سائرة على السنة المعتادة الجارية السائرة..

فإلقاء القميص على وجه الأب ليرده بصيراً بعد فقد بصره هذا من المعجزات التي لا قبل للإنسان بها.

(١) الشريف المرتضى على بن الحسين: أمالي المرتضى حـ١ ص ٤٥٢ - ص ٤٥٣، تحقيق أبو الفضل إبراهيم.القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.



ولقد عهدنا أن تكون الكرامة على يد الكبير نحو الصغير، لكن الذي يجري هنا أن الكرامة تساق على يد الابن نحو الأب . .

ولماذا هذه الواسطة من إلقاء القميص؟ .

ونقول ان هذا الخرق للسنة يجريه الله عز وجل على يد بعض عباده إظهاراً لفضلهم، أو دون واسطة أحد ليهز وجدان البشر الذين تتبلد مشاعرهم . . حين لم يعودوا يرون في الكون إلا أسباباً ومسببات فيتعلقوا بالأسباب.

فتأتي الآية لتقول لهم ان أسبابكم التي بها تتعلقون ليست إلها يعبد، وإنما قانون وضعه الله في الأرض، متى شاء خرقه، فتجاوزوه إلى مقنّنه ومسبّبه سبحانه، واعبدوه وحده وأسقطوا عنكم كل تعلقاتكم.

والقميص الذي اقترن بوقع البلاء والمصيبة في أول القصة حين جاء الأخوة به ملطخاً بالدم، وكان شاهد النقاء في وسط القصة، فهو الآن بإذن الله سبب الشفاء من العمى وما حل بالأب من بلاء . . والحمدلله الذي يفعل ما يشاء.

والغريب أن الذين يحملون القميص هذه المرة بالبشرى بحياة يوسف وقرب لقائه هم الذين حملوه أول مرة بنذير السوء بموت يوسف. وبنحو ما قلنا قال في المحاسن:

«أراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك، ليكون في مقابلة القميص الأول، جالب الحزن وغشاوة العين . . والإلقاء على وجهه لترجع إليه قوة بصره، بانتعاش قلبه، بشمه، واطمئنانه على سلامته. وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم، وتقوية الأعضاء، فالفرح إن كان بلطف ينفع الجسم ويريح العقل، وبنحوه قال الرازي . . . »[1]

آية ٩٤

﴿ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾

شممتَ ريحه في مصر هلاّ   شممت ريحه في بئر كنعان

(١) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٩٠ وارجع إلى تفسير الرازي حـ١٨ ص ٢٠٦

ومعنى فصلت العير ربما يكون خرجت من حدود مصر، أو فصلت أناخت قريباً من منازلهم، والأول أقرب.

والتفنيد من الفند وهو التكذيب أو الرد، أو الاتهام بالخرف وتغير العقل، كما في الأثر: هل تنتظرون إلا هرماً مفنداً أو مرضاً مقعداً..

قال القشيري: «إنما انفرد يعقوب عليه السلام بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان يوسف.. وإنما يجد ريح يوسف من وجد على فراق يوسف، فلا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، وأما على غيرهم فهذا حديث مشكل.. إذ أنى يكون للإنسان ريح. ويقال لفظ الريح ها هنا توسع (مجاز)، فيقال هبت رياح فلان، وقوله: ﴿لولا أن تفندون﴾، يعني أنه تفرس فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قوله فزادوا في الملامة فقالوا: «تالله إنك لفي ضلالك القديم..»[1] وما أصدق في يعقوب ويوسف ما قال القائل:

خليليّ من نجد قفا بي على الربا ... فقد هبَّ من تلك الديار نسيم

والآخر:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم ... إذا هي أقبلت نحوكم بهبوب

وأسألها حمل السلام إليكم ... فإن هي يوماً بلغت فأجيبوا

وقول القائل:

وإني لاستشفي بكل غمامة ... تهب بها من نحو أرضك ريح

وقد كان لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أخ اسمه زيد قتل في جيش اليمامة، فكان عمر يقول ما هبت الريح إلا وجدت فيها رائحة زيد، ولهذا قال المعري:

والقلب يَغْري بما تهدي الرياح له ... كحملها الريح من زيد إلى عمرا

قال في «التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن» بعد أن قال: إن من معاني الريح: الرائحة: «ويظهر في قوله تعالى: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ وهي

---

(١) اللطائف حـ٣ ص ٢٠٦

بمعنى الراحة والاطمئنان. وقوله عز وجل: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ وليس في القرآن من الآيات التي ذكرت الريح غير هاتين الآيتين بمعنى الرائحة.»[1]

أقول: لعله ليس في القرآن إلا آية يوسف بهذا المعنى، أما آية يونس فهي الريح التي تجري السفن. والله أعلم.

قال القاسمي: «فصلت العير: خرجت من مصر. يقال: فصل القوم عن المكان وانفصلوا بمعنى فارقوه. قال أبوهم أي لحفدته ومن حوله، من عظم اشتياقه ليوسف وانتظاره لروْح الله. والريح: الرائحة، توجد في النسيم، أي لأتنسم رائحته مقبلة إلي. كناية عن تحققه وجودَه بما ألقى الله في روعه من حياته، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته. وقد كان عظم رجاؤه بذلك من مولاه، ووثق بنيل مأموله ومبتغاه. وإذا دنا أجل الضراء، اخذت تهب نسائم الفرج حاملة عَرْف السراء، يدري ذلك كل من قوي إحساسه، وعظمت فطنته، واستنارت بصيرته، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج. عرف ذلك من عرف، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف.

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم:

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد

والفند ضعف الرأي والعقل من الهرم وكبر السن.

وقيل مأخوذ من الفند وهو الحجر والصخرة، كانه جعل حجراً لقلة فهمه. ثم اتسع فيه فقيل: فنده، إذا ضعّف رأيه، ولامه على ما فعله».[2]

﴿لولا أن تفندون﴾

قال السيوطي في «الإتقان» ونقله عنه «المنجد في تحقيق كتاب لغات القرآن» لإسماعيل بن عمرو: ﴿تفندون﴾: تستهزئون ورد عليه الأستاذ أحمد محمد جمال في كتاب على مائدة القرآن فقال:

---

(١) التطور الدلالي ص ٥١١ - ص ٥١٢

(٢) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٩٢



«وقارئ سورة يوسف عليه السلام . . الملم بقصته مع إخوته وموقف أبيه منه ومنهم وبخاصة حرْدهم على أبيهم لتذكره يوسف بين الحين والحين، وتيئيسهم إياه من لقائه، وقذفهم إياه بالضلال القديم أي حبه الأعمى له، بزعمهم ـ، يسلم عقلياً بأن ﴿يفندون﴾ معناها تكذبون أو تلومون أو تضعفون الرأي أو تبطلون الظن أو تقتلون الأمل، ويزداد تسليماً بالنقل حين يعلم أن الفند معناه اللغوي ضعف العقل أو الخرف.»(١)

آية ٩٥

﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾

والقائل ليس أبناء يعقوب، ولقد ظن كثير أن القائلين هم الأبناء ولذلك وجهوا إلى الأخوة من المقالات اللاذعة ما وجهوا، وظنوا أن الإخوة لا زالوا على ضلالهم القديم(٢)، والصحيح أنهم غيروا وبدلوا، وحسنوا من أخلاقهم وهذبوا وعدّلوا. وإنما القائل من حضر يعقوب من أهل وعيال. ونفس الظاهرة الاسلوبية التي وقفنا عندها في أقسام هذه السورة نلْحَظها في هذه الآية: ﴿تالله﴾.

ونفس الاتهام بالضلال المبين يعاد أيضاً في هذه الآية. والضلال كما أسلفنا الحب الشديد الذي يخرج عن حدود الاتزان والاعتدال، وهل الذي وجده يعقوب في نفسه وحي من الله؟ أو هو قوة في الإحساس وشفافية في الروح ورقة في النفس؟ كل ذلك ممكن. هذا الذي يجده يعقوب في نفسه يلومه عليه ويفنده أحفاده لأنهم لا يجدون ما يجد ولا يعرفون ما يعرف، ولا يعانون ما يعاني:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

---

(١) على مائدة القرآن، أحمد محمد جمال، دار الفكر بيروت ط٢ ص ٨٤ سنة ١٩٧٤. وانظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ١ص ١٧٧، المطبوع مع إعجاز القرآن للباقلاني، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان

(٢) أنظر على سبيل المثال ما قال القشيري: «قرنوا كلامهم بالشتم ولم يحتشموا أباهم، ولم يراعوا حقه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.» جـ٣ ص ٢٠٦: اللطائف ولم يلاحظ القشيري أن إخوة يوسف ما زالوا في الطريق.



آية ٩٦

﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

نفس الظاهرة من تكرر فلما نجدها في الآية هنا أي بمجرد أن لامس القميص وجه يعقوب عليه السلام ارتد بصيراً كما كان، وليس من شأن قميص يلقى على وجه أعمى أن يعود بصيراً، فلا داعي لأن نلتمس التفسيرات العلمية والتبريرات المنطقية واستعمال مصطلحات علم النفس ونتائجه، وكأننا لا نؤمن بالمعجزات يخترق بها القدر مألوف البشر. إنها آية أجراها الله عز وجل لينبه بها على كرامة عبديه يعقوب ويوسف ولتكون آية للناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل، وليقصها القرآن فتبقى معْلماً من معالم الإيمان.

إن من يلجأون إلى التفسيرات العلمية يريدون أن يفقدونا هذه القيمة الإيمانية لهذه الحادثة، وإنها والله لخسارة فادحة.

«البشير الذي يأتي بالبشارة العظيمة. وجاء على لفظ فعيل لما فيه من المبالغة والإلقاء إيقاع الشيء على الشيء.

فارتد بصيراً. الارتداد: انقلاب الشيء إلى حال، قد كان عليها، وهو والرجوع بمعنى واحد. والبصير من كان على صفة يجب لأجلها أن يبصر المبصَرات إذا وجدت». (١)

قال الأستاذ كحيل في معنى البشير:

«والبشير هو قميص يوسف الذي كان يلبسه فيمس جسده الشريف فيكتسب منه الريح الطيبة الزكية.

وقد أسند إليه المجيء إسناداً مجازياً جرياً على لغة العرب كقولهم حضر العشاء». (٢)

---

(١) التبيان حـ٦ ص ١٩٤

(٢) يوسف عليه السلام ص ١٤٨



أقـول: والظاهـر أن البشير هـو الشخص الذي كـان يحمل البشرى بـدليل ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه﴾، فقد أسند السياقُ الإلقاء إلى البشير.

آية ٩٧

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾.

إنها إشراقة النفوس بـالإيمان تتجـلى الآن في طلب الاستغفار من أبيهم، لا أن يغفر لهم فحسب، وإنما بطلب أن يستغفر هو بدوره الله عـز وجل لهم، وذلـك الطلب يبرره أنهم يعترفون بـأنهم كانـوا خاطئـين، وقبل قليـل كانـوا يقولـون عن أنفسهم نفس القول أمام أخيهم: ﴿وإن كنا لخاطئين﴾.

قال القشيري: «يوم بيوم.. اليوم الذي كان يعقوب محزوناً بغيبـة يوسـف، فلا جرم اليوم كان يعقـوب مسروراً بقميص يوسف، وكـان الأخوة في الخجلة مما فعلوا بيوسف. وقال أيضاً: وقع يعقـوب ويوسف في السرور والاستبشـار، وأخذ أخوة يوسف في الاعتذار وطلب الاستغفار..»[1]

آية ٩٨

﴿قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم﴾.

لقـد استوقفت هـذه الكلمة ﴿سـوف﴾ المفسرين، فلماذا لم ينجّـز ويعجّـل بقوله سأستغفر فقال فريق منهم انه سوّف حتى يدعو لهم يوم الجمعة، وليس بمـبرر والله أعلم..

ولكن يبدو أنه ما يزال في نفسه منهم شيء جعلها تخرج رغماً هكذا..

وربما كان يريد أن يتحقق أنهم فعلاً غيروا وبدلوا.. المهم أن استغفاره لهم مُسَوّف.

وختم كلامه بتأكيد حقيقة إيمانية أن الله هو الغفور الرحيم.

وأحياناً يأتي في النصوص أنـه غفور رحيم، وهنـا إنه هـو الغفور الـرحيم،

---

(١) لطائف الإشارات حـ٣ ص ٢٠٧



والذي يبدو أن التأكيد بحسب حالة وحاجة المستغفَر له، فلما كانوا على قدر من الخطأ كبير، كانت الحاجة إلى تأكيد أن مغفرة الله أكبر من خطئهم، فلذلك قال: ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾.

﴿استغفر لنا ذنوبنا.. سوف أستغفر لكم..﴾

«قولهم: ﴿استغفر لنا ذنوبنا توبة واعتراف بالذنب﴾.

وإنما وعدهم بالاستغفار في المستقبل للدلالة على أنه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنه أراد أن ينبههم الى عظم الذنب، وعظمة الله تعالى، وأنه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلة.

وجملة إنه هو الغفور الرحيم في موضع التعليل لجملة أستغفر لكم ربي وأكد بضمير الفصل هو لتقوية الخبر»[1].

نقل القاسمي فائدة عن المهايمي فقال:

«صرّحوا بالذنوب دون الله ﴿استغفر لنا ذنوبنا﴾، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره. وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾، إذ لا مقدار بالنظر إلى رحمته التي ربّى بها الكل.

وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه».[2]

«والتسويف معناه أنه يؤخر الدعاء إلى وقت يقدره هو في نفسه، والسبب في ذلك هو أن ما ارتكبوه من مظالم ليس واقعاً عليه وحده، وإنما وقع كذلك على يوسف وأخيه وهو لا يدري إن كان يوسف قد عفا عنهم أو لا يزال متأثراً بما وقع عليه وعلى أخيه من ظلم، فأخر الدعاء حتى يحين اللقاء، ويتم الصفاء»[3]

---

(١) التحرير حـ١٣ ص ٥٤

(٢) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٩٤

(٣) يوسف عليه السلام ص ١٥٠

آية ٩٩

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ .

فور دخول الجميع إلى مصر ضم يوسف إليه أبويه وقربهم وأنزلهم منزلهم الذي يليق بهم، ويليق ببره وعظمة أخلاقه.

هذه قمة تمام النعمة بالتئام الشمل أشد ما يكون إلتئاماً . . وإنه التئام مع امتلاء القلوب بالمودة والتصافي والبر. .

إنها لقصة عجيبة فعلاً في نسقها وفي ترتب أحداثها. . .

قال في التحرير والتنوير: «وقوله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ جملة دعائية بقرينة قوله «إن شاء الله»، لكونهم قد دخلوا مصر حينئذ. فالأمر في (ادخلوا) للدعاء كالذي في قوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم﴾.

والمقصود تقييد الدخول بـ﴿آمنين﴾ وهو مناط الدعاء.

والأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، وجملة (إن شاء الله) تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمن.»[1]

﴿ادخلوا مصر﴾ «وهذه تحيته لأهله التي بادرهم بها عند اللقاء ليؤنسهم ويطمئنهم، وليزيل عن قلوبهم ما عسى أن يكون قد علق بها من الوحشة بالغربة، وليبين لهم أن مصر صالحة لأن تكون مستقراً لهم ومكان سكنى كريم، فقال: ﴿ادخلوا مصر﴾ بمشيئة الله وحده، وبفضله وحده، فلا تحتاجون إلى إذن في دخولكم، وليس لأحد فضل عليكم فيما ينالكم من إكرام وتعظيم، بل الفضل لله وحده»[2]

---

(١) حـ١٣ ص ٥٥

(٢) يوسف عليه السلام ص ١٥٢



آية ١٠٠

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم. .﴾

وإن من تمام البر أن لا يعتبر نفسه في حَضْرة والديه هو العزيز، ولا يرتفع عليهما في المجلس، وإن كان يسرّهما هذا، ولكنه من خلقه العظيم وبره الكريم لا يفعله، بل يرفع أبويه على سدة الحكم وكرسي الوزارة، وإن في هذا الفعل من يوسف مثلاً يضربه لاخوانه، وحتى لا يثير في نفوسهم أي غيرة أو يترك للشيطان أي وسوسة.

وعند هذا يخر الأخوة سجداً لله إكراماً لأخيهم، أو محيين أخاهم بهذه التحية. .

وقال يوسف مخاطباً أباه: يا أبت هذا تأويل رؤياي قد حققها الله، وأوصلها إلى ظهورها في الواقع بعد أن كانت خيالاً في النفس والغيب. . لقد صارت حقيقة. وتحقق هذه الرؤيا تضمن إحساناً من الله بي حين أخرجني من سجني الذي وضعت فيه، وأذن بمجيئكم ومكنكم من المجيء من البادية وحياتها الشاقة الخشنة. . بعد الذي كان من إيقاع الشيطان بيني وبين اخوتي، ولاحظ التلطف من يوسف في حديثه عن فعلة اخوته، بقوله: **﴿نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي، فهو لم ينسب الفعل إليهم. .﴾**

ولم يشأ أن يذكرهم بأي إساءة وإنما هي نزغة شيطان وقعت بينهم. .

ثم ختمت الآية كلامه كما كانت تختم كل آية أو غالب الآيات، بالخاتمة الإيمانية التي ترد كل حدث إلى الله. .

﴿إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم. .﴾

واللطف لغة: التدبير الخفي، واللطف: الخفاء، واللطف: الرفق. .



وهي هنا بمعنى أن الله ينفذ قدره إذا شاء أمراً ما بألطف ما يمكن، وهو يلطف في بلائه . .

إنه هو العليم بما ينبغي والحكيم في أعماله .

قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير :

«والذين خروا سجداً هم أبواه وإخوته . »

والذي رجحناه بخلاف ما رآه العلامة رحمة الله عليه .

ثم قال : «وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعاً في الشرائع، وإنما منعه الإسلام لغير الله تحقيقاً لمعنى مساواة الناس في العبودية والمخلوقية . ثم قال : والأحسن أن تكون جملة ﴿وخروا﴾ حالية لأن التحية كانت قبل أن يرفع أبويه على العرش، على أن الواو لا تفيد ترتيباً . »[1]

والذي رأيناه أن السجود كان من إخوته بعد رفع أبويه على العرش .

قال القشيري في معنى اللطيف ضمن عدة معان :

«العالم بدقائق الأمور والعلوم وغوامضها ومشكلاتها . واللطيف المحسن الموصل للمنافع برفق . وقوله تعالى : ﴿الله لطيف بعباده﴾ يحتمل المعنيين جميعاً أن يكون عالماً بهم وبمواضع حوائجهم، يرزق من يشاء كما يشاء، ولطيف بهم يحسن إليهم ويتفضل عليهم ويرفق بهم .

ومن لطفه تعالى بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة، قال سبحانه : ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ والإسباغ ما يفضل عن قدر الحاجة، وقال في صفة التكليف : ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ .

ثم قال القشيري : «وقد جرت سنته سبحانه بحفظ كل لطيفة بين كل كثيفة وكما جعل الغار للمصطفى مأوى جعل الجب ليوسف مثوى . . »[2]

---

(١) حـ ١٣ ص ٥٦

(٢) أبو القاسم عبد الكريم القشيري ولد سنة ٣٧٦هـ ومات سنة ٤٦٥هـ : شرح أسماء الله الحسنى ص ١٧٦ ـ ص ١٧٩ تحقيق ونشر احمد عبد المنعم الحلواني، ط١ سنة ١٩٦٩ القاهرة ـ مطبعة الأمانة .



﴿وخرّوا له سُجَّداً﴾

«المعروف في شريعتنا أن السجود هو وضع الجبهة على الأرض، وأنه لا يجوز فعله إلا لله وحده، ولكنا لا نستطيع أن نتحقق من حقيقة السجود في شريعتهم، ولا أن نحرم صدوره من مخلوق لمخلوق عندهم، كما هو محرم في شريعتنا، إذ ان يعقوب نبي ورسول له شرعة ومنهاج، وفروع شريعته قد تخالف فروع شريعة خاتم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ويوسف كذلك له شريعة ذات فروع قد تخالف فروع شريعتنا، كما قال الله عز وجل: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، ولا يجوز أن نحكم بفروع شريعة على أهل شريعة أخرى.»[1]

﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾

«ابتدأ بذكر نعمة الله عليه في إخراجه من السجن، لأنها متصلة بما أصبح فيه من نعيم ومقام كريم، وقد ترك ذكر ما مر به من حوادث الابتلاء، وما تجرعه فيها من مرارة وعناء، لئلا يجرح شعور إخوته الذين كانوا سبباً في كل ما أصابه، ولئلا يكدر أهله بذكر الحوادث المثيرة للألم، وهم في وقت صفائهم وغبطتهم باجتماعهم به، ولأن المؤمنين وفي طليعتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام لايذكرون ربهم دائماً إلا بصفة الإنعام، ومهما نالهم من أمور تؤلمهم في هذه الحياة لا يذكرونها ولا يشكون من حدوثها، بل إنهم يرون أنه لا وجود لها بجانب ما أسبغه الله عليهم من نعم ظاهرة وباطنة لا تعد ولا تحصى، واضعين نصب أعينهم قول الله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، بل إنهم ليعدون المحن والبلايا نعماً لإفضائها إلى النعم، ثم ذكر أن من إحسان الله به مجيئهم إليه، فقال: (وجاء بكم من البدو، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي)، أي ومن إحسان الله بي أنه أتى بكم من البادية إلى مصر فالتقينا وتصافينا من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين أخوتي.

(١) نظرات في التفسير ص ١٥٢ وقريب منه عند ابن حزم في الفِصَل في الملل والأهواء والنحل حـ٤ ص ١٣ دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٣م. المطبوع مع الملل والنحل للشهرستاني. والقاسمي حـ٩ ص ٣٦٣٤ - ص ٣٦٣٥



وهذا منه عليه السلام أدب رفيع عال، حيث نسب ما حدث من إخوته إلى الشيطان. .[1]

﴿وقد أحسن بي﴾

«وتأمل الجـار والمجرور (بي)، دون (إلي) إذ الإحسـان لاصق به مـلازمه إذ ان الباء تفيد الإلصاق. »[2]

قال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره:

«ومعنى أحسن بي: أحسن إلي. يقـال: أحسن بـه وأحسن إليه، وبـاء «بي» للملابسة أي جعل إحسانه ملابساً لي، وخص من إحسان الله إليه إحسانـين هما: يوم أخرجه من السجن، ومجيء عشيرته من الباديـة. فإن «إذ» ظرف زمـان لفعل «أحسن» فهي بإضافتهـا إلى ذلك الفعـل اقتضت وقوع إحسـان غير معـدود، فإن ذلك الوقت كان زمنَ ثبوت براءته من الإثم الذي رمته به امرأة العزيز وتلك منّة، وزمن خلاصه من السجن فـإن السجن عذاب النفس بـالانفصال عن الأصـدقاء والأحبـة، وكان أيضـاً زمن إقبال الملك عليـه. وأما مجيء أهله فـزوال ألم نفسـاني بـوحشته في الانفـراد عن قرابتـه وشوقه إلى لقائهم، فـأفصح بـذكر خـروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو إلى حيث هو مكين قويّ.

وأشار إلى مصائبه السابقـة من الإبقاء في الجب، ومشـاهدة مكـر إخوتـه به بقوله: (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي)، فكلمة بعـد اقتضت أن ذلك شيء انقضى أثـره. وقد ألم بـه إجمالاً اقتصـاراً على شكـر النعمـة، واعـراضـاً عن التذكير بتلك الحوادث المكدرة للصلة بينه وبين أخوته فمر بها مر الكرام وبـاعدهـا عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان.

والمجيء في قوله: ﴿وجاء بكم من البدو﴾ فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

والبـدو ضد الحضر، سمي بـدواً لأن سكانه بـادون، أي ظـاهـرون لكـل

---

(١) نظرات في التفسير ص ١٥٣ ـ ص ١٥٤

(٢) أحمد ماهر: يوسف في القرآن ص ٨٠



وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب. وذكر ﴿من البدو﴾ إظهار لتمام النعمة، لأن انتقال أهل البادية إلى المدينة ارتقاء في الحضارة.

والنزغ مجاز في إدخال الفساد في النفس، شبه بنزغ الراكب الدابة وهو نخسها.

وجملة ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

واللطف تدبير الملائم. وهو يتعدى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء: (الله لطيف بعباده). (1)

﴿من بعد أن نزغ الشيطان﴾

«أي أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القربى بإغراء الحسد وتهييج الشر. هذا ما يدل عليه نزغ الشيطان، فان أصل النزغ نخس الرائض الفرس ونحوه بالمهماز لإزعاجه للجري، يقالُ: نزغه ونخسه ونسغه، والعامة تقول نغزه بقلب نزغه بمعنى طعنه بما يهيجه ويزعجه.

قال في الأساس: ومن المجاز نزغه الشيطان كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي، ونزغ بين الناس أفسد بينهم بالحث على الشر. ا. هـ.

ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وآدب وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة: جعل ذلك النزغ المزعج كأنه كان مشتركاً بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما وما كان إلا من جانب واحد.

﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾: أي بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير والرفق في التسخير لتنفيذ ما يشاء في خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الأسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله إليها، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن الإلقاء في الجب وما أعقبه من الرق، وما تلا الرق من فتنة، يفضي إلى السجن، وأن السجن ينتهي بالسيادة والملك؟

(1) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٥٧ - ص ٥٨



إنه هو العليم بما لكل قدر من عمل، وما لكل عمل من أجل.

الحكيم في بلوغ مشيئته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين أحسنوا بالحسنى، وجعل العاقبة للمتقين، فحمد يوسف لربه على لطفه في مشيئته، وعلمه وحكمته، من أجلّ الحمد والثناء وناهيك بجعله مقدمة لما تلاه من الدعاء[1]

﴿وَقَد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾

«أي نجاني من العبودية. وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه، وفخامة شأنه من التواضع، وتذكر ما سلف من الضراء، استدامة للشكر، ما فيه من أدب النفس الباهر. وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز، لما كان في حبس الرشيد:

ومحلة شمل المكارهُ أهلَها	وتقلّدوا مشنوءة الأسماء
دارٌ يُهابُ بها اللئام وتتقى	وتقل فيها هيبةُ الكرماء
ويقول علج ما أراد، ولا ترى	حراً يقول برقة وحياء

وقال شاعر من المسجونين:

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها	فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة	عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وهذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم، فقال علي ابن الجهم:

قالوا: حبستَ، فقلت: وليس بضائري	حبسي، وأي مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غابه	كبراً وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه المحاق فتنجلي	أيامه وكأنه متجدد
ولكل حال معقب ولربما	أجلى لك المكروه عما تحمد

---

[1]) تفسير المنار حـ١٢ ص ١٢٩ ط١ سنة ١٣٥٥هـ، ١٩٣٦م والأساس للزمخشري ص ٩٤٩ ط الشعب ١٩٦٠ القاهرة.

والسجن ما لم تغشه لدنية | شنعاء، نعم المنزل المتورّد
بيت يجدد للكريم كرامة | فيزار فيه، ولا يزور ويحفد

وأحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحتري:

أما في رسول الله يوسف أسوة | لمثلك محبوساً على الجور والأفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة | فآل به الصبر الجميل إلى الملك». (١)

آية ١٠١

﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

وتختتم القصة التي جاءت لتعمق الإيمان بالله، وبحكمة الله في تدبير خلقه، ولطفه بهم، ونفاذ أمره فيهم، وإعزازه القيم الخيّرة، تختتم القصة بآية تلخص كل هذه القضايا الإيمانية التي شرحت من خلال حوادث ومواقف، تعرض الآية على لسان الشخصية الرئيسة:

﴿رب قد آتيتني من الملك﴾، فأصبحت ممكّناً لي في الأرض تشد إلي الرحال، وتنصاع لكلمتي الرجال..

﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾، ورزقتني الفهم وصواب تأويل الرؤى، وتفسير الأحاديث، وإنما سميت أحاديث لأنها مما يحدّث به، (او) لأنها من حديث الإنسان لنفسه..

ويواصل يوسف مناجاتَه الخاشعة المنيبة لربه الذي منّ عليه بكل الذي منّ، مقدماً الثناء على الدعاء، وهو يقدم كل هذا الاعتراف بالفضل بين يدي دعائه توسلاً بهذا الاعتراف والشكر إلى الله تعالى ليستجيب، وبعد هذا التوسل بشكر فضل الله، يتوسل بتعظيم الله، ومناداته باسم الخالق الذي فطر السموات والأرض، والتوسل باتخاذه سبحانه ولياً دون سواه في الدنيا والآخرة.

(١) المحاسن حـ٩ ص ٣٥٩٦ - ص ٣٥٩٧

بعد كل هذا التوسل بكل هذه الأسباب إلى الله يدعو الله تعالى:

﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

لقد حيزت له الدنيا، ونفسه تطمح إلى الأعظم أن يتوفاه الله على الإيمان وأن يلحقه بالصالحين من أجداده ومن أنبياء الله من قبلهم.. عليهم جميعاً صلوات الله وتبريكاته وسلامه. وما أشبه موقفاً لعمر بن عبد العزيز بهذا الموقف وذاك إثر توليه الخلافة إذ قال: لي نفس طموحة تواقة كلما وصلت مرتبة تاقت إلى ما بعدها، والآن تاقت نفسي إلى ما هو أعظم من الخلافة والإمارة: الجنة.

وكما كانت شخصية يوسف هي أول شخصية ظهوراً على مسرح الاحداث تكون آخر شخصية ظهوراً أيضاً، ويجري على لسان يوسف ذكر الموت الذي هو نهاية كل حي. .فناسب أن يكون هذا المشهد هو أليق ختام فني وديني في وقت واحد.

﴿رب قد آتيتني من الملك..﴾

«أعقب ذكر نعمة الله، بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم النعم: الولاية، والعلم ونعمة الدين الحق».

(فاطر السموات والأرض): نداء محذوف حرف ندائه.

(أنت وليي): من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء، والمعنى كن وليي في الدنيا والآخرة.

وأشار بقوله: ﴿توفني مسلماً﴾ إلى النعمة العظمى وهي نعمة الدين الحق، فإن طلب توفيه على الدين الحق يقتضي أنه متصف بالدين الحق المعبر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة. والإلحاق حقيقته جعل الشيء مدركاً من سبقه في السيْر، وأطلق هنا مجازاً على العد في عداد قوم». (١)

﴿رب قد آتيتني من الملك..﴾

«الأنبياء أعلم الناس بالله، وأتقاهم له، وأخشاهم منه، وأزهدهم في الدنيا، لا يغترون بجاه، ولا ينخدعون بسلطان، يضع الله في قبضة أيديهم الدنيا، فلا يأبهون لها، ويصرفونها في مرضاة ربهم، وإذا أقامهم الله حكاماً على

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٥٩ ـ ص ٦٠



الناس حكموا بما أراهم الله، فأحقوا الحق، ونصبوا بين الناس موازين العدل، وبينوا أن السعادة لا تتحقق في شيء من متاع الدنيَا لأنه متاع قليل وزائل.. وما السعادة الحقة إلا سعادة الآخرة..»[1]

﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

قال ابن القيم:

«جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء»[2]

ومن عجيب فهم بعض المفسرين أن ينسبوا إلى يوسف أنه تمنى الموت. ويستنتجون بالتالي جواز تمني الموت[3]، وينسبون هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ولا يستقيم القول أصلاً حتى ينسب إلى ابن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن.

وإنما هذا الدعاء كدعاء كل مؤمن وكدعاء السحرة عندما آمنوا فقالوا: (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين.)

يوسف عليه السلام اذاً يسأل الوفاة على الإيمان والإسلام ولا يسأل الوفاة.

قال في المؤتمر تعليقاً على قوله تعالى: ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾:

«يوسف من الأنبياء الستة الذين ذكرهم الله تعالى مجموعين في قوله: «ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين.»

فهؤلاء ذكروا معاً، لمعنى جامع بينهم، وهو أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة، مع النبوة والرسالة.[4]

---

(١) كحيل: يوسف عليه السلام ص ١٥٥.

(٢) ابن القيم: الفوائد ص ٢٠١ المدينة المنورة: المكتبة السلفية والتفسير القيم ص ٣١٨

(٣) راجع تفسير ابن كثير حـ٢ ص ٢٦٣

(٤) المؤتمر حـ٢ ص ١٢٩٠ ـ ص ١٢٩١



﴿رَبِّ قَد آتيتني من الملك. . ﴾

قال في تفسير المنار لهذه الآية:

«تحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان العاقبة المثلى، في مقام الشكر لربه وحمده بما يناسب المقام من صفاته، إلى مناجاة ربه في الاعتراف بها (العاقبة) والشكر عليها، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة إلى منتهى السعادة في الآخرة، لشعوره بأنَ ما خلقه له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه، وكل شيء بلغ حده في هذه الحياة انتهى، فقال: ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾.

من الملك: أي أقصى ما ينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه، فجعلتني متصرفاً في ملك مصر العظيم بالفعل، وإن كان لغيري بالاسم والرسم، فكان تصرفي مرضياً له ولقومه، لم يثر علي حسد حاسد ولا بغي باغ مما ذقت مرارته بمجرد تصور وقوعه.

(من تأويل الأحاديث): ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت. ﴿توفني مسلماً﴾ لك، إذ تتوفاني بما تتم لي وصية آبائي وأجدادي، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب: يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ﴿وألحقني بالصالحين﴾ هذا الدعاء العظيم، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن: ﴿أهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم﴾، أي من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام.»[1]

آية ١٠٢

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾.

بهذه الآية تبدأ التعقيبات على القصة لتستغرق العشر آيات الأخيرة.

(١) تفسير المنار حـ١٢ص١٣٠، ومن غريب الموافقات ما تقرؤه بعد الأسطر التي أثبتناها أعلاه: إلى هنا انتهى تفسير المرحوم السيد الإمام. أي أن الشيخ رشيد رضا رحمه الله قد كان آخر ما خطه قلمه في تفسير هذه السورة العظيمة دعاؤه بالوفاة على الإسلام مثل دعاء يوسف عليه السلام: توفني مسلماً. نسأل الله أن يتوفانا على الإسلام. .



ولتجيء منسجمة مع القصة كل الانسجام متناسقة وإياها كل التناسق . . ويكون أول تعقيب على القصة وأول درس تلفت له العيون والأفكار والقلوب هو الإشارة إلى ربانية مصدر هذا القصص. وهي في الحقيقة أهم قضية . . ومن هنا بدئت بها السورة أيضاً: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين).

إن جنْي الفوائد من القصة، وأخذ ما فيها من تربية وخيرٍ مأخذ الجد والتعظيم مرهون بالاعتقاد بربانية هذه القصة . .

ولإثبات ربانية مصدر هذه القصة تستعمل الآية أسلوبين: الأول منها في الشق الأول وهو تقريري: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك). والثاني برهاني (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون).

يريد أن يقول إنك يا محمد ﷺ لم تحضر كل أحداث وتفاصيل ومجريات ووقائع هذه القصة. . . ولكنه اكتفى بالإشارة إلى مشهد واحد من القصة ترتبت عليه بقية المشاهد، ذاك هو موقف كيد الأخوة ليوسف واجتماع كلمتهم على الإيقاع به، فجعل الله ذلك بداية الفرج له وفق مسلسل من الأحداث مرتب على عين الله تعالى . .

فإن كنت لم تحضر، فكيف تقصُّ على الناس هذه القصة وبالتفاصيل . .

إن ذلك ليس إلا من طريق الوحي الذي أكرمك الله به . . .

قال القشيري: «تبين للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجل أمي لا يكون الا بتعريف سماوي. وإن كون الرسول أمياً في أول أحواله علامة شرفه وعلو قدره في آخر أحواله، لأن صدقه في أن هذا من قبل الله إنما عرف بكونه أمياً، ثم أتى بمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب.»[1]

﴿ذلك من أنبَاء الغيب . .﴾

" تذييل للقصة عند انتهائها.

والإشارة إلى ما ذكر من الحوادث، أي ذلك المذكور.

---

(١) اللطائف جـ٣ ص ٢١١.



واسم الإشارة لتمييز الأنباء أكمل تمييز لتتمكن من عقول السامعين لما فيها من المواعظ.

والغيب: ما غاب عن علم الناس. وأصله مصدر غاب فسمي به الشيء الذي لا يشاهد.

وضمائر لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب، يشمل إخوة يوسف، والسيارة، وامرأة العزيز، ونسوتها.

وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة. وفيها منة على النبي ﷺ، وتعريض للمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإن صدور ذلك من النبي الأمي آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى. ولذلك عقب بقوله: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين).

وجملة (وما كنت لديهم) في موضع الحال إذ هي تمام التعجيب.

وجملة ﴿وهم يمكرون﴾، حال من ضمير أجمعوا، وأتى يمكرون بصيغة المضارع لاستحضار الحال العجيبة.[1]

«أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى صحة نبوة نبينا ﷺ، لأنه أنزل عليه هذا القرآن، وفصل له هذه القصة، مع أنه ﷺ لم يكن حاضراً لدى أولاد يعقوب حين أجمعوا على المكر بيوسف وجعله في غيابة الجب، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك ما عرفه من تلقاء نفسه.

والآيات المشيرة لإثبات رسالته بدليل إخباره بالقصص الماضية التي لا يمكن علم حقائقها إلا عن طريق الوحي كثيرة، كقوله:

﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم.﴾

وقوله: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾

وقوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك﴾

وقوله: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون.﴾

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٦٠ ـ ص ٦١



﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين﴾. ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك.﴾(1)

﴿ذلك من أنباء الغيب..﴾

«تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد ﷺ ثم بعث إليهم. وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة. وقد غبرت بهم القرون».

ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه، ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيباً بالقياس إليك. وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه. وهم يمكرون بيوسف، وهم يمكرون بأبيهم، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه. وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه في السجن. كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكي عنه إنما هو الوحي الذي سيقت السورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكثيرة.

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي، وإيحاء القصص، واللفتات واللمسات التي تحرك القلوب، أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول ﷺ ويعرفون أحواله، ثم يسمعون منه ما يسمعون. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.(2)

«انتهى نبأ يوسف وإخوته، وقد سماه الله أحسن القصص، وما أنزله تعالى على نبيه محمد ﷺ للتسلية أو التفكه، أو لمجرد الاخبار بتاريخ بعض من مضى من الأمم، وإنما أنزله جل وعلا لأهداف عليا ومقاصد سامية، وحكم بالغة، في طليعتها: التدليل على نبوة رسوله محمد ﷺ وإقامة البرهان على صدق رسالته، وهذا ما يتجلى في قوله تعالى: **﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ الإشارة إلى نبأ يوسف وإخوته، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ**، والمعنى: ذلك النبأ الذي

---

(1) أضواء البيان حـ٣ ص ٦٤

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن حـ٥ ص ٥٠ ـ ص ٥١ / طـ إحياء التراث



أنبأتك به متضمناً كل ما حدث ليوسف مع أخوته من الأنباء التي كانت غائبة عنك. . .»[1]

***

آية ١٠٣

﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. . ﴾

ولقد رأينا هذا المعنى برز كثيراً في سرد القصة، ومن هنا فإنه يذكر في الموجز الختامي لأهميته.

وبينما كانت هذه الحقيقة تقال على لسان شخصيات القصة أو تقريراً من الله عز وجل، فإنها تساق هنا خطاباً من الله تعالى لمحمد ﷺ، ليضع هذه الحقيقة نصب عينيه وهو يحمل دعوة الله في هذه الحياة يحاول أن يشق لها طريقاً في الصخر. وان اهتزاز هذه الحقيقة في القلب أو أي حقيقة إيمانية ربما يزلزل بُنيان الإيمان كله، فلنتنبه إلى أسس إيماننا. . ولنحرص عليها كل الحرص، ولنتذكر دائماً الحقائق الكونية والاجتماعية والإنسانية المهمة، فإنها معالم الطريق، وتذكرها يكون بالمداومة على القرآن وقصص القرآن.

ولا يفوتنا أن نقف عند المعترضة ـ ولو حرصت ـ فهي لها أكثر من دور ومعنى، منها: حرص النبي ﷺ على أمته سواء كانت أمة الاستجابة أم أمة الدعوة عموماً، لقد كان أحرص عليهم من الام الشفيقة على أولادها، حتى لقد أُمر أن يخفف بعض هذا الحرص: «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»، «فلعلك باخع نفسك»، «وإن تحرص على هداهم. .».

ولقد أثنى الله عز وجل على حرصه في هذه الآية: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾

ولا يسع الداعية المسلم إلا أن يكون حريصاً على من يدعوهم.

إن رؤية المدعو ـ إن كان فيه أدنى خير ـ إن رؤيته لشدة حرصك عليه تجعله بإذن الله يقبل على دعوة الله، وليس الداعية كالطبيب الذي لا يهمه إلا أن يصف

---

(١) يوسف عليه السلام ص ١٥٨ - ص ١٥٩

الدواء ولا يهمه بعدها أتناوله المريض أم لا.

إن الله تعالى يقول للنبي ﷺ انهم مع ما يرون من حرصك لن يؤمنوا.
وليس هذا بنهي عن الحرص، لا، ولكنه تنبيه إلى قسوة قلوب أولئك..

﴿وما أكثر الناس..﴾

«انتقال من سوق هذه القصة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البينة، فالواو للعطف على جملة: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعياً سامعيه إلى الإيمان بالنبي ﷺ. ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعاً في إيمانهم عقب بإعلام النبي ﷺ بأن أكثرهم لا يؤمنون.

و﴿الناس﴾ يجوز حمله على جميع جنس الناس، ويجوز أنه يراد به ناس معينون وهم القوم الذين دعاهم النبي ﷺ.

وجملة (ولو حرصت) في موضع الحال، معترضة بين اسم ما وخبرها.

و(لو) هذه وصلية، وهي التي تفيد أن شرطها هو أقصى الأسباب لجوابها. ومثلها (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به).

وجواب (لو) هو (وما أكثر الناس)، مقدم عليها، أو هو دليل للجواب.

والحرص شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته.»[1]

* * *

آية ١٠٤

﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾.

ومع حرصك عليهم فإنهم لن يؤمنوا، وأنت مع هذا الحرص لا تسألهم أجراً لا معنوياً ولا مادياً وإنما الحرص والجهد والدعوة لهم ولمصلحتهم في الدنيا والآخرة. فأي تفكير هذا وأية نفوس تلك النفوس. تحرص عليهم ولا تزاحمهم دنياهم ولا تبغي منهم شيئاً وتدعوهم إلى الهدى والحق ثم لايؤمنون. وليس هذا الذي تقوم به من جهد وتبلغهم إياه من رسالة الله إلا ذكرى للعالمين. وتأمل عالمية

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٦١ ـ ص ٦٢



هذا الدين يؤكد عليها القرآن الكريم منذ العهد المكي بل منذ أوائل تنزل القرآن الكريم ففي سورة (ن) التي هي من أول ما نزل قوله تعالى: ﴿**وما هو إلا ذكر للعالمين**﴾.

وهذه السمة من سمات الإسلام ثابتة فيه ليست تخضع لظروف، وهي قابلية ذاتية فيه وليست دعوة معتسفة من خارجه، كما هو الشأن في المذاهب الوضعية العقيمة التي يحاول أصحابها أن يمدوا بساطها ورقعتها وليس فيها أدنى مؤهل للعالمية.

ومؤهلات الرسالة أو الفكرة حتى تكون عالمية: أن تطابق الحقيقة الكونية والحقائق الغيبية التي يثبت العقل الصحيح سلامتها.

وكذلك أن تكون موافقة للفطرة بدون اعتساف، وكونها مبدأً شاملاً يحوي تشريعاً ينظم الحياة.

* * *

«جملة ﴿**وما تسألهم عليه من أجر**﴾ معطوفة على جملة (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)، باعتبار ما أفادته من التأييس من إيمان أكثرهم، أي لا يسوؤك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم، كقوله: ﴿**قل لا تمنوا علي إسلامكم**﴾، وضمير الجمع في قوله ﴿**وما تسألهم**﴾ عائد إلى الناس، أي الذين أرسل إليهم النبي ﷺ.

وجملة ﴿**إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾، بمنزلة التعليل لجملة ﴿**وما تسألهم عليه من أجر**﴾. والقصر إضافي، أي ما هو إلا ذكر للعالمين لا لتحصيل أجر مبلّغه.

وضمير ﴿**عليه**﴾عائد إلى القرآن المعلوم من قوله: ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**﴾.» (١)

آية ١٠٥

﴿**وكأيّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**﴾.

(١) التحرير جـ١٣ ص ٦٢



وكثيرة هي الآيات المبثوثة في السموات والأرض، في الآفاق والأنفس يمرون عليها بل يعيشون ويتقلبون فيها، أو تعيش فيهم، ومع هذا فإنهم معرضون عنها. والاعـراض أشد من الغفلة، إنـه يتضمنها عن قصـد وتصميم وسبق إصرار. وان هذه الآيات التي قد بثـها الله تعالى في الكون لـو نظر إليهـا الإنسان بقلب مفتـوح وعقل نير ووجدان حي لاهتز لها كيانه ولأنشأت فيه يقظة روحيـة هائلة وقـوة يقين ضخمة، ولكن الإنسان يعطل ملكاته.

ومَثَل الكون والإنسان كمثل محطة إرسال تحتاج في التقاط بثها وموجـاتها إلى أجهزة استقبال. ولقـد أودع الله فينا أجهـزة استقبال رائعـة وطلب منا أن نحـافظ عليها وأن لا نفسدهـا فهي وسيلة اتصالنـا بكون الله، وهي بـالتالي عـدتنا لعبـادة الله: **﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً.﴾** ولكن الإنسـان بـالمعاصي والغفلة طمس نـور بصيرتـه وقلبه: **﴿كـلا بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون﴾**

والكـافر مثله مـع الكون كـما قال الله: **﴿الحمـد لله الذي خلق السمـوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**. أما المؤمن فهو كما قال الله:

﴿إن في خلق السموات والأرض واختـلاف الليـل والنهـار لآيـات لأولى الألبـاب الذين يـذكـرون الله قيـامـاً وقعـوداً وعـلى جنـوبهم ويتفكـرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار.﴾

قـال في اللطائف: «الآيات ظـاهـرة، والـبراهـين بـاهـرة، وكـل جـزء من المخلوقات شاهد على أنـه واحد، ولكن كـما أن من أغمض عينه لم يستمتع بضوء نهاره فكذلك من قصّر في نظره واعتباره لم يحظ بعرفانه..»[1]

قال في ظلال القرآن:

«الآيات الدالة على الله ووحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون، معـروضة لـلأبصار والبصـائر. في السمـوات وفي الأرض. يمـرون عليهـا صباح

---

١) حـ٣ ص ٢١٢ اللطائف



مساء، آناء الليل وأطراف النهار. وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها. بارزة تواجه العيون والمشاعر. موحية تخايل للقلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق.

وان لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها. لحظة تأمل في الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد. لحظة تأمل في الخضم الزاخر، والعين الفوارة، والنبع الروي، لحظة تأمل في النبتة النامية، والبرعم الناعم، والزهرة المتفتحة، والحصيد الهشيم. لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء، والسمك السابح في الماء، والدود السارب والنمل الدائب، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام.. لحظة تأمل في صبح أو مساء، في هدأة الليل أو في زحمة النهار.. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشري إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب.. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب ولكنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون.. لذلك لا يؤمن الأكثرون.

وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صوره - إلى قلوبهم، فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية، وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف، لتكون كلها لله، خالصة له دون سواه والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب دينونة إلا لله سبحانه، ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص. مشركون سبباً من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضر سواء. مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله...»(١)

قال في المؤتمر:

«يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل

---

(١) الظلال حـ٥ ص ٥٢ - ص ٥٣

تـوحيده بمـا خلقه الله في السمـوات، من كواكب زاهـرات، ثابتـات وسيـارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وغـير متجـاورات، وحـدائق وجنـات، وجبـال راسيـات، وبحـار زاخـرات، وأمـواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأمـوات، وحيوان ونبـات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الله الأحـد خالق أنواع المخلوقات.

وكأيّن أي وكم من آية وعلامة ودلالة على الخالق وعلى صفـاته وتـوحيده في السموات والأرض مروا ويمرون وسيمرون عليها وفيها العجب العـاجب وهم أي الناس عنها معرضون، مع أن الحقيقة بنت الفكرة، والنظر بريد الصـواب. ولكن هؤلاء يعيشون في الدنيا كالأنعام يأكلون ويشربون ولا يتفكرون.

تـأمـل في ريـاض الأرض وانـظر ... إلى آثـار مـا صـنـع المـليـك
غصـون من زبـرجـد شـاهـدات ... بـأن الله لـيس لـه شريـك

فهم قد أضافوا إلى عدم اهتـدائهم بدليـل النبوة، عـدم الاهتداء بـالآيات الكـونية التي تهـديهم وترشـدهم إلى توحيـد الإلـه في الالـوهيـة، كـما وحـدوه في الربوبية.

ولولا إعراضهم عن النظر في ذلك عناداً من رؤسائهم، وجموداً على التقليـد من دهمائهم، لظهر لهم ظهوراً لا يحتمل المراء، ولا يقبل الجدال.

وأصل الاعراض التولي عن الشيء الذي يظهر به عرض المتولي للمدبر عنه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في الغافلين من أهل مكة خاصة، فهي للناس عـامة، وهي تقـريع لمن عـطلوا أبصارهم عن إدراك صحـائف الوجـود، وعميت بصائرهم عن تدبر مافيه من الآيات البالغة.

ثم ختم القول بقوله: العقل هو نعمة من الله سبحانه، وكل من لم يستعمل عقله فكأنما رفض نعمة هذا المنعم.[1]

---

(١) المؤتمر حـ٢ ص ١٣٢٥ ـ ص ١٣٢٧ وارجع إلى تفسير ابن كثير المختصر حـ٢ ص ٢٦٤

«القرآن يشغل من قصص الأمم السابقة، جانباً عظيماً موضحاً فيها أسباب هلاك الأمم ودمارها، وأن ذلك كان لترك الاعتبار بالأحداث، وأنهم لم يجتنبوا أسباب الهلاك والدمار.

وإلحاح القرآن على هذا الجانب ليس له نظير في أي كتاب علمي في الحث على الأخذ بنظرية تدخّل جهد الإنسان في إمكان توجيه أحداث التاريخ.

ولكن هذا الجانب في القرآن، جانب تدخّل جهد الإنسان في أحداث التاريخ صار مهملاً عند المسلمين كسائر الآيات التي قال الله عنها: **﴿وكأيّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.﴾**

إن الإنسان حين يغفل عن سنن الله، فإن سنن الله لا تغفل أن تأخذ طريقها دون شعور من الإنسان الغافل.»[1]

وكأيّن..

«معنى كأيّن: كم. والأصل فيها (أي) فدخلت عليها الكاف للتفخيم بالإبهام، وتقديره كالعدد، فهو أبهم من نفس العدد، لما فيه من التكثير والتفخيم، وغلبت على كأيّن من دون كم لأن كأيّن أشد إبهاماً، فاحتاجت إلى ﴿من﴾ لتدل على أن ما يذكر بعدها تفسير لها.»[2]

وفي وجه المناسبة بين هذه الآية وسابقتها وفي تفسير الآية قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير: «عطف على جملة (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)، أي ليس أعراضهم عن آية حصول العلم للأمي بما في الكتب السالفة فحسب، بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السموات والأرض.

(وكأيّن) اسم يدل على كثرة العدد المبهم يبينه تمييز مجرور بمن. ومنه قوله تعالى: **﴿وكأيّن من نبي قاتل..﴾**

والآية:العلامة، والمراد هنا الدالة على وحدانية الله تعالى، بقرينة ذكر

---

(١) جودت سعيد: الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً ص ٣٦ ـ ص ٣٨.

(٢) تفسير الطوسي ـ التبيان. جـ٦ ص ٢٠٢

الاشراك بعدها. ومعنى (يمرون عليها) يرونها، والمرور مجاز مكنّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصح حمل المرور على المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما..﴾

وضمير يمرون عائد إلى الناس..

وجملة وما يؤمن أكثرهم بالله في موضع الحال من ضمير يمرون.»(١)

آية ١٠٦

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾

ما يزال التأكيد على الحقيقة التي تقرر أن أكثرية الناس ليست على الجادة، ما يزال يعاد حتى يتعمق ويتثبت.

وإن الذي يؤمن من هذه الأكثرية يؤمن على شفاجرف من الشرك.. أو يؤمن وهو مشرك، ولاحظ البشرية اليوم، من يؤمن بالله مع التثليث، ومن يؤمن بالله مع شركه الأحبار، ومن يؤمن بالله على أي صورة من صور الشرك للطاغوت..

وصور الشرك لا تحصى ولا تعد.

ولقد أكرم الله أمة محمد ﷺ بعقيدة صافية وتوحيد نقي، فلنحرص عليه أن يبقى في قلوبنا نقياً..

واعلم أن الشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله: ﴿إن الله لا يغفر ان يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

قال في المؤتمر:

«وما يؤمن أكثر الناس في إقرارهم بالله وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض إلا وهم مشركون في العبادة: فهم يؤمنون بالله ويعترفون به رباً خالقاً،

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٦٣





لكنهم كانوا يشركون في عبادته، فهم موحدون في الربوبية، مشركون في الألوهية.»[1]

وقال في التحرير والتنوير: «والمراد بأكثر الناس: أهل الشرك من العرب. وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأن الله خالقهم، وبأن إيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية.

والاستثناء من عموم الأحوال، فجملة (وهم مشركون) حال من (أكثرهم) والمقصود من هذا تشنيع حالهم.»[2]

«قال ابن عباس ومجاهد وأكثر المفسرين: إن معنى هذه الآية: أن أكثر الناس، وهم الكفار ما كانوا يؤمنون بالله بتوحيدهم له في ربوبيته إلا وهم مشركون به غيره في عبادته.

فالمراد بإيمانهم: اعترافهم بأن ربهم الذي هو خالقهم ومدبر شؤونهم.

والمراد بشركهم: عبادتهم غيره معه.

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، كقوله:

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض، أمن يملك السمع والابصار، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن يدبر الأمر، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾

وكقوله: **﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾**

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾

﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾

(١) المؤتمر حـ٢ ص ١٣٣٣ - ص ١٣٣٤

(٢) التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٦٣



﴿قـل لمن الأرض ومن فيهـا إن كنتم تعلمـون، سيقـولـون لله، قـل أفـلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولـون لله، قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

ومع هذا ـ أي الاعتراف والإيمان الظاهر ـ فإنهم قالـوا: «أجعل الآلهـة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب»

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن توحيد الربوبية لا ينقذ من الكفـر إلا إذا كان معه توحيد العبادة، ثم بين الشيخ الشنقيطي رحمه الله وجه الجمع بين الإيمان والشرك، إذ ان ﴿وهم مشركون﴾ جملة حاليـة، المفروض أنها تصف حـال أولئك «المؤمنـين»، فقال: «لم أر من شفى الغليل في هذا الإشكال، والذي يـظهر لي أن هذا الإيمان المقيدبحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي، لأن من يعبـد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان البتة شرعاً. أمـا الإيمان اللغـوي فهو يشمـل كل تصديق فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً.

وإذا حققت ذلك علمت أن الإيمان اللغوي يجامع مع الشرك فلا اشكال في تقييده به، كـذلك الإسـلام الموجـود دون الإيمان في قـوله تعـالى: ﴿قل لم تؤمنـوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيـمـان في قلوبكم﴾ فهو الإسـلام اللغوي، لأن الإسلام الشرعي لا يوجد ممن لم يدخل الإيمان في قلبه.[1]

آية ١٠٧

﴿أفـأمنوا أن تـأتيهم غاشيـة من عذاب الله أو تـأتيهم الساعـة بغتة وهم لا يشعرون﴾.

هؤلاء الذين أعرضـوا عن الآيات ومـا اتبعوا رسـول الله، أيظنـون أن هذه المواقف منهم تمر بلا حساب، أفأمنوا أن يغشاهم عذاب الله ويقع عليهم قبل قيام

(١) الشنقيطي: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن حـ٢ ص ٦٥ ـ ص ٦٦



الساعة بأن يأخذهم الله بعقاب يستأصلهم أو نقص خيرات يفسد عيشهم. أم أمنوا الساعة أن تفجأهم على حين غرة وتقع على رؤوسهم بغتة وهم على عادتهم من الغفلة لا ينتبهون ولا يشعرون.

قال القشيري: «أفأمن الذي اغتر بطول الإمهال ألا يبتلى بالاستئصال، أفأمن من اغتر بطول السلامة ألا يقوم البلاء عليه يوم القيامة..

ويقال الغاشية حجاب من القسوة يحصل في القلب، ويقال الغاشية من العذاب أن تزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى، حتى إذا تمادى صاحب الغفلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي معناه أنشدوا:

قلت للنفس إن أردت رجوعاً　　فارجعي قبل أن يسد الطريق[1]

﴿أفأمنوا﴾

«أي أغر هؤلاء الكفار المعاندين، تأخير العذاب عنهم فأمنوا أن تنزل بهم عقوبة ونقمة من عذاب الله، تغشاهم وتغطيهم فلا يجدون لأنفسهم منها نجاة، ولا يستطيعون لها دفعاً.

أو أمن هؤلاء الكفار أن تجيئهم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بمجيئها.

فلا يستطيعون ردها، ولا الاستعداد لها، وينقلبون من الدنيا شر منقلب، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وعندئذ يندمون على كفرهم بالله، وتكذيبهم لرسوله، ولات ساعة مندم.»[2]

«والغاشية صفة من صفات النار في القرآن الكريم. ذكرت في آيتين كريمتين هذه أولاهما، والثانية (هل أتاك حديث الغاشية).

والغاشية في آية يوسف عذاب يعم الناس في الدنيا عقاباً لهم على كفرهم واعراضهم عن آيات الله.»[3]

---

(١) لطائف الإشارات حـ٣ ص ٢١٢ - ص٢١٣

(٢) يوسف عليه السلام ص ١٦٣

(٣) عودة أبو عودة: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ص ٤٢٥. ط١ الأردن. الزرقاء: دار المنار سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.



وقال في التحرير والتنوير:

﴿أفأمنوا﴾: اعتراض بالتفريع على ما دلت عليه الجملتان قبله من تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع، فكأنهم في اعراضهم عن توقع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد.

والاستفهام مستعمل في التوبيخ.

والغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب، (وإذا غشيهم موج كالظلل).

والغاشية: الحادثة التي تحيط بالناس. والبغتة: الفجأة.[1]

آية ١٠٨

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

آية عظيمة تلخص موقف الداعية ومنهجه ونفسيته، بعد كل الذي قيل من اعراض الأكثرية يواجه الداعية هذا الموقف بالثبات والإعلان الجريء القوي في مواجهة التيار المنحرف الجارف ليقول:

﴿قل هذه سبيلي﴾.

والأمر في قل ليفهم هؤلاء أن القضية ربانية وأن الثبات عليها ليس مسألة عناد، وإنما هو دين..

واسم الإشارة للقرب فهذه الدعوة بمبادئها مطابقة للفطرة قريبة من القلب والنفس حبيبة إليهما.

﴿سبيلي﴾. أضاف السبيل إلى ضمير المتكلم مزيداً من الاعتزاز، وهي سبيل الله مصدراً، وسبيلي اختياراً وانتهاجاً واتباعاً، لا أنها سبيلي اصطناعاً. قال الرازي: «واعلم أن السبيل في أصل اللغة الطريق وشبهوا المعتقدات بها

(١) التحرير والتنوير جـ١٣ ص ٦٤



لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة.»[1]

﴿ادعو إلى الله﴾: أقوم بالدعوة إلى الله وصيغة الكلام تفيد الاستمرار والمواصلة كما في الآية الأخرى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾.

وهذه الدعوة التي أزاول أقوم بها وأنا على هدى وفهم ووعي كامل وعلى بصيرة، وليس الأمر مثل الذي تفعلون من اتباع تقليدي تلغى فيه شخصياتكم أيها الجاهلون. وهذا الأمر من الوعي والإدراك والاختيار المتبصر هو ما في نفس كل واحد ممن اتبعني على هذا السبيل لأن الله لا يقبل إلا هذه العبادة والطاعة البصيرة.

قال الرازي: «وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور.» أ. هـ.[2]

﴿وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

تنزيه لله عن أن يكون الداعية من تلك الأكثرية السائمة التي لا تؤمن إلا وهي مشركة، فنحن بحمد الله على بصيرة مع المؤمنين، وعلى بصيرة في أننا لسنا مع المشركين.

قال العلامة العلمي في مؤتمره تعليقاً على الآية الكريمة:

«قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: أخبر الناس وقل لهم هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد هي سبيلي أي طريقي ومسلكي وسنتي ونهجي، أدعو الناس إلى دين الله وسأدعو وسوف أدعو ولا أزال أدعو إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، هذه سبيلي التي فيها أحيا وأموت عليها، حال كوني على(بصيرة)ودليل قاطع وحجة واضحة(أنا ومن اتبعني)فهم أيضاً على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي،(وسبحان الله)أي وأنزه الله عن الشركاء،

---

(١) و(٢) تفسير الرازي حـ١٨ ص ٢٢٥



وأعظمه وأقدسه عن أن يكـون له نـد أو نظير أو ولد. (وما أنا من المشركين) لا شرك ربوبية ولا شرك ألوهية.»[1]

وقال العلامة ابن عاشور:

«السبيل يؤنث كما في هذه الآية، ويـذكر كمـا في قولـه تعالى: ﴿**وان يـروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً.**﴾

والإشـارة إلى الشريعـة بتنزيـل المعقـول منـزلـة المحسـوس لبلوغـه من الوضوح للعقول حداً لا يخفى فيه إلا عمّن لا يعد مدركاً.

وجملة ﴿**أدعو إلى الله**﴾ تفسير لما في جملة ﴿**هذه سبيلي**﴾.

﴿**على**﴾ لـلاستعلاء المجـازي المراد بـه التمكن. مثـل (على هـدى من ربهم).

والبصيرة: فعيلة بمعنى فاعلة، وهي الحجة الـواضحة، والمعنى: أدعـو إلى الله ببصيرة متمكناً منها.

وعطفت جملة (وسبحان الله) على جملة (أدعو إلى الله)، أي أدعو إلى الله وأنزهه.

(وسبحان) مصدر التسبيح جاء بدلاً عن الفعل للمبالغه. والتقدير: وأسبح الله سبحاناً، أي أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزهه عن النقائص التي يشرك بها المشركـون..[2]

قال المرحوم الدكتور أمين المصري:

«بيّنت الآية الكريمة بكلمة واحدة طريقة الرسول عليه صلوات الله وسلامه ومنهاجه وشـرعته ﴿**هـذه سبيلي أدعو إلى الله**﴾، والـدعوة إلى الله تنـطوي على الإيمان بالله. فهي إيمان ودعوة. إيمان بلغ الغاية في قوته وخصبه ونمـائه يمـلأ

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف حـ٢ ص ١٣٦١

(٢) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٦٥ ـ ص ٦٦





شغاف القلب ويبلغ حبات الفؤاد ويستحوذ على جنبات النفوس، ويغلب على قلب المؤمن وعقله وضميره وإرادته.

﴿سبيلي﴾

«وهذا الإيمان يتجلى بالدعوة إلى الله حتى تكون الدعوة إلى الله أحب إلى المؤمن من ماله ونفسه التي بين جنبيه، والدعوة إلى الله هي الجانب العملي للإيمان والثمرة الفعلية والنتيجة اللازمة.

وإن الإيمان الذي يحمل صاحبه إلى سبيل الدعوة إلى الله إيمان قد اقترن بحمل رسالة يعيش صاحبها من أجلها ويناضل في سبيلها ويموت لتحيا.

أما الإيمان الذي لا يحمل صاحبه على الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله، فهو إيمان خلا من معنى حمل رسالة الإيمان.

ولقد أعلم الله جل شأنه رسوله بأن رسالته تتلخص بكلمة واحدة: هي الدعوة إلى الله ووصفت هذه الدعوة في كتاب الله بصفات ثلاث: أولها أنها دعوة قائمة على بصيرة أي حجة واضحة ويقين يتميز به الحق من الباطل، فهي دعوة تعرفها الفطر الطيبة السليمة وتوقن بها العقول المستنيرة.

والصفة الثانية أنها ليست قاصرة على الرسول عليه صلوات الله وسلامه، وحده، ولكنها دعوته ودعوة كل متبع لهديه مقتد بسنته.. فالدعوة إلى الله رسالة المجتمع الإسلامي كله.

والصفة الثالثة لهذه الدعوة أنها تنابذ الشرك منابذة تامة..

وواجب المسلمين تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس جميعاً بكل وضوح وبيان ليكون الناس على بصيرة من أمرهم وليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.[1]

---

(١) المصري، د. محمد أمين: سبيل الدعوة الإسلامية ص ٦٢ ـ ص ٦٥ ط١ الكويت: دار الأرقم سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م



﴿قل هذه سبيلي﴾

«أي صارحهم بعقيدتك، وبين لهم حقيقة دعوتك ولا تبال بإنكارهم ولا يهمك أراجيفهم، وقل هذه الدعوة طريقتي، أدعو إلى الإيمان بالله وحده، وإلى اتباع شريعته، وأنا على بصيرة وعقيدة ويقين بحقيقة ما أدعو إليه ومن اتبعني هو على هذه البصيرة واليقين ايضاً.

(قل هذه) إشارة إلى ما يرون من الدعوة، أي قل هذه الطريقة والدعوة التي ترونها هي سبيلي أسير عليها مدى الحياة ولا أنحرف عنها.

أمر بأن يقول هذا ويصارحهم به لكي لا يبقى منهم طمع فيه في أن يرجع إلى مذهبهم وطريقتهم.

والسبيل: الطريق سمي الدين سبيلاً لأنه يؤدي بالإنسان إلى منزل الآخرة، كما أن الطريق يؤدي به إلى منزل الدنيا.

ثم صرح بكيفية الدعوة فقال: (أدعو إلى الله على بصيرة) أي أدعو الناس إلى الإيمان والعمل بأحكام الدين والحياة وفق نظامه... لا يشوب إيماني الشك ولا الارتياب..

ثم قال الكاتب: ولو كان أصحاب المبادىء الأخرى يدعون إلى مبادئهم بهذا الوضوح ولا يرفعون شعارات براقة تخفي وراءها ما تخفي، يجعلونها شباكاً ومصايد يتصيدون بها البسطاء، لو كانوا يدعون بهذا الوضوح لما انزلق في مستنقعهم أحد.»[1]

ولكن شتان بين دعوة ودعوة.. «لا جرم أن ما تدعونني إليه - أي سوى دعوة الله - ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة».

---

(١) الباليساني، محمد طه: القول المنصف في تفسير سورة يوسف ص ١٩٣ - ص ١٩٤ بتصرف بغداد: مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٨٢

وقد نبه الكاتب إلى وجوب الدعوة على كل مسلم وإلى وجوب أن يكون كل داعية على بصيرة إذ لا يجوز الدعوة من الجاهل لأن من لا يعرف الحق كيف يهدي إليه.. أعمى يقود الناس.!



قال ابن القيم: قال الفراء: (ومن اتبعني) معطوف على الضمير في (أدعو)، يعني أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكر بالقرآن والموعظة. قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: (إلى الله)، ثم يبتدىء بقوله: (على بصيرة أنا ومن اتبعني،) فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه مع أتباعه على بصيرة، والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه ويكون على بصيرة.

وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة.

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى أقصى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء.[1]

﴿على بصيرة..﴾

قال القاسمي نقلاً عن محمد عبده في رسالة التوحيد تعليقاً على قوله: ﴿على بصيرة﴾:

«دل قوله على بصيرة على مزية هذا الدين الحنيف، ونهجه الذي انفرد به، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ولكنه ادّعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين، وكر عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان، وما فيها من الاحكام والإتقان، على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه.»

ثم قال القاسمي: «دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ، الدعوة إلى التوحيد.

قال الرازي: كل من ذكر الحجة، وأجاب عن الشبهة، فقد دعا بمقدار

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة حـ١ ص ١٦٢ والتفسير القيم ص ٣١٨ ـ ص ٣١٩



وسعه إلى الله».

ثم نقل القاسمي هذه الفائدة:

«ينبغي للعالم أن يكون حديثه مع العامة، في حال مخالطته ومجالسته لهم، في بيان الواجبات والمحرمات، ونوافل الطاعات، وذكر الثواب والعقاب، على الإحسان والإساءة. ويكون كلامه معهم بعبارة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها. ويزيد بياناً للأمور التي يعلم أنهم ملابسون لها، ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه، ومضطرون إليه، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال. والعامة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين، علماً وعملاً، فلا ينبغي للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم، فيعم الهلاك ويعظم البلاء. وقلما تختبر عامياً - وأكثر الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات، وبأمور الدين التي لا يسوغ ولا يجوز الجهل بشيء منها، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل، وجد جاهلاً بالبعض، وإن علم شيئاً من ذلك، وجدت علمه به علماً مسموعاً من ألسنة الناس، لو أردت أن تقلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه. وعلى الجملة، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم، ويحدثوهم به ويبثوه لهم، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا من أجله.

ولا ينبغي للعالم أن يخوض مع الخائضين، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين.[1]

آية ١٠٩

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى، أفلم

---

(١) محاسن التأويل، حـ ٩ ص ٣٦١١ - ص ٣٦١٢ ورسالة التوحيد ص ٢٤ ط المعارف مصر وتفسير الرازي حـ ١٨ ص ٢٢٥

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا، أفلا تعقلون﴾.

تشير الآية إلى سنة الله في إرسال الرسل، أنهم رجال يوحى إليهم يبعثهم الله في أقوامهم فليس محمد ﷺ بدعاً بين الرسل أن كان بشراً بعث في قومه..

وكما اعترض قوم النبي ﷺ على بشريته اعترض أقوام آخرون: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا﴾ هذا خبر السماء فهلا صدّقتموه، فإن لم تفعلوا، فسيروا في الأرض، أفلم تسيروا فيها فتنظروا وتبصروا كيف كانت عاقبة ونهاية الذين كذبوا رسلهم من قبلكم، إن ديارهم خاوية ترونها بأم أعينكم، فلا بالغيب صدّقتم ولا بالمشاهدة والمعاينة آمنتم، فبأي حديث بعده تؤمنون.. وبم تقتنعون إلا أن تغشاكم غاشية من عذاب الله.

أما المؤمنون الذين صدقوا بالغيب، وقوّوا إيمانهم بالتأمل في عالم الشهادة وزادتهم أخبار من غبر زادتهم يقيناً على يقين فهؤلاء ينتظرهم أجر الآخرة لأنهم اتقوا ربهم وخافوه بالغيب.

ثم تذييل الآية جاء التفاتاً إلى الكافرين مرة أخرى فقال: (أفلا تعقلون)؟ إن الدين تحرير للعقل الإنساني، وليس تعطيلاً له أبداً..

﴿الا رجالاً نوحي إليهم﴾

«وما أرسلنا من قبلك إلى الناس مرسلاً من الملائكة، يبلغونهم رسالات ربهم، ما أرسلنا إلا رجالاً مثلك نوحي إليهم بشرائع يبلغونها كما أوحينا اليك، وهؤلاء الرسل رجال من أهل القرى كما أنك أنت من أم القرى، فأي علة لهؤلاء المكذبين المعاندين في عدم اتباعك، وأي عجب لهم في ارسالك (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم).

أفلم يسيروا في الأرض، أصمموا على تكذيبك، واعراضهم عن التدبر فيما



تتلوه عليهم، وقبعوا في ديارهم، فلم يسيروا في الأرض، ويتنقلوا في أرجائها، فيروا آثار الأمم الماضية التي كذبت رسلها، فيعلموا ما آل إليه أمرهم، (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون). (١)

﴿أَفَلم يَسيروا في الَارض فيَنظروا . . ﴾

«إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب. حتى قلوب المتجبرين. ولحظات الاسترجاع الخيالي لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم، وتصورهم أحياء يروحون في هذه الأمكنة ويجيئون، يخافون ويرجون، يطمعون ويتطلعون، ثم إذا هم ساكنون، لا حس ولا حركة، آثارهم خاوية، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة في الضمائر والمشاعر. . إن هذه التأملات لتهز القلب البشري هزاً مهما يكن جاسياً غافلاً قاسياً. ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين. (٢)

آية ١١٠

﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

وهذه الآية تشرح سنة أخرى لله عز وجل في دعوة الرسل مع أقوامهم، والصراع الذي فرضه الأقوام على أنبيائهم، وما كان الأنبياء يحبون هذه النهاية لأقوامهم لأنهم حريصون عليهم . .

هذه السنة تشير إلى نهاية هذه المواجهات بين الأنبياء وأقوامهم، وأن النصر يتنزل حين يبذل الدعاة من الرسل كل جهدهم ويستنزفون كل طاقتهم ثم يبلغون من قومهم مبلغاً من اليأس لا مزيد عليه، ويتيقنون أنهم مكذبون من هؤلاء الأقوام ولا أمل في الاستمرار وإطالة الزمن، عند ذاك يتنزل النصر فننجي بهذا

(١) يوسف عليه السلام ص ١٦٦ ـ ص ١٦٧

(٢) الظلال حـ٥ ص ٥٧



النصر من نشاء أما القوم المجرمون فلا يرد بأسنا عنهم . .

ولقد أكد هذه السنة آيات أخرى وقصص في الكتاب العزيز، وهذا شاهد من قصة نوح: «فدعا ربه اني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر، وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر».

ولا يخطرن ببالك أن استيئاس الرسل كان من وعد الله، أو أن ظنهم التكذيب أن وعد الله مخلف، معاذ الله فهذا كفر مخلّد في النار. ومعاذ الله أن يقع فيه عامة المؤمنين فكيف بالأنبياء المرسلين؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾

«سنة الله تعالى التي يجريها في خلقه ألا يعجل العقوبة لمن كفروا به وكذبوا رسله، بل يمهلهم قطعاً لأعذارهم، وإقامة للحجة عليهم، ولعلهم أن يرجعوا إلى رشدهم.

ولقد طال جهاد الرسول ﷺ بمكة، وهو ينذر قومه بالعذاب، وكلما تأخر العذاب عنهم استخفوا به ﷺ وسخروا منه، حتى بلغ من شأنهم أن قالوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فبين الله سبحانه وتعالى أن تأخير العذاب عنهم ليس عجزاً منه جل وعلا وإنما كان وفق سنته التي لا تتخلف، وهي أن يؤخر نزول العذاب على الكافرين حتى إذا يئس الرسل من إيمان أقوامهم كما حدث لنوح إذ قال: «إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً.»[1]

﴿وظنوا أنَّهم قد كذبوا﴾

«أي وظن الرسل أنهم قد كذبوا، والظن هنا معناه الحسبان، وفي لفظة (كذبوا)، قراءتان أولاهما بضم الكاف وكسر الذال مع تخفيفها، والفعل في كلتا

---

(١) يوسف عليه السلام ص ١٦٨



القراءتين مبني للمجهول، والمعنى على قراءة التشديد: وحسب الرسل أن أتباعهم الذين آمنوا بهم وصدّقوهم قد تحولوا عن إيمانهم وتصديقهم، وكذبوا الرسل فيما وعدوا به من نصر الله لهم، وإنزال العذاب على الكافرين، وهذا حسبان من الرسل فحسب، لا أن الأتباع قد كذبوا بالفعل، وما أوجد هذا الظن عند الرسل إلا شدة خوفهم على أتباعهم من أن يفتنوا في دينهم أو يداخلهم الشك فيما وعدوا به من النصر، بسبب طول البلاء، وتأخر إنزال العذاب على الكافرين.

ثم قال الكاتب الشيخ كحيل: وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه هو خير ما قيل في هذه الآية على رواية التشديد.

ثم قال: إن هذا هو الذي ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها إذ قالت[1] لابن أختها: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، واستيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم (بالتشديد) جاءهم نصرنا عند ذلك.

ثم قال الكاتب: أما المعنى على رواية التخفيف، فعندي أنها لا تخرج عن المعنى على قراءة التشديد.

فإذا وصل الرسل إلى هذا الحال من اليأس من إيمان أقوامهم، وظن تسرب الشك إلى قلوب أتباعهم (جاءهم نصرنا): أتاهم نصرنا الذي وعدناهم به على مقتضى حكمتنا، وبمحض مشيئتنا. (فنجي من نشاء): فننجي من نشاء من العذاب، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون، وننزل على الكافرين العذاب بقدرتنا وقوتنا.

(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين): ولا تدفع قوتنا، ولا يرفع عذابنا عن القوم الكافرين المشركين، وإن حالك أيها الرسول مع قومك لا تختلف عن أحوال

---

1) الحديث في البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة يوسف. باب رقم ٦، رقم الحديث ٤٦٩٥ فتح الباري جـ٨ ص ٣٦٧



هؤلاء الرسل مع أقوامهم، فاصبر على كيد قومك كما صبر اخوانك الرسل من قبل، ولا تستعجل لهم فقد وعدتك بالنصر وهو آت لا محالة.[1]

قال الشيخ العلمي في تخريج كلمة ﴿كذبوا﴾:

الأظهر المنطبق على قواعد العقائد أن المراد باستيئاس الرسل يأسهم من إيمان قومهم وفي قوله تعالى ﴿كذبوا﴾ بضم الكاف قراءتان سبعيتان: إحداهما بتشديد ذال كذبوا ولا إشكال فيها، غير أن الظن فيها بمعنى اليقين لأنه قد يستعمل في الفصيح بهذا المعنى، وبمعنى الوهم، وبمعنى حديث النفس، والقرائن هي التي تعيّن المعنى المراد.

والقراءة الثانية بتخفيف ذال كذبوا، وفي تطبيق القواعد عليها وجهان: أحدهما أن الضمير في ﴿ظنوا﴾ يعود لأقوام الرسل، أي ظن الأقوام أنهم كذبوا فيما أوعدوا به من وقوع العذاب عليهم. وثانيهما أن الضمير عائد للرسل، وكذبوا ههنا معناه كذبتهم أنفسهم فيما تمنوا وأملوا في قومهم، أي خابت آمالهم فيهم، من كذبته نفسه، إذا منته الأماني وخيلت إليه من الآمال ما لا يكاد يكون، قال في الأساس: «وكذب نفسه، وكذبته نفسه، إذا حدثته بالأماني البعيدة والأمور التي لا يبلغها وسعه ومقدرته، والمعنى حتى إذا يئس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أي أيقنوا أن أمانيهم في إيمانهم وآمالهم في قبولهم الدعوة ضائعة، جاءهم نصرنا..»[2]

﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾

«تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية طاقة ثم يجيء النصر ـ بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس ـ يجيء النصر من عند الله.

(١) نظرات في التفسير ص ١٦٩ ـ ص ١٧٠

(٢) المؤتمر حـ٢ ص ١٣٨٢ ـ ص ١٣٨٣



ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هـزلاً. ودعوات الحق لا يجـوز أن تكون عبثـاً ولا لعباً، فـإنما هي قـواعد للحيـاة البشرية ومنـاهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعيـاء. والأدعياء لا يحتملون تكـاليف الدعـوة، لذلـك يشفقون أن يدّعوها، فإذا ادعوهـا عجزوا عن حملهـا وطرحـوها، وتبـين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة.

إن الـدعوة إلى الله ليست تجـارة قصيرة الأجـل، إما أن تـربح ربحـاً معينـاً محدداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخـرى أقرب ربحـاً وأيسر حصيلة...

وفي قصـة يوسف ألـوان من الشـدائـد. وألـوان من الاستيئـاس من نصرة الناس.. ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقـوا ـ كما هـو وعد الله الصـادق الذي لا يخيب ـ وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين.»[1]

«يـرشد النص الـرسـول بهـذا الـوحي إلى سنـة في الأنبيـاء والأمم وهي أن نصر الله يجيء دائـماً في نهاية الـطريق، وبعد استنفـاد كل وسـائل الإقنـاع حتى لا يكون لأحد على الله حجة.

ولا غرْو أن نجد في هـذا القصص ما يعكس نفسيـة الرسـول ﷺ، ونفسية المجتمع الذي يحيط به.

ويظهر هذا التجاوب في أجلى صورة فيما يختار الله من قصص تـلائم بيئته، وتشبه ظروفه. ولولا الوقائع الخاصة التي يعرضهـا في قصص الأنبياء مـع أقوامهم لكـانت هي بنفسها قصـة الرسـول مع قـومه لتشـابـه المـواقف واتفـاق التعـلات والمبررات..»[2]

(١) الظلال حـ٥ ص ٥٩ ـ ص ٦٠

(٢) سيكولوجية القصة ص ٣٣٦



«وفي هـذا تطمـين للرسول الكـريم وأنه سيكـون له من هـذا الضيق الذي يعالجه فرجاً، وان هـذه الآلام التي يلقاهـا الرسـول من قومـه، هي آلام المخاض لميلاد حياة جديدة، يستقبل فيها النبي قومه، مؤمنين بالله مـطيعين لـرسولـه، بعد أن تقلب منهم على جمر الغضا، وشوك القتاد. .

وهكـذا حيـاة أصحـاب الـرسـالات من الأنبيـاء، والـرسـل، والقـادة، والمصلحـين. . إنها زرع وحصاد، وانـه بقدر الجهـد المبـذول في الـزرع، وبقـدر العناء والمكابدة في الغرس والرعاية، يكون الثمر كثرة وطيبـاً. . »[1]

﴿وظنوا أنهم﴾

«وظنـوا: أي الناس عـلى اختلاف مشـاربهم (أنهم قد كذبوا)، أي الـرسـل وأتبـاعهم حيث لم يأت لهم النصر سهـلاً، وهو مـوقف نفسي بالـغ الصعـوبـة. . المؤمنون يجاهدون الكفار. . وشوكة الكفار قوية. . فعندهم العـدد والنفوذ وعـدم التورع عن استعمال الأساليب الدنيئة. . ويتأخر النصر. . فيعيّرهم الكفار ضرورة فلا بد أن يتضرع المؤمنون بالدعاء ومعهم الرسول. .

هنا يكون الدفاع الإلهي عن الرسل والمؤمنين عملياً. في غمرة اليأس يشـع ضوء الأمل.

(جاءهم نصرنا). لم يقل النص الكريم: نصرناهم مثلاً، وإنما (جاءهم نصرنا)، كأنه على موعد معهم لا يخلفه. كان في سبيله اليهم، وأتاهم في الوقت المناسب حيث يكون له لذة، لأنه مطلوب بشغف وشوق.

وفي إضافة النصر إلى ضمـير الجلالـة (نصرنا) مـا يدل عـلى أنه نصر عـزيز مؤزر ولأمر ما تأتي آيات النصر مع وصف الله عز وجل بالعزة والحكمة:

«وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. » آل عمران ١٢٦

«وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. » الانفال ١٠

«ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. » الروم ٥

---

(١) قصتا آدم ويوسف ص ١٤٤ والقصص القرآني لعبد الكريم الخطيب ص ٤٩٤



ويوصف النصر بأنه «عزيز» أي غال غير رخيص وإنما يأتي بعد البذل والفداء. «وينصرك الله نصراً عزيزاً.»[1]

﴿قد كذبوا﴾:

«قرأ الكوفيون بالتخفيف، وشدد الباقون.

وحجة من شدد أنه حمله على معنى أن الرسل تلقاهم قومهم بالتكذيب، فالظن بمعنى اليقين، وفي (ظنوا) ضمير الرسل، فالهاء والميم في (أنهم) للرسل. فعطفوه على (استيأس الرسل)، والتقدير: وأيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيما جاءوهم به من عند الله جل ذكره.

ودليله قوله تعالى: ﴿ولقد كذِّبت رسل من قبلك﴾ وقوله: ﴿فكذبوا رسلي﴾ وقوله: ﴿إن كل إلا كذّب الرسل﴾.

وروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لحق الرسل البلاء والضرر حتى ظنوا أن المؤمنين بهم قد كذّبوهم لما لحق المؤمنين من الفتن على الإيمان، فيكون الظن على هذا بمعنى الشك. والتقدير: وظن الرسل أن من آمن بهم قد كذبوهم لما لحقهم من البلاء.

وحجة من خفف أنه حمله على معنى أن المرسل إليهم (ظنوا) أنهم قد كذبوا فيما أتتهم به الرسل، فالظن بمعنى الشك أو بمعنى اليقين، وفي ظنوا ضمير المرسل إليهم، والهاء والميم في (أنهم) للمرسل إليهم، أي وظن المرسل إليهم أنهم لم يصدقوا فيما قيل لهم، وما تُوعِّدوا به من إتيان العذاب على كفرهم. أي ظنوا أنهم لم يصدقهم الرسل فيما أتوهم به من عند الله جل ذكره من إتيان العذاب إليهم، أو من الأمر بالإيمان والتوحيد، (جاءهم نصرنا)، أي جاء الرسل نصر الله على قومهم، وهو العذاب.

ومعنى ذلك أن المرسل إليهم لما رأوا امهال الله لهم بما توعدهم به الرسل، إن لم يؤمنوا، شكوا في صدق الرسل.

---

(١) يوسف في القرآن ص ٨٨ - ص ٨٩



وحسُن أن يكون الضمير في (ظنوا) وفي (أنهم) للمرسل إليهم، ولم يجر لهم ذكر، لأن ذكر الرسل يدل على أن ثَم مرسلاً إليهم.[1]

آية ١١١

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

هذه آية الختام لهذه السورة الكريمة تذكر أغراض القصص القرآني أو بعضاً منها، ومن الطبيعي أن تختم سورة قصصية بآية تلخص أغراض وأهداف القصص القرآني. وتذكر من هذه الأغراض والأهداف أولاً أنها عبرة..

والعبرة: العظة والفائدة التي تنقل من الماضي إلى الحاضر لتعقيله وهدايته ولترشيد المستقبل.

ولاحظ التنكير في (عبرة) ليفيد العموم لا المفرد، فهذا جنس لا فرد واحد.

والعبرة مأخوذة من عبر، ومنه العبور والعَبَرات: الدموع التي تعبر من العين إلى الخد، والعبير: الذي يعبر من الزهرة أو العطر إلى الأنف، والعبارة: لأنها تنقل الفكرة من ذهن إلى ذهن ومن شخص إلى شخص، والعبّارة: تنقل الناس في البحر.. الخ.

والاعتبار: أمر في غاية الأهمية، ووجه ضرورته أن الحياة الإنسانية قصيرة والتجارب التي يحصّلها في عمره المحدود محدودة، وهو يحتاج إلى تجارب كثيرة، فكان لا بد إذاً من الاستعانة بتجارب الآخرين، ونقل عبرتهم إلى واقعنا.

وهذا مؤشر مهم على أهمية مدرسة التاريخ.. فليس بعاقل من لا يتعلم إلا من تجربته وإن السعيد كما قالوا من اتعظ بغيره..

وكما يقول الشاعر:

---

(١) مكي: الكشف ج/٢ ص ١٥ ـ ص ١٧

لـيس بـإنسـان ولا عاقل	من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من قبله	أضاف أعماراً إلى عمره

ولكن من الذي يجتني هـذه العبرة ويستفيـد منها: إنهم أولـو الألبـاب، أصحاب العقول النيرة والقلوب الحية، ولكن غير هؤلاء قد يشهـد الآية والحـادثة بنفسه ثم تضمحل آثارها في تلك النفس، كبني إسرائيل.

المهم أن الإنسان مسؤول عن نفسه أن يبقيها صالحة لتلقي موحيات الكون ودروس التاريخ.

هذه القصة لم تكن حديثاً يختلق ويكذب ويفترى دون وحي، لأن القصص المختلق الخيالي يعرفه الناس، ويستـطيعون أن يتبينـوا الفوارق الجـوهريـة العميقة بين هذا وهذا. والحديث المفترى أنى يأتي بكل هذه التفاصيل، ثم يكـون مطابقـاً للوقائع التاريخية. . .

إن القصص إذاً دليل على صدق نبوة محمد ﷺ وعلى ربانية القـرآن، ولكن المكـابـرين يـريـدون أن يجعلوا القصص دليـلاً عـلى العكس، وأنى لهم؟ **﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾**، فكيف يكون مفـترى وهو مصـدق للكتب التي سبقته، طبعاً مصدق في الجملة، أما في التفاصيل فإن القرآن هوالحق الذي لا لبس فيه ولا شائبة. .(١)

﴿وتفصيل كل شيء﴾: إن القصص مـدرسة كـبرى لمن أراد التعلم وجني الفائدة ففيه كل أسباب الهدى، وتفصيلٌ لكل شيء يلزم لخلافة الإنسـان في الأرض، وأمانة القيام على منهج الله في الأرض.

وهو كذلـك هدى ورحمـة لقوم يؤمنـون. . فهو يهـديهم إلى السبيل الأمثـل والأقوم ويكشف لهم سنن الهداية وأسبابها. . ورحمة حين يتجنبون كل ما يـوقع في

---

(١) قال في محاسن التأويل: وقد روى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسـول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم: المحاسن جـ٩ ص ٣٥٠١



الهلكة مما حذّرت منه القصة ووقع فيه من سبقوا فجوزوا بما ظلموا وقصّروا.

قال القشيري في قوله تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾:

«فيها عبرة للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى، فإن يوسف لما ترك هواه رقاه الله إلى ما رقاه.

وعبرة لأهل الهوى فيما في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت ما لقيت.

وعبرة في العفو عند المقدرة كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعبرة في ثمرة الصبر..»[1]

﴿لقد كَان في قصَصِهم عبرة لأولى الألباب﴾...

«أخبر الله تعالى أن في قصص الماضين التي ذكرها دلالة لذوي العقول على تصديق الرسول وأن ما أخبرناك به لم يكن حديثاً كذباً.

والحديث: الاخبار عن حوادث الزمان.

والافتراء: القطع بالمعنى على خلاف ما هو به، وأصله من قولهم: فريت الأديم فرياً إذا قطعته.

ووجه الاعتبار بتلك القصص: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب وإعلائه بعد حبسه في السجن، وجمعه بينه وبين والديه وإخوته على ما أحبوا بعد مدة طويلة وشقة بعيدة لقادر أن يعز محمداً ﷺ، ويعلي كلمته، وينصره على من عاداه..[2]

«ذكر الله عز وجل في هذه الآية أن في أخبار المرسلين مع أممهم، وكيف نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين عبرة لأولي الألباب، أي عظة لأهل القلوب،

---

(١) اللطائف حـ٣ ص ٢١٤ ـ ص ٢١٥

(٢) التبيان حـ٦ ص ٢٠٩



وبين هذا المعنى في آيات كثيرة. . »[1]

﴿لقَد كان في قصصهم عبرة﴾

«عبرة: أي عظة وفكرة وتذكرة لأصحاب العقول السليمة.

وأي عبرة أبلغ لمن يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من أن أخوة يوسف قد حسدوه، وأخذوا يكيدون له، حتى أبعدوه عن أبيه، وألقوه في الجب، وتسببوا في أن يحيا غريباً، ثم تكون النهاية أن يتولاه الله ويرعاه، ويرفعه الى أرقى مراقي العزة والكرامة، ويأتي إخوته إليه جائعين خاضعين نادمين، بعد أن نصره الله عليهم، ونجاه من كيدهم.

وأي عظة للشباب أبلغ من أن يتعظوا بيوسف.

بل أي عبرة للمنغمسين في شهواتهم أعظم من أن يوسف هدد بالسجن إن لم يفعل الفاحشة فآثر إرضاء ربه.

أي عبرة لأصحاب البلاء والمحن في هذه الحياة اكثر تأثيراً من أن يوسف قد زج به في السجن ظلماً وعدواناً، فصبر على ما ابتلي به، فكانت عاقبته أن برأ الله ساحته، وأخرجه من السجن شريفاً كريماً، مرفوع الهامة، ومكن له في أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء.

وما أبلغ العبرة للعلماء في أن يوسف لم يشغله سجنه ظلماً عن نشر العلم، والدعوة إلى الله تعالى.

وماذا على القادة لو اتخذوا لهم من يوسف في حكمه عبرة وعظة وتذكرة، فقد تولى تدبير خزائن مصر في أيام محنتها، وتعرضها لأشد أزمة اقتصادية مرت بها في تاريخها القديم، وبدلاً من أن تستجدي غيرها من الدول ابان تلك المحنة، استطاع يوسف بنزاهته وقناعته، وسيره في حكمه بالحق والعدل، أن يوفر لأهل مصر قوتهم، وأن يجعل من مصر مركز تموين لمن جاورها.

وما جعل الله يوسف وأمثاله من الأنبياء ملوكاً وحكاماً إلا ليكونوا سلفاً

---

(١) أضواء البيان حـ٣ ص ٦٦



ومثلاً لمن يتولى الحكم من بعدهم في كل بلد وفي كل جيل.

وأي عبرة لمن ينشدون مكارم الأخلاق من أن يوسف لما أقدره الله على إخوته لم يقرّعهم ولم يعتب عليهم.

وأي عبرة وعظة وتذكرة لمن يكذبون برسالة محمد ﷺ أبلغ من أنه قص عليهم أحسن القصص وفي طليعته قصة يوسف وإخوته، بأسلوب تحدى به جميع معارضيه، فعجزوا عن الإتيان بمثله.[1]

﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾

«العبرة على وزن فعلة، وهو وزن مصدر من مصادر «عبر» الرؤيا: فسرها وعرف ما تؤول إليه في حياة صاحبها أو بعد موته.. وعبر الوادي أو النهر: تجاوزه من طرف إلى طرف يقابله، قال الراغب: وأصل العبر: تجاوز من حال إلى حال. فأما العبور فيختص بتجاوز الماء..

«والاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر.»

فالعبرة والاعتبار حالة نفسية توصل الإنسان إلى معرفة المغزى والمآل لأمر ما، يشاهده الإنسان ويتبصر فيه ويقوم باستقرائه وموازنته ومقايسته ومحاكمته محاكمة عقلية، فيصل إلى نتيجة مؤثرة يخشع لها قلبه، فيدفعه ذلك إلى سلوك فكري واجتماعي مناسب، والغاية التربوية من العبرة في القرآن العظيم الوصول بالسامع إلى قناعة فكرية بأمر من أمور العقيدة، تحرك في القلب أو تربي عواطف ربانية كما تغرس وتثبت وتنمي عقيدة التوحيد والخضوع لشرع الله والانقياد لأوامره..

ولكل قصة قرآنية هدف تربوي رباني سيقت من أجله، والعبرة بالقصة إنما يتوصل إليها صاحب الفكر الواعي، والذي لا يطغى هواه على عقله وفطرته، بل

(١) يوسف عليه السلام ص ١٧١ - ص ١٧٣



يستنبط من القصة المغزى الحق، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾[1]

ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في الجب وإعلائه بعد وضعه في السجن، وتمليكه مصر بعد أن بِيع بيع العبيد بالثمن الخسيس، والتمكين له في الأرض من بعد ذلك الأسار والحبس الطويل، وإعزازه على من بغاه سوءاً من اخوته، وجمع شمله بهم وبأبويه على ما أحب بعد المدة الطويلة، والمجيء بهم من الشقة النائية البعيدة..

إن الذي قدر على ذلك كله أيها الناس، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه فيخرجه من بين أظهركم ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد ويؤيده بالجند والرجال والأتباع والأصحاب، وإن مرت به الشدائد وأتت دونه الأيام والليالي والحوادث..

وإنما قال (لأولي الألباب) وهم أصحاب العقول الراجحة، لأن أهل البصيرة والروية من العقلاء، هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها بعد التأمل في صفاتها وحقيقتها. وأما الأغرار الغافلون، والظالمون المعاندون فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم فلا يفيدهم النصح والتذكير، ولا سوء العاقبة والمصير[2]

﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾:

قال القاسمي: «قصص القرآن وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات، عما يرويه الناس، إلا أنها توافقها في الجملة، وتصدقها في الجوهر، فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل، من أعظم ما يصدقه ويؤيده. ولا يتوهم من هذا أن قصص القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في

---

(١) عبد الرحمن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها ص ٢٤٤ ـ ص ٢٤٥، دمشق: دار الفكر، ط١ سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

(٢) تفسير المنار جـ١٢ ص ١٥٤ ـ ص ١٥٥



شيء ما، كلا، إذ لو صح هذا لما قال تعالى: **﴿إن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.﴾** فقصصه قد تختلف عما عندهم وتبين لهم حقه من باطله، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ومخالفته لها في بعض الجزئيات.

ويجوز أن يكون تصديق الذي بين يديه تصديق الحق الذي عندهم، لا كل الذي عندهم وإلا لدخل ذلك في عقائدهم الفاسدة، وأوهامهم وخرافاتهم، وغيرها، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه، ويستحيل أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله، فتنبه لذلك، ولا تكن من الغافلين.

(وتفصيل كل شيء): أي تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام والآداب والأخلاق، ووجوه العبر والعظات، ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، وتبتغى به الرحمة من رب العباد»(١)

«(لقد كان في قصصهم) أي في خبر المرسلين مع قومهم وذويهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين، وكيف نصرنا المظلومين على الظالمين، (عبرة لأولي الألباب) وعظة لذوي العقول، فإن تاريخ الرسل حافل بالمواعظ والذكريات، (ما كان) القرآن المجيد (حديثاً يفترى) أي يكذب ويختلق، من دون الله، (ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) أي قبله من الكتب السماوية، كصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور، فهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها تحريف وتبديل وتغيير وزيادة ونقص.

(وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم، وأمور اعتقادية وغيرها. فلهذا كان هدى ورحمة وبيانا ونعمة لقوم يؤمنون.

فالقرآن قص علينا أحسن القصص ليكون عبرة وذكرى وشفاء للقلوب من

---

(١) تفسير القاسمي حـ٩ ص ٣٦١٧ - ص ٣٦١٨

أمـراض الجهالـة، وإرشاداً لتقـويم شؤون البشر، وتهـذيب نفـوسهم، وإصـلاح معـاشهم ومعـادهم، وليس الغـرض سرد تـواريـخ المـاضين، وذكـر شؤونهم وأطوارهم، ولكنها للعظة والاعتبار، ولهـذا لا يبالى فيهـا بالتكـرار، ولا يستهجن معها الأطناب بعد الإيجاز، أو الإيجاز بعد الأطناب، ولا أن تسرد غير مراعى فيها تعاقب الوقائع، ولا ترتيب الحوادث، فالقرآن يذكر القصة في مواطنها، بأسـاليب متغـايرة، أو صـور متقاربـة، لكل منهـا مغزى لا يؤديـه غيره، ومـرمى لا يصيبـه سواه، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾

هذا، ولم تتكرر قصة يوسف لأن فيها من ذكر ما يتعلق بالناموس ما لا يتفق مع التكرار.

والقرآن ليس بتاريخ كما هـو الشأن في أسفـار التوراة، والقـرآن لا ينشر إلا التقوى والفضيلة، وكذلـك نص نصاً صريحـاً ببراءة الأنبيـاء الكرام الـذين رماهم أهل الكتاب بالكبائر.

والقرآن لم يذكر من تاريخ الأنبياء ونحوهم إلا ما فيـه عبرة، ومـا به تغـذية النفوس بالصلاح والاستقامة، وتحصين الأخلاق والآداب بسياج الفضيلة، ولكن كتب اليهود والنصارى تقول ما فيه إفساد للأخلاق وتعليم للرذيلة.

إننـا لا نـرى قصـة من قصص القـرآن، إلا وفيهـا تـوحيـد وعلم ومكـارم أخلاق، وحجج عقلية، ومحاورات جميلة تلذ العقـلاء، وإرشاد ونصـح، وتبصرة وتذكرة، ونرى القرآن يعرض عن كثير من الوقائع التاريخيـة التي لا لزوم لهـا، ولا معـول عليها، وبـالأولى تراه يعـرض عما ذكـرته تـوراة اليهود التي بـين أيديهم من الحوادث المخجلة الشائنة.

ودرس التاريخ ان عدل به عن العبرة، كان شغلاً بلا فائدة، وضيـاع وقت وحياة بلا ثمرة.

والعـبرة مشتق من عبور البحـر، فينقل قـاريء التاريـخ حـال غـيره عـلى



نفسه، ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق الراهنة المنوطة بشخصه، أو بأسرته، أو بأمته ووطنه، وبدينه ودنياه، وهو ما أريد به من قصص القرآن التاريخية.

وقد غفل الناس عن تلك العبرة، جهالة بالقصد، ورمياً للفحوى، ورضىً بالقشور، وابتعاداً عن أسرار البلاغة، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها، أو المعاني دون مغزاها..»(١)

قال الدكتور التهامي نقرة تعليقاً على الآية الكريمة:

«إن القصص التاريخي في القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف، لكنه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قص من وقائع تاريخية. وقد أبان وجه الحق فيما دخل على بعض القصص من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين، أو في كتب التاريخ القديمة.

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته. فعلى الدارس لقصصه ألا يقتصر على معرفة الوقائع، بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها، ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله وهي على أكمل نظام، وأتقن ترتيب. إن القرآن لم يقتصر على عرض لوحات مجردة لماضي الإنسانية في صراع قوى الخير والشر، وإنما كان يهدف إلى بعث المثال من التاريخ، لإثارة الانفعالات الموحية بالهداية والإيمان، واستغلال الأحداث التاريخية في التربية ومعالجة النزعات النفسية في الإنسان، وأمراض المجتمع الذي يعيش فيه بما لتلك الأحداث من قوة مفروضة على النفس تحدث فيها انصهاراً ووعياً ويقظة إحساس.

ومن هنا كان القصص التاريخي أشد تأثيراً وأسمى طموحاً من التاريخ،

---

(١) مؤتمر تفسير سورة يوسف حـ٢ ص ١٣٨٣ ـ ص ١٣٩٠ وقد استفاد بعض معاني الشيخ الدكتور التهامي نقرة في كتابه: سيكولوجية القصة في القرآن ص ٢٢١ الشركة التونسية للتوزيع سنة ١٩٧٤.



لأنه يمد الإنسان بسلاح الإيمان والثبات، ويعـرّفه بمـا لله من نواميس قـارّة في نظام الخلق والإبداع، ومن سنن مطردة في نـظام الأقوام والأمم، سنن خـاضعة لإرادة الله وليست مقيدة لها، تتصل فيها الأسباب بالمسببـات، فلا تتغـير أو تتحول محاباة لأحد من الناس، لأنها محور عدل الله وحكمته في تدبيرالأمور.»[1]

﴿لقد كان في قصصهم عبرة...﴾

«في القصة عبرة لمن يعقل: وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل على غير صلة بين محمد وهـذه الكتب. فما كـان يمكن أن يكون مـا جاء بـه حديثـاً مفترى. فالأكاذيب لا يصدق بعضهـا بعضاً، ولا تحقق هـداية، ولا يسـتروح فيها القلب المؤمن الروْح والرحمة.»[2]

وقال في التحرير والتنوير:

«لهذه الآية ثلاثة مواقع عجيبة من النظم المعجز. فهي مرتبطة بجملة (ذلك من أنباء الغيب).. وهي تتنزل منها منزلة البيان لـما تضمنه معنى الإشـارة في قولـه «ذلك» من التعجيب، وما تضمنه معنى، وما كنت لديهم) من الاستدلال على أنـه وحي من الله. وهي تـذييـل لقـولـه تعـالى: ﴿ومـا أكـثر النـاس ولـو حـرصت بمؤمنين﴾.

وتأكيد الجملة بـ قد واللام للتحقيق.

وأولو الألباب: أصحاب العقول.

والعبرة: إسم مصدر لـلاعتبار، وهـو التوصـل بمعرفـة المشاهـد المعلوم إلى معرفة الغائب. والعبرة مستقرة في قصصهم سواء اعتـبر بها من وفق لـلاعتبار أم لم يعتبر لها بعض الناس.

وجملة (ما كان حديثاً يفترى) تعليل لجملة (لقد كان في قصصهم عبرة).. أي لأن ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة.

---

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص ٢٤٣ ـ ص ٢٤٤

(٢) الظلال حـ٥ ص ٦٠



ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لايحصل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع، وذلك بخلاف القصص الموضوعة، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلاّ على سبيل الفرض والاحتمال، وذلك لا تحتفظ به النفوس.

والذي بين يديه: الكتب الإلهية السابقة. وضمير (بين يديه) عائد إلى القرآن الذي من جملته هذه القصص. والتفصيل التبيين. والمراد بكل شيء: الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص. والهدى الذي في القصص العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعناية بهم، وذلك رحمة للمؤمنين لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إياهم في الآخرة». [1]

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفترى. . .﴾

يقول الدكتور خلف الله:

«نستطيع أن نقول إن الواجب العلمي يفرض علينا ألا نعمم في الحكم، كما يفرض علينا أن نقف في بحثنا عن هذه المسألة في القصص القرآني عند الحد الذي أراده القرآن الكريم وقصد إليه!!!. إن قصة يوسف عليه السلام تكاد تكون القصة الوحيدة التي ختمت بآية يجري فيها الحديث عن الافتراء. .

ومن البين أن القرآن يدل بهذه القصة وما فيها من أحاديث عن أخوة يوسف عليه السلام على أن القرآن قد نزل من السماء. ويحسن بنا أن نقف بالآيات عند هذا الحد ولا نعدوه إلى القصص، وهل ما تصوره هو الواقع أو صور

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ١٣ ص ٧١ ـ ص ٧٣

الأحداث. لا نعدوه إلى هذا، أمر مسكوت عنه، وأقل ما يجب هو التوقف حتى يأذن الله.

أما الآيات التي يصف القرآن فيها بعض القصص بهذه الصفة (بالحق) من مثل قوله تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ فليس فيها ما يدل دلالة قطعية على أن المقصود بهذه الصفة إنما هي الأحداث التاريخية. بل لعل رأياً آخر هو الراجح، وهو أن هذه الصفة إنما تطلق على المقصود من هذه القصص من أمثال التوجيهات الدينية والأغراض القصصية.

ثم يقول خلف: وأظنك توافقني على أن وصف المثل بالحق لا يقصد فيه بأية حال أن هذه الأمور التي يقصها المثل قد وقعت خارجاً وحدثت فعلاً، وأن هذه الصور التي يقصها القرآن الكريم هي الصور التاريخية الكاملة لما يروى في الأمثال. وإنما يقصد بهذه الصفة أن الأمثال تشرح الحقائق وتقررها في الأذهان.

وهذا هو الذي نريد منك أن تفهمه من الصفة، حينما يوصف بها القصص القرآني». لا يقصد من هذا الوصف إذاً - أي وصف الحق - ما في القصص من جزئيات للأحداث، وإنما يقصد منه وصف التوجيهات الدينية الواردة في القصة، أو وصف المقاصد التي من أجلها نزلت الأقاصيص والأمثال.

ثم يقول: إن الأحداث والأشخاص في القصص القرآني من المواد التي يكون بها البناء، وهي مواد قد تكون تاريخية وقد تكون خيالية، وقد تكون صوراً لما في الأذهان من معتقدات ومسلمات. وهذه المواد كانت موجودة في البيئة غالباً. والقرآن كان يعتمد على هذا الموجود كما هو بحالته التي كان عليها، لأن القصص القرآني لم يجىء للتاريخ حتى يصحح الأوضاع، وإنما جاء للعظة والعبرة، وفي هذه - العظة - تكفي المعتقدات والمسلّمات. إن باب التأويل مفتوح لمن يعوزه مثل هذا التأويل إلى الاطمئنان.[1]

(١) خلف في فنه القصصي ص ٢٥٧ - ص ٢٦٠

﴿ولكن تصديق الذي بين يديه . . ﴾

ثم قال الدكتور خلف في موضع آخر من كتابه العتيد سالف الذكر أو سيء الذكر:

«والظاهرة التي يحسن بنا الالتفات إليها في هذا المقام هي أن القرآن حين جعل هذه الأخبار من آيات النبوة وعلامات الرسالة، جعلها أيضاً مطابقة لما في الكتب السابقة أو لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار، حتى ليخيل إلينا أن مقياس صدقها وصحتها من الوجهة التاريخية، ومن وجهة دلالتها على النبوة والرسالة أن تكون مطابقة لما يعرفه أهل الكتاب من أخبار. قال تعالى بعد ذكره لقصة يوسف: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾**.

واعتماد القرآن على هذا الرأي الديني اليهودي أو على هذا المقياس خلّف في الجو في عصر النبوة وما تلاه رأيين مختلفين:

(١) **الرأي الأول**: رأي المشركين والكفار من أهل مكة فإن هؤلاء مع معرفتهم لهذا المقياس عن طريق وفدهم إلى أحبار اليهود بالمدينة لم يستطيعوا التسليم بما ترتب عليه من نتائج فلم يؤمنوا بصدق النبي ﷺ أو بصحة رسالته اعتماداً على هذه الأخبار الواردة بالقصص القرآني، وليس يرجع ذلك إلى أن هذه الأخبار لا تتفق ومعارفهم التاريخية، فيظهر أنها كانت تتفق وما يعرفون، وإنما يرجع ذلك فيما هو الواضح من آيات القرآن الكريم إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن الوقوف على مثل هذه الأخبار الواردة في القصص القرآني ليس شاقاً ولا عسيراً، فضلاً عن أن يكون مستحيلاً. . » وهذا حجة على الدكتور ثم طفق الدكتور خلف يستشهد بالآيات التي سجلت تكذيب المشركين بالقرآن بدعوى أنه أساطير مكتتبة، ثم ذكر قصة النضر الذي كان يريد صرف الناس عن القرآن إلى قصص فارس.

ثم ذكر روايات عن الرازي وغيره فيها إشكالات على ما فهمه المفسرون من أخبار القصة القرآنية مثل تكلم عيسى في المهد وأن النصارى ينكرون، ونفي

المؤرخين أن يكون هناك شخص اسمه هامان كان وزيراً لفرعون موسى..

ثم خلص إلىَ نظريته التي ستسد عن القرآن كل «الطاقات» التي يأتي منها الريح، وتدفع عن نبي الإسلام كل الشبهات فقال:

«وهذه الأقوال وكثير غيرها إنما كانت لأن المسلمين أنفسهم قد حرصوا الحرص كله على فهم القصص القرآني على أساس من التاريخ، ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي لأغلقوا هذا الباب الذي جاءت منه الريح، ولسدوا على المشركين والمبشرين السبل وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي عليه السلام وفي القرآن الكريم!!»[1]

إن الدكتور المبجّل إن كان سد باباً فيما زعم فقد أوقفنا في العراء في الصحراء تتناشنا الريح من كل جانب.

وأين الدفاع عن القرآن إذ أقول للناس إن المصداقية التاريخية للقصة القرآنية أمر فيه نظر، بل غير وارد؟!

وأين الحصن الذي أقف فيه وأنا أقول للعالمين ان القرآن كان يكلم الناس بما يعلمونه، وبذات المعلومات التي يعرفون - بقطع النظر عن أسطوريتها أو بطلانها أو صحتها، فمن هذه الناحية لا يحق لكم أن تحاكموا القرآن. وكيف أمنع الناس من حق محاكمة كتاب يدعي أصحابه أنهم يخالفون الواقع التاريخي؟ ثم أليس صنيع الدكتور حجراً على العقول والنظر والبحث والحجاج والجدل وتفنيد دعاوى الخصم؟ والأستاذ هو - رائد طليعي - كما شهد له الدكتور أمين الخولي وطه حسين من رواد التحرر الفكري والعقلي.

وأين وجد الدكتور الأفخم هذه الموافقة المزعومة بين القرآن وما عند الناس؟ هل القرآن وافق معلومات اليهود في نسبة كل الموبقات والفواحش إلى الأنبياء؟ هل وافقهم في تجسيد الإله في قصص التوراة؟ هل وافق الإنجيل في بنوة عيسى؟ أم هل وافقه في ألوهية عيسى وأمه؟

(١) الفن القصصي في القرآن ص ٢٢ - ص ٢٨



أم وافق العرب في معلوماتهم المبتسرة المشوشة عن أخبار الماضين؟

أين أحسن القصص من أرذل القصص؟ قصة يوسف في القرآن العظيم مثال العظمة في التربية العقدية والخلقية، وذات القصة في التوراة مثال الفحش والفجور من نسبة ما لا يمكن تصوره إلى الأنبياء..

وهل زعْم النصارى أن عيسى لم يتكلم في المهد يجعلني أتشكك فيما أورده القرآن حتى اضطر إلى أضيق السبل فأزعم أنه لم يقصد الحقيقة وإنما الأمر كله تمثيل في تمثيل؟

وأين هذا من قوله تعالى: **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾**؟ إن إعلان القرآن أنه يوافق في قصصه ما عند أهل الكتاب أي في المؤدى العام المجمل، لا في منهج القصة ولا في أسلوبها ولا في تفاصيل أحداثها ولا في روح نسيجها القصصي.. فكل ذلك بيِّن بأدنى نظرة فاحصة مقارنة للكتابين وقصصهما. فإن كان الدكتور قرأ ولم يستبن الفرق فتلك مصيبة! وإن لم يكن قرأ وأصدر أحكامه خرصاً فالمصيبة أعظم! وإن كان قرأ واستبان وأغضى فالداهية كبيرة جداً..

وما كنا نحب تشويه جمال المعاني ولا ختم هذه الصفحات بنقيض المسك الذي أتحفنا به الدكتور وإنما هو من باب حراسة هذا الحمى الأقدس.. حمى القرآن العظيم وقصصه العظيم من مثل شطحات الدكتور وغيره من الشاطحين.. أو الخابطين.

من دروس قصة يوسف

وفي ختام هذه القصة العظيمة نقول:

«لا بد من الوقوف بتدبر وإمعان، أمام سورة يوسف، لتستفيد الدنيا جميعاً من العبر والعظات، ما يصلح النفس، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، في كل الاتجاهات، وما يصلح التخطيط والتشريع والتنفيذ على كل المستويات، وما يدفع إلى العلم والعمل والإخلاص بكل الإمكانيات.»[1]

وما نعرضه من الدروس قليل من كثير وقطرة من بحر معاني ودروس هذه السورة الكريمة. وقد تقدم أثناء سرد القصة وتفسيرها عدد آخر من الدروس لا نحب أن نعيده، ولو أردنا التلبث لكان ما يستخرج من آية واحدة يعدل ما استخرج جميعاً.

فإلى بعض هذه الدروس:

١ ـ موقف الوالد من أولاده في معاملتهم وتربيتهم، وضرورة المساواة بينهم، وهذا لا يعني قطعاً أن يعقوب لم يكن كذلك.

٢ ـ قد يكون من هو في بيت النبوة على نفسية جاهلية ضعيفة، وهذا يقفنا على قيمة المعدن الإنساني في جدوى التربية.

٣ ـ ضرورة أن نبني مواقفنا في الحياة على الحقائق لا على الأوهام والتهيؤات التي لا صلة لها بالواقع. وهذا ما حدث مع أخوة يوسف.

---

(١) د. فتح الله بدران: الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ص ٣٨٥



٤ ـ توازن التصرفات وردود الأفعال مع الأحداث والوقائع، فأن يعامل يوسف بهذه القسوة لتوهم أنه محبوب أكثر يدل على نفسيات غالية مفرطة.

٥ ـ الشيطان يدخل للإنسان من المدخل الذي يهوى، ولما كان الأخوة أبناء نبي، وفي نفوسهم بقية من خير ودين، زين لهم الشيطان الجريمة وربطها بدافع ديني وأخلاقي ـ كما يتوهمون ـ: (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين).

٦ ـ لا نفصح عما في نفوسنا كله، فقد نبقي بعض الحقائق مخفاة لأن الناس لا يتفهمونها، أو يتفاعلون معها سلبياً «لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً.»

وإن الشخص الغِر هو الذي يفصح عن كل مكنون نفسه.

٧ ـ يستعان بالرؤية الصادقة في فهم الحياة وقراءة المستقبل، فهي جزء من أربعين جزءاً من النبوة.

٨ ـ حبل الكذب قصير، والباطل مفضوح مكشوف، هذا يتجلى في موقف الإخوة من يوسف ومن أبيهم، (وجاءوا على قميصه بدم كذب)...

٩ ـ صقل الموهبة وتنمية الشخصية وتطوير القدرات لا بد أن يتم في أتون الشدة، وفرن الابتلاء وحرارة المحنة.

تجلى هذا في الفتن المتعددة التي تعرض لها يوسف قبل أن يستلم خزائن مصر.

١٠ ـ الترف يساعد على تحلل الأخلاق وانمياعها، والاختلاط يُجرىء على المعصية ويقوي من دافعها. وشاهده موقف امرأة العزيز والنسوة.

١١ ـ وسيلة فريق من النساء في الوصول إلى مآربهن ـ في الغالب ـ الكيد والمكر.

١٢ ـ في الأوضاع الجاهلية المقلوبة المنكوسة يضطهد البريء ويبرأ المتهم.

١٣ ـ اعتصام المؤمن بربه تعالى، وتعففُه برغم كل المغرِيات، وصبرُه على



كل الشدائد يجعلُ الله جزاءه عزَ الدنيا والآخرة.

«إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.»

١٤ ـ جواز طلب الإمارة إن كنت تعلم أن ليس في المجموعة من هو أكفأ للعمل منك، والنكول عن الإمارة حينئذٍ مرذول.

١٥ ـ مؤهلات الإمارة: الحفظ والعلم. (إني حفيظ عليم).
أو القوة والأمانة: (إن خير من استأجرت القوي الأمين).

١٦ ـ لا بد لنجاح الحاكم من رصيد أخلاقي يشتهر عند الناس، وبدون هذا الرصيد من الثقة والاحترام يذهب كل تخطيط أدراج الرياح. وهذا سر حرص يوسف على براءته.

١٧ ـ من ضرورات نجاح القائد والحاكم والقائم على أمر من الأمور أن يباشر أموره بنفسه، تجلى هذا في قيام يوسف بنفسه على بيع الطعام لخطورة المسألة وحيويتها.

١٨ ـ القائد الصالح الكفء قد ينقذ الله عز وجل به شعباً وأمة بأكملها من هلاك أكيد محقق، وتصور مصر من غير يوسف.

١٩ ـ لطف الله تعالى في الابتلاء، حيث يلقي في قلوب عباده ما يعزيهم، وتأمل يعقوب لو لم يسبق بلواه بيوسف رؤيا يوسف اذن تكون فاجعته أشد ومصيبته أفظع، ولكن الله شاء أن يخفف عنه وقع الابتلاء، فكان من أمر الرؤيا ما كان.

٢٠ ـ في القصص عبرة، وكما قال أحد التابعين: الحكايات جند من جند الله يثبت بها قلب من شاء من عباده، وهذا صريح الآيات: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك.﴾ وقوله سبحانه في سورة يوسف: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب..﴾

٢١ ـ العيش بالأمل والتفاؤل، وعدم اليأس من روح الله، وقد تجلى هذا



في شخصية يعقوب بأجلى صورة: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾

٢٢ - «سنة الله في الأنبياء والأمم، أن نصر الله يجيء دائماً في نهاية الطريق، وبعد استنفاد كل وسائل الإقناع، حتى لا يكون لأحد على الله حجة.»[1]

﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا. فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

٢٣ - النفس الإنسانية إذا لم يفسدها صاحبها بمفاسد التربية تحافظ على نزاهتها وإطاعة ربها.

٢٤ - التربية الصالحة للنفوس تزكيها تزكية جليلة وتحول دون وصول التلويث والتدنيس إليها مهما قويت المغريات.

٢٥ - العاطفة قد تنقلب في لحظة من نقيض إلى نقيض إذا عرض لها ما يصدها عن ذلك ولا سيما عواطف النساء، ولكن لا تلبث أن تعود، كما حدث لامرأة العزيز مع يوسف حين انقلب حبها إلى فتك به عندما أعرض عن دعوتها له.. ثم عاد عليها الحب بعد ذلك الموقف الجافي، واشتد بها إلى حد الشغف والجهار.

٢٦ - ضرورة الانتباه إلى بدء تخلق المشاعر السيئة في النفس من أول أمرها قبل أن تتفاعل وتتضخم وتستفحل ويستطير شرها.

وهذا حال أخوة يوسف مع أخيهم.. لم ينتبهوا من غفلتهم إلا على صوت: أقتلوا يوسف. ولم يدركوا أنفسهم إلا وهم يخططون لجريمة لا أبشع ولا أفظع في عرف كل البشر .

٢٧ - قال في تقديم المنار تحت عنوان: ما في القصة من العظات والعبر لكبراء هذا العصر: «إن في هذه القصة لأعظم عبرة لأمراء هذا العصر ووزرائه،

(١) سيكولوجية القصة في القرآن ص ٣٣٦



وسادته وكبرائه، ومجانه وأعفّائه من رجاله ونسائه، فإن امرأة العزيز التي كانت تراود فتاها عن نفسه لم تكن من قبل غوية، ولا كانت امرأة عادية، ولكنها ابتليت بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره، وخلى بينه وبين أهله، فأذلت نفسها له بمراودته عن نفسه، فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه، فشاع في مصر: دورِها وقصورها ذلها له وإباؤه عليها.

٢٨ ـ ذكر تعالى هذه القصة لما فيها من العبرة، والدلالة على الحكمة والمقدرة، وقصص الرسل مع أقوامهم كلها عظات وعبر، وكلها غيب لم يسبق للنبي ﷺ علم بها:

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك» وقد قال تعالى في ختام هذه السورة: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ والمراد من قصصهم: قصة يوسف وأبيه وإخوته، فمن أدب التالي لهذه السورة مع ربه أن يستشعر خوفه تعالى في نفسه، ذاكراً ما أنزلت السورة لأجله، وغايته هدايته تعالى لخلقه، فهذه السورة كسائر سور القرآن الذي وصفه منزله بقوله: «إنه لقول فصل وما هو بالهزل»، فمن حق الله تعالى على التالي أو السامع لقصص يوسف مع امرأة العزيز أن يعلم أنه كله حق، وكله جد، ليس فيه عبث ولا لهو، وأن يترفع به عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، حتى انه إن لم يستفزه الخوف أو يغمره الحياء، فأدنى أمره أن يكون جاداً غير هازل ولا ماجن.» (١)

٢٩ ـ وقال صاحب المنار في بيان أن كل ما في القرآن هداية صالحة لكل زمان ومكان، ومنه سورة يوسف عليه السلام، أما سورة يوسف عليه السلام فهي منقبة عظيمة له، وآيات بينة في إثبات عصمته، وأفضل مثل عملي يقتدى به في العفة والصيانة، يجب أن يهذب به النساء والرجال، فكل منهما يعلم بشعوره الطبيعي قوة سلطان الشهوة الخسيسة على نفسه، ويسمع ويقرأ من أخبار الناس ـ ولا سيما أهل هذا العصر ـ ما في طغيانها على غيره من الفضائح والخيانات

(١) من مقدمة محمدبهجة البيطار لتفسير المنار لسورة يوسف ص ٣.

والجنايات، وتخريب للبيوت، وإضاعة للمال والعيال والدماء والشرف، أفلا يكون أفضل مثل للعفة والصيانة، وأحسن أسوة في الإيمان والأمانة أن يتلى على النساء المؤمنات والرجال المؤمنين وعلى غيرهم من الملحدين قصة شاب كان من أجمل الشبان صورة، وأكملهم بنية، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان، هي سيدة له، وهو عبد لها، فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تبذل نفسها له، وتخون بعلها، وتدوس شرفها، وتراوده عن نفسه.

والمعهود في أدنى النساء وأسفلهن تربية ومنزلة أن يكن مطلوبات لا طالبات، فيسمعها من حكمته، ويريها من كماله وعصمته، ما هو أفضل قدوة في الإيمان بالله، والاعتصام به، وفي حفظ أمانة السيد الذي أحسن مثواه، وائتمنه على عرضه وشرفه فيقول لها: إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، فتشعر بالذل والمهانة، والتفريط بالشرف والصيانة، وتحقير مقام السيادة والكرامة.

٣٠ - يوسف الصديق هو آية خالدة على وجه الدهر، بطيب نجاره، وطهارة ازاره، وعفته في شبابه، وشرفه في نفسه، وقوته في دينه، وإيثاره لآخرته، وأفضل هداية ربانية تمثل للرجال والنساء المثل العليا في العفة والصيانة، التي لا تتم لبشر إلا بصدق الإيمان بالله تعالى، ومراقبته في الخلوات والجلوات، ومن هذه القصة يُعلم أن خلوة الرجل بالمرأة مهما تكن صفتهما من أقوى ذرائع الفتنة، وقد حذر النبي ﷺ منها في عدة وصايا حتى في أقارب الزوجين فقد قال ﷺ: «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت.» رواه الشيخان في الصحيحين، ومنها أيضاً: لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها الرجل إلا ومعها محرم.

ثم بين الكاتب شرور الخلوة وقال: إن خلوة الرجل بالمرأة وسفرها في بلاد الشرق والغرب بغير محرم هو الذي أخرجها عن طور أنوثتها ووظيفتها، وأثارها على طبيعتها وشريعتها.[1]

---

(١) تفسير المنار، مقدمة تفسير سورة يوسف بتصرف يسير واختصار ص ٤ - ص ٧



٣١ ـ في تلمس حكمة عدم كشف يوسف نفسه لإخوته من أول مـرة، أفاد ابن القيم هذه الفائدة:

«لـو عرفهم بنفسـه في أول مرة لم يقـع الاجتماع بهم وبـأبيهم ذلـك المـوقـع العـظيم، ولم يحل ذلـك المحل، وهـذه عادة الله سبحـانه في الغـايـات العـظيمـة الحميدة، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسباباً من المحن والبلايـا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال الـبرزخ والبعث والنشـور والموقف والحسـاب والصراط ومقـاسـاة تلك الأهــوال والشدائد، وكما أدخل رسول الله ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفـار ذلك المخـرج ونصره ذلك النصر العـزيز بعـد أن قاسى مـع أعداء الله مـا قاساه، وكـذلك مـا فعل بـرسله كنوح وإبـراهيم وموسى وهـود وصالـح وشعيب عليهم السلام، فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميـدة بالأسبـاب التي تكرههـا النفوس وتشق عليها. كما قال تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئـاً وهو خـير لكم، وعسى أن تحبوا شيئـاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وربمـا كـان مكـروه النفـوس إلى محبـوبهـا سبب مـا مثله سبب. وبـالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهـة الشاقـة، كما أن الغـايات المكـروهة المؤلمة في خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانـه الجنة وحفها بالمكاره، والنار وحفها بالشهوات.»[1]

٣٢ ـ اختلاط الجنسين ومضاره:

«في قصـة يوسف صـورة لغوايـة المـرأة للرجـل ودأبهـا المتـواصـل المستمـر للحصول على مبتغاها.

---

(١) إبن القيم في الإغاثة الكبرى.

وارجع إلى تفسير المنار لسورة يوسف ص ٧ـ ص ٨ من المقدمة

فالمرأة ذلك المخلوق الضعيف ولكنها بفتنتها وإغرائها للرجل تصبح ذلك القوي الذي لا يقهر.

ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى مراودة امرأة العزيز ليوسف؟ لقد كان اختلاطها معه ووجوده المستمر في القصر بجانبها من الدواعي التي أدت إلى إضرام شعلة الحب في قلبها ولهذا نراها تصبو إليه وتتعرض له بالإغراء، وتطلب منه ما هو محظور عليه وعليها فيأبى ذلك عزة وشرفاً وخيفة من الله.

فانفراد الرجل بالمرأة بعيداً عن رقابة الأهل والمجتمع يؤدي إلى أضرار لا تحمد عقباها، ويؤثر التأثير السيء على مستقبل الرجل والمرأة، ولهذا حذر الإسلام من انفرادهما بدون وجود قريب للمرأة كالأب والعم والخال.[1]

٣٣ ـ درس في الإيمان من يعقوب:

الإيمان بالله له أكبر الأثر في النفس الإنسانية، فهو يمدها بالعزاء عند حلول المصائب ويهبها الطمأنينة لتصمد بها أمام ما يصادفها من كوارث وأهوال.

وهذا ما يتمثل لنا في تصرفات يعقوب في سلسلة من تاريخ حياته وفي توجيهه لأولاده. ثم يذكر الكاتب صبر يعقوب حين تلقى نبأ فقدان يوسف، وإيمانه العميق بلطف العناية الإلهية مستسلماً لها بثقة ويقين.

ثم يتحدث عن تلقيه الصدمة القاسية الثانية وهي استرقاق ولده، «فهذه المصيبة ذكرته بيوسف ففاضت أحزانه، فعندما لامه أهله على استرساله في الحزن نراه يقول لهم: «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله» هذه الجملة تتركز فيها أعمق معاني الإيمان والصمود أمام المصائب التي تذهب عادة بصواب الإنسان أو تؤدي به إلى الانهيار. فيعقوب يقول لهم: إنما أشكو بثي: أي همي العظيم، إلى الله وهو الرحيم القادر على كشف غمي، ولا أشكو إلى العباد الذين لا حول لهم ولا قوة أمام تصاريف القدر.

(١) مع الأنبياء ص ١٩٠ ـ ص ١٩١



وأخيـراً نرى يعقـوب بصورة المؤمن المتفـائل بـالأمل عنـدمـا يـوصي أولاده بالبحث عن يوسف وأخيه فيقول لهم: «يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيـه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.»

يحـدد يعقوب بهذه الآية نفسية المؤمن بأنه لا ييأس من رحمـة الله، فاليـأس كفر بنعمة الحياة وخالقهـا، لأنه يشل حياة الإنسـان وإرادته، ويجعله عـاجزاً عن السير في ركابها، بينما الإيمان عدو اليأس اللدود. إذ هو الأمـل والرجـاء برحمـة الله مهـما ادلهمت الخطوب واكفهـر الـزمـان، فـإن مـع العسر يسـراً وإن وراء الضيق فرجاً.[1]

٣٤ ـ درس في العفة:

وإن في قصة يوسف وصموده أمام الاغراء درساً في العفة وفي مغالبة الشهوة والانتصار عليها مما يعتبر أعـظم مثل يمكن أن يقتـدي به الكثـيرون الذين يبتغـون السمو الإنساني.

فشهـوة الجنس هي تلك القوة العـارمة التي خضـع وركـع أمـامهـا عـظماء التاريخ من ملوك وقواد الجيوش، ولكن الانتصار عليها هو مفتاح العظمة الحقيقية ولا سيما إذا لابستها تلك الظروف والإغراءات والتهديدات التي حصلت ليـوسف عليه السلام.

ثم يتعرض الكاتب لمراودة امرأة العزيز له، وأنه وقف الموقف الذي يعاكس كل دواعي الاستجابة، فهو شاب وفي دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى ـ إن لم يطاوعها ـ اذاها فاجتمع لديه داعيا الـرغبة والـرهبة، وهـو أيضاً لا يخشى أن تنم عليه فإنها هي الطالبة الـراغبة وقـد غلقت الأبواب وأبعـدت الرقبـاء. وزيادة على ذلك فإنه كان مملوكاً لها يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه أحد ذلك، وهذا مما يزيد الأنس والمودة وهو من أقوى الدواعي لمـطاوعتها في رغبتهـا، ولكنه،

---

(١) مـع الأنبياء في القـرآن/ عفيف عبد الفتـاح طبـارة/ دار العلم للمـلايـين/ ص ١٧٨ ـ ص ١٨٩ واليهود في القرآن ص ١٨٤



وعلى الرغم من هذه الأمور جميعها أعرض عنها واستعصم وعاذ بربه عز وجل: «قال معاذ الله . . » إن الوفاء ومراقبة الله عز وجل جعلا نفسية يوسف تترفع عن هذا الإثم مع امرأة سيده.

وموقف آخر يرفع من منزلة يوسف وهو عندما تآمرت سيدته عليه مع صاحباتها لاستمالته، ثم تهديده بالسجن في حال رفضه، أعرض عنهن بترفع وأنفة، وفضل حياة السجن المحفوفة بالمذلة والهوان والعذاب على العيش في كنف الترف والانغماس في الشهوات، قائلاً مناجياً ربه: «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه . »[1]

٣٥ ـ البرهان على وحدانية الله تعالى:

«القصص في القرآن وسيلة لغرس فكرة التوحيد في النفوس ونزع ما ينافيها من معتقدات أخرى. ولا يكتفي القرآن بنقد هذه المعتقدات، بل يعطي الحجة والبرهان على دعواه بدلائل عقلية منطقية لا يجد العقل مناصاً دون التسليم بها.

والأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله لهداية الخلق يقص علينا القرآن على لسانهم ما وعظوا به قومهم من الدعوة إلى وحدانية الله، وترك الاشراك به وعرض الدلائل النيرة التي تشهد بوجوده.

وما جاء على لسان يوسف في وعظ السجينين نموذج لهذا، فهو يقول بأنه لم يبتدع ديناً وإنما سار على ملة آبائه وأجداده الذين هداهم الله إلى العقيدة الصحيحة. ثم يقول: هل الشرك بما فيه من متناقضات وأرباب متعددة خير، أم التوحيد وعبادة الواحد الأحد؟ فتعدد الآلهة يشوش عقل الإنسان ويرميه في متاهات الخرافات والشعائر الوهمية، كما يفرق شمل الجماعة الإنسانية من جراء تأليه كل طائفة آلهة تختلف عن آلهة الطائفة الأخرى، بينما وحدانية الله تحرر الإنسان من ربقة الخرافات وتوحد بين ميول الجماعات، وتسمو بها إلى غاية واحدة، وهي الإخلاص لله وحده وما يستدعي ذلك من العمل الصالح.

---

(١) مع الأنبياء ص ١٩١ بتصرف يسير، واليهود في القرآن لنفس المؤلف ص ١٨٥



ثم يستغرب يوسف من تأليه قوم السجينين لأشياء ابتدعوها لا تقوم على حجة ولا تستند إلى برهان.

فالإله المعبود بحق هو الله وحده، وافراده وحده بالعبادة هو السبيل القويم الذي يجب أن يسلكه كافة البشر، ولكن أكثر الناس لايعلمون هذه الحقيقة بسبب جهلهم وضلالهم من قبل القيمين على أفكارهم.[1]

٣٦ ـ عاقبة الصبر:

وإن في قصة يوسف درساً لنا في التحلي بالصبر، وكيف يجب أن يكون زاد الإنسان في رحلة العمر لما فيه من العاقبة الحسنة.

فالإنسان يخلق وتخلق معه متاعبه من مصائب وآلام وفقر ومرض وفقد، كل هذه الأمور ونحوها تحتاج إلى الصبر للتغلب عليها، وبالتالي الوصول إلى النجاح والسعادة.

وإن حياة يوسف سلسلة من المتاعب التي انتهت بالفوز والمكانة المرموقة والحياة الطيبة.

تبتدىء حياته بانسلاخه عن أهله وإلقائه في البئر، ثم العيش بعيداً عن أهله وما في ذلك من ألم مكبوت على فراق أهله وكيد إخوته، ثم تأتي مرحلة قاسية عليه وهي زجه في السجن ظلماً وعدواناً جزاء أمانته.

هذه الأمور يمكن أن تلقي في النفوس اليأس والكفر بقيمة الحق والعدالة وتحثه على الارتماء في أحضان شرور الرذيلة، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بل ظل يوسف صامداً على مبادئه صابراً على بلوائه، مترقباً رحمة ربه منتظراً انفراج الأزمة التي وقع فيها ظلماً وعدواناً مؤمناً بالله وعدله، داعياً إلى عبادته وحده وهو في ظلمات السجن، فلم تزحزحه هذه المصائب عن إيمانه وثقته بالله، فمن الله عليه بأرفع المناصب الدنيوية، ونال الجاه والسلطان وطيبات الحياة، وقد بين يوسف

---

(١) مع الأنبياء في القرآن لطبارة، بشيء من التصرف ص ١٩٠



عـاقبة الصـبر الذي تحـلى به بقـوله: «إنه من يتق ويصـبر فـإن الله لا يضيـع أجـر المحسنين.»[1]

٣٧ ـ إن قصـة يوسف تعـطي مثلاً لـرعـايـة الله للمؤمن بـه، وحمـايتـه من الأذى واضرار الآخرين.

٣٨ ـ والسورة تصور مدى نفاذ إرادة الله الخيرة ضد إرادة الإنسان في تدبـير السوء ومكائد الهلاك، عندما يريد كل منهما أمراً مناقضاً للآخر.[2]

٣٩ ـ ومن دروس الآيات التعقيبية ما أجمله الدكتور البهي في قوله:

«وغاية السورة أن تذكر أن الله أراد أمراً، وأن الإنسان أراد أمراً آخر، ولكن الكـون كله وجد بـإرادة الله وحده، ويـدور في إطار هـذه الإرادة الإلهية وحـدهـا كـذلك. ولـذا يجب أن يعلم الرسـول محمد ﷺ كـما تخـبر هـذه السـورة في نهايـة القصة، أن من إرادة الله:

أولاً: أن الكثرة من الناس لا تؤمن برسالة الرسول مهما حرص على إيمـانهم جميعاً: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.» ١٠٣

ثانياً: أن الرسول، وكذلك كل داع بعده إلى سبيل الله، لا يسأل أجراً على دعوته.. ولا يسعى إلى زعامة في قومه بسبب هذه الدعوة: «وما تسـألهم عليه من أجر، إن هو إلا ذكر للعالمين.» ١٠٤

وثالثاً: أن من يكفر بالـرسالـة يكفر بهـا عن إعراض عن الـدليل المـادي، وليس عن نقص في الآيات الكونية: «وكأين من آية في السموات والأرض يمـرون عليها وهم عنها معرضون.» ١٠٥

رابعاً: أن أكثر الـذين يؤمنون بـالله من هؤلاء المعرضـين إن هم آمنوا بـالله يشركون معه في الإيمان به: أنداداً له، أي لا يكون إيمانهم بـه خالصـاً له وحـده: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.» ١٠٦

---

(١) مع الأنبياء ص ١٩٢ واليهود في القرآن ص ١٨٦

(٢) تفسير سورة يوسف للدكتور محمد البهي ص٣ ـ ص٤ القاهرة: مكتبة وهبة.



خامساً: أن مع كفر هؤلاء بالله، وإعراضهم عن الدليل الكوني على وحدته في الألـوهية ليس لـديهم من الضمان المادي والبشري مـا يحـول دون أن يحـل بهم عقاب الله في دنياهم، أو في آخرتهم:

«أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله، أو تـأتيهم الساعـة بغتة، وهم لا يشعرون.» ١٠٧

سـادساً: أن السمات والظواهـر التي أبرزت هنـا هي منارات عـلى طـريق الدعوة إلى الله:

«قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، ومـا أنا من المشركين.» ١٠٨

سابعاً: إن نصر الله لأي رسول سبق لم يأت إلا بعـد أن بلغ اليأس مبلغـه من نجـاح الدعـوة، وإلا بعد أن اشتـد وضع الـرسـالـة في الحـرج من معـارضـة الكافرين لها، وكذلك كل أمر في الحياة لا يعتـبر إلا إذا وصل إلى أدنى درجـة له في الوجود:

«وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى، أفلم يسيـروا في الأرض فينـظروا كيف كان عـاقبة الـذين من قبلهم. ولدار الآخـرة خير للذين اتقـوا، أفلا تعقلون ـ حتى إذا استيـأس الرسـل وظنوا أنهم قـد كذبـوا، جـاءهم نصرنا، فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين.» ١٠٩ ـ ١١٠.

ثامناً: أن قصـة إخوة يـوسف معه تعـبر عن واقع تـاريخي، وتبصر كل ذي عقل بمدى الإرادة الإلهية، ما تهديه إلى الإيمان برسالة الله لـلإنسان. وبذلك تحميه من العقاب الدنيوي والأخروي على السواء.[1]»

٤٠ ـ ومن الفوائد والدروس التي أفادها صاحب مؤتمر تفسير سورة يوسف ما قاله: «إن جمال قصة يوسف، سائق لـما به السعـادة، وهو حفظ الأخـلاق، ودوام الثقة بالله تعـالى، وانتظار الفـرج منه، فـإذا قرأ القـارىء، أن يوسف كـان عفيفاً تشوق القارىء الذكي التقي أن يكون كيـوسف، عفة وأمـانة، وكـذلك يقلده في

---

(١) تفسير سورة يوسف للبهي ص٦ ـ ص ٨



العفو عمن ظلمه، ويقول في نفسه إن هذه الأخلاق اليوسفية، كانت عاقبتها النبوة والملك، فهكذا من قلده في أخلاقه، تكون عاقبته الرفعة.

وليس المقصود من قصة يوسف، أن نلوم أخوة يوسف على حسدهم له، ولكن المقصود أن نلوم أنفسنا عندما يحصل منا حسد لإخوتنا، وليس الغرض ان نتكدر منهم حينما احتالوا على أبيهم وغدروا بأخيهم، ولكن الغرض أن نتكدر من أنفسنا عندما نجري الحيل على بعضنا، ويغدر بعضنا ببعض، وليس المطلوب أن نعترض على إخوة يوسف وقتما نراهم قد قطعوا الرحم، وقذفوا بأخيهم في غيابة الجب، وإنما المطلوب أن نعترض على أنفسنا وقتما تحصل منا أعمال شاذة وحشية كهذه مع ذوي رحمنا وأقاربنا.

كما أنه ليس المقصود بالأخبار أن نفرح بلقيا يعقوب لولده ولم شمله به، واجتماع الأسرة في صعيد واحد، وإنما المراد أن نفرح بلم شملنا نحن المسلمين، وجمع كلمتنا واتحادنا واجتماعنا جميعاً، تحت راية واحدة، وإمام واحد.»[1]

٤١ ـ درس في التربية النفسية.

«إن القرآن الكريم كتاب هداية وتربية للإنسان ويجعل من مواطن القوة والضعف في التكوين النفسي سبيلاً لتوجيه النفوس وإرشادها لحياة فضلى في مستويات الحق والسمو. وفي الوصف القرآني لمواقف الانحدار المتدني لدى امرأة العزيز، فإنه يؤكد الجوانب النفسية التربوية التالية:

١ ـ يصف القرآن مواطن الضعف النفسي في مواقف الانحدار والهبوط وصفاً غير مشجع فيسمي الأمور بأسمائها الدقيقة غير المنحطة وغير البذيئة.

٢ ـ يمر القرآن بمواطن الضعف في النفس الإنسانية مروراً عابراً سريعاً ويلمسها لمساً خفيفاً دون إمعان في توقف. فالموقف الذي ربما استمر من امرأة العزيز ـ موقف المراودة ـ فترات أو سنوات عرضه القرآن بعشر كلمات لا تكمل

---

(١) المؤتمر حـ٢ ص ١٣٩١



سطراً واحداً. فهو يشير إليها على عجل لأنه أمر تشمئز منه النفوس الأبية الشريفة ويكفيها من ذلك الإشارة العابرة.

٣ ـ تأكيد القرآن المستمر أن الحق يظهر أخيراً، والفضيلة تنتصر ختاماً، فالباطل لا يجدي والانحراف لا يثمر.(١)

٤٢ ـ ومن دروس قصة يوسف ما ورد في تفسير القاسمي قال:
«جاء في كتاب النظام والإسلام في بحث التربية والآداب في قصص القرآن: طال الأمر على أمتنا، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة، وكيف تنتقي الرجال الأكفاء في مهام الأعمال. يا ليت شعري! ما الذي أصابها حتى غضّت النظر عن القصص التي قصها، وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين. القصص في كل أمة عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقية، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد. على هذا تبحث الأمم، قديمها وحديثها.

جاء القرآن بقصص الأنبياء، وهي ولا جرم أعلى منالاً وأشرف مزية، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسهم، لوقوع مواردها، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان، لا سيما لمن يقتدى بهم. فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص، ونقصت في سواها.

أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان، ومرت كأمس الدابر، وإنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة تذكر لمن تذكر، وتبصرة لمن ازدجر.

وبالاجمال: فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها، والعبر المبصرة للسامعين. «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب.»

(١) لمحات نفسية في القرآن الكريم للدكتور الهاشمي ص ١٩٧ ـ ص ١٩٩

تأمل هذا القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع، إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق، وحجج عقلية، وتبصرة وتذكرة ومحاورات تلذ العقلاء.

ولاقتصر من تلك القصص على قصة يوسف، وما حكاه عن يوسف الصديق عليه السلام، وكيف جاوز فيها كل ما ليس له علاقة بالأخلاق، إلى الخلاصة والثمرة.»(1)

٤٣ ـ فائدة في مؤهلات القيادة:

«قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة، ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهاً للمتعلمين ليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغني به ومجرد اللهو واللعب.

وأهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ ـ العفة عن الشهوات: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء»

٢ ـ الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه «فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم»

٣ ـ وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين، فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون.»

٤ ـ ثقته بنفسه: «اجعلني على خزائن الأرض»

---

(1) باختصار عن محاسن التأويل حـ٩ ص ٣٦٢٠ ـ ص ٣٦٢٣

٥ ـ قوة الذاكرة «فعرفهم وهم له منكرون»
٦ ـ جودة المصورة وقوة المخيلة «إني رأيت. . »
٧ ـ استعداده للعلم «آتيناه حكماً وعلماً . »
٨ ـ شفقته على الضعفاء «يا صاحبي السجـــن. . »
٩ ـ العفو مع القدرة «لا تثريب عليكم».
١٠ ـ إكرام العشيرة «وائتوني بأهلكم أجمعين».
١١ ـ قوة البيان والفصاحة «فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. »
١٢ ـ حسن التدبير «فما حصدتم فذروه في سنبله. . »
تالله ما أجمل القرآن وما أبهج العلم! »[1].

٤٤ ـ وهذه فائدة في ميدان الدعوة إلى الله أفادها صاحب كتاب «الحوار في القرآن» حيث قال تعليقاً على الحوار الذي دار بين يوسف والسجينين: «إننا نلاحظ في هذا الحوار قضية حيوية في مجال الدعوة إلى الله. وهي أن على الداعية إلى الله أن لا يجعل من السجن ـ في حال تعرضه لدخول السجن مجالاً للاستسلام إلى الأفكار الذاتية التي يختزن في إطارها آلامه وأشواقه إلى آفاق الحرية. . فينشغل بها عن قضيته، ويبتعد عن دعوته. . بل يعمل على تحويل السجن إلى مجال حي من مجالات الدعوة إلى الله لأنه يمثل الأرضية الصالحة للبذور الطيبة للفكرة. . من حيث طبيعة السجن التي تقترب بالإنسان، من حالات الصفاء الروحي، وتنطلق به بعيداً عن كل ما يحجبه عن الاتصال بالله والإحساس بوجوده وعظمته، من أجواء مادية أو اجتماعية. هذا من جهة. .

ومن جهة ثانية. . إن أجواء السجن تجعل السجين مستعداً للحوار، وللاستماع إلى كثير مما يلقى عليه، لأنه في حاجة إلى الهروب من واقعه، وإلى قضاء الوقت الطويل الذي يحس فيه بالحاجة إلى الأشياء الجديدة التي تشغله وتستوعب فراغه.

---

(١) تفسير الجواهر حـ٧ ص ٧٦ ـ ص ٧٧
والقاسمي حـ٩ ص ٣٦٢٥ ـ ص ٣٦٢٨



وهذا هو ما لاحظناه في قصة يوسف، فقد استمع إلى رفيقيه في السجن وهما يعرضان عليه رؤاهما ويطلبان تأويلها. . فلم يمتنع من ذلك، بل اعتبرها فرصة جيدة للدعوة، فحاول أولاً أن يزيدهما ثقة بقدرته على ذلك، فبدأ بالحديث عن نفسه، وعن عقيدته، انطلاقاً من قناعاته المرتكزة على الحجة والبرهان، وهاجم من خلال ذلك الأفكار المضادة المستندة إلى عبادة غير الله، أو الاشراك بالله، مما لا يخضع لأي منطق، ولا يرتكز على أي دليل، ولم ينس ضرورة المحاولة الجادة لخروجه من السجن.

إنها قصة الرسالة عندما تشغل تفكير صاحبها وضميره. . فتدعو إلى الاستفادة من أية فرصة تعرض له، ليستغلها في أداء رسالته. .[١]

٤٥ ـ لا بد للداعية من الأخذ بأسباب العلم.

«إن على الداعية إلى الله أن يأخذ بأسباب العلم والمعرفة التي تدفع به إلى الصفوف الأمامية في حياة المجتمعات، لحاجتها إلى علمه ومعرفته مما يجعله أكثر قدرة على التأثير في الأمة، مما إذا كان بعيداً عن مواقع القوة الاجتماعية.[٢]

٤٦ ـ المسؤولية تفرض الدفاع عن التهم:

تحت هذا العنوان قال الشيخ فضل الله في كتابه الحوار في القرآن:

«يجب على الإنسان الذي يريد أن يحمل المسؤولية، أن يعمل على إيجاد الأجواء التي تدفع الناس إلى الثقة به، لأن القضية ليست قضيته الخاصة بل هي قضية المهمة التي يتولاها، والأمة التي يقودها، فليس له أن يتغاضى عن أية تهمة توجه إليه مما يستطيع فضحه وتكذيبه، لأن لذلك أثراً على رسالته وتأثيرها في حياة المجتمع.

وبهذا استطاع يوسف من موقع القوة التي حصل عليها، على أساس حاجتهم إليه، أن يقود أصحاب التهم كلهم إلى الاعتراف بكذبهم على رؤوس الأشهاد. فكان له أن يتسلم زمام إدارة البلد بكل قوة وثقة واطمئنان وهذا هو ما

---

(١) فضل الله: الحوار في القرآن ص ٣١٧ ـ ص ٣١٨

(٢) الحوار في القرآن ص ٣٢١



نستطيع الاستفادة منه في موقف أصحاب الرسالة ودعاتها من التهم التي تلصق بهم، فقد يكون من الواجب أن نعمل على مناقشة ما يمكن مناقشته، وتوضيح ما يمكن توضيحه في نطاق الظروف الممكنة لذلك، وترك الباقي للظروف الأخرى في المستقبل، لأن لذلك صلة بمستقبل العمل وسلامته، وليس للعاملين أن يقولوا إننا لا نحتاج إلى ذلك ما دمنا نعتقد ببراءتنا من كل هذه التهم، إن براءتك من التهم لا تبرر سكوتك عنها ما دمت تستطيع الدفاع، فإن ذلك ليس حقك الشخصي، بل هو حق الناس والرسالة عليك، لأن من حقهم أن تضعهم في الموقع الصحيح الذي يجعلهم يستطيعون مناقشة كل ذلك، ليحصلوا على قناعاتهم بكل قوة ووضوح فتتحول تلك القناعات إلى قوة تدعم العمل وأصحابه.»[1]

٤٧ ـ وتعليقاً على قوله تعالى: ﴿**ورفع أبويه على العرش.**﴾ وقوله: ﴿**رب قد آتيتني من الملك..**﴾

قال الشيخ فضل الله مفيداً بعض الدروس في التواضع عندما تفتح للدعاة أبواب الدنيا:

«إنها العبرة للدعاة إلى الله.. عندما تتصاعد بهم الحياة من المواقع الصغيرة إلى المواقع الكبيرة بعد طول بلاء وجهاد، فتفتح لهم الحياة ذراعيها، وترفعهم بجناحيها إلى القمة.. فلا يشعرون إلا والقمة تحت أقدامهم.. فقد يسقط البعض منهم صريع غروره، عندما تصغر نفسه فجأة أمام القمة.. فيتعالى ويتعاظم وينسى ربه فينسى نفسه، ويبدأ في تحويل كل الانتصارات إلى انتصار ذاتي لجهوده الشخصية.

وقد يقف البعض الآخر منهم وهم القليل ليشعر بأن مسيرة الرسالات أكبر من قمم الحياة.. وأن الانتصارات الطاف الله التي يسبغها على العاملين في سبيله.

فليس من مكان للغرور أو التعالي بل هو التواضع المنطلق من إيمان الإنسان بربه.

(١) الحوار في القرآن ص ٣٢٠



إن هذه القصة تعتبر درساً عملياً للدعاة إلى الله، ليكونوا امتداداً للحركة النبويةالتي تخشع أمام الانتصارات.»(١)

٤٨ ـ سورة يوسف سورة تربية للدعاة إلى الله، تربية على معانٍ عديدة، منها: الإيجابيّة على كل حال، والصبر حتى في أحلك الظروف، والاستمداد من الله عز وجل، وعدم اليأس من روح الله، والثقة بالقيم الإيمانية وأن عاقبتها ـ مهما كانت البدايات صعبة ـ عاقبة طيبة حميدة.

ومن المعاني البارزة التي تحث عليها: أداء واجب الدعوة في كل ظرف وحين، وفي أي موقع في الحياة كان المسلم.

فيوسف يزاول الدعوة في كل مكان حل فيه، يزاولها خادماً، ويزاولها سجيناً، ويزاولها حاكماً.

ومن هنا جاء في خواتيم السورة التصريح بعبرة القصة والسورة الكريمة في آيات لخصت هذه العبر، ومنها ما صرح بفائدة وعبرة تتعلق بالدعوة، وتلك هي الآية الكريمة:

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾.

ومن دروس الدعوة في سورة يوسف ما أفاده الدكتور البهي في قوله: «على الرسول ـ أو على الداعي بعده ـ ألا يستغرق في أمل الاستجابة من الناس لدعوته. كما عليه أن يترقب الأزمات المتكررة والتي قد تضيق فرص النجاح أمامه، أو تبددها في نفسه كلية، في لحظة من اللحظات وهي اللحظة التي يأتي فيها نصر الله له.

فليس هنا مبرر للمبالغة في أمل الاستجابة طالما الكثير من الناس تولي

---

(١) الحوار في القرآن ص ٣٢٥ بتصرف يسير، ط١ بيروت: الدار الإسلامية: ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩

ظهرها لما هو صالح في الحياة، وليس عن اقتناع، ولكن عن اعـراض ووقوع تحت الإغراء. وليس هنا أيضاً مبرر للضيق بالأزمات، طـالما الأزمـات في شدتهـا تحمل بداية انفراجها والخلاص منها.»[1]

(١) تفسير سورة يوسف للدكتور محمد البهي ص ٨

المراجع

١ الالمعي، د. زاهر بن عوّاض: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الرياض: مطابع الفرزدق، ط١ سنة ١٤٠٥هـ.

٢ ابن الانباري، ابو البركات: البيان في غريب اعراب القرآن، تحقيق: د. طه عبد الحميد طه، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٣ الباليساني، محمد طه: القول المنصف في تفسير سورة يوسف، بغداد: ط١ مطبعة وزارة الاوقاف سنة ١٩٨٢.

٤ البخاري، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح، القاهرة، المطبعة الكبرى الاميرية ١٣١٥هـ.

٥ بدران، د. محمد بن فتح الله: الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن، القاهرة، ط١: مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٨.

٦ بري، عبد اللطيف: الانماء الروحي والاصلاح الاجتماعي، بيروت: ط١ دار المعارف ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٧ البقري، احمد ماهر: يوسف القرآن، القاهرة.، الاسكندرية مؤسسته الثقافة الجامعية.

٨ البهي، د. محمد: تفسير سورة يوسف. القاهرة: مكتبة وهبة.

٩ بيومي، د. محمد رجب: البيان القرآني، القاهرة.

١٠ ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: وزارة الثقافة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

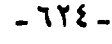
١١ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن: تاريخ الجبرتي. القاهرة: دار الشعب سنة ١٩٥٩م.



١٢ جمال، احمد محمد: على مائدة القرآن، بيروت، ط ٢ دار الفكر سنة ١٩٧٤.
١٣ الجمل، سليمان بن عمر: حاشية الجمل على الجلالين: الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، القاهرة: عيسى البابي الحلبي.
١٤ باجودة، د. حسن محمد: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، القاهرة ط ١: سنة ٧٥ عفيفي، ط ٢ جدة: دار تهامة للنشر ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م.
١٥ جوهري، طنطاوي: الجواهر في تفسير القرآن، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي ط٢ سنة ١٣٥٠هـ.
١٦ ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي: فتح الباري شرح صحيح البخاري. القاهرة: المكتبة السلفية.
١٧ ابن حزم، الفصل في الملل والاهواء والنحل. بيروت: دار المعرفة ط٢ سنة ١٩٧٥ وطبعة سنة ١٩٨٣.
١٨ ابو حمدة، محمد علي: في التذوق الجمالي لسورة يوسف، عمان، دار الشير ١٩٨٥م.
١٩ ابو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف: البحر المحيط، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ط١ سنة ١٣٢٨هـ.
٢٠ الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم: تفسير الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل القاهرة ط٢: مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٥م.
٢١ الخطيب، عبدالكريم: اعجاز القرآن، القاهرة: دار الفكر العربي، ط١ سنة ١٩٦٤.
٢٢ الخطيب، عبدالكريم: قصتا آدم ويوسف. القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٧٤.
٢٣ الخطيب، عبدالكريم: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ط١



القاهرة: دار الفكر العربي وط٢ مصورة عنها بيروت.
٢٤ خلق الله، د. محمد أحمد: الفن القصصي في القرآن، القاهرة ط٣، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥م.
٢٥ الخولي، البهي: تذكرة الدعاة، الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، بيروت: ط٢: دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ. - ١٩٨٣م.
٢٦ درة، ر. عبدالباري: العامل البشري والانتاجية في المؤسسات العامة، عمان: دار الفرقان ط١ سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢
٢٧ الراغب الاصفهاني: الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن. تحقيق: سيد كيلاني، القاهرة: مصطفى الحلبي.
٢٨ الرازي، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ط٢، المطبعة الاميرية بولاق ١٣٥٥هـ ١٩٣٧م.
٢٩ الرازي، فخر الدين ضياء الدين بن عمر: التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، المطبعة البهية المصرية ط١ ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م.
٣٠ الرافعي، مصطفى صادق: وحي القلم، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى.
٣١ رزق، محمد طلبة: يوسف الصديق، القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ رقم ٢٧٨ سنة ١٩٦٢.
٣٢ رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، أو تفسير القرآن الحكيم، دار المنار: القاهرة: ط١ سنة ١٣٥٥/ ١٩٣٦.
٣٣ الزمخشري، محمود بن عمر: أساس البلاغة، القاهرة: دار الشعب رقم ١٠٣ سنة ١٩٦٠.
٣٤ الزمخشري، ابو القاسم جارالله محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي ط سنة ١٣٩٢/١٩٧٢.
٣٥ ابو السعود، محمد بن محمد العمادي: ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، بيروت، دار احياء التراث العربي.





٣٦ سعيد، جودت: الانسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً، دمشق: ط٣ سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م مطبعة زيد بن ثابت.

٣٧ سعيد، جودت: العمل قدرة وارادة، ابحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، دمشق: دار الثقافة للجميع ط١ سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٣٨ السيوطي، عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين: الاتقان في علوم القرآن، بيروت: دار المعرفة.

٣٩ السيوطي، عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت: دار المعرفة.

٤٠ شلبي، محمود: حياة يوسف، القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة.

٤١ الشنقيطي، محمد الامين بن محمد المختار: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، القاهرة: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر.

٤٢ الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، الدوحة، قطر ط٢ ١٤٠١ هـ ١٩٨١ طبع على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر.

٤٣ الصابوني، محمد علي: النبوة والأنبياء: بيروت دار الارشاد ١٩٧٠.

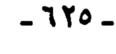
٤٤ ابن ابي طالب، أبو محمد مكي القيسي: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق: محيي الدين رمضان.

٤٥ طبارة، عفيف عبدالفتاح: مع الانبياء في القرآن الكريم، بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٨٠.

٤٦ طبارة، عفيف عبدالفتاح: اليهود في القرآن الكريم، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٢.

٤٧ الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط المعارف بتحقيق احمد ومحمود محمد شاكر الاجزاء الخمسة عشر الاولى. وط مصطفى البابي الحلبي الكاملة غير المحققة.

٤٨ الطوسي، محمد بن الحسن ـ التبيان في تفسير القرآن، النجف، المطبعة العلمية ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧.





٤٩ ابن عاشور، القاهرة: تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، ط١ سنة ١٣٩٦ /١٩٧٦.

٥٠ عبده، د. جمال: دور المنهج الاسلامي خ تنمية الموارد البشرية، عمان: دار الفرقان، ط١ سنة ١٩٨٤.

٥١ عبده، محمد: رسالة التوحيد، تحقيق محمود أبو رية، القاهرة: دار المعارف، ط ٤ سنة ١٩٧١.

٥٢ العلمي، عبدالله الغزي الدمشقي: مؤتمر تفسير سورة يوسف، دمشق: دار الفكر ١٩٦١.

٥٣ ابو عودة، د. عودة: التطور الدلالي، الزرقاء: دار المنار، ط١ سنة ١٤٠٥هـ. - ١٩٨٥.

٥٤ فضل الله، محمد حسين: الحور في القرآن، بيروت: الدار الاسلامية ط١ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٥ فودة، عبدالرحيم: قصة بني اسرائيل من معاني القرآن، القاهرة: الدار القومية ب ت.

٥٦ الفيروزابادي، مجدالدين: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، القاهرة: المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية.

٥٧ الفيومي، احمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، القاهرة ط٦ المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٦.

٥٨ القاسمي: محمد جمال الدين: محاسن التأويل، القاهرة: عيسى البابي الحلبي. ط١ ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

٥٩ القرطبي، ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٦٢.

٦٠ القشيري، ابو القاسم عبدالكريم: شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق ونشر احمد عبدالمنعم الحلواني: القاهرة: مطبعة الأمانة سنة ١٩٦٩م.

٦١ القشيري، ابو القاسم: لطائف الاشارات: تحقيق: ابراهيم بسيوني القاهرة. دار الكتاب العربي ١٩٧٠.

٦٢ قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، بيروت: دار الشروق ط ٤ سنة ١٩٧٨.

٦٣ قطب، سيد: في ظلال القرآن، بيروت ط٧ دار احياء التراث، وط ١٠ دار الشروق.

٦٤ ابن القيم، شمس الدين محمد بن ابي بكر، اغاثة اللهفان، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي واولاده ١٩٣٩.

٦٥ ابن قيم الجوزية، شمس الدين: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٨٣.

٦٦ ابن القيم، شمس الدين: بدائع الفوائد، ط مصورة عن ط منير الدمشقي، القاهرة، ادارة الطباعة المنبرية ب ت.

٦٧ ابن القيم، شمس الدين: التفسير القيم، جمعه المحقق محمد أويس النبوي، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، لجنة التراث العربي ١٩٤٨.

٦٨ ابن قيم الجوزيه، الفوائد المشرق الى علوم القرآن وعلوم البيان. القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٧هـ.

٦٩ ابن قيم الجوزية، شمس الدين: زاد المعاد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الارناؤوط، بيروت: ط٨ مؤسسة الرسالة ١٩٨٥.

٧٠ ابن قيم الجوزيه: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ.

٧١ كامل، د.عبدالعزيز: مواقف إسلامية، القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ ١٩٧٠.

٧٢ ابن كثير، اسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم، بيروت دار المعرفة ط١ ـ ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ومختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني بيروت، دار القرآن الكريم ط٤ ـ ١٤٠١هـ.

٧٣ كحيل، عبدالحميد داود: يوسف عليه السلام نظرات خ التفسير،

٧٤ كورتوا: لمحات في فن القيادة، ترجمة: الهيثم الأيوبي، بيروت:



المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢ سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٧٥ المبارك، محمد: دراسة أدبية لنصوص من القرآن ط٤ مكة المكرمة، دار الفكر ١٩٧٣ م.

٧٦ المبرد، محمد بن يزيد: الكامل، القاهرة: ط الحلبي. ١٩٥٦.

٧٧ الشريف المرتضى، علي بن الحسين: أمالي المرتضى، تحقيق ابو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار احياء الكتب العربية، عيسى الحلبي.

٧٨ مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط٢ بيروت دار الفكر ١٩٧٨ م.

٧٩ المصري، د. محمد أمين: سبيل الدعوة الاسلامية، الكويت: دار الارقم ط١ سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٨٠ النحاس، أحمد بن محمد: اعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٧.

٨١ النحلاوي، د. عبد الرحمن: اصول التربية الاسلامية وأساليبها، دمشق: دار الفكر ط١ سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٨٢ الندوي، ابو الحسن علي الحسني: النبوة والانبياء، بيروت: دار العلم ط ٤ سنة ١٩٧٤.

٨٣ نقرة، د. التهامي: سيكولوجية القصة في القرآن، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط١ سنة ١٩٧٤.

٨٤ الهاشمي، د. عابد عبد الحميد: لمحات نفسية في القرآن الكريم.

٨٥ يوسف، د. أحمد: مصر في القرآن السنة، القاهرة: دار المعارف سلسلة اقرأ رقم ٣٧٣ سنة ١٩٧٣.

الفهرس